جامعة محمد الخامس - السويسي
منشورات معهد الدراسات الإفريقية - الرباط
سلسلة : ندوات ومناظرات ②

المغرب وإفريقيا جنوبي الصّحراء
في بدايات العصر الحديث

UNIVERSITE MOHAMMED V
INSTITUT DES ETUDES AFRICAINES

جامعة محمد الخامس
معهد الدراسات الإفريقية



المغرب وافريقيا في بدايات العصر الحديث

LE MAROC ET L'AFRIQUE
AUX DEBUTS DES TEMPS MODERNES

ندوة دولية
مراكش 23-25 أكتوبر 1992

COLLOQUE INTERNATIONAL
MARRAKECH, 23-25 OCTOBRE 1992

المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء

في بدايات العصر الحديث

جامعة محمد الخامس ـ السويسي
منشورات معهد الدراسات الافريقية ـ الرباط
سلسلة : ندوات ومناظرات (2)

المغرب وإفريقيا جنوبي الصّحراء
في بدايات العصر الحديث

وَقائِع الندوَة الدوليّة التي نظّمَها مَعهَد الدراسَات الإفريقيَّة
مراكش 23 ـ 25 اكتوبر 1992

عنوان الكتاب :
المغرب وامبراطورية السنغاي في نهاية القرن السادس عشر

الناشر : معهد الدراسات الافريقية

سلسلة : ندوات ومناظرات رقم 2

التصفيف : مختبر الاعلاميات لمعهد الدراسات الافريقية (بإشراف : تيم عائشة)

السحب : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء

الطبعة الأولى : 1995

الإيداع القانوني : 521 / 1995

ردمك : 9981 ـ 37 ـ 007

الغلاف : نقود سعدية (مجموعة بنك المغرب)

ساهم في تنظيم الندوة وإعداد وقائعها للنشر

فاطمة حراق (التنسيق العلمي)
الحسين المجاهد

سعاد أنكاي
حفيظة بلمقدم
أديبة بنخضراء
سعيدة خالي
واعلي أوشقير
عبد الله العيسي

عائشة تيم
أمينة سلمان
عائشة نايت بنموس
فاطمة المجاهد
سعيدة بلمقدم

بمشاركة الأساتذة :

محمد أديوان
عبد الواحد أكمير
عبد الرحيم جماري
الجيلالي السايب

فهرس

تساؤلات حول موقف العثمانيين
من الغزو السعدي للسودان

عبدالرحمن المودن
كلية الآداب ـ الرباط

يهتم عدد متزايد من المؤرخين والمؤرخات بمسألة الذاكرة الجماعية كوسيلة للتقرب من الكيفية التي عاشت بها أطراف متعددة حدثا معينا، اشتركت في صنعه، والكيفية التي روته بها، وأعادت إنتاجه واستغلاله في أزمنة مختلفة ومن منطلقات ولأغراض متباينة. نفس الواقعة تعيشها مجموعة ما كمفخرة وبطولة تعاني منها مجموعة أخرى كمأساة ومذلة. تتحدث L. Valensi بصدد معركة وادي المخازن عن الذكريات المتنافرة (souvenirs discordants) لدى كل من السعديين المنتصرين والبرتغال المنهزمين.[1] تسعى مداخلتي إلى استلهام نفس المفهوم ومتفرعاته لفهم الكيفية التي عالجت بها كل من المصادر المغربية والعثمانية بعض الوقائع التاريخية ولاسيما غزو السودان. والواقع أنني أستعمل عبارة *الذاكرة الجماعية* بشيء من الاختزال؛ إذ إنني أعتمد فقط على نماذج من الجانب المكتوب منها، أي ما دُوِّن في شكل أرشيف أو نصوص وشهادات معاصرة، أو ما أنتج من بحوث حديثة ومؤلفات جامعية. فحينما أقول *الذاكرة المغربية* أو *الذاكرة العثمانية* أعلم أن جوانب أساسية منها تظل غائبة عني من حكايات وأمثال وروايات شفوية واستعمالات يومية الخ... ولكن هذا الاختزال يعود إلى ضرورة تقنية أكثر مما يعبر عن اختيار منهجي.

عند قراءة النصوص التركية ومقارنتها بالنصوص العربية تتبادر إلى الذهن فكرة الذواكر المتوازية أو المتجاهلة بعضها للبعض. مثل عدد من المهتمين بالتاريخ المغربي. كنت أبني تصوري لقضاياه الكبرى وأحداثه الجسام أساسا على ما حفظته ذاكرة النصوص المغربية، فإذا بي أفاجأ في النصوص العثمانية بتصور مغاير، ينسب الأحداث الجسام إلى درجة كبيرة ويدخل فيها مساهمين جدد أو يتجاهلها بالمرة. لنأخذ معركة وادي المخازن مثلا. فإن اسم المعركة نفسه يتغير فتسمى *معركة وادي*

---

1. Lucette Valensi, *Fables de la mémoire, la glorieuse bataile des trois rois*, Paris, le seuil, 1992, p.7.

السيل أو *وادي السبيل* دون أن نعلم كيف تولدت هذه التسمية. ثم أن المنخرطين الأساسيين في الصراع ضد البرتغال بدل أن يكونوا هم السعديين يصبحون هم جموع الجيش العثماني ولا يحتفظ السعديون، في هذا المنظور، سوى بدور القوات الإضافية. بمعنى آخر، ما كان يمثل معركة مغربية أصبح معركة عثمانية، أي محطة فقط من محطات الصراع العثماني الإيبيري الممتد على مدى القارات الثلاث : أوربا وآسيا وإفريقيا. لننصت إلى ما تقوله إحدى المؤلفات الحديثة. وهي كتاب "تاريخ الدولة العثمانية" ل : يلماز أوزتونا.

> "أباد رمضان باشا الجيش الصليبي بشكل حاسم خلال ساعات... كان السلطان عبدالملك مريضا... كان لا يعتقد أن الجيش العثماني الصغير سيتمكن من قهر العدو الذي جاء بجيش جرار... وعندما علم بحصول رمضان باشا على نتيجة حاسمة...مات في لحظتها من شدة الفرح".[2]

مثل هذا النص يحيلنا على فكرة الذاكرة المتوازية أو المتجاهلة بعضها للبعض الآخر. وتصل الذاكرات المتوازية أقصى مداها حينما يكون حدث ما قد حظي بعناية خاصة وأوصاف متعددة في مجال ذاكرة ما في حين لم تسجل الذاكرة الأخرى في شأنه سوى أخبار شحيحة. وتتمثل هذه الحالة في غزو السودان خاصة.

جل المصادر المغربية سجلت صفحات طويلة وأخبارا مفصلة من الفشتالي في "*مناهل الصفا*" وابن القاضي في "*المنتقى المقصور*" إلى الذين أخذوا عنهم كالإفراني والناصري.[3] وجل ما سجلته يتلون بلون الخوارق والمعجزات. يقول ابن القاضي مثلا : "ولا شك أن هذا الفتح معجزة وغرة في جبين الدهر هيأه الله له فهو من صنع الله له،

---

2. يلماز اوزتونا، *تاريخ الدولة العثمانية*، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988، ص. 388.

3. أبو فارس عبدالعزيز الفشتالي، *مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا*، تحقيق عبدالكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف، الرباط، [1972]، ص. 117ـ166.

ـ احمد بن القاضي، *المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور*، تحقيق محمد رزوق، مكتبة المعارف، الدار البيضاء، 1986، جزءان، ج 1 ص. 246، ج2 ص. 831 ـ 833.

ـ محمد الصغير بن الحاج الوفراني، *نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي*، طبعة هوداس، انجي، 1888، (الطبعة الثانية، مكتبة الطالب، الرباط، بدون تاريخ)، ص. 88-98.

ـ احمد بن خالد الناصري، *كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955ـ1956، تسعة أجزاء، ج 5، ص. 99،114،121ـ133.

الذي لم يتفق لأحد قبله".[4] ينضاف إلى هذا الرصيد الإخباري عدد مهم من المراسلات بين أحمد المنصور والسلط الأوربية، تتعلق بحملة السودان.[5] تأسيسا على هذه المادة المرجعية، خصص عدد من الباحثين المغاربة المحدثين جوانب من أبحاثهم، تطول أو تقصر، لهذا الحدث الذي تربع في وعينا التاريخي كإحدى المحطات الملحمية في التاريخ السعدي والمغربي بكيفية عامة. بل إن التوجه نحو مراجعة هذه النظرة الملحمية بقصد تلمّس العواقب الوخيمة على أوضاع السودان الداخلية يجد له سندا مصدريا في النص *"المجهول"* لتاريخ الدولة السعدية.[6] الذي يتميز على عادته عن معظم النصوص الأخرى بنظرته النقدية للسياسة السعدية. كيفما كان الأمر يبقى الحدث بارزا في الذاكرة المغربية.

لنعد إلى المؤلف التركي السابق الذكر ولنبحث عما يقوله بشأن غزو السودان. فنجده لا يتجاوز إشارة مفرطة في الاقتضاب في سياق تعرضه لتوغل النفوذ العثماني في أواسط إفريقيا جنوبي الصحراء. يقول :

"إن القسم الأكبر من الصحراء يشكل أقساما ما غير صغيرة من دولتي جادو (أي تشاد) والنيجر الحالية. تم ربطها بلواء فزان. تبعت دولة بورنو التي تقع على جنوبها الدولة العثمانية. أما الدول الزنجية المسلمة الموجودة في غرب إفريقيا بين الأطلسي ونهر النيجر فكانت تابعة لفاس (يعني المغرب) وبذلك كانت تتمتع بنظام عثماني".[7]

المؤلف لا يختزل الحدث التاريخي فحسب، بل إنه يسلبه أية خصوصية أو استقلالية حينما يسكت عن عملية الغزو، ثم يجعل هذه الجهات تابعة للعثمانيين لمجرد تبعيتها للسعديين.

هنا نصادف من جديد الذاكرتين المتوازيتين المتجاهلتين. فلا مقارنة بين يلماز أوزتونا والمؤرخين المغاربة كعبدالكريم كريم، ومحمد رزوق.[8] الذين يلحون على عملية

---

4. ابن القاضي، م.س.، ج2 ص. 833.

5. انظر نماذج منها في J..F.P. Hopkins, *Lettres from Barbary* 1576-1774, New York, 1982, pp. 4-6.

6. *تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمدارتية*، نشر جورج كولان، الرباط، 1934، ص.68، 71.

7. ي. اوزتونا، م.س.، ص. 391.

8. عبدالكريم كريم، *المغرب في عهد الدولة السعدية*، الرباط، 1977، ص. 145 وما بعدها. م. رزوق، مقدمة ابن القاضي، م.س. ص. 224.

الفتح كدليل على بناء امبراطورية مغربية موازية وربما منافسة للامبراطورية العثمانية. صحيح أن هناك مؤلفين أتراك آخرين انتبهوا إلى الحدث، في بعض تشعباته، ومنهم بالخصوص عزيز سامح إلتر الذي يعتبر كتابه *"الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا"* أو فيما كتبه الأتراك عن المغارب بالاعتماد على المصادر التركية.[9] يشير إلتر إلى دوافع الغزو الجبائية والسياسية ثم يتعرض لبعض جوانب حملة جؤذر وما أدت إليه من انهيار دولة صنغاي وما درته من ثروات على أحمد الذهبي. فنتصور لدى قراءة هذه المعطيات أن الذاكرتين المتوازيتين التقيتا لدى هذا المؤلف، إذ يرسم الصورة المتواترة من خلال المصادر المغربية عدا في بعض الجوانب الجزئية. ولكن ننتبه إلى الهامش، فنجد إلتر ينقل أوكست كور[10] ببعض التصرف، في حين عودنا أن يعتمد كلما استطاع على وثائق الأرشيف العثماني. فنكتشف إذن أن التقاء الذاكرتين المتوازيتين لم يكن سوى وهم وتطرح أمامنا جملة من الأسئلة : ما معنى غياب صدى غزو السودان لدى المصادر التركية؟ هل هذه ثغرة حقيقة في الأرشيف العثماني أم هي لحظة من لحظات البحث؟ وإن كانت ثغرة فعم تدل بالنسبة لموقف الدولة العثمانية من غزو السودان؟ وبعبارة أخرى، إلى أي مدى كانت للعثمانيين أطماع في أراضي إفريقيا ما وراء الصحراء؟ أو على النقيض من ذلك، هل كانت طموحات الدولة العثمانية لا تتجاوز المجال المتوسطي والمشرقي الآسيوي؟

من البديهي أن مثل هذه الأسئلة لا تحتمل أجوبة جاهزة أو مطلقة بل لا بد من توطين الجواب زمانيا وربطه بمستجدات التطور الداخلي لكل من الدولتين السعدية والعثمانية، وربطه من جهة ثانية بتطور علاقتهما الخاصة وعلاقتهما مع المحيط المتوسطي.

إننا نتوفر على جملة من المؤشرات تدل على أن الصراع الخفي الذي دار بين السعديين والدولة العثمانية في الربع الأخير من ق. 16، دار في جزء هام منه في الصحراء وما والاها.

من ناحية السعديين : خلال العشر سنوات التي سبقت غزو السودان، تعددت المراسلات بين مراكش وبورنو وكاغو. وتدل هذه المراسلات على أن الدوافع

---

9. عزيز سامح إلتر، *الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية*، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989.

10. ن.م. ص. 342. Auguste Cour, *L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la régence d'Alger 1509-1830*, Paris, 1904.

الاقتصادية والجبائية (الذهب، العبيد، الجباية على معادن ملح تغازي)، بالرغم من أهميتها القصوى حتى في خطاب المنصور نفسه، لم تكن وحدها ذات الأثر الفعال في الدفع بالسلطان السعدي في طريق غزو السودان. لم يغفل أحمد المنصور في تلك المراسلات أية مناسبة للتذكير بنسبه الشريف وكونه ينحدر من قريش وبالتالي كونه أحق الحكام المسلمين الموجودين بالخلافة والامامة الكبرى. يقول الفشتالي:

"ورد في صحيح الخبر أن الخلافة في قريش... ولا ناكر أن ليس في المعمور على هذا الشرط (له) أيده الله من ثان، فننهض بدليل الشرع أنه (المنصور) إمام الجماعة حقا المستوفي شروطها والوارث للخلافة النبوية...وأن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دعي ومحاوله دون إذنه المشروع بدعي...".[11]

ولم تكن المجادلة الفقهية التي دارت حول ملكية تغازى فقهية سوى في الواجهة إذ إن الآثار المترتبة عن الأجوبة التي يتم التوصل إليها كانت ذات أبعاد بليغة. فإذا كان سكية إسحاق يعتبر الملكية الفعلية قاعدة كافية للتصرف في مداخيل معدن الملح، فإن المنصور يجيب أنه للإمام الحق الأسمى في التصرف في مدخرات الأرض بقصد المصالح العامة ولاسيما مهمة الجهاد. نظرية الخلافة لدى المنصور كانت إذا قناة من قنوات نشر النفوذ السعدي جنوب الصحراء، ومنافسة للنفوذ العثماني بالأساس.

ظهر ذلك بجلاء في سنة 1582 حينما بعث ملك بورنو ماي إدريس يطلب المساعدة العسكرية، ولاسيما منها الأسلحة النارية، بقصد الجهاد ضد ما يليه من الإمارات الإفريقية غير المسلمة، فكان جواب المنصور بالاستعداد للمساعدة شريطة اعتراف ملك بورنو بتبعيته للخليفة السعدي.[12] والواقع أن ملك بورنو لم يتوجه إلى السعديين إلا بعد أن فشل في الحصول على ما طلبه من مساعدة عسكرية من الدولة العثمانية قبل ذلك ببضعة سنين[13]، فيمكن اعتبار حالة ماي إدريس محطة من محطات الصراع العثماني السعدي الخفي جنوب الصحراء.

---

11. الفشتالي، م.س. ص. 71.

12. ن.م. ص. 67-68.

13. انظر B.G. Martin, "Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks 1576-1578" in *The International Journal of Middle Eastern Studies*, 3, 1972, p. 470-490.

من جهة العثمانيين : كانت الدولة العثمانية في ق. 16، كإحدى أقوى قوتين عالميتين لابد وأن تتابع مجريات السياسة الدولية المحيطية بالبحر الأبيض المتوسط بما في ذلك ما يجري في ما وراء الصحراء. كانت قوتها الاقتصادية والعسكرية تجعلها محط أنظار الإمارات الإسلامية الضعيفة أو النائية كما سبقت الإشارة إليه في حالة ماي إدريس منذ قليل. علاوة على ذلك كانت أهم الطرق التجارية والمسالك المؤدية إلى الحج والمشرق بصفة عامة تحت نفوذ العثمانيين عبر ولايات الشمال الإفريقي بدءا بالجزائر عبر تونس وطرابلس ثم مصر. فكان لابد لسكان ما وراء الصحراء من التعامل مع السلطات العثمانية ؛ ولابد لهذه الأخيرة أن تتابع ما يجري في بلدانهم.

وهناك بعض المؤشرات تدل، بالرغم من قلتها، على أن الباب العالي كان يطمح إلى توسيع النفوذ في إفريقيا الوسطى وربما إفريقيا الغربية أيضا. من ذلك رسالة سلطانية سجلتها الدفاتر المهمة، أي سجلات الدولة المركزية بإستانبول، وهي جواب على طلب ترقية تقدم به جند الجزائر، تشترط تلك الترقية بفتوحات جديدة.[14] وإذا علمنا أن تاريخ هذه الرسالة يعود إلى يوليوز 1577 أي بعد استلام عبدالملك الحكم في المغرب بمساعدة من العثمانيين وتحت حمايتهم، فإننا نستنتج أن الفتوحات المطلوبة من جند الجزائر كانت بالضرورة في اتجاه الصحراء. وهذا هو الإطار الذي تُفهم فيه الحملة العثمانية لاحتلال توات سنة 1579، وإن لم تؤد هذه الحملة إلى استقرار النفوذ العثماني بالواحة [15]، وهذا أيضا هو السياق الذي دار فيه الصراع بين باشا الجزائر (حسن باشا) وأحمد المنصور حول واحة فگيگ سنة 1583، والذي انتهى لصالح السعديين بعد تدخل تحكيمي من طرف استانبول.[16]

---

14. مهمه دفترلري، رقم 30، ص. 183، حكم 430 بتاريخ 5 ربيع الأول 985/ماي 1577. ارشيف رئاسة الوزراء، استانبول.

15. A.G.P. Martin, *Quatre siècle d'histoire marocaine au Sahara de 1504 à 1902*,. Paris, 1923, p. 35.

16. عبدالحفيظ الطبايلي، *العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن السادس عشر (1548-1617)*، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب الرباط، 1989، ص. 158-160. و Abderrahmane El Moudden, *Sharifs and Padishahs : Moroccan-Ottoman Relations from the 16 th through the 18 th Centuries, Contribution to the Study of a Diplomatic Culture*, Ph. D, Princeton University, 1992, p. 121-123.

على أن اهتمام العثمانيين بما وراء الصحراء يبدو متجها بصفة أكثر وضوحا إلى الأراضي الموالية لمصر. نستشف ذلك من حجم العمليات العسكرية التي انخرطت فيها الدولة العثمانية هنا وهناك. في حين نظمت حملات عسكرية مهمة للاستيلاء على أرض النوبة والحبشة [17]، لم تتجاوز عملياتها بأرض إفريقيا الوسطى والغربية بعض المبادرات المعزولة كما أشرنا أعلاه.

ولكن السؤال حول موقف الدولة العثمانية من غزو السودان يبقى معلقا مادام البحث لم يكشف عن وثائق عثمانية تتعلق بهذا الأمر. وأغلب الظن أن الثغرة تدل على مستوى أولي للبحث أكثر مما تحيل على انعدام لتلك الوثائق. فنحن نعلم بواسطة أبي الحسن علي التمكروتي الذي قام بمهمة السفارة من جانب المنصور لدى السلطان مراد الثالث بالضبط فيما بين نونبر 1589 وماي 1590، أي في وقت كان المنصور يضع فيه الترتيبات النهائية للحملة السعدية على السودان. نعلم أن التمكروتي صاحَب سفراء عثمانيين إلى استانبول، وحمل مكاتيب جوابية إلى السلطان العثماني بالإضافة إلى الهدية، ثم عاد من استانبول ومعه سفراء عثمانيون جدد أيضا بمكاتيب أخرى.[18] لا يمكن إلا أن نستنتج أن هذه الحركة الدبلوماسية وهذه المكاتبات كانت على صلة ما بمشاريع المنصور اتجاه السودان.

غير أن تكتم المنصور وتظاهر العثمانيين بجهل ما يحضِّر له السلطان السعدي يظل قائما كلغز يتطلب المزيد من البحث والتنقيب. يبدو تكتم المنصور من خلال نص *"النفحة المسكية"* نفسه، حيث لا ينبس التمكروتي بكلمة حول مضمون سفارته، وإن كان أثبت في رحلته أحد النصوص الرائعة عن استانبول والعلاقات السعدية العثمانية في ق. 16. ونكاد نطارد النص لنجد فيه إشارة سريعة إلى غزو السودان، في سياق برهنة على أن المهدي الذي ينهض بأعباء تصحيح أحوال الدنيا والدين لابد وأن يخرج من المغرب. حجة التمكروتي في ذلك كون أحمد المنصور شرع في فتح البلاد الإسلامية التي لابد وأن تسيطر عليها كلها في النهاية. يقول :

> "وهاهم سادتنا الأشراف خلف الله ملكهم حصنوا أرض المغرب ونفوا عنه رجس الكفر امتثلوا السنة في الابتداء بما يليهم من الأرض فيدخلون

17. انظر V. L. Ménage, "The Ottomans and Nubia in the Sixteenth Century", in *Annales Islamologiques*, (Le Caire), XXIV, 1988, p. 137-153.

18. أبو الحسن علي التمكروتي، *كتاب النفحة المسكية في السفارة التركية*، طبعة حجرية، بدون تاريخ، ص. 10، 109.

بلاد السودان فيملكونها ويستولون على سائر أقاليم الأرض ويملكونها منهم بنص حديث المهدي الذي يملك الأرض ويطهرها من ظلم جبابرة الأعاجم وجورها".[19]

ويظهر تجاهل الديوان العثماني لمجريات غزو السودان في رسالة من قلائل يرجع إلى ذلك التاريخ من مراسلات تم العثور عليها، وهي رسالة مطولة موجهة من مراد الثالث إلى المنصور تدور حول ضرورة مساعدة إنجلترا في مواجهتها مع إسبانيا حول عرش البرتغال. والرسالة مؤرخة بيونيو 1591، أي في وقت كانت فيه أصداء حملة السودان ونتائجها لاشك قد طرقت آذان الديوان العثماني، ولكن لا أثر لذلك في الرسالة.[20] وعلى النقيض من ذلك، فإن المنصور الذي كاتب الملكة إليزابث بنفس الموضوع وتقريبا في نفس الإبان لا يبخل على الملكة الانجليزية بأخبار الحملة سواء في طور التحضير لها أو بعد تحقيق نتائجها.[21]

لا يبقى أمامنا إذن إلا أن نتقدم ببعض الافتراضات قد يسفر المزيد من البحث والكشف عن وثائق ما تزال دفينة، إما عن جدارتها أو عن عدم صلاحيتها. فأغلب الظن أن التمكروتي كان محملا بمكاتيب ذات طابع تشريفاتي فقط، في حين قد تكون الرسالة الحقيقية التي حملها ذات صبغة شفوية، زيادة في الاحتياط من طرف المنصور. ومن باب الاحتياط أيضا أن المنصور احتفظ بالسفير الانجليزي بجانبه إلى أن ظهرت نتيجة الحملة على السودان.[22] وقد يكون الهدف الأساسي من سفارة التمكروتي الحصول على حياد الدولة العثمانية على أساس أن المبادرة السعدية تدخل ضمن واجب الجهاد، أو سوف تعود بالنفع على جيوش المسلمين، ونستبعد أن يكون التمكروتي استعمل أي خطاب يلح على شرعية الخلافة السعدية.

أما من جانب الدولة العثمانية، فإن تجاهلنا الظاهر قد يحيل على انشغالها بالجبهة الشرقية حيث بدأ المد الصفوي في عهد الشاه عباس الكبير (1588 ـ 1629) يمثل خطرا حقيقيا على الأراضي الإيرانية التي كانت في حوزة العثمانيين منذ أواسط

19. ن.م. ص. 151.
20. مهمة دفترلري، رقم 67، ص. 134-135، حكم 357 بتاريخ 7 ربيع الثاني 999/يونيو 1591. ارشيف رئاسة الوزراء، استانبول.
21. Hopkins م.س. ص. 4-6.
22. ن.م. وص.

ق.16.[23] وقد يحيل أيضا على قبول العثمانيين بالأمر الواقع فيما يتعلق باستقرار السعديين، ليس فقط كنفوذ إسلامي سني مواز، بل أيضا كقوة ذات نفوذ إقليمي مستقل.[24]

يبقى غياب أخبار غزو السودان في المصادر العثمانية شاهدا على توازي الذاكرتين، وهو التوازي الذي لا يمكن تجاوزه من طرف كل ذاكرة سوى بالمزيد من البحث في مصادر الذاكرة المقابلة لبناء ذاكرة متعددة.

23. انظر تفاصيل الصراع العثماني الصفوي في Roger Savory, *Iran Under the Safavids*, Cambridge University Press, Cambridge, 1980, p. 85-87.

24. El Moudden م.س. ص. 105 وما بعدها.

مسألة الأندلس في عملية فتح السودان
خلال عصر أحمد المنصور الذهبي

محمد رزوق
جامعة الحسن الثاني ـ الدارالبيضاء

هناك على صعيد السياسة الخارجية ثلاث قضايا أساسية كانت محل اهتمام المنصور : علاقته بالأتراك العثمانيين وعلاقته بالإسبان، ثم مشروعه الإفريقي : مشروع السودان الغربي. وهي قضايا وإن بدت في ظاهرها منفصلة بعضها عن بعض، فإنها في واقع الأمر ـ في نظر المنصور على الأقل ـ كانت مترابطة إلى حد كبير، فعندما يذكر بأنه أحق بالخلافة من الأتراك العثمانيين، فإنه ضمنيا يلمح إلى أنه أيضا من حقه أن يخضع السودان لحكمه[1]، خاصة أنهم حاولوا السيطرة عليه وبنفس الخطاب[2]، وعندما يواجه الاسبان فذلك لإيقافهم عن التوغل في الممالك الإسلامية داخل القارة، خاصة أنهم قد وصلوا فعلا إلى جزيرة أرجان Arguin. كما أن البرتغال كانوا قد بدأوا مخططاتهم التبشيرية فعلا بالعديد من النقط المحتلة على الساحل الإفريقي[3]، وهو بعد هذا عندما يريد السودان فإنه يريده لإعداد العدة لاسترجاع الأندلس كما توضح ذلك رسائله.

1. استعمل أحمد المنصور الذهبي مسألة الخلافة على المسلمين كمبرر لتدخله بالسودان الغربي، مستندا في ذلك على شيئين أساسيين : أ ـ واجبه في الدفاع عن ديار الإسلام يقتضي أن يضع يده على مقدرات المسلمين وخيرات أراضيهم للنهوض بدور الجهاد، باعتباره خليفة لرسول الله (ص)؛ ب ـ مركزه كقائد أوحد يفرض عليه أن يحمل المسلمين على الوحدة باللين أو بحد السيف.

2. نذكر هنا بمسألة الاطماع التركية في برنو ـ كانم، ولكن انشغالاتهم جعلتهم يترددون، مما جعل المنصور يستفيد من هذه الوضعية فيحسم الموضوع خاصة بعد أن حصل على مبايعة إدريس ألوما من 990 هـ / 1589 ـ 1583. انظر :

- Zakari Dramani Issifou, *l'Afrique Noire*... pp 132 - 134.
- Zakari Maikorema, *Les raisons d'une ambassade*... Institut des Etudes Africaines, Rabat, 1991.

3. قاوم المنصور حركة التبشير في بعض جهات السودان الغربي، إذ كان قد تسرب بعض المبشرين إلى داخل الأراضي السنغالية انطلاقا من المستعمرات المسيحية الساحلية وأقنعوا بعض القبائل بدعوتهم، ويبدو أن أخبار ذلك وصلت إلى المنصور، بدليل وجود رسالة كتبها لأحد عماله يخبره فيها بأن الفتح لما انتهى في الجنوب إلى من يليهم، أي قبائل صونغاي، وجد قبائل نزعت إلى دين النصرانية ففاوضها الفاتحون في أمر التخلي عن ذلك. انظر *رسائل سعدية* ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 278 ك.

أولا : الأجواء الدولية قبيل فتح السودان

كانت مسألة الأندلس تشكل ركنا أساسيا في سياسة المنصور الدولية، فقد اتجه إلى كافة الدول التي تكن عداء للإسبان للتحالف والتنسيق معها قصد تحقيق أهدافه في تحرير الثغور المغربية، وتقديم المساعدة للموركسيين بإسبانيا في مرحلة أولى وغزو الإسبان في عقر دارهم في مرحلة ثانية، فكل تصرفاته كانت تسير في هذا الاتجاه المحدد مسبقا. هكذا اتجه المنصور أولا إلى التعاون مع الانجليز ضد فليپ الثاني، وقد تعززت الرغبة في التعاون بعد فشل الاسبان في حملة الارمادا Armada ضد الانجليز (30 يوليوز - 10 غشت 1588)، إذ كتب المنصور إلى ولاته يطلعهم على الأمر ويؤكد لهم في نفس الوقت زوال الخطر الإسباني الذي كان يهدد المغرب، بل عزمه على تقديم المساعدة للموركسيين في إسبانيا نفسها[4]، وفعلا فقد سر الموركسيون بهزيمة الإسبان، واعتبروها مؤشرا للخلاص، فأعلنت الثورة بأراغون في نفس السنة[5]، ولا يستبعد أن يكون للمنصور يد في ذلك.[6] وقام بعمل مواز لذلك داخل المغرب نفسه، إذ أمر الجالية الأندلسية بتطوان بالهجوم على سبتة في شهر دجنبر من نفس السنة.[7] وكان المنصور حريصا - في تحالفه مع الانجليز - على بناء أسطول قوي يمكنه من تقديم مساعدة فعلية للجالية الأندلسية داخل المغرب وخارجه.[8]

كما وجه رسائل إلى علماء المشرق العربي بهدف اقناعهم بأنه مؤهل أكثر من غيره لتقديم المساعدة للموركسيين[9]، خاصة أن الأتراك كانوا يعانون الكثير من جراء حروبهم بأوروبا الشرقية، ومن جراء الثورات والفتن التي كانت تعيشها الامبراطورية. وبالفعل فقد انطلق في محاولته لعقد حلف عسكري يضم المغرب وبريطانيا وفرنسا وهولندا، إذ أن المعسكر البروتستاني كان مصمما على توجيه الضربة القاضية للإسبان.[10]

---

4. *رسائل سعدية*، ص 155.
5. F. Brandel, *La Méditerranée*... 2 : 127
6. عبدالعزيز الفشتالي، *مناهل الصفا*، ص 81.
7. *المصدر السابق*، ص 96.
8. *المصدر السابق*، ص 197.
9. محمد رزوق، *الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17*، ص 183.
10. *نفس المصدر والصفحة*.

ثانيا : الأندلسيون في عملية فتح السودان

لم تكن الأندلس - كما قلنا سابقا - بعيدة عن فتح السودان، فقد صرح المنصور في المجلس الاستشاري الذي عقده لهذا الغرض أن الهدف هو : "الاستكثار من الأسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله في عقر داره....."[11]، وأكد في نفس المجلس أنه سوف يعتمد على عساكر الأندلس لأنها "عساكر قاذفة بشواظ النار"[12] ويقول في رسالة بعث بها إلى اسكيا الحاج محمد أمير كاغو، حول الهدف من فرض خراج معين على ملح تغازى : "وقصدنا بما يحصل من ذلك صرفه إن شاء الله في سبيل الغزو والجهاد...ومنازلته (العدو) على الدوام في عقر داره....".[13]

وفعلا فقد شاركت الجالية الأندلسية بالمغرب بنصيب كبير في عملية فتح السودان، بل إن قيادة الجيش نفسه أسندت إلى قائد جيش الأندلس جودر باشا[14]، بالاضافة إلى عدد من القادة الأندلسيين.[15]

وقدر المؤرخ الإسباني المجهول عدد الرماة الأندلسيين بحوالي ألف من مهاجري غرناطة[16]، وظل عدد من أفراد الجالية الأندلسية يتوافدون على السودان، إذ ذهب - مثلا - مع القائد عمار باشا حوالي 500 من الأندلسيين[17]. وقد شارك في الحملة أيضا عدد من الاسبان الذين دخلوا إلى الإسلام حديثا، وكان المنصور يسهر بنفسه على اقناعهم بالدخول في الإسلام ليستخدمهم بعد ذلك في هذه العملية، فقد ذكر الشهاب الحجري في هذا الصدد : "وكان قد ذكر لي رجل من علماء النصارى في مدينة مراكش، وكان راهبا ثم أسلم، وسمي برمضان، ثم مشى إلى بلاد السودان ومات بها والله أعلم، وقال لي : "إن السلطان مولاي أحمد - رحمه الله - أمر

---

11. عبدالعزيز الفشتالي، *مناهل* ، 128.

12. *نفس المصدر والصفحة*.

13. *رسائل سعدية*، ص 134.

14. من أصل إسباني من Las Cuevas قرب غرناطة، وقد دخل إلى الإسلام حديثا. انظر :
"Relation de l'Anonyme Espagnol," in *Hespéris*, 4ème trimestre 1923, P. 468.

15. انظر عبدالرحمان السعدي، *تاريخ السودان* ، 138.

16. "Relation de l'Anonyme Espagnol", P. 468.

17 - عبدالرحمان السعدي، المصدر السابق، 181.

بإحضاره بين يديه بعد أن علم أنه من علماء النصارى...".[18] كما ذكر عبدالرحمان السعدي أن الكاهية باحسن فرير Ferrer كان راهبا.[19]

غير أن الحذر ظل هو الطابع المميز لعلاقة المنصور بهذه الجالية وإن ابتعدت عنه بالسودان[20]، إذ لم يكن يطمئن كثيرا إلى هؤلاء، خاصة أن رغبتهم في السيطرة ما زالت قائمة، وبعض تصرفات هذا الجيش الأندلسي وقادته لا تنسجم تماما مع الأهداف التي خطها المنصور، إذ يذكر عبدالرحمان السعدي في هذا الصدد : "... ثم أن السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور ابن عبدالرحمان إلى أرض السودان برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته..."[21]، مما جعل المنصور يستبدل الحاميات الأندلسية بحاميات مغربية غير مشكوك فيه[22]، وقد استمر الأمر كذلك إلى ما بعد وفاة المنصور إذ يذكر المؤرخ في هذا الصدد : "..ثم شرع القائد الحسن في تبديل نظام الجيش وبدل العلامات ورد سرية الفاسيين أصحاب اليمين وسرية المراكشيين أصحاب الشمال، ونزل العلوج والأندلسيين تحتهما، ورغم أن ذلك كان من عند السلطان بوفارس...".[23]

ونختم هذه المداخلة بمجموعة ملاحظات وتساؤلات :

الملاحظة الأولى : تتعلق باختيار المنصور لجيش الأندلس للذهاب إلى السودان، هل يرجع الأمر إلى أسباب تقنية على اعتبار أنه "جيش النار"، أم هل هناك أسباب أخرى؟

إننا مع إيماننا بوجاهة وأهمية الأسباب الأولى (التقنية) إلا أننا نعتقد أن هناك أسبابا أخرى لا يجب إغفالها تخص علاقة المنصور بالجالية الأندلسية. لقد تأكد - ومن أيام المعتصم - من النوايا الخفية لقواد الأندلس ومن علاقتهم بالأتراك. وازداد الأمر وضوحا مباشرة بعد معركة وادي المخازن، وإبان ثورة ابن أخيه داود بن

18. انظر بقية المناظرة في كتابه *ناصر الدين على القوم الكافرين* (تحقيق محمد رزوق)، ص154.

19. "Relation de l'Anonyme Espagnol", P 472.

20. محمد رزوق، *المصدر السابق*، 178 - 187.

21. *تاريخ السودان*، ص. 175.

22. محمد الغربي، *بداية الحكم المغربي في السودان الغربي*، ص 332.

23 . *تاريخ السودان*، ص. 193.

عبدالمومن. ومن تم تكون مسألة التخلص من هذا الجيش الأندلسي وقواده أمرا واردا.

الملاحظة الثانية : كان العديد من قادة الجيش أجانب، فجودر باشا من أصل إسباني، وكذلك محمود بن زرقون، والفتى عمار من أصل برتغالي، وغيرهم... فكل هؤلاء دخلوا إلى الإسلام حديثا، وتحوم الشكوك حول إسلامهم، ولم تكن لغتهم هي العربية، وهكذا احتلت اللغة البرتغالية مكانها، بل ذهب بوفيل E. W. Bovill إلى أن اللغة الإسبانية كانت هي اللغة الرسمية التي استعملها جودر، كما ذكر أنه اصطحب معه سبعين فارسا مسيحيا.[24]

فهل كان المنصور يرمي بذلك إلى قمع الأهالي بقادة لا يرحمون المسلمين، بل وقمع الجيش الأندلسي نفسه بجعله تحت قيادة إسبان وبرتغاليين دخلوا إلى الإسلام حديثا، لعلمه بالعداوة الكامنة بين الإسبان من جهة والأندلسيين من جهة أخرى، وكل هذا في أرض بعيدة عن المغرب، ولعل تمردات بعض فرق الجيش الأندلسي تجعلنا نميل قليلا إلى هذا التأويل.

الملاحظة الثالثة : تتعلق بالتأثير الاجتماعي الذي يمكن أن يكون قد أحدثه الجيش الأندلسي وقادته العلوج.

ما علاقة وجود هذا الجيش وقادته بانتشار بعض المحرمات أكثر مما كان عليه الحال من قبل ؟ إذ نجد إشارات لتفشي الخمر ولعب الميسر وتعاطي الحشيش[25]، وكان عبيد الباشا يزاولون ذلك علنا في تنبوكتو، وكذلك الجنود الأندلسيون، كما أثيرت مسألة اختلاط الرجال بالنساء، وكل هذا يذكرنا بما وقع بالمغرب من طرف الجالية الأندلسية به.

الملاحظة الرابعة : رغبة هذا الجيش في الاستقلال عن السلطة المغربية، خاصة وأنه وجد البيئة ملائمة، خاصة وأنه سبق للجالية الأندلسية بالمغرب أن فشلت في خلق كيان مستقل لها بالمغرب، فأرادت أن تكرر هذه التجربة بأرض بعيدة.

---

24. بوفيل، *الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى*، ص. 193.

25. مؤلف مجهول، *تذكرة النسيان*، ص 13، 28 ....

بقي لنا أن نتساءل بعد هذا كله : هل قدم المنصور فعلا المساعدات الضرورية للموركيين بعد عملية فتح السودان؟

لقد ظلت مساعدات المنصور محدودة وفي نطاق معين نتيجة الظروف الدولية السائدة آنذاك، خاصة الضغط التركي، مما جعله يعمل باستمرار على تحسين علاقاته مع الإسبان ليستخدمه كعامل توازن في علاقته مع الأتراك.

حملة المنصور وهاجس الخلافة

محمد حجي

جامعة محمد الخامس - الرباط

حملة المنصور الموجهة إلى السودان تعد بدعا من الحركات العسكرية المغربية لا يعرف لها مثيل من قبل ولا من بعد. فقد تمت في ظروف داخلية ودولية معقدة شائكة تستوقف الأنظار. هناك عدد من الثغور ما تزال محتلة على شواطىء البحر المتوسط، والمحيط الأطلنتي على مشارف حاضرة الدولة مراكش، ووفود المهاجرين من العدوة الأندلسية والمطرودين منها ما زالت تتوافد على مدن المغرب وقراءة مذكرة بذلك الجرح الذي لم يندمل بعد. إلى قيام قوات ضاربة على الحدود الشرقية لا تؤمن عائلتها، إلى أساطيل متطورة حربية وتجارية، منافسة إن لم نقل عدوة، لا تنقطع ذاهبة آيبة على مرأى ومسمع لتطوق المغرب من خلف، وتعطل طرقه التجارية الصحراوية.

حدث تاريخي شغل تحليل المؤرخين كثيرا وتعليلهم، وأرجعوا في الغالب سببه الرئيسي إلى عوامل اقتصادية مادية، إلى جانب دوافع أخرى شبه ثانوية، منها الرغبة في تبوء منصب الخلافة وبسط النفوذ. وإذا كنت في هذه العجالة لست بصدد استعراض أسباب هذه الحملة، المادية منها والمعنوية، ولا مناقشة ما قيل حولها فإني أود، إن سمحتم، أن نقف وقفة تأمل أمام هاجس الخلافة عند السعديين عموما، والمنصور خصوصا، كعامل متجذر أفرز في النهاية حملة السودان. وقد سبق أن أثرت منذ سنوات هذه المسألة مع طلبة الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط، في إحدى حلقات شهادة الدراسات المعمقة دون أن نصل إلى القول الفصل في الموضوع.

لقد نشأت فكرة الخلافة مع نشأة دولة الشرفاء منذ خرج جدهم محمد بن عبدالرحمان الزيداني الحسني من كتابه أو مدرسة بقرية تدگما دارت الدرعية ليلتحق بشيوخ سوس في تيد سي حين أجمعوا على ترشيحه لقيادة حركة الجهاد ضد البرتغاليين، فكان أول ما حمل من الألقاب "القائم بأمر الله" وهو شعار معروف لأئمة الشيعة، ثم دعي ولده الأصغر محمد الشيخ بالمهدي، وهو أيضا من ألقاب الإمامة،

فهل يعني هذا أن السعديين كانوا شيعة؟ ومن أي الفرق الغلاة أو المعتدلين؟ ظاهرين أو متسترين بالتقية؟ هذا مشكل نتركه جانبا، ولم نشر إليه إلا لما له من علاقة بأرضية الإشكالية التي نحن بصدد طرحها، وهي نظرية الخلافة وعلاقتها بحملة السودان. وقد تدرجت هذه النظرية في مرحلتين متميزتين، الأولى مع محمد المهدي الشيخ والثانية مع ولده أحمد المنصور.

تتحدث كتب التاريخ عن بخت محمد الشيخ ويمن طالعه، فحقق في يسر إنجازات مهمة اقتصادية وعمرانية وعسكرية وسياسية مكنته من إرساء قواعد الدولة وإعادة الوحدة والطمأنينة إلى البلاد. وبعد ذلك تشوقت نفسه إلى التحرك خارج الحدود التي انتهى إليها سواء في الجنوب أو الشرق وهنا ظهرت جليا فكرة الخلافة عنده. كانت صلته بالصحراء وما وراءها سابقة بحكم مقامه الطويل في سوس كخليفة لأخيه، فأخذ يعمل على تقوية التجارة مع بلاد السودان وتنشيط الطريق الصحراوي الغربي الذي ينتهي عند حاضرته القديمة المحمدية (تارودانت)، وربط ذلك بالتجارة الخارجية بعد أن أصبح ميناء أگادير الجديد مقصد العديد من السفن الأوربية، وبخاصة الهولندية والانجليزية. وفي نفس الوقت صار يكاتب أسكيا داوود بن إسحاق الأول بما يفيد أحقيته كإمام - خليفة - في التصرف في معدن الملح. ولم يكن لهذه الاتصالات أثر يذكر لمرونة هذا الأسكيا المسالم من جهة وإعطاء محمد الشيخ الأسبقية للحدود الشرقية من جهة أخرى.

كان محمد الشيخ ينظر إلى الأتراك كغرباء متسلطين على المغربين الأوسط والأدنى، ولا يرى لسلطانهم أي حق في الهيمنة على العالم الإسلامي. أي أنه كان يطعن في خلافة العثمانيين التي استلموها من يد الخليفة العباسي بمصر، ويرى نفسه أحق بها منهم لتوفر شروطها فيه دونهم، وقد لخص ذلك الإفراني بقوله : "لما تغلب - محمد المهدي الشيخ - على بلاد المغرب ودانت له حواضره وبواديه، تاقت همته العلية إلى بلاد المشرق فكان يقول : لا بد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أجحارهم وأنازلهم في ديارهم، فتخوف منه السلطان سليمان العثماني. وكان أبو عبدالله - الشيخ - لا يسمي سلطان العثامنة إلا سلطان الحواتة، لأن الغالب على هؤلاء الأتراك السفر في البحر فانتهى ذلك إلى السلطان العثماني فبعث إليه أرساله، فلم يحفل بهم... بل قال لهم أخبروا صاحبكم أني مقتحم عليه بلاده ومتوجه للقائه" (نزهة، ص. 39).

وبالفعل هاجم محمد الشيخ تلمسان مرتين وحاصر الأتراك وأجلاهم عنها وما حولها إلى ما وراء وادي شلف. لكن طموحه كان أكبر من إمكانياته، وتقديراته لقواته وقوات خصمه كانت خاطئة فدفع حياته وحياة ابنيه الحران وعبدالقادر ثمنا لذلك دون أن يتحقق حلمه في الخلافة.

وقد ظهرت نعرة الخلافة مرة ثانية عند السعديين، وبكيفية أقوى وتقديرات أكثر واقعية مع أحمد المنصور. لقد كان أحمد أحب أولاد محمد الشيخ وأقربهم إليه، فنشأ متشبعا بأفكاره في الخلافة وغيرها إلا أنه ـ لحسن حظه ـ اكتسب تجربة عملية خلال سنوات النفي الاضطراري والإقامة عند الأتراك في الجزائر وفي القسطنطينية، اطلع خلالها عن كثب على قوة الأتراك العظمى في البر والبحر. فلما آلت إليه الخلافة بعد معركة وادي المخازن عرف كيف يوازي حساباته، محافظا بكل الوسائل على حسن العلاقات مع الأتراك الذين كان لهم الفضل في إعادته وأخاه عبدالملك إلى عرش أبيهما دون أن يتخلى عن فكرة الخلافة، وتعد هذه المرحلة التي طالت زهاء أربع سنوات أخطر المراحل في حياة أحمد المنصور. إذ كان مصيره ومصير فكرة الخلافة عنده رهينا بنجاحه أو فشله فيها. ودون أن ندخل في التفاصيل نقول إن المكاتبات والسفارات تعددت في هذه الفترة بين أحمد المنصور ومراد الثالث العثماني. ومن المؤكد أن العلاقات السعدية ـ العثمانية كانت خلالها متوترة، وبلغت أحيانا درجة قصوى لحد توجيه أسطول حربي ضخم لمهاجمة المغرب، لكن المنصور أبدى من الصبر والحنكة والدهاء ما جعله يتغلب على جميع الصعاب. وإذا كنا لا نعرف ـ لحد الآن ـ فحوى المكاتبات لا من هذا الطرف ولا من ذاك؛ فإننا لحسن الحظ نجد عند مؤلف شرقي هو المحبي في خلاصة الأثر بنقل الناصري فقرة صغيرة من آخر كتاب لمراد الثالث يقول فيه لأحمد المنصور : "لك علي العهد ألا أمد يدي إليك إلا للمصافحة، وإن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة".

تؤكد المصادر المغربية ـ ضمنيا ـ صدق هذه العبارة، حين تسجل أن المنصور خرج من فاس سنة 989 / 1581 متوجها إلى مراكش، بعد أن تمت الهدنة مع العثمانيين وخرج معه أعيان فاس ومشيخة العلم بها وقرئ البخاري بين يديه. ويمكننا أن نستنتج من القرائن السابقة واللاحقة أن المنصور تعهد بحفظ الحدود الشرقية وعدم التعرض لبايات الجزائر واستقبال سفنهم في الثغور المغربية، وبالمقابل التزم السلطان العثماني بعدم التدخل في مشاريع المنصور الخاصة.

من هنا تنطلق السياسة الجديدة لأحمد المنصور، وضمنها تخطيطه لتطبيق فكرة الخلافة. بدأت معالم هذا التخطيط تظهر منذ مطلع السنة الموالية 990 / 1582 : أرسل جيشا لفتح توات وتيكورارين وما والاها من بلاد الصحراء، واستقبل رسل ملك برنو ـ وكتب إلى أسكيا ملك كاغو رسالة معتدلة يطلب منه نوعا من الاستغلال المشترك لمعدن الملح الموجود بين المغرب والسودان، بتوظيف مثقال ذهب لكل حمل تستعين به عساكر المسلمين على الجهاد ضد الكفار. وكان المنصور قبل ذلك استفتى الفقهاء فيمن يرجع إليه أمر المعادن، فأفتوه بأن ذلك راجع إلى نظر الإمام ـ لا إلى غيره. وأرفق الرسالة بالفتوى. "وانتخب رسولا عارفا مجربا ـ حسب عبارة الاستقصا ـ ممن لهم بصيرة بأحوال السودان، فبعثه عينا يأتيه بأخبار البلاد كأنه يشاهدها".

وفي نفس هذه السنة تم فتح توات وتيكورارين، وتجدد الاتصال بين المنصور وإدريس ألوما ملك برنو، واستمر تردد الرسل بينهما ثلاث مرات بسبب خلط في الرسالة الأولى التي حملها الرسول البرنوي مخالفة للمهمة الشفوية التي حملها. ولم تفصح المصادر المغربية عن نوع الاختلاف ولعله حمل رسالة كانت موجهة للخليفة العثماني الذي جرت بينه وبين ملك برنو مراسلات في السنوات السابقة لم تسفر عن نتيجة. وبعد تصحيح الرسالة قبل المنصور إمداد إدريس ألوما بالمساعدة العسكرية المطلوبة شريطة أن تتم البيعة، وبعث إليه بنصها، وهو طويل من نوع النثر الفني المثقل بالسجع ومما جاء في المقدمة :

> "... وشرف هذا الوجود، والعالم الموجود، بالخلافة النبوية والإمامة الحسنية والعلوية،... ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التي هي بسيف النبوءة المصلوت مقطوعة، وبلسان السنة مدفوعة، وقوض بها مباني التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعة... والدعاء لمولانا الإمام الخليفة أمير المومنين بن مولانا نجل سيد المرسلين وخاتم النبيئين وسليل الوصي والسبطين، وفخر الخلفاء الأولين والآخرين المفترض طاعته على الخلق الأجمعين..."

هذه الوثيقة التي أثبتها منشئها الفشتالي كاتب المنصور الخاص ومؤرخ دولته في *مناهل الصفا*، تبين بوضوح رأي السعديين في شرعية خلافتهم، وبطلان غيرها مما

يدعيه الآخرون، وقد رجع الرسول البرنوي مرة ثالثة بهذه البيعة موقعة من طرف الملك إدريس ألوما، لكنه مات في تيكورارين، فحملت البيعة إلى مراكش "فقبلها بقبول حسن وتم السرور وعظم الحبور واستقامت للمنصور الأمور".

وبالرغم من أهمية تبعية مملكة برنو للسعديين - إن صحت الأخبار السابقة - لم يولها المنصور كبير العناية وإنما عدها - كفتح توات وتيكورارين - مقدمات ممهدات للاستيلاء على مملكة سنغاي. ومما يدل على الأهمية التي أولاها المنصور لمملكة سنغاي، أنه ظل يستعد عشر سنوات لتهييئ الحملة العسكرية إليها. ولم يقدم على ذلك حتى فاوض الملأ أعيان الدولة، وهو حدث فريد في عهده حدد فيه أغراض الحملة وبالتالي أهمية إمارة كاغو ولو أنه عمم في بعض النقط عن قصد على ما يبدو :

1 - جمع كلمة المسلمين لأن أميرهم معزول شرعا مادام لا يتوفر على الشروط الضرورية، وفي مقدمتها القرشية، أي أن المنصور بحكم قرشيته وما يتوفر له من شروط الإمامة يريد أن يصبح خليفة يحكم أيضا إمارة سنغاي.

2 - وفرة خراج بلاد السودان وكثرة المال فيه يتقوى به جيش المسلمين، وفي عبارة الخراج والمال تعميم، لأن المعلومات المتوفرة لديه آنذاك تدل على أن حكم كاغو يمتد على مسافة أشهر ويصل إلى مناجم الذهب خاصة في إقليم بيط القريبة من شواطيء خليج غانا. هذه المنطقة التي ظلت تعتبر حتى القرن الثامن عشر حدا فاصلا بين بلاد الإسلام والمناطق الوثنية في غربي إفريقيا. وفي حواره للملأ بعد أن عبروا عن اعتراضهم، أضاف عنصرا آخر وهو انسداد سبيل التحرك خارج الحدود الشمالية والشرقية فلم يبق إلا الجنوب ولديه كل الوسائل الكفيلة بتحقيق المخطط. نستنتج من هذا الحوار الذي قرر القيام بحملة السودان أن الداعي إليها مزدوج :

- تحقيق فكرة خلافة إسلامية - محلية إفريقية -

- وضمان خراج وافر لبيت المال.

ونضع الخلافة في الدرجة الأولى لأنها - متى تمت ضمنت وفرة الخراج والعكس غير صحيح. كما يمكن أن نستنتج على العموم أن هاجس الخلافة عند أحمد المنصور لم يكن يقف عند هذا الحد، فتصرفاته التي أشرنا إليها خلال هذا العرض، ومراسلاته

لبعض علماء مصر وشيوخها، تدل على أنه إنما كان يمهد بفتح السودان لبسط خلافته على البلاد العربية الخاضعة للأتراك. وسفاراته إلى ملكة الإنجليز إليزابيت من أجل تهييئ الجو المناسب لاسترداد الأندلس من يد عدوهما المشترك ملك قشتالة، والقيام بحملة كبرى لامتلاك بلاد الهند : كل ذلك يدل على أن الملك السعدي كان بعد تحقيق حملة السودان، يخطط لخلق مجال أفسح لخلافته قد يشمل على مراحل، مناطق عربية وأخرى إسلامية لم تطأها أقدام جيوش الأتراك العثمانيين.

تـنبـكت وعلاقتها بالمغرب قبل
حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي

شوقي عطا الله الجمل

جامعة القاهرة

تـمهـيـد :

يمثل المغرب الجناح الغربي للوطن العربي، وكان انضمام هذه البلاد إلى حضيرة الأمة العربية وانتشار الدين الإسلامي والثقافة والدماء العربية بها في وقت مبكر، فصبغت هذه البلاد بالصبغة العربية.

إذ أن فتح العرب لمصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وانضمامها إلى صفوف الأمة العربية، كان بشيرا بانطلاق العرب غربا يحملون الدين الجديد، والحضارة العربية بمختلف مميزاتها إلى بلاد الشمال الإفريقي.[1]

وهكذا أضيفت دماء جديدة، وقوة جديدة جددت شباب هذه البلاد وغيرت من تاريخها وحددت مسارها على مر العصور.

وأدت بلاد المغرب للإسلام خدمات جليلة ؛ فقد حمل سكانها شعلة الدين الجديد والحضارة العربية إلى بلاد غرب إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء أو ما أطلق عليه اسم السودان الغربي.

ولعله من المناسب ـ ونحن نتحدث عن تنبكت ودور المغرب الحضاري في هذه الأقاليم الصحراوية الواقعة في ذلك الوقت ـ أن نلقي نظرة سريعة على الوضع الحضاري في المغرب ذاته.

فقد ظهرت بالمغرب دول قوية استطاعت أن تترك بصماتها الحضارية على أرضه ؛ ومن هذه الدول دولة الأدارسة التي يرجع إليها الفضل في تأسيس مدينة

1. للمزيد من التفاصيل عن المراحل التي مر بها التيار العربي الإسلامي في اندفاعه في شمال إفريقيا يرجع إلى :

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، *العبر وديوان المبتدأ والخبر* (القاهرة 1284 هـ).

ـ المراكشي، ابن عذارى أبو العباس أحمد بن محمد، *بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* (نشر دوزى) جـ 1، ص 21.

فاس واتخذوها عاصمة لهم، وأسسوا في عام 245 هـ - 859 م جامع القرويين الذي أصبح جامعة شهيرة تعددت فيها مجالس العلم وتنوعت أساليبه، وأصبح مركزا هاما للدراسة في العالم الإسلامي يشع منه نور الإسلام والحضارة الإسلامية إلى غرب إفريقيا.[2]

وتميزت دولة الأدراسة بدورها في نشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا جنوب الصحراء، فقد كانت فاس، وما زالت إلى اليوم تقوم بدور حضاري إسلامي في هذه المناطق وسيظل التاريخ يحفظ للأدارسة هذا الفضل في خدمة الإسلام والعروبة.

كما قامت بالمغرب بعد ذلك دولة المرابطين التي أسسها يوسف بن تاشفين من أتباع عبدالله بن ياسين معتمدا على قبائل لمتونة الصنهاجية. ويلاحظ أن نشاط عبدالله بن ياسين بدأ في الجنوب في جزيرة بالسنغال، ومن هذه المنطقة زحفوا على جنوب المغرب وأسس ابن تاشفين مدينة مراكش لتكون عاصمة لدولته ؛ فأخذت تزدهر وأمّها رجال العلم والأدب والفن، وبنى المرابطون بها جامع بن يوسف. ويعتبر هذا الجامع المعهد الثقافي في المغرب بعد جامع القرويين.[3]

وتدل الآثار والسمات الحضارية التي تركها المرابطون في المغرب، وما أضافوه لجامع القرويين بفاس وغيرها، على ما كانت عليه دولتهم من إزدهار حضاري، وقد تعدت آثارهم هذا النطاق جنوبا إلى بلاد غرب إفريقيا. ومن أعظم الآثار التي تمت في عهدهم تأسيس مدينة تنبكت التي أصبحت من أعظم الحواضر الثقافية الإسلامية في جنوب إفريقيا.[4]

وقد انتهى أمر دولة المرابطين في المغرب بسقوط عاصمتهم مراكش في يد الموحدين في عام 511 هـ - 1147 م.

---

2. لمن يريد التفاصيل الكاملة عن فاس وتأسيسها، يرجع إلى :
- الفاسي، علي بن أبي زرع، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.*
- كذلك للبحث القيم الذي كتبه Blanchete بعنوان : "فاس عند الجغرافيين العرب" مجلة *Hesperis* العدد 18، 1934.

3. عنان، محمد عبد الله : *عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس* (القاهرة 1964)، ص 38 - 39.

4. سالم ، السيد عبدالعزيز سالم، *المغرب الكبير*، جـ 2 (القاهرة 1966) ص 758، وكذلك *القرطاس* ص 212.

ومن أشهر ملوك الموحدين يعقوب المنصور الذي أتم بناء مدينة الرباط عام 593هـ وجامعها العظيم المعروف اليوم بصومعة حسان.

وقد اهتم الموحدون ببناء المساجد والمدارس والمارستانات للمرضى، وأجروا المرتبات على العلماء والطلبة فبلغت الحركة العلمية وحركة التأليف في عصرهم درجة رفيعة.[5]

وقد قامت بالمغرب في عام 512 هـ / 1196 م دولة المرينيين بعد ضعف دولة الموحدين. ومن سلاطين هذه الدولة البارزين أبو الحسن علي بن عثمان المنصور بالله، وقد اشتهر بأعماله العمرانية، فقد شيد عددا كبيرا من المدارس عمّرها وأسبغ على العلماء النعم.

وقد نجحت الدولة السعدية (915 هـ / 1509 م) في مد نفوذها على بلاد المغرب والتصدي لأطماع المستعمرين البرتغال والإسبان. وكانت موقعة وادي المخازن - التي وقعت في جمادى الثاني 986 هـ (4 أغسطس 1579) - فاصلة؛ فقد قتل فيها ملك البرتغال الملك سبستيان (D. Sebastian) ومات أكثر من نصف جنوده الذين قدر عددهم ب 125.000 مقاتل وأسر الباقون.[6]

وقد ترتب على هذا الاستقرار والاعتزاز بالنصر أن ازدهرت الحركة الفكرية والأدبية في المغرب، فبرز كتاب وشعراء وأدباء من أمثال الفشتالي وزير القلم الأعلى في بلاط المنصور السعدي والمقري، وابن القاضي، وغيرهم.

على أن ما يعنينا في عصر المنصور في هذا المجال علاقته ببلاد غرب إفريقيا بالذات، فقد اتجه للإستيلاء على بلاد السودان.

---

5. السعدي، عبدالرحمن بن عبدالله بن عمران السعدي، *تاريخ السودان*، طبعة هوداس 1898، ص 20.

6. للتفاصيل الكاملة عن معركة وادي المخازن، يرجع إلى :

- الناصري، أحمد بن خالد السلاوي، *الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى*، طبعة 1954 الدارالبيضاء، جـ 5 ص 14.
- كولان، جورج (ناشر)، *تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادريتية*، لمؤلف مجهول، الرباط 1934 ص 2 - 5.
- محمد الفاسي : "موقعة وادي المخازن الحاسمة"، *البحث العلمي*، المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط، العدد التاسع، ديسمبر1966.

ومهما قيل عن الآثار السلبية التي تركها الجيش المغربي في بلاد السودان، فلا شك في أن من الآثار التي ترتبت عليها انتشار التعريب والثقافة العربية إلى جانب استقرار أفراد من الجيش المغربي في هذه البلاد. واندمج بعضهم في السكان، واختلطوا بهم وتزاوجوا معهم.[7]

والانعكاسات الحضارية لعلاقة المغرب ببلاد السودان الغربي بعد حملات المنصور السعدي عليها هو موضوع هذا البحث.

أما فيما يتعلق بالسودان الغربي، فقد قامت في العصور الوسطى عدد من الإمبراطوريات القوية أقامها الوطنيون الأفارقة من أهمها :

1. إمبراطورية غانة :

لعلها أول إمبراطورية قامت بالسودان الغربي وقد بقيت مزدهرة إلى القرن الثالث عشر الميلادي.

وكانت كومبي صالح عاصمة إمبراطورية غانة. وكان معظم موظفي الملك ومستشاريه من المسلمين لأنهم كانوا هم الطبقة المثقفة. وقد أشار البكري لذلك بقوله "تراجمة الملك في حاضرته من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه".[8]

2. إمبراطورية مالي :

قامت إمبراطورية مالي على أنقاض إمبراطورية غانة الإسلامية، وقد اعتنق معظم السكان في هذا الحزام السوداني الإسلام ودافعوا عنه وعملوا على نشره. وقد كان الفضل الأكبر للمغرب في نشر الإسلام والثقافة العربية في هذه البلاد.

ومن أشهر سلاطين مالي، منسا موسى (1307 ـ 1332) ، وقد اتسعت الدولة في عهده وامتدت شمالا حتى حدود المغرب تقريبا وشرقا حتى دولة الهوسا ووصلت غربا إلى المحيط الأطلسي.

وقد اشتهر منسا موسى بسبب رحلة الحج التي قام بها سنة 724 هـ / 1324 م، ومعه ما لا يقل عن ستين ألفا من أتباعه وجنوده، وسار شمالا من عاصمة مالي على

7. سنتعرض بالتفصيل لهذه النتائج فيما بعد.

8. البكري، أبو عبدالله، *المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب*، نشر دي سلان، الجزائر، 1857، ص174.

نهر النيجر صوب مدينة توات إلى الشمال، متخذا الطريق الساحلي إلى مصر ومنها إلى الحجاز.[9]

وقد اصطحب السلطان المالي معه، عند رجوعه إلى بلاده، المهندس المعماري أبا إسحق الساحلي وكان يقيم في مكة ـ وهو الذي أشرف على بناء مسجد مدينة جاو ـ فكان أول مسجد على الطراز العربي في غرب إفريقية. وقد بقي قائما نحو ثلثمائة عام. كما بنى هذا المهندس للسلطان موسى، في العاصمة نيامي، قصرا من طابقين من الحجر المكسو بالحصى ومزين بزخارف عربية، ثم بنى له قصرا آخرا، ومسجدا آخر في مدينة تنبكت. وكان لهذا المسجد مأذنة على الطراز العربي.

وكان للمهندس أبي اسحق الساحلي الفضل في إدخال تصميم المنازل ذات السقوف المسطحة خاصة في تنبكت وجنى، وقد أكرم منسا موسى هذا المهندس وأسرته من بعده فاشتهرت أسرة الساحلي في كل غرب إفريقيا.[10]

وقد كانت التجارة بالذات مصدر ثراء مالي، ساعد على ذلك تباين المنتجات. ففي الشمال كان يوجد الملح في نطاق يمتد من المحيط الأطلسي في الغرب،أما جنوب هذا الخط فقد كان يوجد الذهب وكان التجار يتبادلون الملح بالذهب .

وقد أثرت هذه التجارة، اقتصاديا وعمرانيا وثقافيا، على منطقة غرب إفريقيا، جنوب الصحراء كلها : فقد وجدت مراكز تجارية هامة في تنبكت وجنى وولاتا.[11]

وعندما زار الحسن بن الوزان مالي في النصف الأول من القرن الخامس عشر، وجد بها نهضة ثقافية ضخمة شدت أنظاره، كما وجد مراكز للعلم في المساجد والمدارس، وتحدث على وجه الخصوص عن مسجدي جانكوير وسانكورى في تنبكت.[12]

.9 Bovill, E. W., *The Golden Trade of the Moors* London, 1958, p. 37.

10. طرخان، إبراهيم علي طرخان، *دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ القومي الإفريقي*، القاهرة، 1973، ص 87 ـ 92.

11. كعت، محمود، *تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس*، نشر هوداس، ودولافوس، مارس 1913، ص 48.

12. قداح، نعيم، *إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*، دمشق 1960، ص 142.

وقد أدى انتشار الإسلام إلى انتشار اللغة والثقافة العربية ؛ وجاء إلى بلاط مالي الأدباء والعلماء من المغرب، ومن غيرها من الأقطار العربية. وشجع السلاطين في مالي العلماء ورجال الدين وأجزلوا لهم العطاء، وظهر منهم علماء بارزون. وكان المؤرخان السودانيان السعدي، ومحمود كعت التنبكتي من هؤلاء السودانيين الذين نالوا قسطا كبيرا من الثقافة العربية، وقد أرّخا للقرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد رحل الطلبة السودانيون إلى فاس وغيرها من مدن المغرب، للتزود بالمزيد من العلم والمعرفة.[13]

هذا وأشير في نهاية الحديث عن مالي إلى أن علاقة سلاطينها بالمغرب ظلت قوية طوال قيام الدولة ؛ فقد كان السلاطين على صلة مستمرة بسلاطين المغرب.[14]

3. امبراطورية سنغاي :

بدأت دولة سنغاي كدولة صغيرة، ثم جاءت هجرة من بربر لمطة تدفقت على النيجر في القرن السابع الميلادي متخذين من جاو عاصمة لهم، وعند ضعف مملكة مالي انفصل عنها حكام جاو وأسسوا أسرة حكمت سنغاي، ودام حكمها مدة تسعة قرون ثم خلفتها أسرة الآساكي.[15]

ومن أبرز حكام أسرة الأساكي الجديدة، الأسكيا محمد (899 ـ 935 / 1493 ـ 1528) وقد وصفت Flora Shaw الأسكيا محمد بقولها : "إنه كان حر التفكير بعيد النظر، إنسانا رحيما، على قدر كبير من العلم والمعرفة، اهتم بالبحث عن موارد بلاده وخيراتها، وحفر الآبار، وأنشأ الترع لري البقاع الصحراوية".[16]

ومما يؤسف له أن نهاية هذا الحاكم العظيم كانت سيئة. ففي عام 1528 م أجبره ابنه موسى على الاستقالة ونفاه إلى جزيرة نائية بالنيجر. وبعد أن تولى ابنه إسماعيل الحكم عاد والده إلى جاو حيث عاش بقية حياته حتى وفاته في سنة 949 هـ / 1538 م.

13 - Monteil, *L'islamisation de l'Afrique Noire*, 1964, p. 27.

14 ـ السلاوي، مصدر سابق، ص 120.

15 ـ الشيخ الأمين، عوض الله، *العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلامية مالي وسنغاي*، 1979 ص 66.

16. Shaw, Flora, An Outline of the Ancient History of the Western Sudan, London, 1905, p. 149.

وساءت أحوال العاصمة جاو وأصيبت البلاد بالانحلال. وقد وصف السعدي حال دولة سنغاي في آخر أيامها وما أصابها بسبب نزاع أفراد الأسرة على الحكم فقال : "لقد بدلوا نعمة الله كفرا وما تركوا شيئا من معاصي الله تعالى إلا ارتكبوها جهرا".[17]

وقد ساعدت تلك الأحوال المتردية في سنغي على إرسال المنصور حملته العسكرية التي استولت على السودان الغربي.

أولا : نشأة مدينة تنبكت و وضعها في ظل امبراطوريتي مالي و سنغاي

قامت تنبكت في البداية على أنها رباط أقامه عبدالله بن ياسين على حافة الصحراء الجنوبية، عند بئر ماء كانت تتجمع عندها القوافل.

وقد اختلفت الآراء حول تسميتها، فقد قيل إنها اتخذت اسمها من اسم امرأة عجوز كانت تدعى بوكتو، كانت تقيم عند هذه البئر. وقد قدمت خدمات لأتباع المجاهد عبدالله بن ياسين، والبعض قال إن لفظة تنبكت تعني بلغة الطوراق "العجوز"، وهي تعنى المدينة القديمة.[18]

ويتحدث الرحالة ديبوا عن نشأتها فيذكر أنها ترجع إلى القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد)، وأنها تدين بنشأتها إلى موقعها من نهر النيجر حيث تتوفر المياه للزراعة والرعي، وأن منشئيها هم الطوراق.[19]

وقد ازدهرت تنبكت وارتفع شأنها وأصبحت مركزا إسلاميا ثقافيا أمها العلماء والفقهاء، وقد اشتهرت بجوامعها ومساجدها ومدارسها.

وأخذت المدينة في العمران وتدفق عليها السكان من فزان، وسوس وفاس ؛ بل وبعض المصريين. وكان بها سوق كبير. وأحيطت المدينة بسور عظيم له أبواب يقوم على حراستها حراس يغلقون الأبواب بعد صلاة المغرب، فلا يسمح لأحد بدخولها بعد ذلك الوقت.[20]

17. السعدي، *مرجع سابق*، ص 143.

18. السعدي، *نفس المرجع السابق*.

19. Dubois, Felix, Timbuctoo, *the Mysterious*, p. 23.

20. كعت، *مرجع سابق*، ص 115.

وقد انتعشت الحركة العمرانية بالمدينة - على وجه الخصوص - في عهد منسا موسى. فقد جلب معه من الحج المهندس الغرناطي المغربي اسحق بن الطويجين، فنشر الفن المعماري والهندسة العربية والمغربية في بناء المساجد والجوامع والمنازل.[21]

وقد برز الفن المعماري المغربي والأندلسي أيضا في القصور الفخمة الجميلة لسكنى وإقامة الأثرياء الذين أثروا من التجارة، وقصور الحكام. وقد حليت بعض هذه القصور بالذهب والصور والزخارف.

وقد لعب الفن المغربي دورا هاما في إظهار جمال المساجد والقصور والمنازل في تنبكت. وقد أشار لذلك ديبوا وذكر أن أهم ما لفت نظره في مساكن مدينة تنبكت هو أن بها منازل من طابقين، وأهم من هذا ضخامة الأبواب المزدانة بمسامير كبيرة الحجم، وأشار إلى أن منازل كبار التجار كانت تتميز عن مساكن العامة بقبابها العالية ومساحاتها الكبيرة وأثاثها ومفروشاتها الجميلة، ولكل دار منها صحن يوصل إلى سلم صغير يرتفع إلى السطح.[22]

ومن الأشياء الغريبة عن مواد البناء والتشييد في تنبكت، ما ذكره ابن بطوطة من أن ألواح الملح الضخمة الكبيرة كانت تستخدم في البناء بدلا من الحجارة وكانت تشبه ألواح الرخام في صلابتها وبريقها. ويذكر أن الجمل كان في بعض الأحيان لا يستطيع حمل أكثر من لوحين من ذلك الملح الصخري.[23]

وقد تعددت الأجناس في تنبكت، فهناك قبائل من العرب، والبربر، والسنغاي، والطوارق والمغاربة، والمصريين ؛ وهم جميعا يلبسون ملابس متشابهة ويرتدي أغلبهم الملابس البيضاء، والعمامة البيضاء أيضا، أما العمامة الزرقاء من القماش الداكن فكانت تميز المغاربة الموجودين في تنبكت.[24]

وقد كان لنشأة مدينة تنبكت - نشأة إسلامية - أثر كبير في أن تقوم حكومتها على أسس إسلامية منذ البداية.

وقد دخلت تنبكت تحت حكم إمبراطورية مالي منذ دخلها منسا موسى في عام 728 هـ / 1327 م، وفي ظل إمبراطورية مالي تقدمت تنبكت في جميع مجالاتها

---

21. *نفس المرجع ونفس الصفحة.*
22. Dubois, *Op. Cit.*, pp. 213, 214, 215.
23. ابن بطوطة، *الرحلة*، ص 44.
24. السعدي، *مصدر سابق*، ص 21.

السياسية والإقتصادية والثقافية، وإن كانت من الناحية الثقافية لها مكانتها والمنزلة الأولى.[25]

وقد استولى سنى علي على تنبكت في شهر رجب 873 هـ / 1468 م، وجعلها العاصمة الثانية لملكة سنغاي بعد جاو وعين واليا عليها بعد أن خربها جنوده، لكن ازدهرت تنبكت ثانية في عهد أسكيا محمد.[26]

ثانيا : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تنبكت في ظل دولتي مالي وسنغاي.

أ ـ الحياة الاقتصادية

لعبت التجارة بالذات دورا رئيسيا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لمدينة تنبكت، وذلك بالنسبة لموقعها الاستراتيجي الهام الذي أشرنا إليه من قبل وقد ذاع صيت المدينة وشهرتها التجارية بحيث أصبحت مقصد التجار الأفارقة من جميع الأقطار بل تعدت شهرتها إفريقيا إلى أوروبا.[27]

وقد أدت التجارة ـ كما سنوضح فيما بعد ـ إلى انتشار الإسلام. وكان من أثر الإسلام في تلك البلاد السودانية أن تضاعفت التجارة، فقد أصبحت تنبكت سوقا تجارية كبيرة عامرة بالبضائع الإفريقية والمنتجات الأوربية. وقد تعددت الطرق التجارية التى تؤدي إلى تنبكت...[28]

كما ارتبطت تنبكت بعلاقات تجارية مع المغرب، وكان المغاربة هم أهم عملائها التجاريين، وشهدت هذه العلاقات نشاطا ملحوظا خاصة عندما أرسل منسا موسى وفدا إلى السلطان ابن الحسن المريني يهنئه بانتصاره على بني زيان، وقد تبودلت الهدايا القيمة بين الطرفين بهذه المناسبة.[29]

---

25. *نفس المرجع*، ص 22.
26. كعت، *مصدر سابق*، ص 48.
27. العمري، ابن فضل الله، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 599 معارف عامة، جـ 2، ورقة 493.
28. أشار Bovill بتفصيل إلى هذه الطرق والمحطات التجارية بها.
29. الشيخ الأمين عوض الله، *مصدر سابق*، ص 81. وكذلك Dubois, *Op. Cit.*, p. 252

وتمثلت التجارة في معدن الذهب والنحاس الذي كان يرد من تكدا التي تقع شرقي تنبكت، والملح الموجود في تغازة. وقد لعب الملح الجبلي دورا رئيسيا في ازدهار اقتصاد تنبكت. ومما ذكر عن أسباب حملة المنصور الذهبي، الاستيلاء على مناجم الملح.

وقد تمثلت الواردات إلى أسواق تنبكت في الخيول العربية الأصيلة الجيدة السلالة من المغرب ومصر والأقمشة المغربية والمصرية والعطور والثمور والكتب والجلود المدبوغة أو المصنوعة والأصباغ والأسلحة والسكر والشاي والبن والتبغ. وكانت أسواق تنبكت عامرة بالبضائع الواردة من المغرب أو المشرق أو أوروبا. ولم تكن الحوانيت تقام اعتباطا، بل هناك أماكن خاصة لكل فئة من البائعين ؛ وهذا يدل على ما وصلت إليه تنبكت من تنظيم.[30]

ومما شد انتباه الرحالة الذين زاروا تنبكت وجود نظام مصرفي متقدم، فقد أشار ديبوا إلى شيوع استخدام "خطابات الضمان" التي يستخرجها كبار التجار ويتعاملون بموجبها مع تجار المغرب وغيرها وهي تشبه الشيكات المصرفية.[31]

كذلك وجدت عقود البيع والشراء وكانت تبدأ عادة بالبسملة، كما ذكر أن الأرباح التجارية كانت تراعى فيها النسبة الشرعية في الربح.[32]

أما عن العملة المستخدمة فقد كانت عملية "المقايضة" هي السائدة، لكن استخدام الذهب الخالص، التبر مخصص للمعاملات الكبيرة، كما استخدمت قطع النحاس وقضبان الحديد والودع في المعاملات العادية.

وكانت للقطع المعدنية المستخدمة أوزان خاصة، أما الودع فقد كان يعد، وكانت منه أنواع متميزة.

وقد تطورت المعاملات التجارية بمضي الوقت، فوجدت الأوزان والمقاييس والمكاييل. ولقد لعبت تجارة الذهب والملح دورا هاما في العلاقات التجارية والسياسية بين السودان الغربي والمغرب لعدة قرون.[33]

30. ابن بطوطة : *الرحلة*، ص 441 ـ 443.

31. Dubois, *Op. cit.*, p. 264

32. البكري : مرجع *سابق*، ص 173.

33. كعت، مصدر *سابق*، ص 182 ـ 183.

وإذا كـانت التـجارة قـد مثلت ركنا هاما في اقـتـصـاد تنبكت، فإن الزراعـة والرعي أيضـا لعبـا دورا مهـمـا، فـقـد أنتج المزارعـون في تنبكت الذرة والقمح والأرز والخضروات والفواكـه كـالمشـمش والخوخ وزرع التبغ ونبات الكولا. ومن الحيـوانات التي عرفت في تنبكت الأبقار والماعز ودواب النقل والجمال. كما استخدمت الخيول ووجدت الطيور الداجنة والأسماك.

وقد قامت في تنبكت صناعات الأقمشة القطنية والصوفية والكتانية وصناعة الزيوت وصناعات حيوانيـة، مستفيدين من ألبان الحيوانات وجلودها. كما قامت صناعات معدنية مستغلين معدن الذهب والنحاس والحديد. كما قامت صناعات على العـاج وسـن الفـيـل وريش النعـام. وكـان للوراقـين دور في النشـاط الإقـتـصـادي في تنبكت.[34]

وقد كان الدخل من قوافل التجارة القاصدة تنبكت أو الخارجة منها يمثل موردا هاما لخزانة حكومة سنغاي.[35]

وقد كانت الضرائب تدفع عينا أو نقدا، كما عرف نظام العشور، أي عشر غلة الأرض. وقد حاول الحكام في مالي وسنغاي الإلتزام بما فرضه الشرع من ضريبة أو جزية.

ب ـ *الحياة الاجتماعية*

كان طبيعيا أن تشهد مدينة تنبكت ـ باعتبارها مركزا تجاريا هاما ـ العديد من الأجناس ـ من الأفارقة والعرب والمغاربة بل وفدت إليها أعداد من المشرق العربي. لكن استطاع الإسلام والثقافة العربية أن يربطا بين جميع سكانها وأن يمزجا بينهم.

لكن، كما ذكر الرحالة، وجدت بعض التناقضات، فهناك بقايا عادات وتقاليد إفريقية، في الوقت الذي تسود فيه العادات والتقاليد الإسلامية ومبادئ الشريعة. وقد أشار لذلك ابن خلدون فقال إن من عاداتهم أن الرجل يرثه أبناء أخته دون بنيه، على أنهم مسلمون ملتزمون بتعاليم ومبادىء الإسلام؛ والشخص لا ينسب لأبيه بل ينسب لخاله.[36]

34. ابن بطوطة، *الرحلة*، ص 446.

ملحوظة: من *المقاييس* التي استخدمت الذراع، والشبر، والفرسخ. ومن *المكاييل*: الصاع، والقنطار. ومن *الموازين*: المثقال، والقيراط، والأوقية.

35. ابن خلدون، *مرجع سابق*، جـ 6، ص 405.

36. ابن بطوطة، *الرحلة*، ص 443.

وفي مجتمع تنبكت وجدت طبقات. فهناك الطبقة الأرستقراطية، ثم طبقة رجال الدين والعلماء والفقهاء والقضاة، ثم طبقة التجار ورجال المال والثراء ؛ وتأتي بعد ذلك طبقة العبيد وهؤلاء كانوا درجات.[37]

ويقوم البناء الأسرى في تنبكت على تعاليم الإسلام. والمرأة لها مكانتها، ونظام الزواج، كما هو معروف في كافة المجتمعات الإسلامية. وكانت هناك مغالاة في المهور. وعرف نظام تعدد الزوجات، وكانت هناك احتفالات أسرية في المناسبات المختلفة كالزواج والاحتفال بالمولود الجديد وغير ذلك من المناسبات. وفي هذه المناسبات تذبح الذبائح وتقدم الهدايا، وتعزف الموسيقى، وتصنع الالآت الموسيقية من ثمار القرع، كما عرفوا الطبول والغناء. ويشير ابن بطوطة إلى المناسبات الدينية وما يتم فيها من احتفالات.[38]

وفيما يتعلق بالملابس، فقد كان للسلطان زيه الخاص المكون من الجبة والقلنسوة الحمراء الموشاة بالذهب. ويلبس الأثرياء الملابس الزاهية الفضفاضة البيضاء مع العمامة البيضاء أما الأئمة والعلماء فيلبسون رداء مميزا. كما أن التجار يلبسون السراويل،وقد أخذوا عن المغاربة ارتداء العمائم. ولرجال الجيش زيهم الخاص من السراويل المتسعة الضيقة الأكمام.[39]

والنساء الحرائر في تنبكت محجبات، ويلبسن في أرجلهن أحذية مصنوعة من الحرير المطرز بالزخارف. ويستخدمن العطور المستخرجة من الأعشاب والزيوت الطبيعية.

وفيما يتعلق بالطعام، فهم يكثرون من اللحم واللبن والخبز والأرز ويتناولون الشاي بالنعناع كعادة أهل المغرب، ويحفظون الماء في أواني من ثمار قرع العسل.[40]

---

37. الحسن بن الوزان، *مرجع سابق*، ص 99.
38. ابن بطوطة، *الرحلة*، ص 448. وكعت، ص 111.
39. عصمت دندش، *دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا*، رسالة ماجستير، معهد البحوث الإفريقية بجامعة القاهرة، 1975، ص 161.
40. الناصري، *الاستقصاء*، جـ 2 ص 3.

ثالثا : الحياة الثقافية في تنبكت ودور المغرب فيها

(تنبكت حاضرة الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا)

كانت لنشأة تنبكت الإسلامية أثر في ثقافتها، فقد كانت ثقافتها إسلامية. وقد حرص أهلها على تنشئة أولادهم تنشئة إسلامية، وقد أضحت تنبكت بحق حاضرة الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا، وكان المغرب من أهم المراكز التي زحفت منها الدعوة الإسلامية والثقافة الإسلامية إلى الجنوب.[41]

أ - مراكز التعليم (الكتاتيب - المدارس - المساجد)

أصبحت المساجد في تنبكت مراكز للتعليم، وقد ألحقت بها حجرات لتعليم الأطفال وطلاب العلم، وكانت الدروس تلقى فيها طوال اليوم، ولا تنقطع إلا في أوقات الصلاة. ويستمر التعليم والتدريس فترة من الليل على ضوء الحطب.[42]

وكان التعليم في تنبكت يبدأ عادة عندما يبلغ الطفل سن السابعة. فكان أبوه يأخذه إلى المعلم (الألفا) ليتعلم مبادىء القراءة والكتابة، باللغة العربية، وليحفظ القرآن الكريم وأصول الصلاة. وكان الطفل يستخدم اللوح ليتقن الكتابة ويتعلم مبادئ الحساب وليتقن سورا وآيات من كتاب الله الكريم.

وإذا أتم الطالب تعليمه في الكتاب ينتقل للمرحلة التالية. وينتقل الطلاب بعد معرفة القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم إلى دراسة الكتب الدينية والفقهية التي تشتمل على المواد بتوسع وتفصيل.[43]

وكانت تدرس إلى جانب الكتب الدينية مواد الحساب وبعض المواد التي تكسب الدارس خبرة مهنية كالتجارة والحدادة بالإضافة إلى الخياطة للطالبات. ويحصل الطالب في النهاية. بعد إتقان هذه المواد واكتساب الخبرة المطلوبة، على شهادة مكتوبة تؤهله لمواجهة الحياة، فهي بمثابة تصريح من المعلم له بذلك.[44]

---

41. ديشان، هوبير، *الديانات في إفريقيا السوداء*، ترجمة أحمد صادق حمدي، القاهرة،1956 ص132.
42. قداح، نعيم، حضارة *الإسلام*، وحضارة *أوروبا في إفريقيا الغربية*، القاهرة، 1974، ص59، ص142.
43. عصمت دندش، مرجع سابق، ص 187.
44. كعت، مصدر سابق، ص 180.

وقد انتشرت الكتاتيب والمدارس الإبتدائية في القرى والمدن المحيطة بتنبكت ذاتها. وقد وجدت بعض الفتيات اللاتي يقمن بتعليم الفتيات.[45]

أما المراحل العليا من التعليم فتتمثل في نشاط جامع سنكوري الذي قام علماؤه بنشاط كبير في الحركة الفكرية والدينية. وقد تعددت المساجد والجوامع في تنبكت وأصبحت من أهم مراكز الثقافة نذكر منها جامع سيدي يحيى ومسجد جنجوبير.

ولقد أصبح جامع سنكوري بالذات يماثل في مكانته العلمية جامع القرويين في المغرب لما كان يدرس فيه من علوم دينية وما يعقد من حلقات تناقش فيها كتب الحديث والفقه والمنطق والنحو واللغة العربية وآدابها والتهذيب والسير والتواريخ والفلك.[46]

وكان أجر المعلم في المدارس الابتدائية بالذات يدفع إما ودعا أو عينا من المحاصيل الزراعية أو حيوانات الرعي. وقد سكن كثير من العلماء بجوار المساجد والجوامع.

وتنتهي الدراسة بأن يُعطى الطالب شهادة تدل على أنه أصبح متمكنا في المادة التي درسها، والشهادة تعطى عادة في حفل كبير وأحيانا تسلم للدارس عمامة دليلا على أنه أصبح من العلماء.

وقد كانت اللغة العربية هي لغة البلاد الرسمية تدون بها المراسلات الرسمية، وتلقى بها الخطبة في المسجد ـ لكن بقيت اللغات واللهجات المحلية لغات التخاطب بين القبائل، وكانت طريقة الكتابة في تنبكت على طريقة أهل المغرب، فقد كان القلم والخط المغربي هو السائد.[47]

ب ـ مكتبات تنبكت ودورها الثقافي

نشطت المكتبات في تنبكت بشكل ملحوظ. ويقصد بها المكتبات العامة التي انتشرت في المدن حيث وجد عدد من الذين يمارسون هذه المهنة التي لاقت رواجا وكذلك المكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع بالإضافة إلى المكتبات الخاصة لدى العلماء والمثقفين.

45. السعدي، مرجع سابق، ص 219.
46. السعدي، مرجع سابق، ص 91.
47 .حسن أحمد محمود، *الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا*،1963.

وقد اهتم عدد من الملوك والسلاطين بإقتناء الكتب النادرة، مهما كلف ذلك من جهد أو مال. ونذكر من هؤلاء منسا موسى وأسكيا محمد.[48]

على الرغم من أن العديد من الكتب التي كانت بمكتبات تنبكت قد فقدت أثناء الأحداث المتتالية التي ألمت بها، أو نقلت لمكتبات أخرى خارج المدينة ذاتها بل خارج إفريقيا، لكن لا تزال هذه المكتبات تحتفظ بالعديد من المخطوطات الهامة الفريدة. وقد أشار بعض الرحالة الأجانب من أمثال ديبوا ، وبارث والمؤرخين من أمثال ترمنجهام إلى ما تحتويه هذه المكتبات من كتب ومخطوطات.[49]

وكانت الكتب تدون - قبل وصول الورق من المغرب - على جلود مدبوغة أو على الورق المصنوع من القطن. وكانت هذه الأوراق أو الجلود تربط ببعضها بخيوط رفيعة وتحفظ في صناديق أو تلف وتوضع داخل علب من النحاس، وقد كان لبعض حكام تنبكت نساخ متخصصون في نسخ وكتابة الكتب النادرة. وقد نشط الوراقون والنساخ وأصبحت لهم مكانة مرموقة.[50]

وبالإضافة إلى الخزانات العامة، كانت الأسر الكبيرة في تنبكت تحرص على أن تقتني أمهات الكتب وتحتفظ بها في خزاناتها الخاصة. وقد كان كثير من العلماء والفقهاء لا يبخلون على طلاب العلم والمعرفة بإعارتهم ما يحتاجون إليه من كتب من مكتباتهم الخاصة التي كانت تحتوي على آلاف الكتب.

ومن الأسر التي اقتنت عددا من الكتب القيمة الغالية والمخطوطات النادرة أسرة آقيت. وقد أنجبت هذه الأسرة عددا من الشخصيات الهامة من العلماء والفقهاء والقضاة منهم العالم الفقيه أحمد بابا التنبكتي.[51]

48. ابن بطوطة، *الرحلة*، ص 452.

49. Dubois, *Op. Cit.*, p. 287.

50. **ملاحظة** : أشير إلى أن عددا هاما من نفائس المخطوطات قد تداولته خزائن فاس، وتنبكت وغيرها من مدن السودان الغربي الهامة قبل أن تستقر في أماكنها الحالية، وقد أشار د. عبدالرحمن زكي إلى بعض المراجع العربية والمخطوطات الموجودة حاليا في مكتبات تنبكت وغيرها من عواصم غرب إفريقيا وذلك في المحاضرة التي ألقاها بدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية يوم 20 نوفمبر 1967.

51. **ملاحظة** : قدم الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني - بصفته ممثلا لجامعة محمد الخامس المغربية - في مؤتمر الدراسات الشرقية السابع والعشرين الذي عقد بجامعة آن أبر بميشيغان بالولايات المتحدة في أغسطس 1967 بحثا بعنوان "مؤلفات علماء غرب إفريقيا

ج- علماء تنبكت ودورهم الثقافي

أنجبت تنبكت عددا كبيرا من العلماء، وقد برزت أعمالهم ومؤلفاتهم وذاع صيتهم سواء في السودان الغربي أو في غيره من الأقطار العربية. وقد قيل أن أسكى محمد لا يقوم لأحد من القوم إذا قدموا عليه ولا يأكل مع أحد إلا العلماء والقضاة.[52]

وقد كان علماء تنبكت جديرين بهذه المنزلة فقد اتصفوا بالتواضع والبعد عن الضمائر وحرصوا على الحفظ والاجتهاد والإطلاع والجري وراء الحقيقة، وكان الملوك يستشيرونهم في مهام الأمور، وإذا مرض أحدهم زاروه في مسكنه، ولا يمكن أن نذكر كل من برز من علماء تنبكت، لكن نشير على وجه الخصوص لبعضهم :

منهم العالم محمد بن أبي بكر، وكان قاضيا على تنبكت. ومن أبرز قضاة تنبكت وعلمائها محمود كعت. ونشير أيضا إلى الشيخ محمد بن الكريم المغيلي وكان معاصرا لأسكى محمد. ومنهم أيضا عبدالرحمن بن عبدالله بن عمران السعدي صاحب كتاب *تاريخ السودان* الذي تناول فيه تاريخ السوادن الغربي حتى عام 1065 هـ / 1654 م. وقد برز عدد كبير من أسرة آقيت أذكر منهم القاضي محمود بن عمر بن آقيت وأحمد بابا التنبكتي، وقد جاء إلى المغرب بعد حملة المنصور السعدي.[53]

وقد لمعت أسماء كثيرة غير هؤلاء يضيق المجال عن ذكر أسمائهم، ولكن لا يمكن أن نتجاهل مآثرهم ودورهم في إثراء الثقافة العربية. وكما ذكرنا، فإن الباحثين الأوروبيين أنفسهم من أمثال بارث وديبوا قد تحدثوا بإسهاب عن دور هؤلاء العلماء في النهوض بالثقافة العربية والإسلامية بل لهم إضافاتهم الواضحة وإسهاماتهم في إثراء الثقافة الإنسانية عامة.

د - العلوم التي برز فيها علماء تنبكت

اهتم علماء تنبكت بدراسة عدة علوم، في مقدمتها علوم القرآن الكريم والفقه

في المكتبة المغربية"، أشار فيه على وجه الخصوص إلى مؤلفات الشيخ المختار الكنتي التنبكتي وأولاده وأحفاده. انظر : دعوة *الحق* العدد الأول، السنة الحادية عشرة، شعبان 1387 (نوفمبر 1967) ص 84 وما بعدها.

52. كعت، *مصدر سابق*، ص 11.

53. محمد الغربي، *بداية الحكم المغربي في السودان الغربي*، 1982.

والحديث والتفسير والتاريخ والسير والتراجم والرحلات والمنطق والنحو والعلوم الفلسفية والرياضيات والهندسة والفلك والأدب وتحسين الخطوط وفنونها والطب والهندسة المعمارية.[54]

وقد درست عدة مصادر ومراجع في هذه المجالات منها كتب *الموطأ*، *والألفية* لابن مالك وصحيح *البخاري* وصحيح مسلم *والنسائي والترمذي*، *والجذرية في العروض* ومختصر *الخليل* وأبو القاسم وكتب المغيلي والونشريسي *وتحفة الحكام والعباد الخزرجية والمدونة*. ولم يكتف علماء تنبكت باستيعاب ما في هذه المؤلفات لكنهم اهتموا بشرحها ومناقشتها وتحليلها.

وقد ساد المذهب المالكي في تنبكت وغيرها من عواصم غرب إفريقيا. وقد التزم علماء وفقهاء وشيوخ تنبكت بتعاليم المذهب المالكي وأصبح دور العلم في تنبكت حريصاً على الالتزام بتعاليم المالكية.

وقد ارتبط انتشار الإسلام والثقافة العربية في تنبكت وغيرها من مراكز العلم في غرب إفريقيا والسودان الغربي بانتشار الطرق الصوفية. فالتصوف في القارة الإفريقية أصبح جزءا أساسيا من البنية الإسلامية وارتبط بحركة الجهاد التي تصدت فيما بعد للإستعمار الأوربي، وقد كانت للتصوف آثاره البعيدة في كل مناحي الحياة.[55]

وقد كانت الطريقة القادرية بالذات أول طريقة منظمة دخلت مراكش من خلال العالم المراكشي المشهور أبي مدين الغوث (1126 ـ 1198) والذي قابل مؤسس الطريقة الشيخ عبدالقادر الجيلاني في بغداد بعد أداء كل منهما فريضة الحج.[56]

وقد أصبح سيدي علي الكنتي قطبا من أقطاب الطريقة القادرية، وعندما انتقلت قبائل الكونتا في القرن الخامس عشر إلى واحة توات حملوا معهم مبادىء القادرية، وتطورت الطريقة بعد ذلك في السودان الغربي، وانتقلت إلى جهات

---

54. نفس *المرجع السابق*، ص 516.

55. عبدالله عبدالرازق إبراهيم، *أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية*، القاهرة 1990، ص9.

56. ابن خلدون، *المقدمة*، المجلد الأول، الفصل السابع عشر في التصوف، ص 882 ـ 885.
والدكتور عبدالله عبدالرازق، *المرجع السابق*، ص 35 وما بعدها.

متعددة في غرب القارة، وصارت لأتباع الطريقة مكانة روحية كبيرة بين قبائل الصحراء وبرز من أعلامها الشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلي.

وقد تأقلمت الطرق الصوفية التي انتقلت لغرب إفريقيا مع البيئة الجديدة، واتخذت أوضاعا وأشكالا تتناسب وهذه البيئة، بل إنها ـ كما ذكرنا ـ اتخذت أسماء أخرى فرعية نسبة إلى زعمائها الجدد الذين قاموا بنشرها في هذه الأقطار.

هـ ـ دور المغرب في إثراء الحياة الثقافية في تنبكت

توطدت العلاقات بين المغرب والأقاليم الواقعة جنوب الصحراء وساعدت عوامل متعددة على توثيق هذه العلاقات.[57] نشير إلى هذه العوامل باختصار.

ـ *هجرة بعض القبائل العربية للجنوب* :

فقد تتابعت هجرات القبائل العربية إلى المغرب ومنه إلى الجنوب، ولعل من أبرز القبائل التي لعبت دورا حاسما في نشر الإسلام والثقافة العربية في تنبكت وغيرها من حواضر السودان الغربي، قبائل الملثمين و الطوارق بالذات.

ويذكر د. حسن محمود أن قبائل الملثمين والطوارق قامت بدور الوسيط بين المغرب من ناحية، وبين أقاليم غرب إفريقيا جنوب الصحراء من جهة أخرى ؛ فهم الذين حملوا الإسلام وحضارته إلى هذه الجهات.[58]

والحقيقة أن المغرب بوضعه الحضاري والجغرافي والديني أصبح مصدر إشعاع انبعثت منه تيارات الحضارة العربية والإسلامية إلى غرب القارة جنوب الصحراء، فهو بموقعه الفريد في ملتقى عدة تيارات حضارية، فهو يتقبل حضارة الشرق الإسلامي، كما يتلقى مؤثرات البحر المتوسط، والمؤثرات الأوروبية بالإضافة إلى المؤثرات الإفريقية، وتبلورت كلها في النهضة التي بلغت ذروتها في بداية العصور الحديثة. ولذلك لم يكن المؤرخ السعدي السوداني بعيدا عن الصواب حين ردد في أكثر من موضع في كتابه "إن حضارة غرب إفريقيا حضارة مغربية قلبا وقالبا".[59]

---

57. للمزيد من التفاصيل عن هذه العوامل، انظر :
شرقي عطا الله الجمل، "الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا وسماتها، ودور المغرب فيها"، *المناهل*، العدد السابع، ذو القعدة 1396 / نوفمبر 1976.

58. حسن أحمد محمود، *الإسلام والثقافة العربية*، ص 221.

59. السعدي، *مرجع سابق*، ص 21، 51 ، 57.

- *التجارة :*

أشرنا من قبل إلى العلاقات التجارية التي قامت بين شمال إفريقيا والأقاليم الواقعة جنوب الصحراء.

والمهم هنا أن نشير إلى أن الأمر لم يقتصر على التبادل التجاري، لكن تيار التجارة كان يحمل معه تيارا ثقافيا حضاريا قويا، فعن طريق التجارة دخل الإسلام والثقافة العربية إلى تنبكت وغيرها من حواضر غرب إفريقيا. فعبر الطرق التجارية اتصل المغرب بالسهل الخصيب الواقع جنوب الصحراء الكبرى، وعبر الطريق التجاري وجدت مراكز تجارية، وفي ركاب التجارة دخل الإسلام والحضارة العربية إلى غرب إفريقيا؛ وانتشر بعد ذلك أكثر بانتشار نفوذ المسلمين، فقد أصبح الإسلام - كما يقول ترمنجهام - "بمثابة تصريح مرور لمن يريد الاتجار بنجاح مع السلطات الإسلامية في إفريقيا الغربية".[60]

والحقيقة أن الذين كتبوا عن قصة التجارة في غرب إفريقيا وما كان يتم في هذه الرحلة الطويلة في هذه الأيام التي لم يكن عامل السرعة والوقت فيها له من الاعتبار، كما نحس نحن به الآن، يعطوننا صورة رائعة عن أثر الاحتكاك البشري والحضاري والثقافي بين المتعاملين في هذه الحرفة، حرفة التجارة.

وقد أدخل المغاربة النقود في المعاملات التجارية إلى جانب القطع الذهبية، المسكوكة، وقد عثر في القصر الملكي في مالي على قطع نقدية مغربية.

ويشير الشيخ انتا ديوب إلى أن التجار الأفارقة قلدوا المغاربة في كثير من نمط حياتهم، وأنه أصبحت لهم سوق في كل مدينة بغرب إفريقيا يعقد في يوم معين أسبوعيا. ويذكر أن حكام تنبكت وغيرها أخذوا عن المغاربة مباديء المعاملات التجارية، فأقاموا القضاء الإسلامي حسب الشريعة الإسلامية إلى غير ذلك من التأثيرات الواضحة في حياتهم ومعاملاتهم.[61]

- *الحج :*

كان الحج ومازال من أهم العوامل التي تيسر للمسلمين فرصة الإلتقاء

Trimingham, J. Spencer, *Islam in West Africa*, Oxford, 1961, p. 20. .60

Diop, Anta, *L'Afrique Noire Pré-coloniale*, Paris 1952. .61

والتبادل الفكري والثقافي. وقد حرص حكام الدول الإسلامية كلها في غرب إفريقيا، وشعوبها على أداء هذه الفريضة، وقد كانت عدة طرق تطرقها قوافل الحجاج.

وكانت رحلة الحج بالغة الأثر في نفس الإفريقي الوافد من غرب القارة مخترقا كل هذه الآفاق إلى الأراضي الحجازية حيث يجتمع حجاج المسلمين من مختلف البقاع في وقت واحد، فقد كانت هذه الرحلة تشعر الإفريقي بالأخوة التي يكفلها الإسلام لجميع المسلمين، وبهذا تتحطم الفواصل القبلية، وكما يقول ترمنجهام : "إن شعورا بأن الإسلام ديانة الأفارقة جميعا كان يمتلك المسافرين في رحلة الحج".[62]

وقد أشرنا من قبل إلى رحلة الحج الشهيرة التي كان على رأسها منسى موسى سلطان مالي (724 هـ / 1323 م). ومما ذكر عن بعثة الحج هذه أن سلطان مالي في طريقه إلى الحج بعث رسالة إلى سلطان المغرب يخبره فيها بأن موكبه سيمر من الطريق المحادي لساحل البحر المتوسط فأصدر السلطان المغربي أوامره بحراسة موكب السلطان المالي أثناء اجتيازه الصحراء، ولبست المملكة حلة الزينة لاستقبال ضيف المغرب.

- العلاقات السياسية الودية بين المغرب وحكام تنبكت :

اتسمت - كما ذكرنا - العلاقات السياسية بين حكام المغرب وحكام تنبكت بالود وتبادل الهدايا في المناسبات الطيبة، وكان أهل تنبكت وحكامها أيضا يظهرون مشاعرهم ومشاركتهم الوجدانية للمغرب وحكامه عند حدوث أية حادثة مؤلمة. فقد ذكر مثلا أن منسا سليمان لما بلغه وفاة السلطان المغربي أبي الحسن أمر بقراءة القرآن على روحه في المساجد ترحما عليه.[63]

ونشير هنا إلى أن هذه العلاقات الودية بدأت تتغير بعد أن أخذ اسكيا محمد ملك سنغاي لقب خليفة بلاد التكرور والسودان الغربي من الخليفة العباسي في مصر، فقد كان لهذا الأمر وقع سيئ على ملوك المغرب الذين اعتبروه منافسا لهم على المنصب الروحي. ولعل هذا ما أدى فيما بعد بالمنصور السعدي إلى إرسال حملة ضد أحد خلفاء أسكيا محمد وهو اسكيا إسحق.

62. Trimingham, *Op. cit.*, p. 86.
63. الشيخ الأمين، *مصدر سابق*، ص 84.

ـ *توافد العلماء والفقهاء والمهندسين المغاربة لغرب إفريقيا :*

لا يمكن لباحث أن يتحدث عن الحياة الثقافية والفكرية المزدهرة في تنبكت دون أن يذكر دور المغرب الواضح وبصمات مثقفيه وعلمائه ومهندسيه ومعاهده الثقافية على تنبكت منذ نشأتها وفي أوج عظمتها الثقافية.

فبالاضافة إلى الاحتكاك الحضاري بين المغاربة والتنبكتيين وما ترتب عليه من آثار، فقد انطلق طلاب العلم والمعرفة من تنبكت إلى المغرب ودرس كثيرون منهم في القرويين، كما جذبت ذاتها عددا من علماء المغرب، خاصة أن حكام تنبكت البارزين شجعوا العلماء على القدوم لمدينتهم وأجزلوا لهم العطاء وأكرموهم.[64]

وقد انتشرت تجارة الورق في تنبكت، ونشأت حرفة الوراقين والنساخين والمكتبات عن طريق الاتصال بالمغرب والأخذ منه.

أما عن الفن المغربي والعمارة المغربية بالذات فقد ظهر آثارها بوضوح في المدارس والمساجد والقصور، وقد كان للمهندسين المغاربة من أمثال أبي إسحق الطويجن وغيره أثرهم الواضح في صبغ الفن المعماري التنبكتي بالصبغة المغربية والأندلسية.

والغريب أنه وجدت فقيهات مغربيات صالحات أثرن في الحركة العلمية والثقافية والدينية في تنبكت، مثل أم هاني، بنت محمد العيدوس. وقد كان لطلاب العلم التنبكتيين الذين يتلقون علومهم في القرويين بالمغرب ويعودون لبلادهم منزلة كبيرة، وكانوا يحتلون مراكز هامة، وهكذا أثر المغرب بثقافته وحضارته في الثقافة في تنبكت وغيرها من مراكز الحضارة في السودان الغربي.[65]

رابعا : تنبكت في ظل الإدارة المغربية

في يوم 30 مايو 1519 دخل الجيش المغربي مدينة تنبكت واتخذها عاصمة له بالسودان الغربي. وقد امتد الحكم المغربي للسودان الغربي ثلاثة قرون كاملة حكم هذه البلاد فيها مائة وثمانين حاكما سموا بالباشوات ينتسبون كلهم تقريبا لعائلات مغربية معروفة في مراكش ودرعة وفاس وسلا حكموا باسم سلاطين المغرب، وكان

64. المقريزي، *الذهب المسبوك*، ص 112. عصمت دندش، مرجع سابق، ص 162.

65. أحمد بابا، مصدر سابق، ص 165.

يدعى للسلطان المغربي في المساجد. واستمر الوضع إلى أن سقطت تنبكت في أيدي الجيش الفرنسي في عام 1894.

وقد أبقت الإدارة المغربية على الهياكل التقليدية للإمبراطورية السنغية والممالك، والسلطنات التي كانت قائمة مع ضمان ولائها للمغرب وتقبلها للإدارة والقانون المغربي، وقد احتفظت الإدارة الجديدة للآساكى في تنبكت بكل مظاهر الملك على أن يعترفوا بالبيعة للسلطان السعدي، وقد عين الأسكيا محمد كاغ ونصب على أريكة المحمل الأحمر وضربت له الطبول وصار خليفته الاسكيا سليمان على نفس النهج، وبقى الأساكى في تنبكت يزاولون مهامهم كملوك للسنغاي. وقد ذكر منهم المجهول في *تذكرة النسيان* ستة عشر اسكيا إلى نهاية حياته عام 1748 وقدم تراجم لهم.

وقد قام الحكم المغربي في السودان الغربي على أساسين :

الأول : ممارسة إحدى واجبات الخلافة الإسلامية.

الثاني : البيعة العامة.

فالمنصور اعتبر نفسه الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين، كما أن الأقاليم السودانية اعتبرت إحدى عمالات (ولايات) المغرب.

وسنقصر الحديث ـ كما ذكرت ـ على الآثار التي ترتبت على الحكم المغربي للسودان الغربي، فلا شك في أن هذا الحكم كان له أثره على الحياة الاقتصادية وعلى المجتمع، كما كان له أثره الثقافي والحضاري.

أولا : في المجال الاقتصادي :

أثر الوجود المغربي في السودان في الأسس البنيوية للإقتصاد السوداني مما أدى إلى إحداث تغيير جذري في كمية ونوعية الإنتاج، وفي التصنيع والتجارة، وساهمت ظروف الأمن والتنظيم الإداري الجديد، والقوانين التجارية في التطوير، والنمو الاقتصادي، وقد تمثل التغيير الإقتصادي فيما يلي[66] :

1. ترتب على الوجود المغربي تحقيق الوحدة الإدارية بين أقاليم السودان وتبع ذلك استتباب الأمن والنظام واختفاء قطاع الطرق.

66. محمد الغربي، *مرجع سابق*، ص 427 وما بعدها.

2. تزايد إقبال التجار على نقل بضائعهم من وإلى المغرب.

3. حسن استغلال مناجم الذهب، والملح، النحاس.

4. انتشار التعامل النقدي بدلا من المقايضة.

5. ادخال الموازين والمكاييل والمقاييس.

6. تنظيم الأسواق المحلية.

7. ظهور صناعات تحويلية وكمالية لم تكن معروفة.

8. نقل مزروعات جديدة من المغرب إلى السودان.

ثانيا : التطور في المجال الثقافي :

مع أن بعض الكتاب يركزون على ما أصاب بعض علماء تنبكت نتيجة نقلهم عنوة إلى المغرب عائلة آقيت بالذات، فمما لا شك فيه أن هؤلاء الذين نقلوا للمغرب، وفي مقدمتهم أحمد بابا التنبكتي قد تفاعلوا مع البيئة المراكشية الجديدة وأثروا في الحياة العلمية بالمغرب وكان لهم نشاطهم البارز في الفترة التي قضوها بالمغرب.[67]

هذا وقد واصلت الحياة الثقافية مسيرتها في تنبكت بعد ذلك، وساهم فيها علماء جاءوا من المغرب، وتدفقت الكتب من المغرب على أسواق ومكتبات تنبكت. وحين عاد المهاجرون إلى المغرب إلى بلادهم أثروا الحياة الثقافية ونقلوا الكثير مما شاهدوه بالمغرب إلى بلادهم، وأثر ذلك على نظم التعليم ووسائله.

وقد برز في فترة الحكم المغربي عدد من العلماء والكتاب في مختلف فروع العلم والمعرفة.[68]

ولا شك في أن اللغة العربية التي كانت سائدة في تنبكت قد تأثرت بوجود عدد من المتعلمين والمثقفين المغاربة فيها، كما أن الأدب بمجالاته المختلفة من قصص

67. يرجع للبحث الذي قدمه صاحب هذه الورقة في ندوة الاحتفال بالعلامة أحمد بابا التنبكتي بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته التي أقامتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) في مراكش في أغسطس 1991.

68. للمزيد من التفاصيل انظر : محمد الغربي، مرجع *سابق*، ص 522 وما بعدها.

ونثر، وشعر تأثر بهذا المزج بين الأدب المغربي الإفريقي الذي كان سائدا في تنبكت. لقد أثر المغاربة بوجودهم بأعداد كبيرة في تنبكت بالذات تأثيرا عميقا في مختلف نواحي الحياة الثقافية في تنبكت.

ثالثا : التطور الاجتماعي في تنبكت في ظل الإدارة المغربية :

أدى وجود أعداد كبيرة من المغاربة الذين استقروا في تنبكت بالذات إلى تعديلات جذرية في المجتمع التنبكتي.

فالوافدون الجدد كانت لهم عاداتهم وتقاليدهم، وانعكس ذلك بالطبع على المجتمع الجديد ؛ فقد أخذت كثير من التقاليد القبلية السابقة تضعف وتترك المجال لتقاليد وعادات جديدة. وقد ظهر ذلك التعبير في الحياة اليومية وفي العادات وفي المناسبات المختلفة وفي الملبس والطعام.

وظهر التعبير بشكل أوضح في الفنون. فعلى الرغم من أن تنبكت قد تأثرت بالفن المعماري وغيره من الفنون المغربية قبل أن تخضع للإدارة المغربية ـ لكن الفن المغربي ازداد تأصلا ووضوحا في ظل الإدارة المغربية. وظهر ذلك في بناء المنازل والأثاث المنزلي وفي المساجد والجوامع والمدارس.

أما عن العادات والتقاليد فقد ظهر التعبير بوضوح في المناسبات الدينية والأعياد والاحتفالات بها وممارسة الفرائض الدينية.

خاتمة

لقد كانت تنبكت ـ بلا شك ـ من أهم الحواضر في السودان الغربي ـ جنوب الصحراء التي ارتبطت بالمغرب عبر عصور التاريخ المختلفة.

وقد كانت لها علاقات قوية بالمغرب، وتأثرت به ثقافيا وحضاريا واجتماعيا، وانتشر الإسلام واللغة العربية من المغرب إلى هذه الحاضرة وغيرها من حواضرالسودان الغربي قبل أن تخضع تنبكت للإدارة المغربية.

وظهر أثر ذلك كله في النهضة الثقافية والحضارية والمعمارية في السودان الغربي وتنبكت بالذات التي برز من أبنائها علماء ذاع صيتهم وتعددت مؤلفاتهم.

وقد كفل المغرب لهذه النهضة الثقافية والعلمية وسائل ازدهارها ونجاحها من توفير المصادر العلمية إلى نشر وتأصيل عمليات كالنسخ وإنشاء المكتبات والتنافس في اقتناء أمهات الكتب والمراجع.

وكانت المدرسة بمراحلها المختلفة هي المؤسسة التي قامت في تنبكت منذ البداية بمهمة نشر نور العلم والمعرفة، وقد نشأت جنبا إلى جنب مع المسجد والجامع وأصبحت لها مهمتها المكملة لدور المسجد والجامع في نشر الوعي الديني والثقافي والحضاري.

وقد برز أثر الفن المعماري المغربي بوضوح في مساجد تنبكت وجوامعها التي ذاع صيتها. وحين امتدت الإدارة المغربية إلى تنبكت في عهد المنصور السعدي وخلفائه، أدى استقرار أعداد كبيرة من المغاربة في تنبكت، وامتزاجهم بين سكانها لتعميق هذه الآثار الحضارية والثقافية والإجتماعية في بيئة تنبكت وبين سكانها.

وترتب على ذلك تعديل في السلوك الإجتماعي وتغيير جذري في كثير من التقاليد والعادات والممارسات اليومية، وفي المناسبات الدينية والإجتماعية.

المصادر (باللغة العربية)

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت 1377)، *تحفة النظار في غرائب*

المصادر (باللغة العربية)

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت 1377)، *تحفة النظار في غرائب الأمصار*، بولاق، 1931، جـ 4.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان *المبتدأ والخبر* القاهرة، 1284، جـ 6.

ابن عذارى المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، نشر دوزي، جـ 1.

أحمد بابا التنبكتي، *نيل الابتهاج بتطريز الديباج*، النسخة الخطية بدار الوثائق بالرباط، تحت رقم D 766.

الإدريسي، محمد عبدالعزيز الشريف العلوي، *المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس*، لندن 1896.

البكري، أبو عبدالله، *المغرب في ذكرى بلاد إفريقية والمغرب*، نشر دى سيلان، الجزائر، 1857.

الحسن ابن الوزان (ليون الأفريقي)، *وصف إفريقيا*، ترجمة عبدالرحمن حميدة، الرياض، 1979.

السعدي، عبدالرحمن بن عبدالله بن عمران السعدي، *تاريخ السودان*، طبعة هوداس، 1898.

السلاوي، أحمد بن خالد، *الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى*، 1954.

العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأقطار*، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 599، معارف عامة، جـ 2.

الفشتالي، عبدالعزيز، *مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا*، تحقيق عبدالكريم كريم.

المراكشي، عبدالواحد، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق سعيد العريان، د.ت.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845 هـ / 1442 م)، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، تحقيق محمد مصطفى زيادة، جـ 1، جـ 2، 1934 ـ 1957.

المقريزي، *الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك*، تحقيق، جمال الدين الشيال، 1955.

عبدالرحمن زكي، *الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا*، 1965.

علي بن أبي زرع الفاسي، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، 1973.

كعت، محمود القاضي، *تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس*، نشر هوداس، ودولاغوس، باريس، 1913.

المراجع (باللغة العربية)

إبراهيم طرخان، *دولة مالي الإسلامية*، 1973.

عبدالعزيز سالم، *المغرب الكبير*، جـ 2، القاهرة، 1966.

الشيخ الأمين عوض الله، *العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي*، جدة، 1599 هـ / 1979 م.

توماس، ارنولد، *الدعوة إلى الإسلام*، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبدالمجيد عابدين، القاهرة، 1941.

حسن أحمد محمود، *الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا*، القاهرة، 1963، دولة المرابطين، 1957.

حسن علي حسن، *الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين*، 1980.

ديشان، هوبير، *الديانات في إفريقيا السوداء*، ترجمة أحمد صادق حمدي، القاهرة، 1956.

عبدالله عبدالرازق إبراهيم، *أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية*، القاهرة، 1990.

عبدالله علي علام، *الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمومن علي*، 1969.

قداح، نعيم، *إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*، دمشق، 1960.

كولان، جورج، *تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادريتية*، لمؤلف مجهول، الرباط، 1937.

محمد الغربي، *الحكم المغربي في السودان الغربي*، 1982.

محمد عبدالله عنان، عصر *دولة المرابطين في المغرب والأندلس*، 1383 / 1964.

أبحاث قدمت في ندوات علمية أو منشورة في دوريات :

شوقي الجمل، *تفاعل أحمد بابا التنبكتي مع البيئة المراكشية الجديدة وأثرها على حياته العلمية*، ندوة الإيسيسكو، 1991.

عبدالرحمن زكي، *المراجع العربية للتاريخ الإسلامي في غرب إفريقيا*، محاضرة بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 20 نوفمبر 1987.

محمد إبراهيم الكتاني، *مؤلفات علماء غرب إفريقيا في المكتبة المغربية*، دعوة الحق، العدد الأول، السنة الحادية عشر، شعبان 1357 / نوفمبر 1967.

محمد الفاسي، *موقعة وادي المخازن الحاسمة*، مجلة البحث العلمي، المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط، العدد التاسع، ديسمبر 1966.

رسائل جامعية :

حسن جلال الدين، *مملكة مالي الإسلامية وأهم مظاهر الحضارة بها*، رسالة ماجستير، معهد البحوث الإفريقية بجامعة القاهرة، 1978.

عصمت عبدالحميد دندش، دور *المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا*، ماجستير، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة.

مراجع باللغات الأجنبية :

Barth, H., *Travels and Discoveries in North and Central Africa* 3 vols, London, 1965.

Bovill, E. W. , *The Golden Trade of the Moors*, London, 1950.

Diop, Anta., *L'Afrique Pré-Coloniale*, Paris, 1952.

Dubois, Felix., *Timbouctoo, the Mysterious*, Translated by Diana White, N. Y., 1890.

Monteil ., *L'Islamisation de l'Afrique Noire*, 1964.

Niam, Djibril., *L'Empire de Mali*, Conakry, 1948.

Shaw, Flora., *An Out line of the History of the Western Sudan*, London, 1908.

Trimingham, J. Spincer., *Islam in West Africa*, Oxford, 1964.

بين أحمد باب وأحمد المنصور

محمد بنشريفة

أكاديمية المملكة المغربية

يبدو أنه وقعت منا غفلة أو تغافل في أول استقلالنا واستقلال البلدان الإفريقية عن استثمار التراث الضخم من التواصل بيننا وبين بلاد السودان، وأنا لا أنكر أن هذا التواصل لم يكن كله إيجابيا، وإنما كانت فيه سلبيات، وهي التي وقع استغلالها لتشويه طبيعة العلاقات التاريخية بين الدولة المغربية وشقيقاتها من الدول الإفريقية، ومنها مالي على سبيل المثال، وقد وقع التركيز بصفة خاصة على موضوع الحملة المغربية في عهد المنصور وهي حملة مهما كانت أسبابها ومبرراتها وسلبياتها فإنها لم تخل من بعض النتائج الإيجابية لاسيما عملية التمازج التي ماتزال بقاياها في مالي وفي المغرب وذلك على المستويين البشري والثقافي. ومن المعروف أن التواصل لا يكون دائما اختياريا وإنما يكون قسريا أحيانا، وعلى كل حال فإن ثمة كتابات تاريخية تطبعها العاطفة أعتبرها الغرض في هذا الموضوع وهي التي أثرت أحيانا على بعض المؤرخين الذين يتسمون بالرزانة والإعتدال، ومنهم على سبيل المثال الدكتور حسن أحمد محمود، فقد اضطرب قوله في تقييم الحملة السعدية واختلف حكمه عليها، فهو يقول عنها في كتابه: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا :

"وبلغ هذا الإتصال مداه في القرن السادس عشر حينما عمل سلاطين مراكش على التطلع نحو الجنوب، فدخلوا تنبكت وقضوا على دولة سَنْغى، وأعادوا الوحدة القديمة بين السودان وبلاد المغرب التي حققها المرابطون، وفي ظل هذه الوحدة انطلقت المؤثرات الثقافية بين القطرين من كل قيد، وانتقل كثيرون من علماء السودان إلى المغرب الأقصى، ومنهم الفقيه المعروف أحمد باب التنبكتي. ومؤرخو السودان ينسبون إلى هذا الإحتلال المراكشي كل رذيلة وينسبون إليه أسباب تأخر الثقافة العربية ثم اضمحلالها من القرنين السادس عشر والسابع عشر، وإن كنا نعتقد أن هذه الصلة لو قدر لها أن تطول لتركت آثارا هامة في مجرى الثقافة العربية في غرب إفريقيا ولكن المراكشيين انسحبوا

لمواجهة التوسع الإستعماري ومدافعة الخطر الذي تعرضت له السواحل المغربية".

ثم يقول بعد هذا في موضع آخر ما يلي :

"والفتح المراكشي وما أعقبه من احتلال وما صحبه من فوضى لم يسىء إلى الناحية الإقتصادية فحسب بل أساء للناحية الثقافية، وما نكاد نقرأ ما كتبه مؤرخو السودان منذ القرن السادس عشر فصاعدا حتى نحس بأن احتلال المراكشيين لتنبكت ولغيرها من حيث آثاره ونتائجه عن غزو المغول لبغداد".

ولم يكن غير المغاربة هم الذين انتقدوا حملة السودان، وإنما انتقدها بعض المغاربة أيضا قديما وحديثا مثل القادري في *نشر المثاني* والفقيه الكانوني في *جواهر الكمال* ؛ فقد تحدث عنها بلهجة تغلب عليها العاطفة وتخفى عنها حقائق ميزان القوى يومئذ، قال :

"من أكبر عيوب المنصور أنه على عظمة قدره كان معرضا عن الأندلس وأهلها، وما لنا للأندلس وهذه ثغور المغرب كانت لا تزال تحت يد العدو كالجديدة والدار البيضاء والمعمورة وطنجة والعرائش وسبتة، فكيف طاب للمنصور على ضخامة ملكه ووفور عدته مساكنة العدو ومزاحمته له حتى في الجديدة والدار البيضاء وهما من مراسي عاصمته مراكش، بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا وهو فتحه السودان وهجومه على تنبكتو عاصمة تلك البلاد وهي بلاد إسلامية مستقلة بنفسها كانت لها مدنية وعلوم ومدارس، وحمل علماءها مصفدين محمولين على الجمال كأنهم لصوص أو قطاع طرق مع أنهم كانوا مصابيح تلك البلاد وهداتها".

وما أبعد لهجة هذا التنديد عن لهجة التمجيد التي نجدها في الحوليات التاريخية *كمناهل الصفا* و*المنتقى المقصور* أو في *القصائد المطولات* للفشتالي وغيره.

وعلى كل حال ليس مقصودي في هذا الحديث معالجة حملة السودان لأنها موضوع كبير، وحديثنا هنا هو عن حادثة معينة من حوادث الحملة، وهي حادثة آل اقيت وزعيمهم أحمد باب وموقفه من أحمد المنصور.

وكما ذكرنا قبل فقد وقعت مبالغات في تصوير هذه الحادثة في معظم الكتابات التاريخية، وهوّل القادري في أمرها فقال : "ولمثل هذا تبكي البواكي". وقد ذهب هو والسعدي مؤلف *تاريخ السودان* إلى أن الإتيان بأحمد باب وأهله إلى مراكش كان فاتحة أبواب البلاء على الدولة السعدية.

فما الذي جرى لأحمد باب في واقع الأمر ؟

لقد امتحن حقيقة بسبب ما يمكن أن نسميه موقفا سياسيا من أحمد المنصور وبسبب النشاط الذي قام به في السودان، ولكن كيف كانت محنته ؟

قال بعضهم إنه كان في الحبس، وقال آخرون إنه وضع تحت الإقامة الإجبارية، وقيل إنه وقع من على ظهر الجمل فانكسرت ساقه، وقيل إن كتبه نهبت. وقيل وقيل وهي أقاويل، فيها مبالغة وتهويل، ولعل هذا يبدو مما يلي :

1) إذا كان أحمد باب قد استقدم إلى مراكش بسبب معارضته للسلطان فإنه مع ذلك عومل بغاية الإحترام، وأنزل منزلا يشعر بالإكرام، لقد أنزل هو وأهله في رياض بدرب عبيد الله في حي المواسين إلى جانب جامع الاشراف، ومن المعروف أن حي المواسين هو حي علية القوم وأعيان البلد ورجال الدولة، وما يزال الرياض الذي أنزل فيه موجودا ولو أنه جزء إلى أكثر من دار، وقد كان في هذا الرياض ممر خاص إلى الجامع وإلى المكتبة.

2) مما يدل على أنه لم يكن في حالة سجن أو اعتقال بالمعنى الدقيق كما أنه كان يستقبل الزوار لاسيما طلبة العلم في مراكش الذين ما قصروا في مؤانسته ومساعدته، وتلبية رغباته ومطالبه العلمية وهو يعترف بهذا في مقدمة كتابه *اللآلئ السندسية* فيقول :

> "وبعد فيقول عبيد الله الفقير الحقير، ذو القصور والتقصير، أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد اقيت عرف بابا التنبكتي الصنهاجي وفقه الله تعالى وهداه، وجعله من أهل وده وتقواه،لما قدر الله تعالى دخول بلدة مراكش على الوجه الذي أراده في الأزل وقضاه، وذلك في أواخر اثنين والف وسهل لي مع ما أنا فيه من التضييق والحبس الوقوف على جملة كتب غرائب لم أكن قبل وقفت عليها لكثرة تردد الطلبة إلي في محبسي، وإتيانهم إلي بالكتب لمحبتهم في الغريب من أبناء جنسهم".

وهذا نص واضح في الدلالة على العناية الفائقة التي لقيها أحمد باب من أهل مراكش الحمراء عموما وعلمائها خصوصا. وهو يعترف بذلك في مواطن مختلفة من تآليفه، وقد نوه مرارا في *نيل الإبتهاج* وفي *كفاية المحتاج* بأحد أبناء هذه المدينة ذوي الأخلاق الكريمة، وهو المؤرخ الأديب محمد بن يعقوب، ومما قال في حقه : "لم ألق بالمغرب أثبت منه ولا أوثق ولا أحذق ولا أعرف بطرق العلم منه".

وإذا عرفنا أنه لقي في المغرب عددا من الأعلام في مراكش وفاس من أمثال ابن القاضي مؤلف الجذوة و *الدرة* و *المنتقى* والمقري مؤلف *النفح* و *الأزهار* وغيرهما، أدركنا قيمة هذه الشهادة وقيمة هذا الرجل الذي نفتقد الآن آثاره ولا سيما فهرسته التي عرف فيها بأحمد باب وغيره. ونحن ندرك أيضا من قراءتنا *لنيل الإبتهاج* وكفاية المحتاج سر هذا التقدير وسبب هذه الشهادة.

فما أكثر ما نجد في *النيل* و *الكفاية* أمثال قول أحمد باب :

"كذا بخط صاحبنا المؤرخ محمد بن يعقوب الأديب"

أو "كذا كتبه لي صاحبنا المؤرخ محمد بن يعقوب الأديب"

أو "قال صاحبنا المؤرخ محمد بن يعقوب".

وهذا الأديب الشاعر كان يدعى في مراكش : *صدر الأفاضل*، وقد عرف به ابن القاضي في درة *الحجال* ونوه بأدبه وأورد بعض شعره في مدح المنصور، وهو مؤرخ يمثل أثارة طيبة وبقية صالحة وامتدادا حيا لمؤرخي مراكش الأعلام من أمثال صالح بن عبد الحليم والبيدق وابن عذاري وابن عبد الملك وغيرهم. ومن الغريب أن التمنارتي لم تعجبه كلمة أحمد باب التي قالها في حق المذكور وكأنه رآها أكبر من حجم محمد بن يعقوب.

قلت آنفا إن الكتب قد انهالت على أحمد باب عندما كان فيما يسمى بالإقامة الإجبارية، ويخيل إلي أن مسارعة علماء مراكش إلى تقديم الكتب إلى أحمد باب ومساعدتهم له بها كان قبل أن ترد إليه كتبه.

3) يقول أحمد باب إنه "نهب له ألف وستمائة مجلد" ولكن يبدو أنها أو بعضها على الأقل أرجعت إليه في مراكش، فقد أشار هو في ترجمة الشيخ خليل إلى تعليقه على متنه وانتقاده إياه، ثم قال :

"وقعت علينا محنة وشتت شملنا وذهبت نفائس كتبنا، جعلها الله كفارة وتمحيصا، ولما جبر الله علي بعضها بعد دخولنا لمراكش أصبت منها ذلك التعليق". ولعل مما يدل على أن كتبه أعيدت إليه أن أحمد المقرى زار أحمد باب في منزله بمراكش وتحدث عن مكتبته قائلا : "وأعارني جملة كتب من خزانته الفريدة، المبدئة في اقتناء الغرائب المعيدة".

4) مما يدل على أن مُقام أحمد باب في مراكش لم يكن متسما بسمة السجن بمعنى الكلمة لأنه ألف أكثر مؤلفاته وأهمها وأبرزها وأشهرها خلال هذه الفترة ومنها *نيل الإبتهاج* و*كفاية المحتاج* و*اللآلئ السندسية* وغيرها. ويرجع هذا النشاط التأليفي إلى عدة أسباب : منها تفرغه ولا سيما في أيامه الأولى بمراكش، ومنها توفر الكتب المهداة إليه وهو يذكر هذا في آخرها، ويعترف بهذا الذي ذكرناه من أنه كان في الأيام الأولى رهين المحبس أو تحت الإقامة الإجبارية كما يقال اليوم؛ فعمّر وقته بالتأليف وقد ذكر القادري في *نشر المثاني* أنه رأى تآليف بخط أحمد باب كتبها أيام سجنه ونقل تاريخ الإنتهاء من إحداها وهو كما يلي :

"تم والحمد لله والشكر له على نعمه التي لا تحصى على يد كاتبه لنفسه الفقير أحمد باب... خار الله له في أموره وحفظه من غيره وشروره، بعد الزوال يوم الثلاثاء حادي عشرين من ربيع الأول عام أربعة وألف أرانا الله ختامه في عافية آمين، وذلك بدرب عبيد الله من مدينة مراكش المصونة، وأنا - مع عيال وجماعة من أهل بيتنا- محبوس بها، عجل الله بالفرج التام بمحمد وآله عليه الصلاة والسلام".

ومن هذه التآليف التي ألفها *حلال النقاف* ومختصر *المواهب القدوسية* الذي جاء في آخره :

"وافق الفراغ منه وقت الضحى يوم السبت رابع ربيع الثاني من عام أربعة وألف أرانا الله ختمه في عافية وطاعة، وذلك بمدينة مراكش، وأنا بها - مع زمرة من قومنا- مثقف بها عجل الله تعالى بالفرج آمين".

ويعترف بهذا في وقتنا الدكتور محمود الزبير صاحب الأطروحة الممتازة عن أحمد باب التنبكتي فهو يقول في أطروحته المذكورة :

"إن الفترة المغربية من حياة أحمد باب (1593 ـ 1607م) كانت أخصب مراحل حياته الثقافية فقد ألف خلال هذه الفترة القصيرة أزيد من نصف مؤلفاته أي تسع وعشرون أو تزيد من مجموع مؤلفاته المعروفة التي يبلغ عددها ستا وخمسين مؤلفا" اهـ

4) لقد كانت حياة أحمد باب في مراكش خالية من أي رقابة أو متابعة، بل إنه انتدب للتدريس والإفتاء بجامع الاشراف، وكان يتحرك ويسافر كيف يشاء.

وخلال السنوات التي قضاها في مراكش تعرف عليها وعلى ناسها وخططها، وكان يخصص يوم الجمعة لزيارة المزارات الكائنة بها. ذكر في ترجمة أبي العباس السبتي في *الديباج* أنه زاره مرارا لاتحصى وجرب بركته غير مرة ووصف الحال التي كانت عليها زاويته من ازدحام الخلق عليها وقضاء حوائجهم، وذكر أن بركته تعم قاصديه من الفقراء ثم قال :

"وقد زرته ما يزيد على خمسمائة مرة وبت هناك ما ينيف على ثلاثين ليلة وشاهدت بركته في الأمور".

ويقول أحمد المقري في روضة الآس :

"وكنت كثيرا ما أذهب معه إلى زيارة الصالحين بحضرة الإمامة مصحوبين بجملة أعلام".

ولما ترجم في *الديباج* لمحمد الهزميري الأغماتي قال في آخر الترجمة : "وقد زرت قبره بأغمات مرارا وتوسلت عنده ولله الحمد".

وكان هذا ديدنه أيضا عندما ذهب إلى فاس، قال في ترجمة الفقيه دارس بن إسماعيل : "وهو خارج باب الفتوح مشهور عند أهل فاس، زرته مرارا".

وقال في آخر ترجمة ابن حرزهم : "وقد زرت قبره مرارا بفاس والحمد لله".

ويدل هذا كله على نزعته الصوفية وهي النزعة الغالبة على المتدينين من الأفارقة إلى يومنا هذا، وهم اليوم يحجون لزيارة ضريح سيدي أحمد التجاني في فاس.

على أن زيارة الأضرحة في ذلك العصر وما بعده كانت شنشنة عامة الناس وخاصتهم، وهذا ما نجده في تراجم علماء العصر السعدي والعصر العلوي.

وقد ذكر ابن القاضي في *المنتقى المقصور* أن المنصور كان يحرص على زيارة أضرحة أولياء مراكش وأغمات ومن المعروف أن نظام زيارة الرجال السبعة في مراكش ظهر خلال هذا التاريخ.

ومن الواضح أن إكثار الشيخ أحمد باب من زيارة الأضرحة زيادة على ما ذكرناه كان للتوصل في أن يرد الله غربته ويسهل عودته وقد أشرت آنفا إلى زيارة أحمد باب إلى فاس.

وأسوق بمناسبة ذلك هذه اللطيفة فقد نقل المهدي الفاسي أنه قال لأهل فاس حين أتاها : "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها" فأجابه بعضهم : "ولمن خاف مقام ربه جنتان". وثمة لطيفة أخرى وقعت له مع أهل مراكش فقد ذُكر أنه "لما خرج من مراكش يقصد بلده شيعه أعيان الطلبة فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى :

"إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما، فنزع أحمد باب يده بسرعة وقال : لا ردني الله إلى هذا المعاد، ولا رجعني لهذه البلاد".

رحم الله أحمد باب فقد كان محبا لبلاده "وكان" يتشوق لرؤيتها، ويسكب العبرات عند ذكرها "وله شعر ساذج في الحنين إليها.

ويرجع الفضل في عودته إلى بلاده إلى السلطان العالم زيدان السعدي. نقل المهدي الفاسي أنه تواعد معه لئن أفضى إليه أمر السلطنة ليطلقه، وكتب له بذلك، فلما أفضت إليه قرأ له البخاري، فلما كان الختم ناوله المكتوب بوعده فأطلقه. وأضاف المهدي الفاسي أن زيدان ندم فيما بعد على ذلك وأنه بعث رسولا وراءه يرجوه أن يعود ولكنه أبى ومضى لحال سبيله.

والذي يستفاد مما ذكر، أن السلطان زيدان وكذلك أهل مراكش كانوا قد ألفوا وجود أحمد باب بينهم وعيشه معهم فصعب عليهم فراقه. يقول القادري في *نشر المثاني*

"إن الشيخ أحمد باب "نفع الله به هذا القطر المغربي، وحُمِل عنه علم غزير، واستُفيد ما عنده من التحقيق والتحرير، وقد اشتهر فيه اشتهار أهله، وتحققت فيه مكانته وقدره وفضله، مع ما أكرمه الله به من مضاعفة الأجور، وعلو الدرجات بمشاق الأمور، بسبب ما لحقه من الإمتحان، الذي هو لأمثاله عنوان غاية الكرامة والرضوان".

فهذا الكلام يعكس القبول الذي لقيه أحمد باب والصدى الذي تركه في المغرب والذي استمر إلى عهد القادري في القرن الثاني عشر الهجري وإلى ما بعد، ومما يدل على ذلك عناية المغاربة بنسخ مؤلفاته حيث يوجد معظمها في الخزائن المغربية.

ولما أنشئت المطبعة الحجرية في المغرب كان من أوائل ما طبع فيها بعض مؤلفات أحمد باب.

وقد بلغ من محبة أحد المؤلفين المغاربة لأحمد باب أن قال إنه مغربي وليس بسوداني لأنه صنهاجي كما هو معروف.

5) كان للمكتبة المغربية والكتب التي استعارها أحمد باب أو أهداها إليه الناس فضل كبير عليه وعلى تآليفه. فقد وجد بغيته أولا في مكتبة جامع الأشراف ثم في مكتبة المنصور وولده زيدان على الخصوص.

أما مكتبة جامع الشرفاء، فهو يشير إليها مرارا في *نيل الإبتهاج* وغيره وقد أشار في *النيل* خلال ترجمته لإبراهيم بن قائد إلى شرحه لمتن خليل المسمى *تسهيل السبل* وذكر أنه رأى في خزانة جامع الشرفاء شرحا آخر سماه *تحفة المشتاق*، في شرح مختصر *خليل بن إسحاق* وأشار إلى هذه الخزانة في المصدر نفسه في أثناء ترجمة عمر القلشاني وذكرها مرة ثالثة في ترجمة الفشتالي قاضي الجماعة بفاس.

وأما مكتبة زيدان الذي كان يعتبر أحمد باب شيخا له فقد وقفت فيما بقي من هذه المكتبة في الاسكوريال على مطالعة أحمد لبعضها، ومنها على سبيل المثال مختصر *الإحاطة* لأحمد البقنّي الذي استفاد منه أحمد باب وهو من مصادره في *نيل الإبتهاج*.

لقد كان أحمد باب ولوعا بالكتب شغوفا بزيارة المكتبات خبيرا بأصول المخطوطات، شأنه في هذا شأن آل أقيت الذين كانوا يتنافسون في شرائها من المغرب ومصر.

ولأحمد باب في ولعه بنفائس المخطوطات قصص طريفة وغريبة ونذكر منها الحادثة التالية :

فقد توقف في طريق عودته إلى تنبكتو بتمكروت حيث المكتبة المشهورة والمعروفة إلى يومنا هذا ؛ وذلك ليطلع على ما هو موجود من مخطوطات عند بعض علمائها، وخلال إقامته بتمكروت ألف رسالته في مسألة التبغ التي انتهى من تأليفها بتمكروت يوم الخميس 19 جمادى الثانية عام 1016 هـ (11 أكتوبر 1607).

والشاهد عندنا هنا أنه خلال إقامته في تمكروت رأى عند الفقيه التمكروتي محمد بن إبراهيم نسخة جيدة من كتاب *الروض المعطار* للحميري. هذا المعجم البلداني القيم الذي أخرجه صديقينا الكبير الدكتور إحسان عباس. وقد أعجب الشيخ باب بهذه النسخة وتعلق بها تعلق هاوي المخطوطات عندما يعثر على مخطوط نفيس، فسمح بها الفقيه التمكروتي إكراما للشيخ باعتباره ضيفا وتقديرا لشخصيته العلمية ووافق على إعارتها إياه بشرط أن ينتسخ منها نسخة ثم يردها.

ولكن حصل ما يحدثنا به المرابط التمكروتي المذكور بقوله :

"ليعلم الواقف على هذا أن الفقيه العالم سيدي أحمد بن أحمد بن أحمد أقيت الصنهاجي التنبكتي بباب شهر وعرف استعار مني هذا التأليف في جزئين بخط مشرقي عتيق صحيح لا نظير له، استعاره مني عام انصرافه من المغرب لبلده تنبكتو، وذلك عام ستة عشر وألف، وكان طلب مني أن أسمح له به حتى يستنسخه ففعلت، فحبسه خمسة عشر عاما وأنا أكتب له عليه في رده فوجه إلي هذه النسخة المنسوخة من نسختين وحسب نسختي، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وجاءتني هذه النسخة عام أحد وثلاثين وألف".

من هذا المثال وغيره مما ذكرناه يتبين أن أحمد باب عاد إلى بلده بعلم غزير وخير كثير وصيت كبير، ولم يكن ليحصل على ذلك كله لولا إخراجه من تنبكت.

6) وأخيرا موقف أحمد باب من المنصور.

رغم ما ذكرناه فإن أحمد باب ظل يعتبر نفسه مظلوما، وكان ينظر إلى السلطان المنصور على أنه ظالم. وقد صنفه في بعض مؤلفاته مع الحجاج وسُنّي علي، وفي هذا إجحاف كبير وشطط عظيم،فالحجاج أمره معروف وسُني على أشبه بجبار وثني منه بملك مسلم. فكيف يوضع سلطان عالم أجازه علماء المشرق والمغرب وشهد بحكمته واعتداله وتوازنه جميع الذين كتبوا عنه إلى جانب المذكورين ؟ وثمة فقرة كتبها أحمد في النسخة الأولى وهي مخطوطة من *نيل الإبتهاج* يشيد فيها بأحمد المنصور ويقول فيها :

"فقيدت فيه بحسب المنة والإمكان، وذلك حين كنت ببلدنا البعيدة عن نيل المقصد من ذلك لبعدها من مدن العلم والأوطان، فقصر بي الحال مع قلة الكتب هناك وعدم مساعدة الزمان، حتى تفضل من له الفضل، وأحسن إلي من له الطول، سبحانه بوصولي إلى منبع العلم في الديار الغربية، حضرة الإمام العليه، المولوية الهاشمية الأحمدية المنصورية حاطها الله من طوارق الزمان، ومن شر الملوان، فرأيت أسباب السعادة بها متيسرة وأزمة الأماني فيها مبذولة غير متعسرة، ونشدت الضالة فرأيتها أقرب إلي من ظلي وظفرت بما يكمل مرادي ونلت أملي فبادرت حينئذ إلى كتبي ذلك الذيل، مستبشرا بالطول والنيل، وقلت لنفسي : يا سعد جدي، قد ظفرت بمقصدي وذلك لأمرين : أحدهما أن إكمال ما شرع فيه من الخير سنة مأثورة والثاني وهو المقصد السني أني رأيت حضرة من تسمو الآمال إلى سدة بابه، ويسعى الخلق لخدمة ركابه، ملك الغربيين بالأسل والنصال، ما بين قطر الجنوب إلى الشمال عالم الملوك وملك العلماء، فخر السلاطين أبو العباس مولانا أحمد المنصور بن أمراء المؤمنين الحسني أيده الله تعالى - معمورة بالعلم مأهولة بذويه، وسوق المعارف نافقة عند متعاطيه، وذلك لهمته العليه وطويته الحسنة السرية فيه، فأردت أن أخدم خزانته المشتملة على الطم والرم من كتب العلم بهدية وإن كنت في صنعي كجالب تمر إلى هجر، أو قارض شعر آل مضر :

ملك منشد القريض لديه   يضع الثوب في يد بزاز".

ثم إن أحمد باب حذف ما كتبه في مقدمة هذه النسخة الأولى فهو لا يوجد في النسخة المطبوعة والمتداولة بين أيدي الناس، وفي هذه الحادثة مافيها من دلالة.

أما المقابلة المشهورة بين أحمد المنصور وأحمد باب فيظهر أنها غير صحيحة، إذ لم تذكرها حوليات العصر وإنما ذكرها الإفراني وهو متأخر، ومن الواضح أن المقصود بها إظهار جرأة أحمد باب ولكنها حتى على فرض ثبوتها تدل على حلم المنصور، وما أعظم الفرق بين خشونة أحمد باب وجفائه في مخاطبة السلطان وبين الشاعر الأندلسي الرقيق ابن مقاني الذي خاطب الملك الشريف الحمودي الإدريسي بقوله :

أنظرونا نقتبس من نوركم	إنه من نور رب العالمين

أو الشاعر الأسود الكانمي الذي خاطب المنصور الموحدي بقوله:

أزال حجابه عني وعيني	تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكـــن	بعدت مهابة عند اقترابه

وأذكر هنا إشارة بسيطة تدل على تحفظ المنصور الذهبي وتقيده بالشرع فقد كان كما هو معروف عالما أديبا شاعرا تهزه أريحية الأدب ويطرب لسماع الشعر والمديح ولكنه كان ضد الغلو في المديح، وقعت له على تعليق بخطه في مخطوط *مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر النصري*، يقول فيه :

"لا ينبغي لعاقل أن يخلد بمثل هذا القول السفساف".

فملك هذا شأنه لا يتصور منه أن يتشبه برب الأرباب حسب العبارة المنسوبة إلى أحمد باب.

إن للرجل موقفا من أحمد المنصور ومن الولاة عموما، وقد عبر عنه في كتابه : *جلب النعمة* وكتابه *مارواه الرواة*، وكتابه *معراج الصعود*، ولعله يشبه أن يكون موقفا سياسيا أو إيديولوجيا إذا صح استعمال الكلمة هنا، وهو يقوم على الفصل بين العلم والسلطة أو ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بينهما وهذه قضية أخرى.

مـقـالات
باللغــات الأجـنـبـيـة

Ṭarābulsī, Muḥammad b.ᶜAbd al-Raḥmān (2/10/6) d. 945/1540-1

Tilimsānī (see Maqqarī ; Maḥallī)

Tilimsānī, Shuᶜayb b. al-Ḥasan (16/1/0) d; 594/1198

Tuwātī (see Muḥammad b. ᶜAbd al-Tuwātī al-Ghallāwī)

Ujhurī, ᶜAli b. Muḥammad (6/1/5) d. 961/1554

Ushmunī, ᶜAli b. Muḥammad b. ᶜĪsā (9/5/0) d; 900/1494

Wansharīsī, Ahmad b. Yaḥyā (1/5/3) d; 916/1508

Yaᶜmūrī, Ibrāhīm b. ᶜAli b. Muḥammad (1/7/1) d. 799/1397

Yūsī, Ḥassan b. Masᶜūd (13/6/11) d. 1102/1691

Zarrūq (see Aḥmad b. Muḥammad b. ᶜĪsā al-Burnūṣī al-Fāsī)

Zurqānī, Muḥammad b. ᶜAbd al-Bāqī (7/3/5) d. 1122/1710

Fiyrūz ᶜAbādī, Muḥammad b. Yaᶜqūb (14/15/2) d. 817/1415

Gharnāṭī (see Muḥammad b. ᶜĀṣim al-Gharnāṭī al-Andalusī)

Ghazālī, Muḥammad b. Muḥammad (9/6/6) d. 505/1111

Ḥanafī, Mughaltay b. Qulayj al-Turkī (3/8/0) d. 762/1361

Hāshimī, ᶜAlī b. Abī Ṭālib al-Qurashī (16/8/2) d. (?)

Hāshimī, ᶜAbd Allāh b. ᶜAbd al-Raḥmān (0/6/1) d; (?)

Ḥātimī, Muḥyi al-Dīn b. ᶜArabī al-Ḥātimī al-Ṭā'ī (10/3/4) d. 638/1240

Hilālī, Aḥmad b. ᶜAbd al-ᶜAzīz (6/20/8) d. 1175/1761

Ḥujjat al-Dīn (see Muḥammed b. ᶜumar b. ᶜAbd al-ᶜAzīz b. Abī Maḥallī)

Ibn Abī Ṭālib (see ᶜAli b. Abī Ṭālib al-Qurashī al-Hāshimī

Ibn Abī Zayd (see Muḥammad b. Abī Zayd al-Qayrawānī)

Ibn al-ᶜArabī (see Muḥyi al-Dīn b. ᶜArabī al-Ḥātimī al-Ṭā'ī)

Ibn ᶜAshīr (see ᶜAbd al-Wāḥid b. ᶜAshir b. Ahmad b. ᶜAli al-Anṣārī)

Ibn Barrī (see ᶜAli b. Muḥammad b. al-Ḥusayn al-Ribānī)

Ibn Durayd (see Muḥammad b. al-Ḥasan b. Durayd al-Azdī)

Ibn Hishām (see ᶜAbd Allāh b. Yūsuf b. Hishām al Maᶜāfirī)

Ibn Mālik (see Muḥammad b. Mālik al-Andalūsī al-Jayānī al-Dimashqī)

Iskandarī, Ahmad b. Muhammad b. ᶜAṭṭa' Allāh (13/6/3) d; 709/1309

Jalāl al-Dīn (see ᶜAbd al-Raḥmān b. Abī Bakr al-Suyūṭī) (see Muḥammad b. Aḥmad al Maḥalli al-Shāfiᶜī)

Jazā'irī, Aḥmad b. ᶜAbd Allāh (21/1/1) d; 1066/1656

Jazūlī, Muḥammad b. Sulaymān (13/11/1) d. 870/1465

Jirjāwī (see Khālid b. ᶜAbd Allāh al-Jirjāwī al-Azharī)

Juzai (see Kalbī)

Kalbī, Muḥammad b. Aḥmad b. Juzai (2/8/2) d. 741/1340-1

Karāmī, Yaḥyā b. Saᶜīd al-Karāmi al-Simlālī (3/5/0) d; (?)

Laqani, Ibrāhīm b. Ibrāhīm b. Ḥasan (12/4/1) d; 1029/1619-20

Maᶜāfirī, ᶜAbd Allāh b. Yūsuf b. Hishām (7/5/2) d. 543/1148

APPENDIX

Authors of "most-copied" works cited in the Segou, Boutilimi and I.M.R.S.S collections. Brackets following names indicate the number of citations in each collection surveyed, in the following sequence :

1st number = Segou citations

2nd number = IMRS citations

3rd number = Boutilimit citations

Authors have been cited if five or more citations appear in at least one catalogue and the same author appears in at least two collections ; if numbers of citations are absent, see cross-reference.

Abū al-Ḥasan (see ᶜAlī b. Muḥammad al-Shādilī)

Abū Madyan (see Shuᶜayb b. al-Ḥasan al-Tilimsānī)

Akhḍarī, ᶜAbd al-Raḥmān b. Muḥammad (17/23/3) d. 983/1575

Andalusī, Muḥammad b. ᶜĀṣim al-Gharnāṭī (1/7/1) d. 857/1453

Andalusī, ᶜIyād b. Mūsā al-Yaḥsūbī al-Sabtī (5/6/2) d. 544/1149

Andalusī, Muḥammad b. Mālik al-Andalusī al-Jayani al-Dimashqī (36/17/16) d. 637/1238.

Anṣārī, ᶜAbd Allah b. Yūsuf b. Hishām (see al-Maᶜāfirī)

Anṣārī, ᶜAbd al-Wāḥid b. ᶜĀshir b. Aḥmad b. ᶜAlī (9/18/5) d. 1040/1631

Azdī, Muḥammad al-Ḥasan b. Durayd (19/3/0) d. 321/933

Azharī, Khālid b. ᶜAbd Allāh al-Jirjāwī (14/5/3) d. 905/1499

Baghdādī, Ismāᶜīl b. al-Qāsim al-Qāli (2/6/1) d. 356/966-7

Baṣrī, al Qāsim b. ᶜAli al-Ḥarīrī (14/8/1) d. 516/1122

Barnīū, Aḥmad b. Muḥammad b. ᶜIsa al-Burnus al-Fāsī (23/11/11) d. 899/1493

Būṣīrī, Muḥammad b. Saᶜīd (13/11/3) d. 695/1295-6

Fāsī (see Aḥmad b. Muḥammad b. ᶜĪsā al-Burnūṣī al-Fāsī)

Fāsī, Abū Madyan b. Aḥmad b. Muḥammad al-Fāsī al-Fihrī (6/1/0) d. 1181/1768

Filālī, Yūsūf b. Saᶜīd (8/2/0) d. (?)

repetition of many of these "classic" authors reported in Levi-Provençal's study of basic texts that were important in Sharifian intellectual formation.[11] I believe the unity of this intellectual tradition which can be demonstrated as being in place by the end of the sixteenth century, remained until the colonial occupation at the end of the nineteenth century. Thanks to data base capabilities, we can now probably reunite that cultural tradition and bridge the political divisions that have separated an intellectual culture for the past hundred years.

11. E. Levi-Provençal, Les *Historiens des chorfa*, Paris, 1922, pp. 13-16.

authorities whose works reappear that focus on the Qur'ān, the Prophet Muḥammad, belief /*tawḥīd*, Sufism and the Arabic language (although the last is somewhat more heavily weighted). Apart from the fact that early grammarians seem to dominate that last category of authors, there is no clear pattern or obvious dominance by chronological periods within which these basic texts were written. By contrast, in matters of *fiqh* there are patterns of authorship that are highly suggestive. Not only are there more than double the number of authors cited whose main subject matter is the *sharīᶜa* than for any other science in this sample, but within that group the majority of those authors also lived in the fifteenth and sixteenth centuries.Within the sub-group of 15th/16th century authors, the subject matter of the overwhelming majority is juridicial procedure, e.g., collections of judgments *(aḥkām)*. What all this points to is the evident importance of what we may call case law for the interpretation of the *sharīᶜa* in the Western Sudan, and, more particularly, a case law that is dominated by Maghribi practice in the Sharifian state.

An exercise such as this is only as persuasive as its data base, but it does point to at least two lines of inquiry that deserve further investigation.

(i) One follow-up to these figures will be a similar exercise to quantify and assess the meaning of copies of local authorship. Apart from simply identifying periods of activity and subject matter, such an exercise should povide a basis for evaluating their originality or derivative nature (based on the works above or others of the "classics" that have not surfaced within the parameters of this survey). From such an exercise should emerge the texts that were most usefull for translating an urban-based, Maghribi scholarship, especially in matters of *fiqh*, to the needs of largely rural and frequently "mixed" communities in the Western Sudan. The same data will also make it possible to correlate the extant evidence of frequently recopied works with lists of attributed works by southern Saharan or western Sudanese authors that are mentioned by Aḥmad Bāba or al-Bartīlī.

(ii) Second, the integration of Maghribi manuscipt material into the same data base could permit us to evaluate the reciprocity of intellectual currents on both sides of the Sahara. Exactly where Morocco stops and the Western Sudan begins was, I suspect, a totally arbitrary point (and irrelevant question) in the intellectual world of the sixteenth-century *ᶜulamā'*. This is reflected in part by the

of the intellectual history of Timbuctu[10] are extant in these manuscript collections. But the appearance of the names above (about half of the authorities he cites) on our "most copied" list helps us to distinguish between the full range of "classical" authorities who were studied and those who had the greatest impact in the training and practice of the *ᶜulamā'*.

In brief, a solid proof of a "core curriculum" that is heavily weighted to scholarship in the sixteenth century is preserved in over one-third (375) of these records. But equally important is the evidence that this curriculum was not narrowly circumscribed by only a handful of sources, since three-quarters of these "most-copied" authors fall outside the "core". What remains to be analysed is the meaning these particular works held for that intellectual tradition and, as suggested below, the shifts in focus within that tradition that are reflected in the introduction of new authories during the Songhay period.

Second, there is a hint here that the origins of a tradition of Islamic scholarship in the Western Sudan, which we generally attribute to the time of ancient Mali, may be somewhat more recent than we thought. Well over-half (59%) of these "most-copied" records that can be crudely dated by their author's death dates originated after the mid-fifteenth-century. This is not to question the presence of scholarly activity in the Western Sudan prior to Songhay, but judging from extant copies of "classical" authorities, the Southern Saharan/Western Sudanese legacy of scholarship in the Islamic Sciences does clearly owe a preponderant debt to activity coincident with Songhay and the Moroccan Pashalik.

Unless we are to posit that vast numbers of tracts and scholarly works have disappeared and/or were eclipsed during the fifteenth century(which, if argued, is significant in its own right), this evidence suggests that about one-half of the region's external scholarly apparatus was contemporaneous with Songhay and the Pashalik. During the 122 years between the establishment of Songhay rule in 873/1468 and the Moroccan invasion in 1591, 13 of these authors were alive, and if we date the end of the Pashalik to the early eighteenth century, fully 37% of these "most-copied" authors were active.

A third observation follows from the subject matter of these works and the political environments of their authors. There is remarkable consistency across the sciences in the number of

---

10. Saad, pp. 98-110.

895/1489	al-Sanūsī	90	belief ; logic
899/1493	al-Burnūsī	44	Sufism ; devotions
900/1494	al-Ushmūnī	14	grammar
905/1499	al-Azharī	21	jurisp / procedure
911/1505	al-Suyūṭī	97	diverse
916/1508	al-Wansharīsī	9	juris / opinions
939/1532	al-Shāḏilī	27	jurisp / procedure
945/1540-1	al-Ṭarablusī	18	jurisp / principles
961/1554	al-Ujhūrī	12	diverse
983/1575	al-Akhḏarī	43	jurisp / procedure
1029/1619-20	al-Laqanī	17	belief / theology
1040/1631	al-Anṣārī	32	jurisp / procedure
1041/1631-2	al-Maqqarī	22	Qur'ān ; belief
1066/1356	al-Jazā'irī	22	belief ; theology
1093/1678	al-Marguiti	16	astronomy / time
1102/1691	al-Yūsī	30	lexicon ; belief
1122/1710	al-Zurqānī	16	jurisp / principles
1175/1761	al-Hilālī	34	diverse
1181/1767	al-Fasī	7	proverbs ; prophet
[not yet fully identified]			
	al-Shaqrātisī	6	devotions / Prophet
	al-Simlālī	8	Qur'an recitation
	al-Filālī	10	Sufism
	al-Maḥalli	18	belief / theology
	al-Hāshimī (ᶜAbd Allāh)	7	grammar
	al-Hashimī (ᶜAlī)	19	belief
	al-Qurṭubī	10	belief / obligations
	al-Sakhawī	9	devotions ; Sufism

What tentative conclusions can we draw from such a compilation ? First, these numbers confirm -dramatically- what has long been known about the centrality of figures like al-Suyūṭī and al-Sanūsī as authorities in this tradition of scholarship. Al-Suyūtī's studies in jurisprudence and rhetoric, Qur'ānic *tafsīr* and belief / *tawḥīd* are fairly evenly distributed among the 97 records noted here; for al-Sanūsī it is principally the subjects of logic and belief that make up his 97 entries. But other figures who are also regularly mentioned in *ijāzas* in the western Sudan such as al-Azharī,"Ibn Mālik" al-Andalusī, al-Maḥallī, al-Qurṭubī, al-Qāḏī ᶜIyāḏ al-Andalusī, "Ibn Abī Zayd" al-Qayrawānī, Khalīl b. Isḥāq al-Mālikī, and al-Wanshirīsī are confirmed by this survey of the "most-copied" authorities. Virtually all of the authorities reconstructed by Elias Saad in his study

The author's *nisbas* are listed below in order of death dates and (in parentheses) their total number of citations in the three collections. When the overwhelming concentration of subject matter(s) in these citations can be identified, this has been noted as "main subject". In these four cases where there exists a relatively even distribution of main subjects across three or more sciences, the main subject has simply been noted as "diverse". Subject categories are abbreviated from the data base subject headings.[9] Full names of these authors appear in the appendix.

Death date	nisba	(# records)	Main subject
321/933	al-Azdī	22	Grammar / Lexicon
356/966-7	al-Baghdādī	9	Proverbs
386/996	al-Qayrawānī	22	jurisp / procedure
505/1111	al-Ghazālī	21	belief / sufism
516/1122	al-Baṣrī	23	grammar / prosody
543/1148	al-Ma^cāfirī	14	? diverse
544/1149	al-Andalūsī (^cIyāḍ b. Mūsā)	13	prophet ; belief
594/1198	al-Tilimsānī	17	ethics ; Sufism
637/1238	al-Andalūsī (Ibn Mālik)	69	grammar / morphology
638/1240	al-Ḥatimī	17	Sufism
695/1295-6	al-Buṣīrī	27	devotions / Prophet
646/1277	al-Nawawī	13	Hadith
685/1285	al-Qarafī	11	jurisp / principles
709/1309	al-Iskandarī	22	Sufism
762/1311	al-Ḥanafī	11	devotions / Prophet
730/1330	al-Ribāṭī	13	Qur'ān recitation
739/1338	al-Jazarī	10	Qur'ān / phonetics
741/1340-1	al-Kalbī	12	Qur'ān / tafsīr
761/1360	al-Naiwī	7	grammar
776/1374	al-Mālikī	33	jurisp / principles
799/1397	al-Ya'mūrī	9	jurisp / principles
817/1415	al-Fiyruz'abādī	31	lexicon
857/1453	al-Andalūsī (al-Gharnāṭī)	9	jurisp / procedures
864/1459	al-Maḥallī	11	?juris / principles
870/1465	al-Jazūlī	25	Qur'ān ; belief

9. C.C. Stewart and Kazumi Hatasa, "Arabic Manuscript Management System (AMMS) Manual", 1992, appendix III.

Songhay, eighteenth-century scholarship in Timbuctu "became closely bound with a wide expanse of interrelationships spanning the areas from Arwan and Boujbeiha to Walāta, Tishit and Shinqit".[8] Although Saad has focussed upon urban-based scholarship, I would propose that much of the tradition with which he has identified Timbuctu and the Walata/Tishit/Shinqit axis was, in fact, common to a large number of the *zawāyā / insilimen* bedouin groups, and the legacy of that tradition remained vibrant into the twentieth century among the scholarly lineages of today's southwestern Mauritania. If this is acceptable logic, it can be argued that the IMPS manuscript collection legitimately falls within the same intellectual tradition as do the Boutilimit and Segou collections, and may thus be joined with them in this exercise of assessing the classical authors "most in demand" during the years immediately following the collapse of Songhay.

Before moving on that analysis, a word on methodology is appropriate. I have not noted any author below whose name has not appeared in at least two of the three collections and whose total number of references does not include at least five copies in any one collection and, minimally, six citations across two collections. This is based on an arbitrary designation as "significant" the repetition of at least five citations on an author and evidence of copies in more than one locale. Fifty-one authors (or fifty-two, pending one incomplete identification) fulfill these criteria, and about two-thirds of them (38) are cited in all three collections. Additional copies probably exist in these collections ; one difficulty in developing a uniform finding aid for West African Arabic script materials is the number of variant (and/or partial) names that are encountered for the same author across different scholarly cultures between the Atlantic and Niger Bend. Also, there no doubt exist some errors in attribution which might have been made at the time the item was copied or in the cataloguing process. Authors like al-Suyūṭī or as-Sanūsī and "Ibn Mālik" (Muḥammad b. Mālik al-Andalusī) who, between them, account for one-quarter of all these citations, probably also include the work of others, conflated into these names when a copist was in doubt (or need). A citation, of course, does not indicate a complete work. In fact, most of the authors with large numbers of records have been entered on this list because excerpts of their works have been copied multiple times, rather than because their major studies are available in their entirety. The frequency of such fragments are all the more important if we are to deduce anything about the relative importance of individual authors.

8. Saad, p. 94.

Collectively, these three collections can be argued to contain a representative sample of the "classical" texts upon which post-Songhay scholarship was based. The Segou material constitutes the largest single nineteenth-century collection that can be unambiguously identified with scholarship in the middle Niger region during the third quarter of that century, since it was physically removed in 1891 and preserved with no changes (additions/deletions) thereafter. It also contains the largest number of manuscript records of the three collections surveyed here but, as with the library at Boutilimit, this number is inclusive of a great deal of personal correspondence.

The Boutilimit library is also relevant to understanding scholarship in the Timbuctu region in as much as it was initially collected by Sīdiyya b. al-Hayba (a disciple of Sidi al-Mukhtār al-Kuntī and his son, Sidi Muḥammad) who spent twelve years in the Kunta camps between 1812 and 1824. Subsequently, he travelled to Morocco where he purchased books and book fragments[6], and we must assume that his shopping list of authors reflected priorities that were current during the first quarter of the nineteenth century on the Niger Bend as well as available manuscripts in Fès and Marrakech. Sidiyya's library was inherited, in fact by his grand son, Sīdiyya Bāba, and the microfilmed library noted here as "Boutilimit" is the work of two of Baba's sons to reconstitute their father's library from the 1960s onward. By one estimate, roughly 80% of Bāba's library is thus extant, and although it was preserved some 500(?) miles west of Timbuctu, its contents of "classical" authors overlaps considerably with the Segou collection.

The third collection surveyed for this exercise, that of the I.M.R.S., is a composite made up from 72 private libraries, mainly in southwestern Mauritania, that have been purchased by the Institute during the past sixteen years. Only the books and book fragments collections have been catalogued, and (lacking of correspondence and personnal notes) it thus represents the largest compilation of texts among the three collections surveyed here.

I have argued that the scholarship and scholarly environment across the Sahelian zone was analogous in the early nineteenth century, irrespective of "ethnic" or cultural bloc[7], and to this I would add Saad's observation that in the aftermath of the invasion of

6. C.C. Stewart, "A New Source of the Book Market in Morocco in 1830 and Islamic Scholarship in West Africa", *Hespéris-Tamuda*, XI, 1970, pp. 209-50.

7. C.C. Stewart, "Southern Saharan Scholarship and the bilad al-Sudan", *Journal of African History*, XVII, 1, 1976, pp. 73-93.

These hypotheses can be tested in only a provisional manner at this time, since our data base of extant manuscripts from the regions and populations that represent the legacy of Songhay is limited to about 10,000 items at present. Still, such a statistical base is not insignificant and it can be argued that it may well be representative of material yet to be integrated into the data set. This data base is, I believe, broadly representative of nineteenth-century private libraries in the Sahelian zone.[3] But first, the data needs to be explained.

In 1988 work began on a computer-based, bilingual cataloguing system for organizing a microfilm collection of roughly 2000 manuscripts from a private library in southern Mauritania at Boutilimit. The software developed for that purpose has since undergone several revisions and it has been used for entering several other manuscript collections, presently at varying stages of completion, including Nigerian material at Northwestern University, the national Mauritanian collection at the Institut Mauritanien de Recherche Scientifique (I.M.R.S.), the collection of manuscripts confiscated by the French at Segou now housed in the Bibliothèque Nationale and catalogued by a CNRS team in 1985[4], a microfilm collection of manuscripts representing several regions of Mauritania prepared by a team from Tubingen University[5], and, currently, input of the collection handlist at the Centre Ahmed Baba in Timbuctu. What began as a single finding aid has, during the past four years, become a data base encompassing many of the major manuscript collections in or from Sahelian West Africa (although the Nigerian material is now only represented by one collection). In this paper, records from only three of these collections will be discussed, leaving aside the fourth major collection that would be especially relevant (at the centre Aḥmad Bāba in Timbuctu for which only one-quarter of the handlist has been provisionally entered and which will need to be integrated into these findings). They are : the Boutilimit library (2054 items), the I.M.R.S. collection (3132 items) and the Segou papers (4138 items).

3. C.C. Stewart, "Sid Ahmed b. Ahmed Salim, Ahmad b. Muhammad Yahya", *General Catalogue of Arabic Manuscripts at the Institut Mauritanien de Recherche Scientifique,* Urbana & Nouakchott, 1992, vol. IV p. 23 where we compare the distribution of subject matter in the 71 libraries now consolidated in the I.M.R.S. collection with two early twentieth-century summaries of library contents in southwestern Mauritania and one 1830's account of book purchases in Morocco.

4. Noureddine Ghali, "Sidi Mohamed Mahibou and Louis Brenner", *Inventaire de la Bibliothèque ᶜUmarienne de Segou*, CNRS, Paris, 1985.

5. Ulrich Rebstock, *Sammlung arabischer Handschriften aus Mauretanian* (Wiesbaden, 1989, 1989) ; an Arabic edition of this catalogue has since appeared.

typically found in that region with the result that we rarely find manuscripts predating the last quarter of the eighteenth century ; the twentieth-century date roughly demarcates an arbitrary point in time after which access to print material in the region steadily eroded the manuscript copying industry.

(ii) We can periodize written materials in rough "generations" based on the quality of papers on which texts were copied ; to keep a particular author's work "alive" required recopying from one "generation" of paper to another. Although copies within these "generations" were obviously also made, extant copies of, say, a work dating from the late sixteenth century, may be presumed to date from that same paper "generation".

(iii) Because of this, the extant "generation" of manuscripts now being preserved in national collections in West Africa probably reflects fairly accurately the previous 150 years of activity, i.e., 1625-1775 or the period of the Moroccan Pashalik on the Niger Bend,

(iv) Further, the number of copies of an author's work that are extant in any one generation is a good indication of that author's influence in the formation of students or the practice of the *ᶜulamā'*,

(v) The meaning of manuscript copies held a significance for both Songhay and post-Songhay Islamic culture as well as for what I will call "literary capital" upon which the status and economic advantage of *ᶜulamā'* were built. As a result, we may assume that no manuscript was willfully destroyed nor was its value lost, even if it passed to an owner who was unable to read its contents. And, concluding from the above,

(vi) if we could quantify a representative cross-section of extant texts, the authors and subjects that were most widely studied in the sixteenth and seventeenth centuries can be expected to be reflected in the numbers of manuscript copies today.

In brief, I am proposing that as an artifact of technology and culture, contemporary manuscript collections can provide important insights into the principle authors and subjects studied in the early-seventeenth century, and this can be done in a provisional fashion by examining the most-frequently cited authors in Sahelian manuscript collections. My concern in this exercise will be only to look at the influence of authors whose work was "imported" to the Western Sudan ; an assessment of the local authors as commentators on these texts and the significance of the duplication of their works must await another occasion.

The Legacy of Islamic Scholarship in post-Songhay West Africa

Charles. C. Stewart
Illinois University,
Urbana Champaign

Scholarship in Songhay has been described in terms that clearly equate learning in the Islamic sciences at centers of education in the Western Sudan with what was taking place at the same time in the main mosques in the Maghreb. The career of Aḥmad Bāba, of course, typifies the heights to which this scholarship tradition had risen by the time of Morocco's invasion of Songhay. Tracing the breath of this tradition is somewhat more problematical. Elias Saad has identified specific clusters of scholarly activity based on kin networks within Timbuctu to which a certain history can be ascribed.[1] He, like Wilks[2], has put much effort into ascertaining the historicity of *isnāds* and biographical notes on scholars, but this provides us mainly with an indication of the actual texts and mechanics of transmission of scholarship. This paper attemps a rather different tack by asserting the breadth of scholarly training and of the main sixteenth and seventeenth-century texts in the Western Sudan through an examination of manuscripts that are extant today. From these, I argue, we can project something of the main intellectual currents in the post-Songhay period.

The hypotheses upon which this is founded are six :

(i) Extant manuscripts in the Western Sudan represent a 150 year "window" into the intellectual life of that region that dates ca. 1775-1925. The first date is set by the poor quality of papers that are
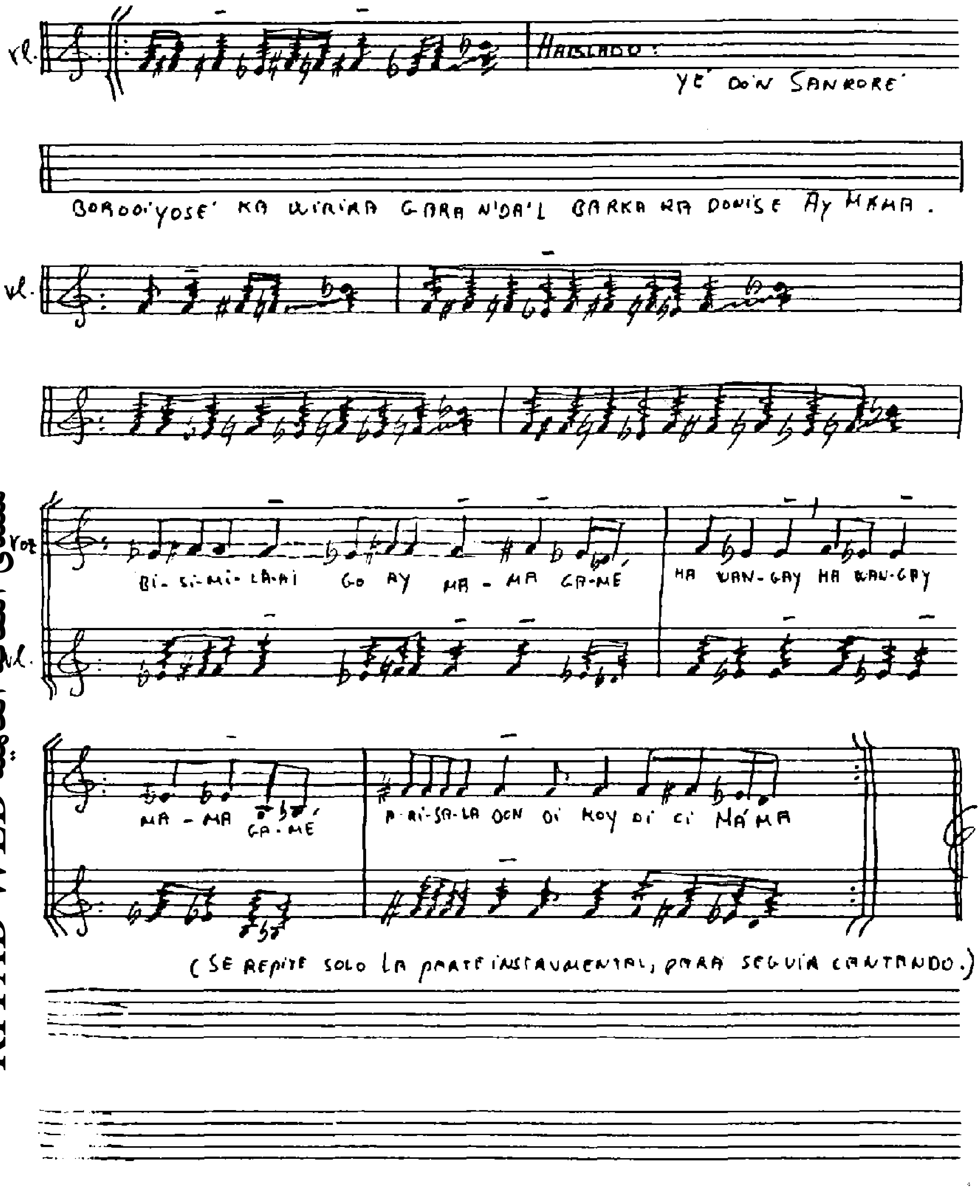
---

1. Elias Ne'meh Saad, "Social history of Timbuctu. 1400-1900 : The Role of Muslim Scholars and Notables", Ph.D., Northwestern University, 1979, pp. 75-98.

2. Ivor Wilks, "The Transmission of Islamic Learning in the Western Sudan" in Jack Goody (ed.), *Literacy in Traditional Societies*, London, 1978.

Il serait nécessaire d'analyser un volume beaucoup plus grand de matériel pour élaborer des conclusions avec une certaine garantie. Ces coups de brosse sur les chansons transcrites ne sont donc que la première esquisse d'une recherche plus ample que nous sommes en train de réaliser dans l'espoir de tenir un jour le corpus de la musique arma, moyen fondamental pour réaliser avec rigueur son analyse.

Il sera difficile de conclure une telle étude qui, par le défaut des sources ne pourrait, tout au plus, être qu'une introduction historique que le musicologue et l'ethnomusicien pourraient rencontrer en abordant la musique arma. Aucun historien ne nous a gardé les schèmes primitifs de son organologie au XVIème siècle, aucun ne nous dit vraiment comment était la chorégraphie à cette époque où différentes séries d'une migration dirigée par les Sa^{c}diens qui se partagèrent le Sahara d'alors avec les Turcs de Tunis et d'Alger. Cette domination du Maroc sur tout l'occident saharien qui recomposa une géographie politique à laquelle prétendirent les Faṭimides, les Umayyades de Cordoue, les Almoravides, les Almoḥades et même les Mérinides par une hésitante diplomatie, fut certainement au fondement d'une diffusion de formes musicales qui attendent leurs archéologues. Cette diffusion des formes musicales dans l'Afrique subsaharienne à partir du XVIème siècle se donna aussi avec des formes chorégraphiques que nous ne pourrons dire totalement nouvelles. De nos jours encore, le *Kullu* et le *Takamba* (les *zambras*?) restent des particularités de la danse d'une région restée Sa^{c}dienne puis ^{c}alawite de 1591 à 1833. Pour en dire plus, il faut plus d'assurance dans les recherches, et l'assurance de l'historien ne lui est pas donnée seulement par son habileté à manipuler des sources, faudra-t-il encore trouver ces sources ; or, les historiens médiévaux ne sont pas toujours diserts sur des thèmes qui ne regardent pas directement l'événementiel.

Ay MAMA


vl.
HABLADO :
YE' DO'N SANRORE'
BOROO'YOSE' KA WIRIRA GARA N'DA'L BARKA RA DONISE AY MAMA .
vl.
Voz
BI-SI-MI-LA-AI GO AY MA-MA GA-ME
HA WAN-GAY HA WAN-GAY
vl.
MA-MA GA-ME
A-RI-SA-LA DON DI KOY DI CI MÁ'MA
(SE REPITE SOLO LA PARTE INSTRUMENTAL, PARA SEGUIR CANTANDO.)

Hammu bin Arasul háma ci Máma
Alfa Móya Tamasikur háma ci Máma
Tuntun ka bari lamtun ma móm
Asilihijié bani lamtun ma móm
Mahamaman ijé bani lamtun ma ma móm
Jarruku ijé Bani Lamtun ma ma móm
Lamtun tun ka bari lamtun ma ma móm

Koy gèha arrisalara hay kan bá ma cow
Koy guna allumunra hay kan bá ma cow
Ma koy guna lahadarira hay ka bá ma cow

4.4.3. Ay Mama

Commentaire 1. Ce panégyrique des Lettrés est une sorte d'hymne où l'Arma et, de nos jours, tous les Tombouctiens, se reconnaissent. Il est chanté ici par la même chanteuse. Le texte, qui dans sa globalité, se réfère aux lettrés, cite aussi des Armas ou descendants de ces derniers, comme le *Jarruku* (strophe 6) qui, lui, descend d'al-Manṣūr az-Zar^{c}ī (1719). Le texte garde par l'effet de la répétitivité, un certain rythme mais ne respecte pas une règle fixe de rime comme chez Diadié Allou.

Commentaire 2. La vièle *(n'diarka)* et la voix sont les uniques instruments de cette chanson. La vièle *(n'diarka)* commence promptement avec des gammes chromatiques, pour laisser le pas à la voix et jouer à l'unisson avec elle, réalisant divers solos dans un style chromatique. La voix se meut d'une façon prédominante dans le cadre d'une quinte, et une continue autour du mi bémol ; elle donne aussi de fréquents chromatismes alternant avec des fragments récitatifs. La vièle *(n'diarka)* réalise une fonction rythmique, de continue excitation due au mouvement de l'arc par le haut et par le bas avec une grande rapidité, en une espèce de *zumbido.*

Transcription du texte.

Yé dón Sankoré borodiyosé ka wirira gara n'da'l barka ka *donise Ay Máma*
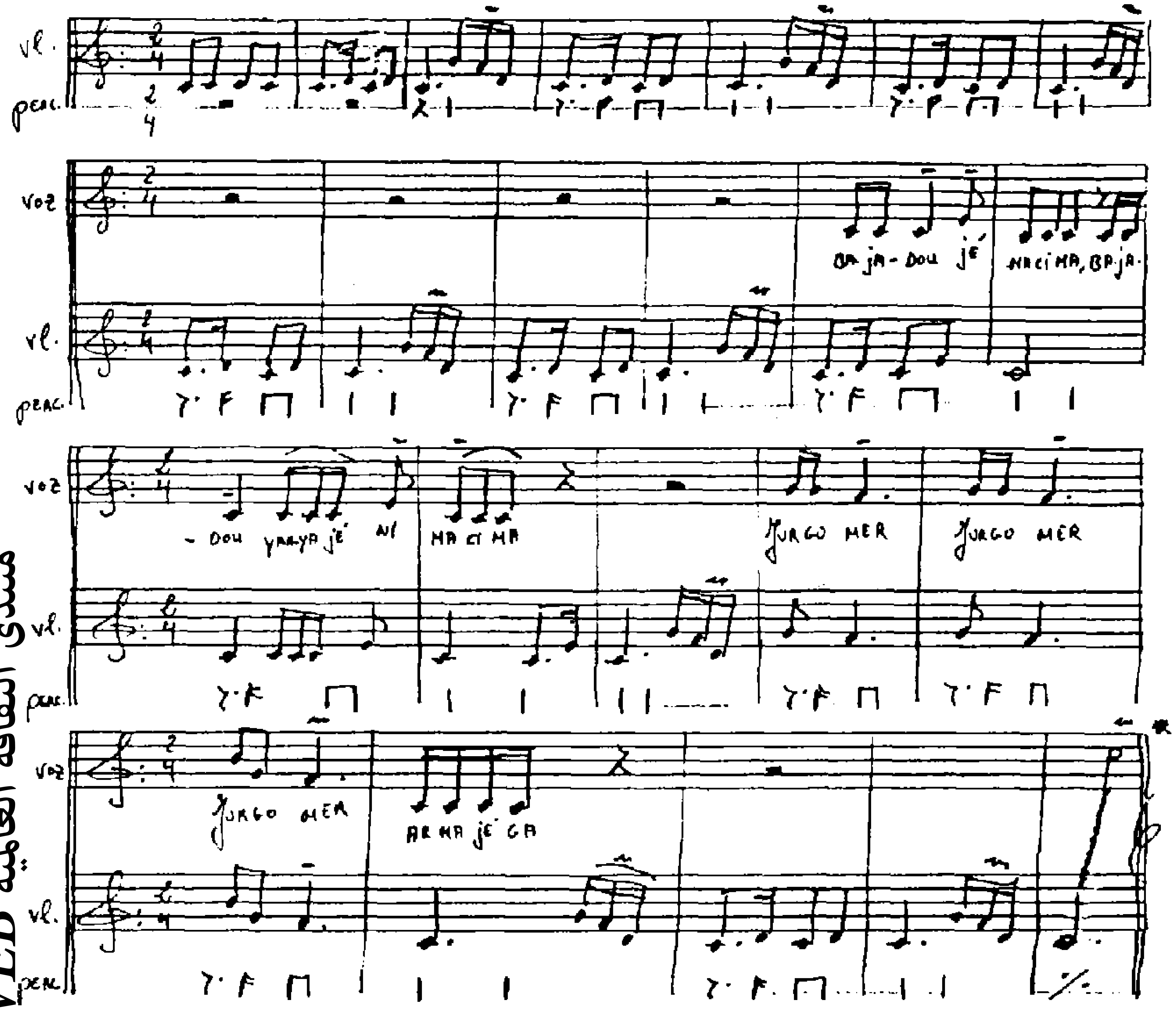
Bisimilahi gó ay máma gamié
Ha wangay ha wangay máma gamé

Arisala dón di koy di ci Máma
Anna habi yay ci Máma
Anna habi kalamul Rasul ci Máma

Alkáli Yahyajé co Máma
Alkáli hay Alkáli ci Máma
Alkáli bilal háma ci Máma
Alkáli Abakar háma ci Máma
Audul Mulki Baba yé háma ci Máma
Sabayda Tuttul Humal háma ci Máma
Adaga Mahaman Al-Kabir háma ci Máma
Sidi Mahamudu Idal hamar háma ci Máma
Idamar Aidal hamar háma ci Máma

Cilabana Banjugu bana ma móm
Cilabana Banjugu bana Abul Barakati

BAHADOU



* GLISANDO, y LIGERAS VARIACIONES, PARA VOLVER A TOMAR EL TEMA PRINCIPAL -

Saggaydu b. Haman ni mâ ci ma
Mamijé ni má ci ma
Amul Kalidi bin Ahaman ni má ci má
Mamijé ni má ci ma
Cín Tafa bin Sidijé ni má ci ma
A cín mamijé ni má ci ma
Jarruku bin Sidijé ni má ci ma

Yá Hafiju Ya salám
Yássalám ta guettagaya
Yá hafiju ya salám

Yá Hafiju yá salám
Baridi má ci Addu Salám
Gáridi má ci Addu Wahau
A koy di má ci Abdul Karím

A cín bahadijé ni má ci ma
Mulfu sibi linji sara
Takuba taci algauda fo

Ya hafiju yá salám
Yur go mér Armajé ga
Wa lawkana boro go bun
Bara yer ma tó ka dam boro
Wala yer ma tó ka kow boro

Mamíjé ni má ci ma
Towo amírijé ci ni céré ya
Mamíjé ni má ci ma
Alkaydi Yahyajé ci ni céré ya
Mamíjé ni má ci ma
Buya baba Adarawi ni má ci ma

Koci lamir har ni má ci ma
Bannáni lamir har ni má ci ma
Basígoronte lamir har ni má ci ma
Kabudi lamir har ni má ci ma
Baba al-hayta lamir har ni má ci ma
Mamíjé ni má ci ma
Arcía Mamíjé céré go bún

l'Arma et souligne des occurrences qui n'ont jamais fait défaut dans le Pashalik en désintégration, la nomination et l'éviction des pashas :

Wa lawkana boro go bun
Bara yer ma to ka dam boro
Wala yer ma to ka kow boro.

(Même si mourra quelqu'un
Il nous fait arriver pour élever
Ou arriver pour évincer).

Rappelons que de 1591 à 1833, 167 pashas ont régné sur la Boucle du Niger au nom des Sa^{c}diens d'abord, des ^{c}Alawites ensuite. La nomination du pasha par le fait qu'elle est revenue dès les premières décades du XVIIème siècle à la charge de l'armée sa^{c}dienne, a fait du Pashalik le théâtre d'incessantes nominations conduites souvent par l'intérêt des parties en jeu.

Commentaire 2. Bahaddū commence avec une introduction instrumentale de vièle *(n´diarka)* et de percussion ; les vers de la chanson avec des solos instrumentaux qui réalisent des variations de la mélodie. Cette alternance est libre et entre dans l'improvisation, sans se plier ni à des règles fixes ni à des strictes périodicités. Chaque vers se termine par une espèce de *glisando* pour revenir prendre le thème principal. La voix se meut dans le contour d'une octave, réalisant un récitatif ou psalmodie en *do*, avec des tours descendants et des enjolivements qui se concluent en cette note. La vièle *(n´diarka)* réalise une récitative en *do* et un mouvement descendant jusqu'au *do* similaire que rythmique avec un début syncopé. L'accordage est très différent de l'occidental et présente une grande oscillation.

Transcription du texte.

Bahaddu ijé ni mâ ci ma
Bahaddu Yahya ijé ni mâ ci ma

Jur go mêr
Jur go mêr
Jur go mêr
Arma ijé ga

Mami'jé ni mâ ci ma
Arcia Mami'jé mâ ci ma
Mami'jé ni mâ ci ma

4.4.2. *BAHADDU*

Commentaire 1. Aïssa Alamiréjé, dont l'œuvre n'est pas encore répertoriée, est la figure la plus marquante de la musique arma de la première moitié de ce siècle. L'anthologie dont nous disposons permet, tout au plus, de se faire une idée de la variété de son œuvre qui se fonde sur des références souvent religieuses pour évoquer des domaines profanes de la vie quotidienne de Tombouctou. Jouant elle-même le violon, elle chante sur un fond épicurien un *carpe diem* qui insiste sur les plaisirs :

Aïssa Assarci ma ñin di yer yer minini
Minini ñin go hallal
Alfa diyo n'ga har ga
Tabey hau diyo n'ga har ga
Al-alim diyo n'ga har ga
A si jen'di al -Risala cow di
A si jen'di Al yimmu cow di
A si jen'di Lahdari cow di
A si jen'di al-Bukhari cow di
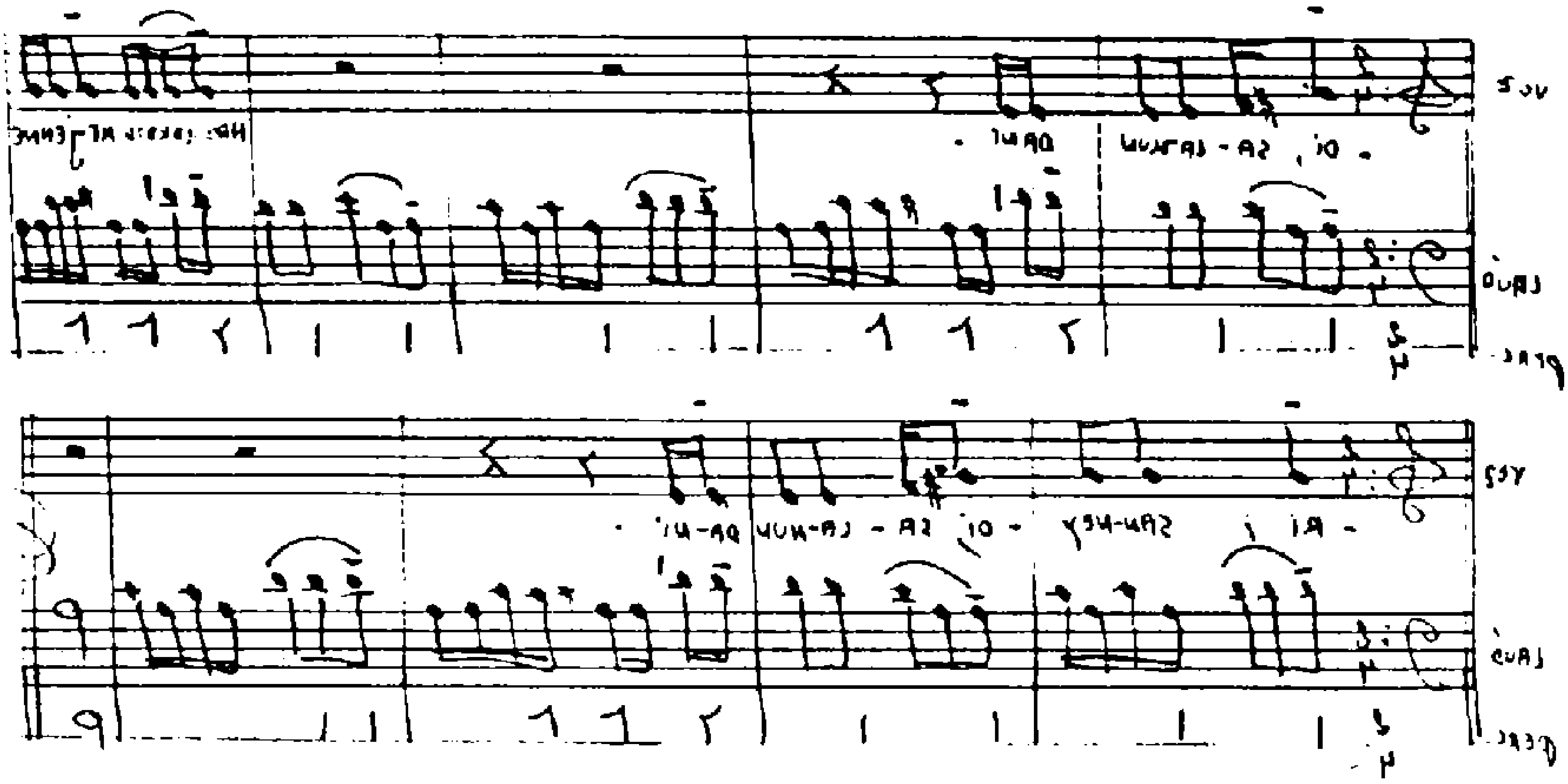
Son répertoire fait place à la consolation ou évoque dans un long panégyrique la généalogie du destinataire de son poème :

Ay cin ma dengay Saney di bell dengay
Ya saney di Belle
Ka ci kulli jawmin koy
Ya saney di Belle ya
Ma dengay koda al Hashim ijé
Koda Haïdara
Al hasen ben al hasen beyni
Siraj al Munir

Elle reprend souvent des thèmes entièrement fondés sur la tradition arma tel le chant ici présenté, dédié au Fāsī Ba Ḥaddū b. Yaḥyā b. ᶜAli al-Mubārak ad Darᶜī, d'abord Caïd ensuite nommé Pasha en remplacement d'al Manṣūr b. Masᶜūd b. Manṣūr az-Zaᶜrī en Février 1714. Il sera nommé trois fois pasha jusqu'à sa mort survenue selon le *Tadhkirat* (p. 236) "dans la soirée du Mercredi 2 du mois de dhu al-ḥijja, le dernier mois de l'année 1141 (29 Juin 1720)".

Le poème fait directement mention de la période trouble qui opposa al-Manṣūr al-Zaᶜrī à Bā Ḥaddū ad-Darᶜī, dans les premières décennies du XVIIIème siècle. Il évoque la nature chevaleresque de

TANDINA



Tandina hey / Yoro yer ma koy Tumbutu
Surgu-sarey zari zeyban / zeyban wo yo n'ga wélé n'da no
Bon-fendu zari zeyban / zeyban di yo n'ga hoy néhéré mé
Cenga-bomo zari zeyban / zeyban di yo n'ga hoy néhéré mé
N'gorfu-hondu zari zeyban / zeyban di yo n'ga hoy néhéré mé
Takuti zari zeyban / zeyban di yo n'ga hoy néhéré mé
Gungu-bomo zari zeyban / zeyban di yo n'ga hoy néhéré mé

Tandina hey / boro di yo go sallam ni ga
Tandina heyfo / surgo yo n'ga hamuney mana
Yer mow Kel jurgu / surgo yo n'ga hamney mana
Yer mow Tenjerejef / surgo yo n'ga hamney mana
Yer mow Kel Ta-boriti / surgo yo n'ga hamney mana
Yer mow Kel Ta-mulayti / surgo yo n'ga hamney mana
Yer mow Ulimidan / surgo yo n'ga hamney mana

Tandina hey / Alfa Cissé Mamadan
Sama mâ di ci wura / Alfa Cissé Mamadan

Tandina heyfo / Arma ijé ni si bey gabi mé
Faji di Marrakasin / Arma'jé ni si bey gabi mé
Ulad Marrakasin / Arma'jé ni si bey gabi mé
Sharati Marrakasin / Arma'jé ni si bey gabi mé

Tandina hey / kokoy ber ma boyrey mana
Sarey-keyna al-basa / saney di salamun'da ni
Jingarey-ber al-basé'jé / saney di salamun'da ni
Sidi-Yahya al/basé'jé / saney di salamun'da ni
Hey Bâ-jindé al-basé'jé / saney di salamun'da ni
Koy Sonkoré-mé al-basé'jé / saney di salamun'da ni
Al-Kamsu al-basé'jé / saney di salamun'da ni
Sababu al-basé'jé / saney di salamun'da ni
Tandina heyfo / kokoy ber hâma n'di ni
Mow yéné Tandina hey / Lorow'oyo kamkam'di ni
Mawlad Idrisi / Larow di yo n'ga kamkam mana
Mawlad Sulayman / Larow di yo n'ga kamkam mana
Mawlad Nasibey / Larow di yo n'ga kamkam mana
Ay mow Bujubeyha / Larow di yo n'ga kamkam di ni
Ay mow Taudenna / Larow di yo n'ga kamkam di ni
Ay mow Yarawan-ganda / Larow di yo n'ga kamkam di ni

Tandina heyfo / Arma'jé ni si bey gabi mé
Tandina hey / Yoro yer ma koy Tumbutu
Fajidi Marrakasin / Yoro yer ma koy Tumbutu
Ulad Marrakasin / Yoro yer ma koy Tumbutu
Sharati Marrakasin / Yoro yer ma koy Tumbutu
Sidi b. Sidi / Sidi ni n'ga hôy né héré mé
Kabitan al-jinshi / Daraa di yo n'ga hoy né héré mé

Tandina hey / Yoro yer ma koy Tumbutu
Tandina hey / lâjaw koy ma lajaw mana
Sharati Marrakasin / lâjaw koy ma lajaw mana
Ulad Marrakasin / lâjaw koy ma lajaw mana

a	b
c	d
c	d
c	d
c	d
c	d
c	d

Cette forme générale que donne le texte est respectée à quelques exceptions près (4, 5, 7).

Commentaire 2. Cette chanson peut être encadrée dans une mesure binaire. Le *laúd* avec la percussion, réalise une introduction de neuf mesures. Nous avons transcrit la première strophe, du fait que le reste répète la musique bien qu'avec d'autres lettres. Certaines strophes, contiennent un plus grand nombre de vers, mais toujours adaptés à la même mélodie. La voix se meut dans un cadre d'un quart, avec une structure récitative et descendante avec des degrés conjoints à sa conclusion. La note *mi*, est la plus grave, elle est aussi le point de repos et de référence de la chanson. Des périodes à mode récitatif avec la référence en *sol*, sauf la première fois qu'elle se réalise en *la*, et des descentes jusqu'au *mi* font la conformité de l'œuvre. Le *laúd* joue avec quatre notes dans le contour d'une quinte, en tours de tierces, quartes, quintes (pour se résoudre en quartes), avec une référence rythmique en la note *la*, point de départ et de retour des sauts. Le rythme forme un cycle, avec un début syncopé, dans le schéma des cycles rythmiques africains.

Transcription 1.

Tandina hey / Alfa Cissé Mamadan
Tandina hey / Alfa Cissé Mamadan
Yuwar-me jenneri / saney di salamun n´da ni
Shebi-me jenneri / saney di salamun n´da ni
Ankaba-me jenneri / saney di salamun n´da ni
Hawlakata me jenneri / saney di salamun n´da ni
Tandina hey / Alfa Cissé Mamadan
Sama mâ di ci wura / Alfa Cissé Mamadan
Sama mâ di ci badila / Alfa Cissé Mamadan
Sama mâ di ci al-lulu / Alfa Cissé Mamadan
Sama mâ di ci al-marzan / Alfa Cissé Mamadan

compositeurs et pour la plupart instrumentistes et chanteurs. L'examen de quelques thèmes de ces poètes nous montrera la variété dans la musique Arma.

4.4.1. Tandina

Commentaire 1. Le *Binga* qui fut une région du Pashalik dès 1591, connut de grands panégyristes comme Diadié Allou. L'unique poème que nous avons gardé de lui est l'interprétation d'une pathétique pièce qui fait appel à al-Manṣūr en 1719 pour qu'il revienne à Tombouctou. En effet, après avoir perdu le pouvoir devant Bā-Ḥaddū Ad-Der^{c}ī, il quitta la ville de Tombouctou pour s'installer à Shebi pour couper la capitale du Pashalik de l'unique voie qui la liait au Sud, le Niger. Ce poème est une sorte d'invitation au Pasha déchu pour qu'il rejoigne la ville de ses origines.

Le texte, dans sa totalité, nous donne des strophes d'inégale grandeur qui se distribuent comme suit :

Numéro des strophes	Nombres de vers
1.	5
2.	5
3.	4
4.	8
5.	8
6.	7
7.	4
8.	7
9.	7
10.	2

Les vers varient entre 11 et 18 pieds ; ce qui fait le rythme de ce texte ce sont ses rimes qui sont de deux natures. Les rimes intérieures qui sont marquées par les césures et la répétition qui suit chaque césure d'une part, et d'autre part la rime finale qui se répète à partir du second vers ; ce qui nous donne l'ordre suivant après la césure :

Lieutenant de division de Fez avant sa nomination en mars 1748, distribuera 4.000 mithkal-or qu'il imposa aux négociants de la ville de Tombouctou. Parmi les bénéficiants de cette largesse du pacha, les flûtistes sont cités. Nos sources historiques bien qu'indiquant la place de la musique dans le pachalik de Tombouctou ne nous disent pas qu'elle était la nature de cette musique, ni ses chants ; là est un défaut que nous ne sauront combier dans l'état actuel de nos connaissances.

4.3. La musique militaire

Le Ka^{c}ti nous montre que dès 1591, la musique était entrée dans la tradition militaire du Pachalik Maḥmud b. Zarqūn (1591) dans ses campagnes avait son orchestre ainsi que nous le voyons à la réception de l'Askia Muḥammed Gao. L'usage de la musique dans les opérations militaires du Pachalik est surtout fréquente dans les incessantes luttes de partis ou élévations et destitutions des pachas. A ces occasions, sont surtout cités les instruments à percussion et à vent. Nos sources sont fort peu indicatives à ce sujet.

4.4. Les thèmes

Les sources historiques ne nous donnent pas d'informations édifiantes sur la place de la musique dans la vie quotidienne de Tombouctou aux temps des Arma. Le *Tedzkiret* qui reste notre principale source sur la vie sociale des Arma ne nous fait cas que d'une fête de réjouissance organisée le 2 Août 1732 à Tombouctou par un Kabara Farma ; à cette occasion, il distribua des cadeaux. Les éléments limités que nous donnent les sources historiques permettent pourtant de voir que les manifestations musicales dans le Pachalim de Tombouctou étaient essentiellement basées sur le calendrier, il faut noter en suivant nos sources, les célébrations de naissance, de mariage et de rencontre des Guinsh. Cette musique comme le note Sekene Mody Cissoko est des plus diversifiées :

épopées guerrières, chants religieux, louanges des grands, idylles amoureuses, sujets philosophiques et moraux.[46]

Ces thèmes sont donnés par des poètes musiciens pour la plupart, des *mabés* comme cela est indiqué par as-Sa^{c}dī. Aujourd'hui, les plus connus de ces bardes sont : Aïssa Alamirijé, Diadié Alou du Binga, Sidali Turé et Hayra. Ils sont tous

46. *Tombouctou et l'empire songhay épanouissement du Soudan Nigérien aux XVè - XVIè siècles*, NEA, Dakar-Abidjan, 1975, p. 220.

trace de cette tradition dans la cour du pasha al-Ḥasanī b. al-qā'id Ḥummādī b. ^{c}Alī at-Tazarqīnī, élu après la déposition de Muḥammad Baḥḥū b. al-qa'id Sanībar b. al-Manṣūr : "le mercredi, quatrième jour de la fête de sacrifice au mois de dhou lḥijja (le sacré) de l'année 1145 (28 mai 1734)". A l'arrivée du lieutenant général Muḥammad à la Casbah, une cérémonie était donnée où étaient présents tous les fonctionnaires du Makhzen et parmi eux :

les joueurs de clarinettes, de violons, de grosses caisses et de tambours de basque.[43]

En 1741, nous aurons encore un témoignage de la musique de cour dans le *Tedzkiret*. Le pacha El-Ḥasen b. Muḥammed El-^{c}Amri élu en mars 1741 après la déposition du Caïd Baba Saïd reçut Ghomān Et-Targui avec tout son Makhzen dont les flûtistes et les violonistes :

> Ils exécutèrent une aubade en l'honneur de Ghomân qui était à cheval ; ils l'accompagnèrent dans le casbah et le conduisirent dans la campagne jusqu'à sa tente.[44]

A partir de 1755 une vacance de pouvoir qui durera jusqu'en 1793 mettra peut-être fin à cette tradition ; aucune source ne nous en fera encore cas. En 1793, la Chronique de Mawlāy Qāsim b. Mawlāy Sulaymān nous dit que la fonction de pacha fut rétablie à l'occasion de la nomination de al-Mustafā qui renouvela *"les attribus et les emblèmes (du pacha) sans oublier aucun"*.[45] Faudra t-il inférer qu'il reconduisit aussi les instruments de musique dans la cour du pacha ? Mawlāy Qāsim da fait cas d'instruments de musique comme attribut du pouvoir que relativement aux Tuaregs. Sa chronique qui va de 1747 à 1801 ne couvre dans l'espace que Tombouctou, le Binga et le Killi. Cette limitation spaciale coïncide dans le temps à un moment où le pachalik fragmenté ne donnait d'emprise au pacha que sur Tombouctou et la province de Tindirma, l'enclave de Djenné, la région de Bamba et celle de Gao l'échappant. Cette limitation spacio-temporelle fera que la dernière chronique du Pachalik de Tombouctou ne fasse pas cas du tambour du Caïd de Gao qui de nos jours encore est présent comme attribut de pouvoir. Seule une note du *Tedzkiret* nous fait cas de l'entretien des musiciens. Abdelgheffâr b. Usâma b. ^{c}Alī b. Muḥammed b. ^{c}Abdallāh Et-Tezerkīnī qui était

43. p. 250.

44. p. 254.

45. Tombouctou au milieu du XVIIIè d'après la chronique de Mawlāy Qāsim b. Mawlāy Sulaymān, présentée et traduite par Michel Abitbol, Paris G.-P. Maisonneuve et Larose, 1982, p. 25.

Ramadan.[40] Depuis, l'usage de cette lecture pieuse s'est maintenue durant le mois du Ramadan. Le même ouvrage nous signale qu'Abū Ḥafṣ ᶜUmar le grammairien, "louait sans cesse le prophète, matin et soir, et chaque jour de Ramadan. Il lisait en entier dans la mosquée de Sankoré le livre de *ash-Shifa'* de ᶜIyyāḍ".[41]

D'éminents personnages ont parfois demandé aux lettrés la lecture de ce texte. Ainsi, as-Saᶜdī a fait dans la ville de Shibla, une lecture du livre pour le jurisconsulte Abū Bakr San´tara le 11 novembre 1643. Parfois c'est une ville entière qui demande lecture de ce livre. C'est le cas de Bina où, as-Saᶜdī fit lecture de cet ouvrage pour les habitants, au Ramadan 1638.

Pour l'organisation de cette lecture, le *shifā'* est divisé en trente parties, subdivision conservée par tous les manuscrits que nous avons consultés à Tombouctou.

4.2. La musique de cour

Peu d'éléments nous sont donnés par les sources historiques sur la musique de cour. Le *Tadhkirat* cite les instruments de musique comme attributs du pouvoir du Pashalik de Tombouctou :

> "Quand les troupes arrivèrent, Aḥmad al-Khalīfa leur distribua de l'or et donna à chacun des soldats une part du butin qu'il avait fait. L'ordre de Dieu sera dorénavant votre ordre, s'écrièrent les soldats ; à dater d'aujourd'hui vous êtes *pacha*.-Je viens d'entendre, répondit-il, que j'était votre *pacha* ; mais où sont donc les attributs et les insignes du pouvoir souverain. Où sont les clarinettes, les timbales, les violons, les tambours de basque ; et les flûtes ? Où sont le tambour *Zeïdien*, les tambours de basque askiens et tous les autres instruments de musique qui sont les attributs du Pachalik ?"[42]

Cette place singulière donnée aux instruments de musique dans le Pashalik est également montrée par al-Kaᶜtī dans la cour du renégat Maḥmūd b. ᶜAlī b. Zarqūn, qui remplaça Jawdar Pasha à la tête du Pashalik en 1591, en nous montrant des instrumentistes, *"joueurs de guitare, de nezoua et de clarinette, assis sous la tente du pasha en arrière de l'estrade"* dans les cérémonies de réception organisées à l'arrivée de l'Askia Muḥammad Gao. En 1734, nous rencontrons une

40. *Ibid.*, p. 49.
41. *id.*
42. *Tadhkirat*, p. 150.

Shifā'. Aḥmed Bāba, que cite as-Sa^{c}dī, affirme l'avoir étudié avec le *ṣaḥīḥ* et le *muwaṭṭa'* auprès de son père. Il nous dit l'avoir également étudié auprès de Baghayogho.[36]

L'Anonyme du *Tadhkirat an-Nisyān* signale que Muḥammad al-Amīn, fils du Qāḍī Sayyid Aḥmad, "avait fait un cours sur le livre de *ash-Shifā'* du qāḍī ^{c}Iyyāḍ durant environ trois ans et ce cours avait lieu pendant le mois de Ramadan dans la mosquée de Sankoré. Il mourut âgé de vingt-neuf ans"[37] le 9 janvier 1724. Ce fut donc sous le règne de Manṣūr Korey b. Mas^{c}ūd az -Zārī que ce cours commença (en 1719). Il se poursuivit sous Ba-Ḥaddū b. Yaḥyā b. al-Mubārak ad-Dārī (oct. 1721), ^{c}Abd al-Ghaffār at-Tazarkīnī (oct. 1721 - Mars 1722), et ^{c}Abd Allah b. al-Ḥajj al-^{c}Imrānī (Fév. 1723).

Ce fait nous amène à remarquer, par ailleurs, qu'une vie intellectuelle continua à Sankoré après l'arrestation et la déportation de certains ^{c}ulamas de l'université de Tombouctou en 1593-4 par le Pacha B. Zarqūn, rénégat de Cadix au service du sultan Sa^{c}dide du Maghreb al-Aqṣā, Aḥmed al-Manṣūr. Il faut signaler ici que la persécution de b. Zarqūn était fort sélective. Elle n'a visé, comme celle du Sonni, que l'opposition, celles principalement des familles intellecuelles liées à la couronne de Gao, telles les Aqit dont Aḥmad Bāba et son oncle Abū ^{c}Umar. En somme, une étude de la littérature du Sahara méridional au temps du Pashalik hispano-marocain reste à faire.

As-Sa^{c}dī nous signale également des diplômes décernés pour l'enseignement du *shifa'*. De son père, Aḥmad Bāba, il dit avoir reçu licence d'enseigner tout ce qu'il reçut de lui, "selon son système ou selon un système d'emprunt" ; dans cet ensemble, ^{c}Iyyāḍ est cité.[38]

Le même auteur note que ^{c}Abd Allāh Muḥammad Bāba b. Muḥammad al-Amīn b. Ḥabīb, fils du jurisconsulte, reçut d'Abd Allāh b. Aḥmad Boryo, la licence d'enseigner le *shifā*.[39]

Le *Tārīkh as-Sūdān* nous dit qu'^{c}Abd Allāh Anda Ag Muḥammad, petit fils du jurisconsulte Abū ^{c}Abd Allāh Anda Ag Muḥammad b. ^{c}Uthmān b. Muḥammad b. Nūḥ et fils d'al-Mukhtār le grammairien, durant son imamat à la mosquée de Sankoré, faisait exécuter une lecture complète de l'auteur andalou pendant le mois du

36. As-Sa^{c}dī, p. 76.
37. *Tedhkiret*, p. 85.
38. *T. S.*, p. 106.
39. *Ibid.*, p. 332.

De la première nuit de *Rabī^c an-nabawī* à la dixième, le texte est lu dans sa totalité ; il est cette fois-ci divisé en dix parties. La onzième nuit est le repos et la douzième est celle de la naissance. De la prière du *^cacha'* jusqu'à celle de l'aube, le texte du poète est lu dans sa totalité. La treizième nuit est de repos ; de la quatorzième nuit de *Rabī^c* à la dix-septième nuit de la naissance, se lit la totalité du texte qui s'achève la dix-huitième nuit, à deux heures du matin, ce qui coïncide avec la septième nuit de la naissance, donc le baptême. Le jour du dix-huitième, le texte est lu du grand ḍoḥā à la prière du *ẓuhr* et de la prière de *^caṣr* à celle de *maghrib*. Primitivement, c'est la fin des célébrations.

Cette lecture est pratiquée dans plusieurs mosquées et localités de la ville. A la grande mosquée élevée par as-Sāḥilī al-Gharnāṭī, se réunissent surtout les gens du Tuāt, de Ghadames, et les Peuls. A la mosquée du poète et ascète Sidi Yaḥyā al-Andalusī, se retrouvent les Wangara ; à Sankoré, les Ṣanhāja et les autres lettrés de Biru (Walāta). Nous trouvons les Ahl-Arawān à la mosquée du Shaykh Sidi ^cAlī en un groupe, les Ahl Sidi Aḥmad Nūr formant un second. Dans le quartier de Jingarey-Ber, à la porte du commerçant marocain Marabbī, se réunissent ceux de Tajakant et du reste du Maghrib al-Aqṣā ; à Bajindé, au sud de Sidi Yaḥyā, se réunissent les Kunta descendants du Sheikh Sidi Muḥammad al-Bakkāy, et à Sankoré (Taka-Bundu) les Kunta Ragagda.

As-Sa^cdī ne dit rien de tout cela qui semble être ainsi ordonné après le 16 du mois de Jumada 1er de l'année 1065 (12 Mars 1656), date finale de la rédaction du *Tārīkh as-Sūdān.*

Le*Tārīkh as-Sūdān,* qui cite dans ses chapitres la *Kifayat* d'Aḥmad Baba, apporte un élément complémentaire à notre corpus : celui du Qāḍī ^cIyyāḍ de Ceuta, dont l'œuvre est entrée dans les traditions de Tombouctou. Cette œuvre est *ash-shifā'*, célébration des mérites du prophète.

Né à Ceuta, al-Qāḍī ^cIyyāḍ est surtout connu au Maghreb et en Andalousie par sa défense théorique du malikisme dans son *madārik,* écrit contre les attaques du zahirite Ibn Ḥazm. Activiste acquis à la cause Almoravide, il inspire la résistance puis la révolte de sa ville contre l'occupant Almohade, ^cAbd al-Mūmin. Vaincu, il sera transféré à Marrakech où il ne tardera pas à mourir en 544/1149. Le *madārik,* riche répertoire en illustrations de l'école Malikite depuis son fondateur, sera reproduit (en partie) en tête du *Kitāb ad-dibāj* d'Ibn Farḥūn (799/1397), dont le complément nous intéresse ici.

Parmi les travaux de ^cIyyāḍ, le *Tārīkh as- Sūdān* ne cite que le

> "Abū Zayd ᶜAr. b. Yaḫlaftān b. A. al-Fazāzī hatte verschiedenen Statthaltern der almohaden in Spanien als Sekretär gedient, wurde aber von dem Chalifen al-Mamūn, als er 626/1229 zur Regierung kam, aus Spanien verbannt. Es Gelang ihm zwar bei einem Besuch in Marrākes im Sa`bán d. J. 627/1230 von ihm wieder in Gnaden aufgenommen zu werden, doch starb er schon im Du 'l-Qa`da desselben Jahres".[33]

Parmi ses travaux dont l'érudit allemand suit la trace, seuls les *ᶜIshriniyyāt* sont cités sous le collectif *ᶜAchriniyāt el-fazāziya*. Ce poème, qui est un panégyrique du Prophète de l'Islam, est plus cité parmi les textes qui ont eu part à la vie culturelle du monde subsaharien en général que parmi les éléments qui forment le corpus du programme des études de l'Université de Tombouctou. Il n'est cité par as-Saᶜdī dans aucune biographie du savant mais il fait mention d'un de ses commentaires en citant Aḥmad Bāba et note la tradition de sa lecture fait dans la Boucle du Niger, que Brockelmann a également remarqué pour le Kanem.[34] Une note de Brockelmann ouvre la géographie de la lecture de al-Fazzāzī jusqu'aux frontières du bassin du lac Tchad :

> "Weil sein Ishriniyat im Sudan eine sehre beliebte lektüre sind, gilt er der legende als Apostel des dortigen islams ; Aber nicht einmal die annahme marquarrdt, das er in Kanem als solcher gewirkt habe, ist mit den bekannten Datern seines leben vereibar...".[35]

Cette pratique de la lecture d'al-Fazzāzī au Kanem n'est pas la même que celle remarquée par as-Saᶜdī dans la Boucle du Niger. En fait, celui-ci souligne deux lectures du texte dans cette région : celle des mosquées du Vendredi, et celle de la nativité du Prophète.

42 jours avant la naissance du prophète, c'est à dire de la première nuit du mois de *ṣafar* à la trentième du même mois, ce texte est lu dans toutes les mosquées de la ville de Tombouctou à deux reprises. Il est ensuite divisé en deux parties, lues une fois par quinzaine.

---

33. Pour un examen des manuscrits de cet ouvrage, *cf.* Carl Brockelmann : *Geschichte der Arabischen litteratur*, Leiden, 1943, T.I. p. 322, notice 13 et le supplément, Leiden 1937, pp. 482 - 483.
34. *idem.*, 1943, p. 322.
35. *idem.*, 1937, p. 482.

4. Les thèmes

Les thèmes de la musique arma sont aussi variés que les différents moments qui ponctuent la vie quotidienne dans la Boucle du Niger. Nos sources historiques, également limitées au niveau de la thématique et de l'usage social de la musique dans la Boucle du Niger, ne fournissent des éléments à ce niveau que sur la musique religieuse, celle de la cour et la musique militaire.

4.1. La musique religieuse

La musique religieuse arma de la Boucle du Niger est essentiellement vocale et exclusivement panégyrique. Deux textes anadalous sont à ce niveau chantés : les *Qaṣā'id al-ᶜishrīniyyāt fī madḥ Sayyidinā Muḥammad*, de ᶜAbd al-Rahmān b. Yaḥlaftān b. Aḥmad al-Fazzāzī de Cordoue et le *Shifā* du *qāḍī* de Ceuta. Les deux textes sont donnés en chants polyphoniques dirigés par un chef de choeur selon les divisions en rime du texte (pour al-Fazzāzī essentiellement). Le choeur reprend le texte introduit par le chef et le long du chant, des femmes élèvent des cris stridents par une vibration de la langue. Voyons les textes de plus près.

Le chercheur qui s'intéresse à l'étude de l'art et de la littérature arabo-andalous en Afrique subsaharienne se trouvera inévitablement devant l'œuvre d'as-Saᶜdī[31] qui est une intelligente somme de la *Kifāyat*[32] de son maître Aḥmad Bāba. Le long de ces chapitres IX, X, XI et des obituaires formant les chapitres XXX, XXXIV et XXXVI, il nous a laissé d'intéressantes leçons sur la vie littéraire du Soudan dont Cherbonneau a déjà fait mention, étudiant le *Nayl* d'Aḥmad Bāba. As-Saᶜdī nous laisse là d'amples notices sur la vie, l'œuvre et les études des différents *imāms* et *ᶜulamās* de cette région, en citant continuellement le *Kifāyat* sous l'abréviatif *Dzil*, sans pourtant rester servilement fidèle à sa source. Il a additionné de son cru ce qu'il put savoir et qui n'était pas noté par son maître. Ces additifs font de l'œuvre du disciple d'Aḥmad Bāba, plus un complément qu'un résumé d'une œuvre qui ouvrit déjà en son temps l'horizon des lieux et personnages de la tradition mālikite.

Parmi les ouvrages arabo-andalous cités dans les études des lettrés du Sahara méridional, as-Saᶜdī souligne à plusieurs reprises les *ᶜIshrīniyyāt* du poète cordouan al-Fazzāzī. De ce dernier, voici ce que nous dit Carl Brockelmann :

31. *Tārīkh as-Sūdān*, p. 217.

32. Sur la *Kifāyat*, *cf.* Maḥmud A. Zouber, "Kifayât al-muḥtâj li maᶜrifat man laysa fi l-Dībāj" (document suffisant pour connaître les personnages qui ne sont pas mentionnés dans le Dibāj), *Revue Sankoré*, Tombouctou, 1985, pp. 42 - 47.

3.1.2.1. Le tubal

Le mot *ṭubal* ou *ṭabal* est une corruption de *timbal* ou *atabal*. Il est de différentes formes et natures. Le *harey*, distribué le long du fleuve Niger, est un tambour couvert d'une seule membrane. La percussion sur un côté ou l'autre est faite à l'aide d'un bâtonnet arqué. Cet instrument est surtout utilisé au cours des travaux de champs et pendant les fêtes. Le *kolo*, jarre en argile couverte d'une membrane tendue à l'aide d'un système de laçage, est comme le *kolo-ña* un instrument également percuté à l'aide d'un bâtonnet spécialement dans les célébrations de la danse dite *kullu*. Le *kolo*, que nos sources nomment simplement *timbal*, est ainsi de même nature que le *Timballi perfiana* de la gravue CXXXIV des *Gabinetto Armonico* (Roma, 1723) de Filippo Bonanni. L'instrument est souvent lié par une ceinture à l'instrumentiste. Le *tamburro militare* qui nous est donné par le LXXIV est le *harey*.. Le *talburro perfiano* (LXXIX), également nommé *"harey"* ne présente de différence qu'au niveau de la caisse de résonnance qui garde la forme du *tamburro militare*. Le *kolo-ña* est dans sa structure, pareil au *Timballi* (LXXV, F. Bonanni, Roma, 1723) mais il n'est pas double. Ces comparaisons avec les instruments à percussion de la collection de Filippo Bonanni(1723) permettent de faire suivre un escalier généalogique des instruments arma de la Boucle du Niger et de spécifier leur origine méditerranéenne. Le *gasu* est une calebasse renversée, frappé par une lanière, un bâtonnet ou une paire de chaussures ; il est surtout utilisé au cours des danses de *takamba*.

3.1.2.2. Le bidiga

Le *bidiga,* que nous classons parmi les instruments à percussion est une sorte de xylophone. Sa caisse de résonnance est primitivement une calebasse couverte d'un bois où sont disposées douze lamelles de fer plat pincées par le pouce et l'index. Nos sources ne le citent pas et nous ne pourrons dire à quel moment cet instrument s'est introduit dans la musique Arma. Il représente un moyen commun de la musique entre la zone pré-saharienne des arma et la zone tropicale mandingue. L'ont-ils hérité de là ?

3.1.2.3. Les instruments à vent

Nos sources citent la *chirimia* parmi les instruments à vent de la cour du Pacha Maḥmūd b. ᶜAlī b. Zarqūn (1591) ; mais de nos jours, l'unique instrument à vent connu des Arma est la flûte traversière. Percée de quatre à six trous, elle est appelée *lati* ou *kullu* et est surtout utilisée le long du fleuve.

Dupuis Yakuba dont l'œuvre ethnographique est irremplaçable à ce niveau, nous dit :

> "L'instrument est suspendu au cou par une cordelette. Les doigts de la main gauche touchent les cordes et le médius de la main droite les pince. Souvent, le manche est terminé par une petite plaque de fer-blanc à laquelle sont rivés un grand nombre d'anneaux mobiles ; le bruit qui en résulte ajoute au son de l'instrument un tintement spécial. Dans le même but, une chaînette est placée sur la peau de l'instrument".[29]

Cet instrument est surtout usé au cours des événements militaires (à la suite du Pacha) ou dans les soirées de Takamba.

3.1.1.3. La harpe

Dupuis Yakuba, plus détaillé que Mamadou Diallo, nous dit de cet instrument :

> " La harpe (lindyi-saba) à 14 cordes est l'instrument réservé aux arabes. Les cordes sont faites de fibres de nerfs et de tendons de bœuf tordus. Cette harpe, assez volumineuse, est posée à terre devant l'instrumentiste qui la touche des deux mains absolument comme les harpistes chez nous. Des plaques de fer-blanc ajourées et ornées de nombreux anneaux sont attachées sur la peau de l'instrument et vibrent avec lui en produisant une sorte de cliquetis métallique".[30]

Cet instrument, que nos sources ne citent pas, s'insère dans le catalogue des instruments de musique de la zone pré-saharique Arma aux temps où les séries d'arabo-berbères, de renégats et de morisques ne se distinguaient pas des autres groupes ethniques méditerranéens de la Boucle du Niger.

3.1.2. Les instruments à percussion

Le *Tadhkirat* mentionne pour 1694 les timbales, tambours Zaydānī et les tambours basques, mais ne nous donne aucune indication sur la forme de ces instruments à percussion. As-Sacdī qui n'est d'ailleurs guère disert en matière de musique n'est pas plus précis. Aujourd'hui, l'instrument à percussion le plus répandu est le *ṭubal* (tambour) de différents modèles et le *bidiga*.

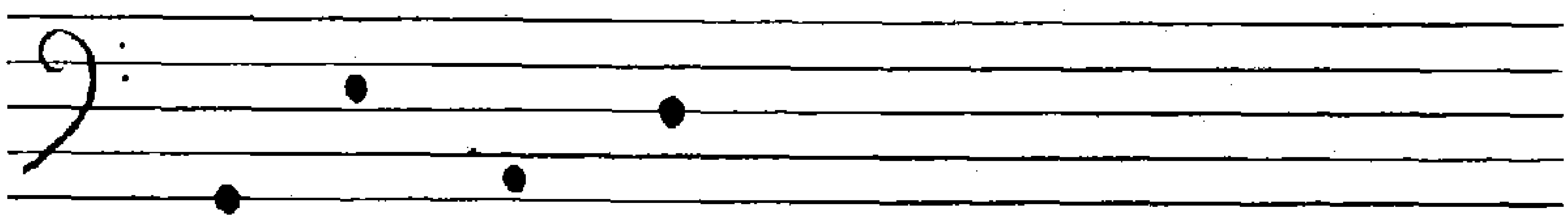
29. *id.*, p. 154.
30. *id.*, p. 154.

"On en tient généralement le manche dans le creux de la main gauche en laissant libre le pouce et les autres doigts pour toucher la corde à l'endroit voulu. Le talon de l'instrument est appuyé au creux de l'estomac. L'archet est tenu entre le pouce et l'index de la main droite, les autres doigts frappent de temps en temps sur la peau du violon pour marquer la mesure".[28]

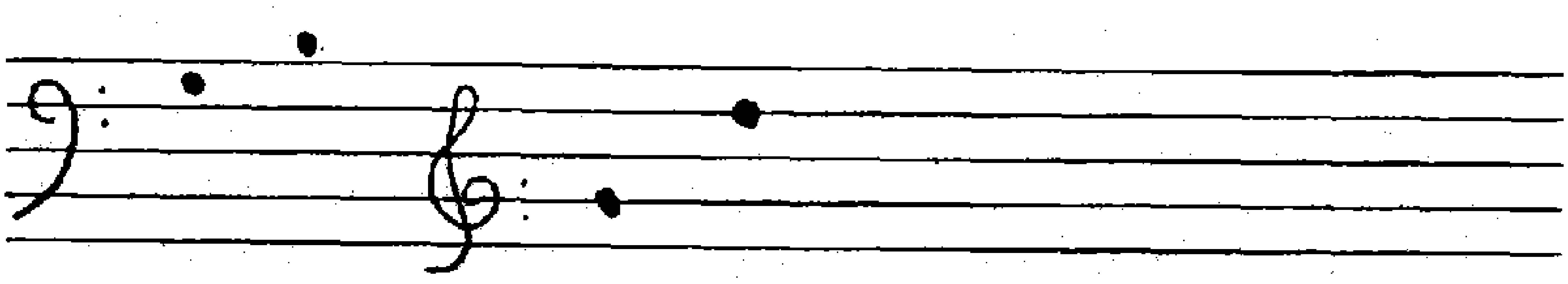
Cet instrument est essentiellement pratiqué par la femme Arma dont l'éducation musicale est assurée dès son jeune âge par une gouvernante liée à la famille. Il est également d'usage dans les cérémonies de naissance ou de mariage.

3.1.1.2. Le luth

Cet instrument est cité tant par le *Fattāsh* que par le *Tadhkirat*. Il est aujourd'hui fait d'un corps allongé, légèrement rétréci au milieu. Il a les cordes parallèlement tendues à un manche profilé sur la même ligne que le résonnateur couvert de peau. Le luth arma est de trois cordes ou parfois quatre alors semblable aux luths du domaine tropical. Dans la zone pré-saharienne de Gundam où s'installèrent les descendants du renégat Ḥammū b. ᶜAlī Barka, arrivé dans la Boucle du Niger avec b. Zarqūn en 1591, les luths à une corde ou à deux furent adoptés. Au XVIème siècle, tout nous porte à croire que l'accord du luth qui sera Arma était ainsi donné :



Cet accord qui est celui classique du luth marocain passera avec les Arma dans la Boucle du Niger. De nos jours, l'accord du luth, particulièrement dans la Boucle du Niger plus que dans la zone pré-saharienne de Tombouctou, nous est donné par Mamadou Diallo comme suit :



28. *Industries et principales professions des habitants de la région de Tombouctou*, Paris, Larose, 1921, p. 152.

makhzeniennes de Tombouctou, nous pourrons situer l'introduction de la musique dans le Pashalik dès 1591, avec l'arrivée de la première expédition de Jawdar Pacha.

3.1. Les instruments de musique

Les premiers témoignages relatifs à ces instruments de musique nous viennent du Ka^{c}tī qui signale en 1591 le *Nézua* et de l'*Anonyme* du *Tadhkirat* qui pour 1694 et 1734 citent parmi les insignes du pouvoir du Makhzen de Tombouctou des instruments à cordes, à vent et à percussion.

3.1.1. Les instruments à cordes

Les instruments à cordes que nous donnent les sources historiques sont essentiellement le luth et le violon. A ce niveau, notre principale source est le *Tadhkirat an-Nisiyān*.. Ce dictionnaire biographique des Pacha hispano-marocains de Tombouctou mentionne principalement le violon parmi les insignes du pouvoir et dans les cérémonies officielles de la capitale du Pachalik Sa^{c}dien puis ^{c}Alawite.

3.1.1.1. La vièle

Nous ne pourrons dire quelle était la forme de la vièle que cite le *Tadhkirat* ; nous ne pourrons, en conséquence, noter son évolution adaptative de la Méditerranée occidentale à la Boucle du Niger. Ce dont nous pouvons être certains, c'est que cet instrument fut bien introduit dans le Pashalik par la troupe de Jawdar. Le *Fattāsh*[27] cite déjà dans la cour de b. Zarqūn des instrumentistes "*joueurs de guitare (al-qwitra), de nezoua et de clarinette* (shirimia)". Le *nezua* dont il est question ici, serait-il une vièle ? Ka^{c}tī ne le précise pas.

Le type de violon que nous avons de nos jours dans la Boucle du Niger est la vièle monocorde à archet appellée *Njarka*. Elle est faite d'une caisse de résonnance de 30 à 40 cm de diamètre recouverte d'une peau de mouton, de chèvre ou d'autruche et dotée d'un manche dont l'extrémité sert de support à une corde en crin de cheval frottée à l'aide d'un archet fait ordinairement d'une tige de bambou amincie dont la mèche est faite également de crins de cheval. La gomme-résine (myrrhe) lui sert de colophane. Pour jouer de cet instrument, nous dit Dupuis Yakuba :

27. Note de marque.

999 (Novembre 1590), il mit en marche contre le Songhay un important corps d'armée comprenant 3.000 hommes d'armes, tant cavaliers que fantassins, accompagnés d'un nombre double de suivants de toutes sortes, ouvriers de divers genres, médecins," etc.[25]

As- Saᶜdī ne détaille pas la composition de ce nombre double qui vint à la suite de l'armée que conduisit Jawdar Pacha en 1590-91. Dans ce chiffre, il faudra certainement inclure des musiciens. Cette supposition est justifiable lorsque nous voyons que la même année de 1591, le *dīwān* du Pacha b. Zarqūn qui arrive à Tombouctou en Avril 1591, comprenait un orchestre ; cela nous est attesté par un texte du Kᶜatī :

"... tous les soldats vinrent deux à deux saluer l'Askia, déchargeant leurs fusils en son honneur au fur et à mesure qu'ils arrivaient (auprès de lui et disant) : Le salut et la miséricorde de Dieu (soient sur toi)', tandis que les instrumentistes, joueurs de guitare, de nezoua et de clarinette, assis sous la tente du pacha en arrière de l'estrade, jouaient de leurs instruments".[26]

Le *Tadhkirat* note aussi la présence de la musique en citant les insignes du pouvoir du Makhzen de Tombouctou. Quelle a été la part des séries dans l'introduction de la musique dans les traditions du Makhzen subsaharien ? Nous ne saurons le dire avec exactitude ; mais, à l'examen du pourcentage de morisques et du rôle dévolu à leur série dans le chiffre global des 23.470 expédiés dans la Boucle du Niger par les Saᶜdiens, nous voyons bien qu'une bonne part doit leur revenir. Un examen du nombre global des morisques dans la Boucle du Niger en 1591 permet de pencher du côté de cette hypothèse car, al-Manṣūr comme Abū-Fāris, son successeur immédiat, n'eurent à expédier pour la plupart que des éléments de cette série. Nous avons montré ailleurs, que les arabo-berbères de la suite de Jawdar, notamment les *Ibudraren*, les Ḥaḥa, les Maᶜqīl et les morisques au service des Saᶜdiens, comme ceux d'Alger que présente Diego de Haedo, étaient occupés à plusieurs arts dont la musique. Au vu donc, la politique saᶜdienne de la fin du XVIè siècle, qui était fondée sur l'expédition des morisques dans la Boucle du Niger, et compte tenu de la date où cette tradition est notée par nos sources

---

25. Sur as-Saᶜdī, *cf.* les pages XII-XIV de l'introduction qu'Octave Houdas donna à sa traduction du *Tārīkh as-Sūdān*, Paris 1981 ; *cf.* également : Charles Monteil, "Notes sur le *Tārīkh as-Sūdān*, *Bulletin de l'IFAN*, T. XXVII, sér. B, n° 3 - 4, 1965.

26. *Tārīkh al-Fattāsh*, Paris, 1981, p. 287.

Rénégats	:	1.480
Andalous	:	1.000
Arabo-bèrbères	:	3.000

Les chiffres globaux par série et par arrivée entre 1591 et 1618 montrent que la tradition musicale Arma viendra d'une composition d'éléments aux pourcentages peu proportionnels mais qui entre le VIIIè et le XVe siècles donnera déjà la musique Arabo-Andalouse. Quelle fut l'évolution historique de cette musique comment arriva-t-elle dans la Boucle du Niger ?

3. La musique Arma

La musique Arma du Makhzen de Tombouctou est, comme l'histoire de ce peuple, un croisement de formes nord-africaines, arabes, berbères, morisques et noires d'Afrique. On a pu créer avec ces éléments, une culture, une identité propre, qui se manifestent dans les répértoires de cette musique lors des fêtes et cérémonies.

Il est historiquement impossible de parler d'*Arma* avant la seconde génération des contingents expédiés par les Sa^{c}diens entre 1591 et 1618. Pour tenter de dater l'introduction de la tradition musicale, il faut bien nous limiter aux traces datables de la première génération des *Arma*, ce qui nous amènerait à Avril 1643, date à laquelle règna Muḥammad b. Maḥmūd, 1er Pacha né à Tombouctou, ou bien nous situer chronologiquement aux premières traces que nous donnent nos sources sur la musique des contingents de l'armée sa^{c}dienne expédiés à Tombouctou à partir de 1591. Nous avons opté pour la seconde datation parce qu'elle nous permette de situer les origines de ce qui sera la tradition musicale Arma. Même là, il sera difficile de préciser historiquement comment s'introduisit cette tradition musicale dans la Boucle du Niger. Les sources arabes, comme les sources latines de l'histoire de la Boucle du Niger, ne font mention de cette tradition qu'en passant quand il est question de la vie de Cour ou des déplacements d'un sultan. A ce niveau aussi, al-Ka^{c}tī qui traita surtout de l'époque des Askias nous donne plus d'éléments qu'as-Sa^{c}dī, ou l'*Anonyme* ou la *Tadhkirat* pourtant plus centrés sur le Makhzen morisco-marocain de Tombouctou.

Le peu d'éléments dont nous disposons nous permet pourtant de risquer quelques hypothèses qui nous permettront de situer cette introduction autour de 1591. As-Sa^{c}dī dans le chapitre relatif à la venue de Jawdar au Soudan nous dit :

> "Mawlāy Aḥmād décida d'envoyer une armée en expédition au Soudan... au mois de Muḥarram de l'année

entre 4.000 et 5.600. Jorge de Henin qui écrivit sa *Description de Marruecos en 1613* donne un total de 10.000.[24]

Après la mort de Mawlāy Aḥmad al-Manṣūr (1603), son fils et successeur Mawlāy Zaydān expédie avec al-Fatā, le Pacha ^{c}Ammār, al-Turkī et l'Amin Muhammad B. abū Bakr un contingent de 400 hommes. La somme de ces expéditions s'élève à 23.470 hommes en considérant le chiffre avancé par Aḥmad Bāba, le dernier témoignage d'as-Sa^{c}dī et les 70 chrétiens de la garde personnelle de Jawdar que note l'*Anonyme*.

L'ensemble des expéditions peut donc se donner dans le tableau suivant d'après les années d'arrivée et les chiffres connus, en confondant comme nos sources nous y obligent, Andalous de vieille souche et Morisques :

Années	Renégats	Andalous	Arabo-Bérbères	Total
1591 (13 III)	1.000	1.000	1.500	3.500
1591 (30 V)	80	-	-	80
1593	-	-	1.200	1.200
1595	?	?	?	3.000
1600	?	?	?	500
1603	-	-	300	300
1618	400	?	?	400
			Total :	8.980

A ce total, il faut ajouter les 70 chrétiens de la garde personnelle de Jawdar, ce qui nous conduira à un chiffre de 9.050. A l'examen de ce tableau, nous notons qu'entre ce total et le chiffre de 23.470 que nous donnent nos sources. Il y a un indéterminé de 14.420 dont l'arrivée en Afrique subsaharienne n'est pas indiquée.

Nous pouvons distribuer les éléments définissables des 9.050 éléments du tableau précédent comme suit :

24. Bibliothèque Nationale de Madrid, Mss n° 17. 645, folio 14.

Manche. En 1570, D. Juan de Asturias se décida à entreprendre une campagne en règle. Devant ce fait, il décréta le 28 octobre 1570, l'ordre d'évacuation totale des morisques du Royaume de Grenade. Des colons de Galicie, des régions de Léon et Bourgos, repeuplèrent les zones évacuées.

Finalement, en 1609, les morisques de toutes les provinces d'Espagne seront définitivement expulsés ; mais pas avant de laisser leurs traces en des romances, chansons, instruments et folklores de différentes régions péninsulaires. Ils laisseront la mémoire de leur présence qui a pesé dans l'avant-garde musicale de la péninsule ; une preuve serait Mahoma Mofferiz *"el moro de Zaragoza"*, maître fabriquant d'orgues et de *claviorganos*, instruments qui étaient à l'avant-garde des instruments d'expérimentation en cette époque. Il faut dire que les œuvres de ce maître étaient appréciées par les rois, les nobles et les hauts dignitaires ecclésiastiques. Une autre preuve est la présence de familles d'artisans qui illustrent le processus d'acculturation.[21]

Une autre collectivité marginale prendra la relève des *zambras* morisques en les transformant et en les incorporant à son propre répertoire : le peuple Gitan des grottes du *Sacromonte* de Grenade.

2. Les expéditions Sa[c]diennes en Afrique subsaharienne : les chiffres globaux

Les *Arma* sont les descendants des contingents militaires envoyés par les Sa[c]diens entre 1591 et 1618 pour conquérir et coloniser la Boucle du Niger jusqu'alors sous la domination Songhay des Askia.

Az-Zayānī donne le chiffre global de 22.000 qu'il divise en 20 corps d'armées [22] à la première expédition que dirigea Jawdar Pacha. L'*Anonyme* et son *Annexe*[23] nous donnent des chiffres qui oscillent

---

21. P. Calahorra Martinez, *la música en Zaragoza, siglos XVI-XVII.*, Zaragoza, Institución Fernando el Católico, 1977. Vol. I, pp. 96 - 106.

22. *"Histoire de la dynastie sa[c]dide. Extrait de al-Turjumân al-mu[c]rid[c]an duwal al-Mashriq wal Maghrib"*, d'Abû al-Qāsim b. Ahmad b. Ibrāhīm al-Zayānī, par Roger Le Tourneau. Texte, traduction et notes présentées par L. Maugin et H. Hamburger. *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerannée*, Aix-en-Provence, Numéro 23, Ier Semestre 1977, pp. 7 - 107.

23. Sur ces deux auteurs, *cf.* les citations qu'en donne Mercedes Garcia Arenal, M. García-Arenal, "Los Andalusíes en el ejercito Sa`di : un intento de golpe de estado contra Ahmad Al-Mansûr Al-Dahabî (1578)", *Al-Qantara. Revista de estudios árabes.* Vol. V, Madrid 1984, Fasc. 1 et 2, pp. 169 - 202.

1.3. Troisième période, 1566-1570 : Acculturation et marginalité. Supplantation de la musique populaire de Grenade par la musique renaissantiste et les traditions chrétiennes.

En 1566, l'inquisiteur général Diégo de Espinosa, prépara avec Philippe II un édit qui imposait de multiples prohibitions aux morisques. En 1567, afin de préparer l'anniversaire de la rentrée des Rois Catholiques en 1492, Pedro de Dessa est nommé ex-prodeso, Président de l'Audience de Grenade ; ce dernier promulgua l'acte et en commença la mise en application.[19]

Durant une année, les morisques de Grenade tentèrent de négocier. Leur procurateur, Jorge de Baeza s'en alla à Madrid pour protester devant Philippe II, tandis que leur plus prestigieux politique, Francisco Núñez Muley, présentait à Deza un Memorandum.

En ce qui concerne la musique et les instruments morisques, Núñez Muley fait une défense intelligente, en rappelant qu'il n'y avait rien de morisque et que c'était la coutume de royaumes et provinces et qu'il a toujours existé une ample histoire de tolérance.[20]

Les arguments de F. Núñez, efficaces en d'autres époques, n'avaient plus d'effet. A l'aube de 1568, se produit le soulèvement des morisques de l'*Albaícin*. Bien que ce fut un échec, le mouvement s'étendit par les *Alpuharras*, la *Sierra Nevada* et la côte. Fernándo de Valor, de vieux lignage arabe, prit le nom de *Aben Ḥumeya*, et fut proclamé Roi. Une année plus tard, il fut assassiné et remplacé par son cousin *Aben Aboo*. En 1569, l'insurrection, appuyée par les *monfiés* ou musulmans stricts qui s'occupaient de banditisme dans la *Sierra Nevada*, s'étend des montagnes aux plaines.

En juin 1568, il est décrété que tous les morisques du Royaume de Grenade soient expulsés de leur terre et dispersés dans toute la

---

Folio 2r. Año 1563. J. Martinez Ruiz, Inventario de los bienes moriscos del Reino de Granada (siglo XVI)., *Linguística y Civilización*, C.S.I.C., Madrid, 1972.

19. L. Marmol Carvajal, *Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada.*, Madrid, Bibliot. de Autores Españoles 1852, Lib. III, chap. VI.

20. *Archivo de la Alhambra*. Legado 159. (Apuntamiento hecho en 1775 por el veedor y contador de la Alhambra don Lorenzo de Pradi de la Súplica que hizo Francisco Núñez Muley para que se suspendiese la ejecución de la Pragnática dada contra los moriscos en 1566.

gazis harbis, (que son esclavos y cautivos), hacían algunas zambras en las que había mucha de shonestidad (lo que) causaba gran vexación à la gente de bien y honrada". La reine intercéda pour les *zambras* en disant que celles où il n'y a ni cérémonie ni insulte à la foi, ni trace de malhonnêteté restent permises.[16]

Après la conquête de Granada et la dure politique de conversion du Cardinal Cisneros, les morisques de l'*Albacin* se soulevèrent ; la révolte est écrasée en 1499. En 1502 les musulmans du royaume de Castille, où Grenade est incluse, sont confrontés au dilemme d'accepter la conversion ou l'expulsion. En 1526 les musulmans d'Aragon se sont trouvés dans la même situation. Ce fut pendant la même époque que dans les montagnes d'Espadan, les morisques se soulevèrent de nouveau. Ce soulèvement est écrasé avec un contingent allemand. A partir de cette époque, surgit une tolérance des coutumes des vaincus qui bénéficièrent, quarante ans durant, de l'exempt de la juridiction de l'inquisition. C'est dans cette perspective que s'intègre la préoccupation de la reine Isabelle de Portugal pour la musique des morisques.

En 1559, tous les titres de propriété des morisques sont révisés et en même temps, la menace turque en Méditerranée occidentale s'accroit et les actions de piraterie de la Berbérie se multiplient. En 1558, les pirates musulmans attaquent Berja ; en 1559, les Turcs d'Alger attaquent le chateau fort de Fuengirola ; en 1560, se réalise l'action la plus spectaculaire : les troupes régulières espagnoles sont battues par les corsaires de Tétouan qui attaquèrent Orgiva alors que les Turcs s'imposent dans la Méditerranée occidentale en assiègeant Malte en 1565.[17]

Tout cela accentua le climat de tension et de crainte. Les morisques qui décident d'embarquer pour l'Afrique du Nord sont nombreux. Nous avons ainsi des documents de 1559 et de 1563 des archives de l'Alhambra où sont décrits les meubles qu'ils abandonnèrent ou qui restèrent confisqués : Parmi ces biens il y a quelques *atabales* morisques et un *"laúd morisco, viejo y quebrado"*. Tout cela ne fut que prélude aux événements qui auront lieu trois ans plus tard et dont le *laúd* reste l'emblème.[18]

---

16. Cédulas, provisiones, vísitas y ordenanzas de la Audiencia de Granada (Granada 1551), Folio 102v. 10 de marzo de 1532. Voir note 3.

17. Lynch, J., *España bajo los Austrias*, Barcelone, Lynch, Ediciones Península. 3a. éd. 1975. Vol. I, pp. 269 - 294.

18. *Archivo de la Alhambra., año 1599., Lobras y Nechite* (Bienes secuestrados). L-34-51, f.9r., linea 32. *Archivo de la Alhambra. Pataura* L.9.7.

première période bénéficièrent d'une situation privilégiée, qui leur permit même de s'intégrer dans les célébrations liturgiques ; la situation de ces arts est allée en s'améliorant, étant libres d'impôts depuis 1519.

1.2. Seconde période, 1530-1565 : le choc culturel

Cette période se caractérise par une lente détérioration du milieu de convivialité musicale. C'est l'époque des craintes et des tensions socio-économiques.

L'Université de Grenade se consolide avec la Cédule de Clément VII en 1531 et les premières constitutions de 1542. La reine Isabelle de Portugal, épouse de l'Empereur Charles Quint d'Allemagne et d'Espagne, fut un ardent défenseur de la musique des morisques contre l'Archevêque de Grenade, l'illustrissime Gaspar de Avalos. L'Archevêque interdit les *zambras* et la reine publia une *"Cédula para que el arzobispo de Granada informará de las razones que habia para prohibir las zambras"*, datée du 20 juin 1530. En outre, en 1526, la reine proclame l'interdiction des cérémonies maures dans les *zambras*, mais ceux-ci jouissaient d'une licence mettant en cause la prohibition décrétée par l'Archevêque. Selon eux, s'il n'y a dans ces *zambras* ni insulte à l'égard de la religion chrétienne ni cérémonies morisques, il n'y a aucune raison de l'interdire.[15]

Les accusations qui pesaient sur la musique des morisques grenadins se reflètent en la seconde Cédule relative à *"la música, canto y bailes de los nuevamente convertidos"*, que la reine Isabelle de Portugal envoya le 10 mars 1532 au président et auditeur de l'audience et Chancellerie de Grenade. Là, il est dit que *"cantan algunos cantos que mancionan a Mahoma", asímismo porque los*

---

de terrain donne une nouvelle lumière en ce domaine ; ainsi l'étude de *Albarracin de Martinez Ruiz* : *Verstido y adorno de la mujer musulmana de Yebala* (Marruecos), Madrid, 1964, pp. 33 - 34, nous offre ces données : "Danza morisca. Así danzan los moriscos y con esto castañetean los dedos. Esta es la danza morisca, con esto gritan como los terneros... La danzarina con pañuelo de cabeza blanco, frontero rojo, realzado con oro, sobre vestido azul, vestido de bajo blanco y rojo ; reamzado con oro y con mangas semejantes, la manga blanca (a la derecha) con vuella roja, la manga roja (a la izquierda) con vuella blanca, pantorrilleras violadas...". Notons que cette description, à quelques différences près, vaut aussi pour la femme Arma jusqu'au début de ce siècle.

15. Archivo de la Iglesia Catedral de Granada, Reales Cédulas, libro II, duplicado. (Folio 38v - 39r. 20 de junio de 1530). Voir note 3.

Le respect et l'optimisme de cette période montre son évidence dans le désir de *"juglares y juglaras"* d'améliorer leur situation. Nous avons à propos le *"requerimiento hecho por los jurados del Ayuntamiento de Granada para que no se cobrase el deracho morisco llamado "tarcón", que llevaba por las zambras, bodas y desposorios"* daté du 27 Janvier 1517 ; ce droit était perçu par Fernando Morales avant Ayaya Fisteli. Cette interdiction s'imposait par le fait que la situation ayant changé, il n'y avait pas lieu de maintenir les anciennes charges reglémentées par les institutions Naçrides.[10]

Le 11 mars, la Mairie décide qu'en cas de mort de Fernando Morales Fisteli, l'impot *"tarcón"* et la charge de Maire cesseront d'exister. En effet, cette charge fut annulée le 4 janvier 1519, avec la mort dudit Maire de la musique.[11]

Le 13 décembre 1495, le conseil municipal de Baza invite les *ministriles moros* de ses terres à accompagner la célébration du *Corpus Cristi*. Pareille décision sera prise par la même Mairie, le 4 novembre 1524 pour accompagner la réception du Jubilé. A Malaga, à une date plus tardive, le 7 Août 1535, le conseil invite les musiciens morisques ou *zambreros* à donner une réjouissance.[12]

Lorsque Fransisco Nuñez Muley dans son fameux Mémorial de la prohibition se plaint d'interpréter cette musique, il rappelle en défensive, les temps de connivence et d'illusion.[13]

Diverses prohibitions relatives à leur religion et coutumes pesaient sur les morisques, mais la musique et la danse[14] en cette

---

10. *Archivo del Ayuntamiento de Granada. Libro de Cabildos desde 1516, hasta* 1518. Folio 101. Ce document est recueilli dans l'appendice documentaire de l'œuvre de A. Gallego Burin et A. Gamir Sandoval, *Los Moriscos del Reino de Granada según el Sínodo de Guadix de 1554*, Ed. lit. Darío Cabanelas Rodríguez/Université de Grenade, Grenade, 1968.

11. *Archivo de la Catedral de Granada*. Legajo 2003. Indiferentes. 11 de Marzo de 1518. *Archivo del Ayuntamiento de Granada*, Libro de Cabildos de 1518 hasta 1522, Folio 42. 4 de Enero de 1519. Cf. note 3.

12. Archivo del Ayuntamiento de Baza., Registro de Cabildo. 31 de diciembre de 1495, (Comenzó en Domingo 12 de octubre 1493). Cábildos de los años 1523, 1524 y de 1525, 4 de noviembre de 1524. Archivo del Ayuntamiento de Málaga. Libro IX de Cabildos. Folio 186. 7 de Agosto de 1535. Cf. note 3.

13. Voir note 3.

14. Le livre de Christoph Weiditz, *Das Trachtenbuch des... von siener nach Spanien (1529) und Niederlander* (1531 - 32), édité par Théodore Hampe Berlin et Leipzig, 1929. C'est là un magnifique échantillonnage de planches qui nous informent graphiquement des costumes et parures morisques de Grenade. Le travail

spécial et tout couvert de marqueterie, la technique métallurgique sophistiquée qu'impliquent des instruments à vent déterminés, forment un panaroma fort suggestif et peu étudié.

Le regroupement renaissantiste supplantera les mélodies Naçrides nées dans la connivence (quelque peu mythique) des trois cultures péninsulaires (l'islamique, la juive, la chrétienne) où les compositions se faisaient coude à coude, *laúd* et *fidule* interposés. Les documents nous permettent de diviser le processus de cette substitution comme suit[8] :

- Première période, 1492-1529 : l'utopie de la connivence.

- Seconde période, 1530-1565 : le choc culturel.

-Troisième période, 1566-1570 : acculturation et marginalité. Supplantation de la musique populaire du Royaume de Grenade par la musique renaissantiste et les traditions chrétiennes.

1.1. Première période, 1492-1529 : l'utopie de la connivence et la juxtaposition christiano-morisque

Cette période, qui s'étend approximativement sur trente sept ans, peut s'étendre jusqu'à 1535, dans le cas de Malaga, soit quarante trois ans. Elle se caractérise par l'utopie de la connivence.

L'implantation de la musique à la suite de rois, nobles, militaires, et éléments de la repopulation dans la ville, l'église et l'université était un fait. Quelle était alors la situation de la musique des vaincus ?

Le 13 Février 1492, à peine passa un mois depuis la conquête de Grenade, les Rois catholiques font passer la *"carta de merçed del oficio de alcaide de las juglaras y juglares de Granada a favor de Ayana Fisteli, conforme usaron tal cargo los alcaides nombrados por los reyes moros"* qui comportait l'organisation et la fiscalisation de la musique morisque.[9]

8. Manzano, R.F. , De *las melodías del reino nazarí de Granada a las estructuras musicales cristianas*., Grenade, 1985.

9. *Archivo General de Simancas. Registro General del Sello*. 13 de febrero de 1492. Granada, Folio 18. La transcription de ce document nous est donnée par M. A Ladero Quesado, *Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel I*, Valladolid, 1969, p. 189.

f. Il se produit un processus d'acculturation le long de la période de conquête - pendant laquelle furent permis les manifestations musicales et festivales des vaincus, jusqu'à la détérioration de la connivence qui durera soixante sept ans approximativement (1492 - 1566) et l'interdiction de ces actes. Ce processus présente de grands intérêts comme la lente insertion de modes et formes musicales de l'Espagne chrétienne, la substitution des systèmes de transmission, de conservation musicale, et celle aussi des formes de l'enseignement et des institutions.

g. La transplantation de ce répertoire au Nord de l'Afrique, puis dans la Boucle du Niger avec la conquête Sa^{c}dienne du Songhay et en d'autres zones du monde islamique suivra donc, consolidant et donnant une forme définitive à des processus antérieurs, ce qui dénote l'existence d'une vive transmission orale en ces régions, maintenues avec l'appui étatique et de diverses institutions des pays récepteurs. Cette réception favorable a généré une documentation considérable.

h. L'événement historique qui est ici analysé eut d'importantes répercussions dans les traditions et la vie littéraires de l'Espagne et de l'Europe. Nous citerons en exemple, les cycles de romances morisques, les romances dites fronterizos, les nouvelles et les drames dont plusieurs étaient fort appréciés et souvent mis en partition.

i. La survivance de cette musique en folklores distincts et recueils de poésie péninsulaire nous est donnée en plusieurs éléments en lesquels elle est un apport décisif.

j. La musique est imbriquée dans la culture, l'industrie, l'économie, la religion, les choses juridiques, sociales et institutionnelles. Il sera important de dégager dans ce sens comment elle s'intègre dans des sphères comme l'économique où elle devient objet d'un impôt appelé "tarcón", pour les zambras et festivités morisques dont la fréquence alimentait le trésor de l'Etat et générait même un secteur institutionnel, celui dit de "alcaide de juglaras y juglares".

Au niveau de la fabrication des instruments musicaux, nous pouvons remarquer que les cordes du *laúd* sont parfois de soie, ce qui signifie une certaine véhiculation avec la production de soie et certaines filatures ; d'autres cordes sont de tripes d'animaux, ce qui met en jeu l'élevage et la chasse de peau dont les rustines de tambour, timbales, tambour de basque, etc. ; les plumes de certains oiseaux sont utilisés comme plectre ou pointe pour jouer les instruments à corde. Des instruments à incrustation en ivoire, élaborés avec un bois

1. Les antécédents historiques : la tradition musicale des Morisques du Royaume de Grenade

L'époque clef de la migration andalouse en Afrique du Nord fut en 1492. En ce moment historique, la méditerranée occidentale présentait un équilibre de forces inégales. La Couronne Catalano-Aragonaise était en pleine expansion et menait ses visées sur une bonne part de la Méditerranée, de l'Afrique du Nord et de la Castille. Elle était sur le point de découvrir l'Amérique lorsque le Royaume Naçride de Grenade, déchiré par des luttes intestines pour le contrôle du pouvoir, s'affaiblissait devant une Afrique du Nord aux fluctuantes relations entre monarques. C'est là, en ce théâtre que les rois catholiques, Ferdinand et Isabelle achèveront la conquête du dernier réduit musulman de la Péninsule Ibérique. Ce dernier acte aura des conséquences novatrices pour ce qui est de notre thème.

a. La culture musicale andalouse se réfugie d'abord dans le Royaume Naçride de Grenade comme ultime enclave musulmane de la Péninsule Ibérique. Ce fait favorisera les compilations et la prolifération de polygraphes d'une part, et d'autre part une plus grande présence d'éléments de la tradition musicale Ibéro-Islamique dans les sources narratives musulmanes.

b. Après l'étape de guerre (1482 - 1492) et la conquête du Royaume de Granada, nous constatons un plus grand intérêt pour la musique andalouse dans les sources narratives chrétiennes.

La nouvelle situation politique et juridico-administrative rendit possible une floraison de fonds diplomatiques : bulles, capitulations, pragmatiques, rapports, pétitions, documents notariaux, etc., plus rares pendant des périodes antérieures. En ces documents de grandes valeurs pour l'étude des institutions et de l'ambiance sociale des arts du Royaume Naçride de Grenade, se recueille la musique populaire des Morisques, ses zambras et leilas, toutes musiques de cours qui suivirent le mouvement d'émigration des monarques musulmans de la péninsule.

c. Esthétiquement le monde musical andalou et l'Espagne chrétienne, avec des formes coïncidentes et nombre d'échanges durant le Moyen-Age, se séparèrent considérablement à la fin de cette ère et au long de la Renaissance ; polyphonies et noubas symboliseront les deux mondes sonores.

d. L'instrumental des deux formations culturelles en cette étape se différencie d'une façon marquée, tant dans la construction (surgissent quelques instruments de touche et d'autres se perfectionnent dans le monde chrétien) que dans leurs manières d'exécuter la musique.

travaux signés dès le début de ce siècle par José Ortega y Gasset[3], E. Garcia Gómez[4] dont les œuvres et l'esprit sont prolongés de nos jours par les universitaires de Grenade qui, à travers une série d'expéditions scientifiques ont tenté de retrouver les trêves de ces éléments "égarés" dans la Boucle du Niger.[5] Bien que pionnières, ces dernières études n'ont abordé la question des Arma de la Boucle du Niger que d'une façon fragmentaire, donnant plus d'espace à la geste de Jawdar comme dans les sources espagnoles ou aux raisons économiques et politiques comme chez Michel Abitbol[6] ou Dramani Issifou.[7] Aucun historien, à notre connaissance, ne s'est penché sur la musique Arma dans la Boucle du Niger, ce qui est un défaut de la bibliographie actuelle. L'esprit de cette étude, c'est de parer à un tel vide en donnant aux musicologues, les éléments que fournissent les sources historiques relatives à la question.

Cette étude ne dépassera donc pas le niveau d'une introduction historique à la musique Arma dans la Boucle du Niger. En nous fondant sur les sources historiques, nous tenterons la datation de l'introduction de la tradition musicale dans la communauté Arma, définissant les instruments d'une telle tradition, leurs transmissions et les thèmes d'une telle musique dans l'espace de la vie sociale de la Boucle du Niger. L'étude qui suit, aura à souffrir donc des limites de nos sources historiques qui ne font cas de l'art très souvent que dans les occurrences qui regardent les manifestations du pouvoir, ces sources se sacrifiant largement à la petite histoire événementielle. Nous donnerons donc, en première partie, une étude qui formera en grande partie la musique Arma ; en second lieu, nous traiterons du mouvement de migration des Morisques, Renégats et Arabo-Berbères que rendit possible la conquête Sa^{c}dienne du Songhay ; en troisième lieu, nous traiterons des instruments de musique Arma et des thèmes de cette musique.

---

3. Ortega Y Gasset José , "Las ideas de Leon Frobenius", *El Sol*, 12 et 26 Mars 1924.

4. García Gómez E., "Españoles en el Sudan", *Revista de Occidente*, Madrid, Año 1935, num. 148, Octobre, L, pp. 93 - 117.

5. *ANDALUCIA EN LA CURVA DEL NIGER*, Universidad de Granada-Excma Diputación de Granada, 1987.

6. Abitbol M., *Tombouctou et les arma, De la conquête marocaine du Soudan nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'empire Peul du Macina en 1833*, Maisonneuve & Larose, Paris, 1979, 295 p.

7. Issifou Z. D, *L'Afrique noire dans les relations internationales au XVIème siècle, Analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhaï*, Paris, Karthala, 1982.

Introduction à la tradition musicale des Arma de la boucle du Niger*

M. Maizada, R. Fernandez Manzano et Ismaïl Haidara
Granada

Il y a un vide, une absence de travaux se rapportant à la diffusion des formes musicales du Maroc des Sa^c^diens dans la Boucle du Niger. Julio Caro Baroja, dans son classique ouvrage : *Los Moriscos del Reino de Granada*[1] fait cas des morisques à Tombouctou ; plus tard, A. Dominguez Ortiz et Bernard Vincent citeront de passage dans leur ouvrage commun, *Historia de los Moriscos*[2], la geste de Jawdar Pacha, et la descente de quelques éléments morisques (dans le texte, "renégados") extraits des 40.000 qui peuplèrent le Maroc des Sa^c^diens. Plus qu'un *obiter dictum*, la question des Arma en Afrique Subsaharienne sera au centre des

---

* (i). **Système de translittération**

Songhay	Castellano
'	'
c	ch
j	y
k	c
y	y

(ii). **A propos de la transcription des partitions**

La transcription musicale est une approximation simplement orientative, du fait que les structures rythmiques d'accordage et de mélodie de cette musique ne peuvent ni s'ajuster ni se représenter fidèlement dans une annotation occidentale.

1. Baroja, J.C., *Ciclo y tema de la historia de España : Los Moriscos del Reino de Granada, tensayo de Historia social,* Madrid, Ediciones ISTMO, collección Fundamentos, 50, 1975, pp. 50 et notes 8, 9.

2. Ortiz Antonio Dominguez /Bernard Vincent, *Historia de los moriscos,* Madrid, Alianza editorial, 1989, p. 232 édit.

Generously, the king sets everyone free, a gesture to be reported to the land of Christendom.

Now, about that curious title ! Why not invasion or infiltration or penetration? Obviously not in the military sense. Because of the nature of the movement, and since the recipient willingly adopted/adapted cultural and civilizational elements (Morris dance, jennets and saddles), we can definitely speak of conquest. Reality or fiction? Drawing the borderline will depend on the degree of the historian's confidence.

Bashaw Joffer to find him Christian concubines - "the fairest" to "buy for gold". Falling under the spell of the English beauty, he starts courting her, offering her half of his kingdom. In order for her to please him, she puts down conditions, namely :

(a) granting her her freedom ;

(b) granting her ship a safe-conduct ;

(c) sparing her any violence ;

(d) providing her crew with food supplies ;

(e) guaranteeing her own safety.

The king accepts these conditions and Besse concedes being courted. He asks her about English courtship customs, which results in an interesting combination of courtship - or flirting - and politics.

When Besse tells him that her real name was Elizabeth, he starts making praiseworthy comments on the English queen.

The following day, he invites her to attend his court business. She is utterly confused as she sees, among the crowd brought before the king, no other but her very Spencer.

Subdued, Mullisheg forgets completely about his strict trade laws as he concedes to her plea on behalf of some merchants and a preacher. She begs him to allow her to marry Spencer and he promises to fulfil her wish.

Out of jealousy, Mullisheg's wife, Tota, seeks a means of revenge. With the assistance of an English captive, she manages to work out a scheme. She has a love affair with an Englishman, namely Spencer himself.

On the nuptial night, Mullisheg is found in bed with his queen, made to believe it was Besse. In counterpart, Mullisheg's scheme is to have a "male Moor" hired to fill the Englishman's nuptial bed where Besse was supposed to be.

While these stratagems are being carried out, the Englanders try to find a means to escape.

Spencer wins the sympathy of one of the king's bashaws who offers to set him free. In the meantime, Captain Goodlack and the lieutenant escape with Besse on the very bridal night.

By the time the king discovers the multi-sided plot, his wife admits to him she was the one who filled Besse's bridal bed by compassion for the English lovers.

Upon hearing of the death of the Moroccan king at the battle of Alcazar, Gresham demands that the new monarch either honour his predecessor's engagment or refund the sum of sixty thousand pounds paid in advance. The request is not responded to and the new king sends Gresham a "*costly dagger and a pair of slippers*" which Gresham puts on and starts to dance in them, cheering as he drinks to the Queen's health :

Whoever saw a merchant bravelier fraught,
In dearer slippers, or a richer draught ?

Another Sa^{c}adi-related play is Thomas Heywood's *The Fair Maid of The West* (1631).

In the port city of Plymouth, two captains and an officer, Caroll, go dining at the Windmill tavern where the fair Besse Bridges, herself the owner, serves as a bar-maid.

Spencer, her fiancé, proposes a sea journey - which she cannot accept. They take leave of each other rather romantically.

He trusts her with his belongings (on a trial basis) and leaves her in charge of "vertue and chastitie." She turns down so many suitors. Disguised as a brother of hers, she even beats one of such men in a duel.

Rumors reaching her would have it that her lover was killed in a battle in the Azores. In fact, another Spencer died while hers was only wounded. Wishing to return home, Spencer is advised to take a ship sailing homeward to England. However, both he and the ship surgeon are taken prisoners by a Spanish fleet.

In the meantime, taking advantage of the rumour, Goodlack, one of Spencer's acquaintances, tries to "succeed Spencer in his love". Ignoringly, Besse asks him to provide her with a vessel to take a voyage "all lovers will commend".

Disguised as a man, she sails on what she named the Negro, in the company of Goodlack as captain, Roughman, Fawcett, Clem and other sailors.

The party goes through a series of adventures, including clashes with Spanish warships. In one of these, Besse's captain is wounded and others taken captives by the Spanish. They all fall in the captivity of the Moroccan fleet.

Bess is brought before the Moroccan king, Mullisheg. Asserting his victory by seeking to establish law and order in his dominion and regulating Christian trade, he had just asked his

The sporadic inaccuracies detected here and there do not in the least diminish the literary and artistic value of the play. An occasionally irregular spelling of the same names might be so misleading as to make them refer to different characters : Abdilmelec, Abdelmelc and Molocco ; Xeque and Seth; Rubin and Rubyn ; Abdulla and Abdalla ; Xarif and Zarif ; Calypolis and Calipolis. There is the presence of three Muly Mahamets of whom one is the Moor and the other Xeque (one should have been Ahmad). The rather unexpected inaccuracy is the reference to Pope Gregory VII (1073-1085) instead of Pope XIII (1572- 1585). With slight modifications in names or functions, some of the Portuguese characters correspond to those cited by English sources : Lewis de Silva may be a combination of two original names (Lewis de Cordua and Fernando or Alvar or Diego de Silva) ; Christopher de Tavera is a similar combination of Don Christopher and Aveo de Travora; Don Denysis sounds like Duarte de Mennesses (general of Tangier).[2]

In one of Thomas Heywood's plays published in 1606, one of the characters, Thomas Gresham, asks a "barbary merchant" to secure for him "a seal'd patent" from the Moroccan king :

For all your barbary sugar, at a price,
During the king's life; and for his princely love,
I am to send him three score thousand pounds.

The merchant responds thus :

Send but your private letters to your factor,
That deals for your affairs in Barbary,
His majesty shall either seal your patent,
Or I'll return the money to your factor.

Assessing the venture he is prepared to engage in, Gresham builds his hope on time :

I am to have a patent
For all the Barbary sugars, at a rate.
The gain clears half in half; but then the hazard.
My term continues during the king's life :
The king may die before my first return ;
Then where's my cash? Why, so the king may live
These forty years ; then, where is Gresham's gain ?
It stands in this, as in all ventures else,
Doubtful. No more ; I'll through, what'er it cost,
So much clear gain, or so much coin clear lost.

2. Anonymous. *A Dolorous Discourse of a Most Terrible and Bloody Battle, Fought in Barbarie, the Fourth Day of August 1578.* London, John and Thomas Mann, 1579.

Beat back this proud invading Portugal
And chastise this ambitious Negro Moor

(II,ii,920-921)

The crusading objective underlined in Moroccan sources is relayed with gusto. King Sebastian convinces the leaders of the Ireland-bound Christian contingent, coming from Italy, to change the course:

That course will we direct for Barbary,
Follow me Lords, Sebastian leads the way,
To plant the Christian faith in Africa.

(II,iv,790-792)

A plea to which the adventurous Thomas Stukeley replies with utter glee :

Saint George for England, and Ireland adieu,
For here Tom Stukeley shapes his course anew.

(II,iv,793-794)

The young Portuguese monarch makes his evangelical goal a trading prize for helping his protégé to win the Moroccan throne:

Lord Mahamet, we have adventured
To win for thee a kingdom, for ourselves
Fame, and performance of those promises,
That in thy faith and royalty thou hast
Sworn to Sebastian king of Portugal,
And thrive it so with thee as thou doest mean,
And mean thou so as thou doest wish to thrive,
And if our Christ for whom in chief we fight,
Hereby to enlarge the bounds of our Christendom,
Favour this war, and as I do not doubt,
Send victory to light upon my crest.

(III,iv,987-997)

The holy war is further enhanced by the Spanish participation confirmed by King Philip's ambassadors to Sebastian:

To propagate the fame of Portugal,
And plant religious truth in Africa,
Philip the great and puissant king of Spain
For love and honour of Sebastian's name,
Promiseth aid of arms, and swears by us
To do Your Majesty all the good he can,
With men, munition, and supply of war,
Of Spaniards proud in king Sebastian's aid,
To spend their bloods in honour of their Christ.

(III,i,830-838)

Infuriated by the Turkish belligerence, the Moor throws his curse on the instigating enemy:

Bar all the offices of Saturnes sonnes,
Be Pluto then in hell and barre the fiends,
Take Neptunes force to thee and calme the seas,
And execute Jove's justice on the world

(I,ii,244-247)

His fury is heightened at a moment when, losing the battle, he tries to escape :

But may I never pass the river till I be
Revenged upon thy soul accursed Abdelmelec,
If not on earth, yet we meet in hell,
Before grim Minos, Rodamant, and Eocus,
To combat will I crave upon thy ghost,
And drag thee through the loathsome pools
Of Lethes, Stikes, and fiery Phlegiton.

(V, 1420-1426)

Abdelmelec repeatedly manifests a similar fury :

The Gods shall pour down showers of sharp revenge.

(I, i, 162)

Rubin these rights to Abdelmumen's ghost
Have pierced by this to Pluto's grave below,
The bells of Pluto ring revenge amain

(I,i,188-190)

Another element totally incompatible with Morocco is the rather peculiar carnivorous nature, however symbolically intended. Thus Muly Mahamet the Moor presents his wife with lion's flesh :

Hold thee Calypolis feed and faint no more,
This flesh I forced from a lioness,
Meat of princess, for a princess' neat...

(II,iii,584-586)

As in Shakespeare's plays, blackness is an essential feature used pejoratively even by Moorish characters :

And make thy son and Negroes here good cheer

(II,iii,616)

... this Negro Moor
That clads himself in coat of hammered steel

(II,ii,902-903)

Though utterly incompatible with the Islamic aspect of the theme, the insertion of mythological figures increases the dramatic value of the play, by allowing for a possible parallel. This pagant consists of no less than Jove (god of gods), Neptune (god of the sea), Pluto (god of the underworld or the world of the dead), his wife Prosperina (daughter of Zeus and Demeter), Venus (godess of love), Saturn (god of agriculture) and Achilles - the leading figure in the *Ilyad*. To these are added Cerope (the half-man founder of Athens), Minos (Zeus' son), Iris (godess of rainbow) and Nemesis (godess of revenge). While the murderous element is represented by Tantalus (Zeus' other son who kills his own son and offers him as food for the gods) and Ixion (a king undergoing great suffering in the world of the dead for various crimes committed, among which rape). Degrees of anger are embodied in Alecto for unrest, Magaera for jealousy and Tysiphone for vengeance. Suffering is further increased by the overpowering presence of the main underworld rivers, namely Phlegiton (of fire), Lethes (of forgetfulness) and Styx (for un-perjured oaths). The intriguing feature of these mythological elements is that they are invoked by Muslim characters themselves.

Apart from three instances in which God's name (not Allah's) is invoked (IV,i,1145 and V,1543, 1563), it is Jove as well as mythical entities that Muslim characters are heretically going to appeal to. This Prince Mahamet trying to have his mother contain her feelings :

We shall be Jove's commanders once again
And flourish in a three-fold happiness

(II,iii,556-557)

Exhorting his followers to wage war against the usurper, Muly Xexe concludes his appeal thus :

Follow I saie to burning Phlegiton,
This traitor tyrant and his companions.

(I,i,220-221)

and in 1578 an expedition was despatched by Gregory. Its leader, Sir Thomas Stukeley, one of the most extraordinary figures of the day, was an English renegate who had a brilliant and adventurous military career all over Europe. He had had a hand in Irish troubles before this, had fought at Llepanto, had won and lost confidence of Philip II. Gregory, sanguine and eager as usual, fell under Stukeley's spell, but the adventurer promptly diverted the papal armament to assist Portugal in Morocco (where he died at Alcazar) and the expedition came to naught. (G.R. Elton. *England Under the Tudors*, London, Methuen & Co.Ltd., 1956, pp. 308-309)

Christian conspiracy and Turkish instigation is duly combined with murderous usurpation, which ultimately justifies the emergence of a ghost (one of three) condoning revenge :

Revenge cries Abdelmelec's grieved ghost

(II, i, 327)

Although not all the names of the Moroccan characters happen to correspond to those involved in the battle, some important elements do match with the events: the participation of Janissaries (I,i,102), appeal to King Sebastian for military assistance (II,iv), itinerary and account of the Portuguese army(IV,i), exact date of the battle-Monday the fourth of August Seventy-eight (V, *dumb show*, 1290) - escape of the defeated pretender (V, 1419-1426 and 1530-1531), keeping secret the Moroccan king's death to avoid confusion in the camp (V,1349-1351), the succession question (V,1538-1543). As for the fate of Sebastian's corpse which gave rise to a number of anecdotes and legends, the play prefers to have the newly crowned Moroccan order his soldiers *to perform the prince's funerals* (V,1591).

A rather intriguing character is Tom Stukeley whose identity is obscurely described in relevant sources. Lamenting his own death towards the end of the battle, he gives a sketchy account of what he calls his "pilgrimage" (V, 1455-1504). Born in London, he moved to Ireland, then to Spain from which he was banished after serving at King Philip's court. Settled in Italy, he was named Marquis of Ireland by the Pope, then Lieutenant-General of the contingent which, designed to assist the Irish rebellion against the Elizabethan subjugation, met its fatal blow under Sebastian's banner. The odyssey corresponds to the tale recorded in history books on the period.[1]

---

1. In 1572 the ardent and unpolitical Pius V was succeeded by Gregory XIII, as determined to extinguish hereby and recover the Western world from Rome, but he displayed no ability to develop a single effective scheme. Rashness and foolish optimism characterized all his doings, and his impulsiveness... destroyed much of the moral basis on which papacy must have acted. He saw the value of the Jesuit missions and encouraged them, but he wanted more immediate and more warlike results as well. The powers having shown themselves unready or unable to carry the crusade into Elizabeth's country, the pope himself undertook the fitting out of expeditions to carry out the *empressa* -the entreprise against England- of which papal and Spanish documents are full. He got his chance through the condition of Ireland where Elizabeth's policy of continuing the subjugation of the country had roused savage opposition led by James Fitzmaurice, a Geraldine of the unruly province of Munster. Failing to secure Spanish help, Fitzmaurice went to Rome,

The "*coal-black Moor*" is in fact a common character in other Shakespearian plays, as in *Titutus Andronicus* (III, ii, 78).

Apart from the sensuous power, there is the military prowess which *the valiant Moor* (*Othello*, I, iii, 47) exhibits, commanding *like a full soldier* (II, i, 35-36), whose victory over Brabantio's appeal to the Venetian Council compensates for any prejudice. By exhibiting this quality, would Shakespeare - though with no obvious political influence-have insinuated that an alliance with the Sa^{c}adis might have been beneficial ?

As for the emotional side, Iago's scheme is here to

> *... put the Moor*
> *At least in a jealousy so strong*
> *That judgement cannot cure...*
>
> (*Othello*, II, ii, 281-283)

Desdemona's mother had a maid called Barbary (*Othello*, I, iii, 25) - an explicit reference to Othello's homeland.

In Othello's *Country Men* (1965 : 40), Eldred Jones maintains that "the Battle of Alcazar... provided materials for a romantic tragedy well suited to Elizabethan tastes..." "*Almost all the ingredients for such a tragedy,*" he goes on, "*were present in the numerous popular accounts of this battle: villainy - duly punished - in Muly Hamet (Mutawakkil), misguided chivalry in Sebastian, virtue - justly rewarded - in Abdel Malek, and a large loss of life.*"

Wrongly termed the Battle of the Three Kings, the Battle of Alcazar was the subject of a number of relations and full literary pieces. In addition to *A Dolorous Discourse*, an anonymous report, and Edmund White's *A Brief Rehearsal of the Bloody Battle in Barbary* (1579), we have *Mully Mullocco* (performed at the Rose Theatre in 1592) and George Peele's *The Tragicall Battell of Alcazar in Barbarie* (1564).

Out of the pageant of some forty characters, the main ones are Abdelmalec, his brother Muly Mahamet Xeque, Muly Mahamet the Moor and his wife (with the strange name of Calypolis!), his son Muly Mahamet, Diego Lopis (Governor of Lisbon), King Don Sebastian, Don Menesis (Governor of Tangier), Tom Stukeley- an Anglo-Irish adventurer in the papal service.

The five-act play takes up the important phases of the event as recorded in historical sources, mixing them with dramatized fiction to produce bloody scenes and exotic features common to the Elizabethan stage and sought by its audience. The element of

While we are involved in the so-called "world of fiction", nothing can prevent us from assuming that there existed certain affinities between Elizabethans and Saᶜadis, without excluding the possibility of an overall similarity between the two nations. Consider the following characteristics :

(a) businessmindedness and negotiating spirit ;

(b) maritime activities ;

(c) extra-territorial expansion ;

(d) a sort of **iberophobia* resulting in a proposed alliance.

As by a strange stroke of destiny, Queen Elizabeth and Sultan El-Manṣūr died the same year, like fatally bound lovers!

Among the most important sources from which Elizabethan and later English writers drew material with African and Moroccan backgrounds, the following may be cited : Peter Martyr's *The Decades of the New World* (ca. 1555), William Wateman's *The Fardle of Facion*. (ca. 1555), Richard Haklyut's *Principal Voyages and Discoveries of the English Nation* (1589), George Abbott's *A Brief Description of the Whole World* (1599), Maudeville's *Travels*, Richard Eden's *Decades*. There were also diplomatic and trade relations drawn by special envoys like Captain Thomas Windham (1551,1552), Edmund Hogan(1577), Roger Bodeham (1579), Francis Drake (1577-1580).

Drawings and paintings such as those of Henry Peacham also provided visual information.

Apart from these documents and other sources, there was the direct contact Elizabethans had with Moroccans. As much as the Queen had a sweet tooth for Moroccan sugar, of which no less than twenty thousand pounds a year were exported at twenty-five pence a pound, she is reported to have been discontented *with the great numbers of Negars and blackamoors... crept into the realm.*

The nonetheless exotic but common concept of Moroccans of the Elizabethan society is clearly reflected in descriptions given of Othello the Barbarian, old black ram, lascivious Moor who is even made to admit being rude in his speech.

... Haply, for I am black
And have not those soft parts of conversation
That chamberers have...

(*Othello*, III, iii, 263-265)

The Sa^c^dī Conquest of English Literature

Mohammed Abu Talib
Mohamed V University, Rabat

So far, you historians have been surveying what unquestionably constitutes the thesaurus from which literature folks -writers and scholars- derive the necessary commodities which, also for the sake of convenience, are again manipulated

We are dealing with the post-"Great Inflation" England of 1525, that is, the period of a recovery process in which Morocco was both contributor and beneficiary, especially with respect to the textile industry. In other words, we are at a crucial turning point marked by three striking phenomena :

(a) economic recovery ;

(b) social change ;

(c) literary boom, particularly in drama, in which the Moor became an important figure.

We are also dealing with a period marked by the underlying characteristics of the Renaissance, namely :

(a) the revival of learning;

(b) doing away with feudalism ;

(c) developing drama as a salient exponent of the trend ;

(d) element of romance ;

(e) use of exotic settings ;

(f) exploitation of historical topics ;

(g) presentation of characters not as types, but genial entities.

These features have skillfully been employed by the leading playwrights of the age, *viz.*, Thomas Heywood, Christopher Marlowe, Thomas Kyd and - of course - William Shakespeare.

Bird, Charles S. et Bonnie Kendall, "The Mandé Hero" in Ivan Karp et Charles Bird, *Explorations in African Systems of Thought*, Bloomington, Indiana University Press, 1980.

Es-Saᶜdī, Abderraḥmān ben Abdallāh ben ᶜImrān ben ᶜAmir, *Tārīkh es-Sūdān*, Trans. O. Houdas, Paris, Ecole des Langues Orientales Vivantes, 1898-1900, 2ème éd., Paris, Maisonneuve, 1964.

Hale, Thomas A., *Scribe, Griot, and Novelist: Narrative Interpreters of the Songhay Empire. Followed by the Epic of Askia Mohammed*, Gainesville, Florida, University of Florida Press, 1990.

Kâti, Mahmoud, *Tārīkh el-Fettāch ou chronique du chercheur pour servir à l'histoire des villes, des armées et des principaux personnages du Tekrour,* Trans. O. Houdas et M. Delafosse, Paris, Leroux, 1913, 2ème ed. Paris, Maisonneuve, 1981.

Olivier de Sardan, Jean Pierre, *Concepts et Conceptions Songhay-Zarma,* Paris, Editions Nubia, 1982.

droit de règner à cause de leur héritage et ceux qui l'obtiennent grâce à leur puissance et leur talent sur le champ de bataille. Cette tension, enracinée dans une valeur sahélienne profonde, contribue par une puissante influence culturelle à l'instabilité croissante qui marque les dernières années de l'empire.

Askia Muḥammad avec son pélerinage à la Mecque et ses conquêtes à travers le Sahel a incarné un des aspects les plus positifs de *baba-ize-tarey*, la réussite de l'individu. Mais ses descendants représentent un autre élément, beaucoup plus négatif, celui de la rivalité destructrice au sein de la famille.

On peut trouver de nombreuses raisons à la défaite : la situation économique, la technologie de l'ennemi et l'echec d'une stratégie originale. Mais à la lumière de la comparaison entre les différentes formes narratives que je viens de citer, on doit compter aussi la faiblesse de la société Songhay à l'époque racontée par les chroniqueurs et chantée par les griots. Autrement, il est difficile d'expliquer comment une armée de quelques milliers de soldats est arrivée à maîtriser un peuple chez soi.

Il est vrai que les Songhay ont mené une résistance acharnée contre les occupants. Mais en lisant les derniers chapitres des chroniques, on voit comment le sentiment de *baba-ize-tarey* a animé les chefs de ces différents groupes et a limité leur capacité de refouler l'ennemi.

Mon interprétation fondée sur une étude de deux formes verbales différentes suscitera, j'espère, d'autres analyses à partir de nouvelles sources. Car nous ne sommes qu'à nos débuts dans la découverte du passé du Sahel. Les 6.700 manuscrits qui attendent les chercheurs à Tombouctou, les milliers d'autres en Mauritanie et dans d'autres pays de la région, aussi bien que les centaines d'autres sources orales constituent une richesse, un appel du passé, que nous ne pouvons plus ignorer si nous voulons comprendre vraiment non seulement les rapports entre les différentes parties de la région, mais aussi l'unité d'un continent toujours divisé par les suites du colonialisme.

beaucoup de rivaux au sein de la famille. L'enfant sera donc né dans une situation de rivalité qui influencera inévitablement son comportement.

Chez les Songhay, si vous voulez vous rapprocher de quelqu'un, vous dites *"ay nya ize"*, "le fils de ma mère," phrase qui calme les esprits et qui rappelle la notion de *Fadenya* chez les Mandé. Quand j'ai fait mes recherches au Niger en 1980-81, un de mes collègues nigériens a parfois utilisé cette phrase en parlant à quelqu'un qui manifestait une certaine réticence ou même hostilité à notre demande d'interviewer un griot.

Mais si vous voulez souligner la distance entre vous et l'autre, qu'il soit votre frère, votre cousin, ou quelqu'un d'autre, vous direz *"ay baba ize"*, *"le fils de mon père"*, ce qui signifie mon rival. Dans *Concepts et Conceptions Songhay-Zarma*, Olivier de Sardan confirme que*"baba-ize-tarey"* est parfois employé pour désigner tout antagonisme entre personnes proches".[7] Ainsi, chez les Mandé et les Songhay, *fadenya* ou *baba-ize-tarey* traduisent la même notion de rivalité et de conflit. On trouve des équivalents chez d'autres peuples du Sahel ; par exemple *genyo* en Wolof, *bingu babaagu* en Peulh, et *yan ubanci* en Hausa.

On dira, bien sûr, que ces divers peuples du Sahel n'ont pas inventé la rivalité entre les enfants, et que l'histoire du Maroc, de l'Espagne, de l'Italie, de la France ou de l'Angleterre au Moyen Age est très riche en exemples de conflits sanglants entre membres de la même famille. Mais la rivalité que je viens de décrire est nourrie aussi par un désir d'immortalité à travers les paroles de griots et de griottes.

Si l'individu veut se faire inscrire dans la généalogie de la famille, du clan, ou de son pays, il faut donc accomplir de hauts faits qui impressionnent, qui résonnent à travers les siècles dans les louanges de ces artisans de la parole. Ceux qui n'ont rien fait sont oubliés. Par exemple, Nouhou Malio ne mentionne que la moitié des Askias cités dans les chroniques. A part Askia Muḥammad et Askia Dāwūd, deux autres sont presque invisibles dans sa version du passé.

Dans l'épopée aussi bien que dans les chroniques, on constate donc une concurrence féroce entre les générations de descendants d'Askia Muḥammad. C'est comme une maladie qui devient de plus en plus insidieuse au fur et à mesure que le temps passe et que la famille s'aggrandit. On trouve une forte tension entre ceux qui réclament le

---

7. Olivier de Sardan, J.P., *Concepts et Conception Songhay-Zarma*, Paris, Editions Nubia, 1982.

ses propres petits enfants, des jumeaux engendrés par Soumayla Kassa, et elle part à la recherche d'un homme capable de l'aider à se venger contre son mari. A chaque homme qu'elle rencontre, elle pose la même question: "Est-ce que vous m'aimez ?" Si la réponse est positive, elle ajoute, "Bon, puisque vous m'aimez, ma dot est Soumayla Kassa, le taureau qui sera sacrifié au mariage est Amar Zoumbani.[5] Elle trouve enfin un Armahalley qui s'appelle Bayero, et c'est grâce à la fois à ce guerrier mais aussi à une indiscrétion de la part d'une femme de Gao que la ville tombe devant l'assaut des Arma.

Nous avons pourtant lu dans les chroniques qu'il n'y a pas eu de siège de la ville de Gao en 1591. Le griot a tout simplement remplacé la bataille de Tondibi par une série de conflits entre les différents mouvements de résistance Songhay et l'armée d'occupation au début du 17ème siècle. Il est probable que l'attaque contre la ville de Gao que le griot décrit n'est rien d'autre que la réaction de la ville en 1632 à une expédition punitive envoyée par le Pacha, représentant du roi marocain au Sahel.

Mais au-delà de ce genre de divergences, on constate qu'au fond les deux versions s'accordent sur la cause fondamentale de la défaite, le comportement des nobles Songhay.

On est tenté de conclure que ces interprétations complémentaires ne sont que le produit d'une réinterprétation après coup de la victoire d'une forme de technologie sur une autre. Mais je crois qu'on peut refaire la comparaison d'un autre point de vue à travers un trait culturel qui se retrouve dans certaines sociétés du Sahel. C'est la valeur de *baba-ize-tarey* chez les Songhay et *fadenya* chez les peuples Mandé.

Dans leur chapitre sur le héros Mandé, Bird et Kendall citent un proverbe Mandé, *"i fa y'i faden folo de ye"*, "votre père est votre premier faden ou rival"[6] dans le combat pour se faire une réputation. *Fadenya*, c'est la valeur qui traduit une insistance sur l'individu, non pas sur la collectivité, ce qui produit des conflits entre l'enfant et son père sur le plan diachronique, et entre l'enfant et ses frères sur le plan synchronique. *Fadenya* est, par contre, une valeur qui se manifeste dans un esprit de coopération et d'attention à la collectivité.

Si un homme a de nombreuses femmes, comme c'est très souvent le cas chez les nobles, il aura beaucoup d'enfants, et donc

5. T. Hale, 1990, p. 251.
6. Karp & Bird, 1980, p. 14.

Muḥammad le bon, le premier décrit comme un ennemi de la religion, le deuxième comme son défenseur le plus fidèle. Mais les références à la décadence se trouvent vers la fin de l'histoire, presque comme des explications *post facto* d'un événement qui est le résultat d'autres conditions. Au fond, les citations de la décadence se situent dans le contexte d'un problème plus vaste, celui de la rivalité au sein de la famille du roi, une rivalité qui commence par le coup d'état de Moussa contre son père Askia Muḥammad en 1528. La décadence, violation des lois régissant la société, semble être le produit d'une désintégration sociale enracinée dans des conflits familiaux. L'histoire des Songhay de 1528 jusqu'à 1591 est en effet une longue suite de luttes entre les nombreux fils et petits fils d'Askia Muḥammad.

Au vingtième siècle les détenteurs de la tradition orale continuent à raconter une autre version de l'histoire transmise et souvent transformée de génération en génération depuis le temps des Askias. En 1980-81, j'ai enregistré une dizaine de versions de l'histoire d'Askia Muḥammad et de ses descendants chez des griots Songhay au Niger. Celle du griot Nouhou Malio de la ville de Saga, au Niger, était la meilleure à maints égards, et c'est donc celle que j'ai transcrite, traduite, et publiée en 1990 au bout de dix ans de travail en collaboration avec mes collègues nigériens.

D'après Nouhou Malio et les autres griots de la région, la défaite n'est pas le produit de décadence morale, bien qu'il nous décrive des scènes de la vie mondaine à Gao. Il s'agit plutôt d'une autre forme de décadence. Le griot, arbitre social au Sahel, illustre sa thèse avec l'exemple de la violation d'une loi régissant les rapports entre les différentes couches de la société nobles, hommes libres, et captifs. Normalement, ces groupes restaient endogames. Un noble n'épouse pas une captive.

Il s'agit de l'histoire de Soumayla Kassa, ou Ismā^cil, un roi ou gouverneur Songhay à Gao dans les années trente du 17ème siècle. Il a épousé une femme d'origine captive et a engendré un fils, Amar Zoumbani. Le griot nous explique ce qui peut arriver à des nobles qui violent ces lois, et comment est né un de ces conflits familiaux qui ont miné la noblesse Songhay.

Le fils de Soumayla Kassa se croit prince et demande la main de la femme la plus belle et la plus riche de Gao. Mais un concurrent, qui est le fils de l'ancien roi et aussi le frère de Sagouma, la deuxième épouse de Soumayla Kassa, dit à Amar qu'il n'est pas prince parce que son père n'a jamais libéré sa mère de sa condition de captive. Le père d'Amar, Soumayla Kassa, fait tuer le concurrent noble, qui est aussi son beau-frère. Sagouma, sa femme et soeur de la victime, tue

Ed-Dhéhébi, conduites par le pacha Djouder, son esclave"[1]

"Ce qui causa la ruine de l'Etat du Songaï, ce qui poussa Dieu à y jeter la désorganisation, ce qui amena sur les citoyens le châtiment dont ils se moquaient jusque-là, ce fut l'inobservance des lois de Dieu, l'iniquité des esclaves, l'orgueil et l'arrogance des grands.[2] Au temps d'Isḥāq, la ville de Gâo avait atteint l'extrême limite d'immoralité ; les crimes les plus graves, les actes les plus désagréables à Dieu s'y commettaient ouvertement et les pires turpitudes s'étalaient au grand jour. C'était à un tel point qu'on avait désigné un préposé aux adultères pour lequel on avait confectionnné un tambour spécial et devant lequel les intéressés se citaient réciproquement. Il y avait d'autres choses dont le récit déshonorerait celui qui aurait l'audace de le faire. Nous appartenons à Dieu : c'est vers lui que nous devons retourner"[3]

Le narrateur du *Tārīkh as-Sūdān* est plus explicite. Il parle d'inceste et de maladies vénériennes. Pour terminer, il explique :

"C'est à cause de ces abominations que Dieu se vengea en attirant sur le Songhaï l'armée marocaine victorieuse".[4]

L'insistance des chroniqueurs sur la décadence morale des Songhay comme cause de la chute des Askias s'explique non seulement par la vie de la noblesse de Gao, mais aussi par le fait que ces chroniqueurs se réfèrent à une religion qui exige un comportement extrêmement correct de ses adeptes. Ceci n'est pas du tout étonnant car les narrateurs, occupant de temps en temps des postes religieux importants, sont à maints égards des représentants de l'Islam. Le fait d'écrire leurs chroniques et d'invoquer le nom du Prophète à chaque page souligne le côté presque sacré de ces textes aux yeux des narrateurs et aux yeux de leurs lecteurs. Cette attitude se manifeste de la façon la plus frappante dans le contraste entre deux personnages importants, Sonni ᶜAlī Ber le mauvais, et Askia

---

1. Es-Saᶜdī, *Tārīkh al-Fattāsh* ; Abderrahman ben Abdallah ben ᶜImran ben ᶜAmir, *Tārīkh as-Sūdān*. Trans. O. Houdas. Paris, Ecole des Langues Orientales Vivantes, 1898-1900, 2ème éd. Paris, Adrien Maisonneuve, 1964.

2. T. Hale, *A Scribe, Griot, and Novelist : Narrative Interpretes of the Songhay Empire*, followed by *the Epic of Askia Mohammed*. Gainesville, Florida University of Florida Press, 1990.

3. *Ibid.*, p. 272.

4. *Ibid.*, p. 225.

contre, les 1602 vers de *L'Epopée d'Askia Muḥammad*, racontés en quelques heures par un griot il y a dix ans, nous offre un autre portrait du passé beaucoup moins détaillé, moins linéaire, et plus symbolique. C'est aussi un portrait qui manifeste de façon plus profonde la culture des Songhay.

Par exemple, chez le griot les valeurs pré-islamiques jouent un rôle aussi important que les valeurs musulmanes. Le conflit entre les personnages historiques tels que Sonni ᶜAlī Ber et Askia Muḥammad est décrit de façon plus explicite, et le narrateur saute certains Askias qui n'ont pas fait grand-chose. Enfin, le griot mélange des événements tels que la bataille de Tondibi et une révolte de la ville de Gao une génération plus tard.

Mais au-delà des différences de forme et de fond entre ces deux narrations, la chronique écrite, chargée de dates, de noms, et de lieux, et l'épopée orale, souvent plus métaphorique, on remarque une concordance sur une des questions qui préoccupent les chercheurs aujourd'hui : comment est-ce que la puissante armée Songhay de 18.000 guerriers a-t-elle pu battre en retraite devant une colonne marocaine de quelques milliers de soldats qui venaient de traverser le Sahara?

Certes, au premier plan il faut mettre en relief l'échec de la stratégie militaire des Songhay à Tondibi et, d'une façon plus générale, le désordre politique et économique qui marque les dernières années du royaume. Mais chez les narrateurs musulmans qui écrivaient peu après la chute de l'empire aussi bien que chez le griot du 20ème siècle, on trouve des explications sociales de la défaite qui nous renvoient à des valeurs fondamentales des Songhay. Ces valeurs constituent à la fois une richesse pour les Askias mais aussi leur talon d'Achille.

Mais avant d'aller plus loin, revoyons les chroniques. Si on y trouve de légères divergences sur les dates et les descriptions des batailles, les narrateurs de ces textes s'accordent sur le fait que l'empire Songhay s'est écroulé non seulement à cause de la supériorité militaire des marocains et de l'échec de la stratégie Songhay à Tondibi, mais aussi à cause de la décadence générale, surtout celle de la noblesse. Parlant d'Askia Isḥāq II, le narrateur du *Tārīkh al-Fattāsh* nous dit :

> "Ce fut sous son règne que se manifesta la décadence du gouvernement Songhaï et qu'apparurent les jours de trouble et d'agitation qui se terminèrent par l'arrivée dans le pays des troupes du prince des croyants Moulaï Ahmed

La Chute de l'Empire Songhay en 1591 Une interprétation comparative à partir des *Tārīkhs* et *l'Epopée d'Askia Muḥammad*

Thomas A. Hale
Pensylvania State University,
University Park

Si le *Tārīkh al-Fattāsh et le Tārīkh as-Sūdān* restent nos sources les plus détaillées sur l'histoire du Sahel, textes que nous continuons à interroger et à réinterpréter, notre tendance à insister sur la tradition écrite, si riche qu'elle puisse être, ne doit pas nous faire oublier d'autres versions du passé, par exemple celle de la tradition orale. Dans mon étude comparative des chroniques et de l'Epopée d'Askia Muḥammad, *Scribe, Griot, and Novelist: Narrative Interpreters of the Songhay Empire. Followed by The Epic of Askia Mohammed*, j'ai exploré l'histoire des Songhay à partir de trois genres différents : la chronique, le roman, et enfin, la tradition orale sous la forme d'une histoire racontée par un griot Songhay au Niger. J'en ai tiré des conclusions qui portent sur des sujets tels que la théorie idéologique de la communication, le dynamisme des textes, la survie du système de croyances pré-islamiques, le maintien de la hiérarchie sociale et la fluidité de l'ethnicité au Sahel.

Mais le thème de ce colloque m'a encouragé cependant à revoir et à approfondir une de mes conclusions les plus importantes, celle concernant les origines de la défaite des Songhay par l'armée marocaine.

On peut se demander comment le récit d'un griot, quatre siècles après un événement, peut ajouter à l'histoire que les chroniqueurs ont si soigneusement préservée dans leurs écrits. Il est vrai qu'on trouve beaucoup de différences entre ces deux formes verbales. Les 850 pages des deux chroniques très détaillées révèlent une vision islamique et africaine par des narrateurs fidèles au souvenir de l'empire mais vivant sous l'influence de l'occupation marocaine. Par

age, the members of the religious estate were able to exercise a subtle and pervasive influence upon their patrons and even, at times, to stand up openly against them.

approval on the claims of Aḥmad al-Manṣūr. First, the very fact of his being deported to Marrakesh along with his uncle the *qāḍī* Abū Ḥafṣ ᶜUmar whom al-Manṣūr had accused of not supporting the Saᶜdian conquest of Songhay despite al-Manṣūr's 'caliphal' claims and his justification of 'uniting the Muslims' as part of his 'prophetic' mission.[48] Secondly, the fact that while in Marrakesh he apparently wrote a work on the *ḥadīth* about the 'twelve caliphs' which he concealed until he returned to Timbuktu, suggesting that what it contained would not have been looked upon favourably by the Saᶜdian establishment.[49] Thirdly, a late seventeenth century author of Tunis, Ibn Abī Dīnīr, had heard that when people in Timbuktu were made to swear an oath of loyalty to Aḥmad al-Manṣūr, Aḥmad Bāba had declared that he recognized no other sultan in the west than the ruler of Tunis, who was, of course, an appointee of the Ottoman sultan. While this does not imply he recognized caliphal claims of the Ottoman sultan, it does, if true, confirm his rejection of Saᶜdian claims.[50]

Thus, the evidence seems to be that the religious estate was a repository of several different views about the legitimacy of the Askiyas, though most strongly concurring in the legitimacy of Askiya al-Ḥājj Muḥammad I. Gao-based scholars were doubtless more ready to accord flattering titles to other rulers than were Timbuktu *ᶜulamā'* whose theoretical approach to such matters might best guard their orthodoxy. The Askiyas' attitudes towards and relationships with the religious estate was likewise not monolithic. Whilst, as I have tried to argue in this paper, in general they maintained a certain wariness about the possible malignant influence of holymen, at the same time -with at least one notable exception- they were anxious to retain their good-will and have their support both for matters of this world and the next. They wanted to be prayed for, not prayed against, to paraphrase the Arabic terminology. While the Askiyas may not have allowed state policy to be swayed directly by their intervention, we may be sure that within the cultural setting of Islam in that day and

48. I.e., a mission deriving its authority from his claimed descent from the Prophet Muḥammad.

49. See Muḥammad b. aṭ-Ṭayyib al-Qādirī, *Nashr al-mathānī li-ahl al-qarn al-ḥādī ᶜashar wa 'l-thānī*, ed. Muḥammad Ḥajjī and Aḥmad at-Tawfiq, Rabat 1397/1977, I, 274.

50. See Muḥammad b. Abī 'l-Qāsim ar-Ruᶜaynī, knwon as Ibn Abī Dīnār, *al-Mu'nis fī akhbār Tūnis*, ed. Muḥammad Shammām, 2nd ed., Tunis, 1377 [1957], 11.

There was no single answer. The Ottomans were certainly the greatest Muslim power and controlled most territory, yet not being of the Prophet's tribe of Quraysh disbarred them from being lawful caliphs in the normally accepted sense of that word. Sulaymān 'the Magnificent' (reg. 1520-66) first used titles such as 'Inheritor of the Great Caliphate and of the Exalted Imamate' (*wārith al-khilāfat al-kubrā wa 'l-imāmat al-ᶜuẓmā*) and sought thereby and through his guardianship of the Holy Places to claim the loyalty of all Muslims.[45] Later in the century the Saᶜdian ruler Aḥmad al-Manṣūr, who claimed sharifian descent (and hence Quraysh lineage), was to challenge the Ottoman's sole right to caliphal titles by himself using caliphal titles and claiming the prestige of a lawful successor to the Prophet.[46]

What did the *ᶜulamā'* of Songhay make of all this ? It seems probable that some of them at least may have accepted the legitimacy of the Askiyas after al-Ḥājj Muhammad I, considering that his *ḥurma* and *baraka*, if not the office bestowed upon him by the ᶜAbbasid caliph of Cairo, passed down through his descendants. The chroniclers of the seventeenth century avoid giving the Askiyas caliphal titles, preferring to speak of their 'assuming the sultanate' or some such phrase, but in Gao the situation was perhaps different. A single piece of evidence -the colophon of a copy of the *Risāla* of Ibn Abī Zayd, written for Askiya Muḥammad Bāni- shows that the title *amīr al-mū'minīn* was still being applied to him as late as the mid-1580s.[47] But this may have been a piece of flattery that the likes of Aḥmad Bāba would not have countenanced.

We have not as yet discovered any clear evidence of his views, except for his general mistrust of rulers alluded to at the beginning of this paper. Three pieces of evidence suggest that he did not look with

---

45. See appendix to ch. 1, 'The Rise of the Ottoman Empire' by Halil Inalcik in Part III of the *Cambridge History of Islam*, ed. PM. Holt, A.K.S. Lambton & Bernard Lewis, Cambridge, 1970, I, 320-3.

46. See for example his letter to *qāḍī* Abū Ḥafṣ ᶜUmar of Timbuctu where he describes himself as 'we whom God has appointed to the Exalted Imamate through which we assumed the Imamate of the Community and which makes hearing and obeying us incumbent upon people, and which handed over to our noble realm the inheritance of the earth and those upon it until the Hour [of judgement] arrives'. See ᶜAbd al-ᶜAzīz al-Fishtālī, *Manāhil al-ṣafā' fī ma'āthir mawalīna 'l-shurafā'* ed ᶜAbd al-Karim Kurayyim, n.p. [Rabat], n.d. [c. 1973], 132.

47. See J.O.Hunwick, 'West African Arabic Manuscript colophons I : Askia Muḥammad Bāni's copy of the *Risāla* of Ibn Abī Zayd', *Bull. of information [Fontes Historiae Africanae]*, 7/8 1982/3, 51-8.

of course, difficult to discern in the writings of as-Saᶜdī, Maḥmūd Kaᶜti and Aḥmad Bāba a strong dispproval for the rule of Sunni ᶜAlī that amounts to a rejection of the legitimacy of his rule. As-Saᶜdī describes him as a 'great oppressor, a notorious evil-doer ... a tyrant, a miscreant, an agresssor, a despot and a butcher'.[38] Kaᶜti describes him in very similar terms[39], while Aḥmad Bāba calls him a *khārijī* -an upstart- whose reign was a period of *fitna* -dissent or strife, a term that has definite connotations of illegitimacy.[40] His nemesis, Askiya al-Ḥājj Muḥammad, on the other hand is viewed by the scholars as a fully legitimate ruler who had been so designated by the ᶜAbbasid Caliph. As-Saᶜdī refers to him as 'Commander of the Faithful and *Khalīfa* of the Muslims'[41] while Kaᶜtī calls him 'Commander of the Faithful and Sultan of the Muslims'[42], a phrase echoed by the Tagidda scholar al-ᶜAqīb al-Anūsammāni who adds the phrase 'Representative of the ᶜAbbasid Caliphate'.[43] The title 'Commander of the Faithful' (*amīr al-mū'minīn*) is not, of course, strictly appropriate here since it is, in theory, a title only to be used by the caliph himself. Al-Maghīlī, for example, is careful in addressing him only to use the title *amīr* -the correct term for a duty appointed subordinate to caliph- or, by implication rather than directly, *amīr al-muslimīn*- a title used by some regional rulers from the days of the Almoravids but which did not imply cessation of allegiance to the ᶜAbbasid caliph.[44] However, already by the thirteenth century, following the Mongol invasion and the slaughter of the caliphal house of Baghdad, the Ḥafṣids of Tunis were using the title *amīr al-mu'minīn* and other regional rulers followed them. Soon it lost all sense of a claim to headship of the worldwide *umma* and it was widely used by local West African Muslim rulers who wanted to claim hegemony over the Muslims of a given area.

The disappearance of the last vestiges of the ᶜAbbasid caliphate following the Ottoman conquest of Egypt in 1517 posed a new dilemma for Muslims. Who had supreme political authority in the world of Islam and who could lawfully delegate power to others ?

38. *TS*, 64.
39. *TF*, 43.
40. Quoted in *TS*, 37.
41. *TS*, 72.
42. *TF*, 55.

43. See my 'Al-ᶜAqīb al-Anūsammānī's replies to the questions of Askia al-Ḥājj Muḥammad : the surviving fragment', *Sudanic Africa*, 2, 1991, 156.

44. See J.O.Hunwick, *Sharīᶜa in Songhay. The Replies of al-Maghīlī to the Questions of Askia al-Ḥājj Muḥammad*, Oxford, 1985, 60, 99.

Jinja in the inland Delta, despite his rejection of the holyman's intercession and the threat of the holyman's curse, he is said to have stayed his hand from killing him because he 'saw' two huge lions on the holyman's shoulder ready to lunge at him that the holy man was restraining.[34] One further example of belief in the power of the holyman to wreak harm against the mighty involves not an Askiya but one of his officials. During the reign of Askiya Muḥammad Bāni (1586-1588) the Kabara-*farma* ᶜAlī seized a rice plantation that had been given to one of the *ᶜulamā'* by the Askiya. In the dispute that followed the Kabara-*farma* knocked the scholar to the ground. A student of this scholar, with the encouragement of the scholar, then set about taking revenge on his behalf. On a piece of paper he wrote (magical) 'letters and things', then folded the paper and sewed it into a black cloth which he hung on the neck of a ram. He then plundged a spear into the ram at the point where the foreleg is joined to the trunk and the ram died. On the same day the Kabara-*farma* was killed when the Balama al-Ṣādiq thrust a spear into him beneath his armpit.[35] Similar homaeopathic magic to cause death was also practised by a man skilled in such arts with the help of charms on behalf of Askiya Dāwūd.[36] There is no doubt that belief in the power of the holyman to curse and to cause death was widespread in Songhay society and that the Askiyas shared such beliefs, both fearing them and calling them to their service when needed.[37]

5. The ᶜulamā' and political legitimacy

If the askiyas, or at least several of the more important of them, had a healthy respect for the holymen, sometimes tinged with prudent fear of their powers, what sort of stance did the *ᶜulamā'* take towards the rulers ? Neither the Timbuktu scholars nor any other representatives of the religious estate have left us a clear statement of their views on political legitimacy in the Middle Niger area. It is not,

34. See *TS*, 84.

35. See *TF*, 130.

36. See *TS*, 98-9.

37 There is, even today, a strong belief in the power of the holyman's curse in this area. Africa Confidential reports : 'The late president of Niger, Seyni Kountché, had as an official marabout Oumarou Amadou 'Bonkano', illiterate in both French and Arabic. He acquired such influences that the president appointed him head of the secret service. Kountché's long illness and recent death on a curse laid on him by Bonkano.' See 'West Africa : the men of power', *Africa Confidential*, 28, n°. 24, 2 Dec. 1987, 5.

was established through the *ḥurma* that Askiya al-Ḥājj Muḥammad acquired from his physical contact with the holy places of Islam and which he renewed through shaking or kissing the hands of returning pilgrims and descendants of the Prophet (*shurafā'*), sharing meals with holymen or keeping them in attendance at his court as well, and not least, by his appointment as the lawful deputy for the 'lands of Takrur' by the ^{c}Abbasid Caliph in Cairo.[30] His sons and successors, with the notable exception of Mūsā, who violated the *ḥurma* of his father by dethroning him and appropriating his harem, to some degree inherited this *ḥurma* and reinforced it through their own contacts with local holymen, returning pilgrims, etc.

As hinted at above, there was also what may be called a 'negative benefit' to be gained through the maintenance of cordial relations with the religious estate -avoidance of a holyman's curse. It is clear from the local chronicles that the fear of a holyman's curse was a very real one, for several examples are cited of the efficacy of such a curse, even against the mighty. The ultimate cause of Sunni ^{c}Alī's death (and even the end of the Sunni dynasty) is attributed to such curses. A holyman cursed Sunni ^{c}Ali by calling on God to overthrow him as a punishment for violating the holyman's daughter, and sons of Mori Hawgaru who were imprisoned by Sunni ^{c}Alī called upon God to destroy him and cause him to die as an unbeliever.[31] Askiya Muḥammad's triumph over him and the judgement he obtained from al-Maghīlī branding Sunni ^{c}Alī as an infidel were no doubt seen locally as stemming from these curses. Askiya Muḥammad himself had the power to inflict a curse through his own *ḥurma*. He cursed his son Mūsā for appropriating his harem and prayed that he should be disgraced by his genitals being revealed in public. Sure enough, the next day Mūsā was thrown from his horse and his robes were thrown up over his head.[32] Askiya Muḥammad also put a conditional curse on any of his descendants who should violate the *ḥurma* of descendants of Mori Hawgaru. His curse, which called for the humiliation of any who contravened this, was seen by one of the chroniclers to have been effected by the humiliation brought on his grandsons through their defeat at the hands of Sa^{c}dian forces and the subsequent puppet status of the Askiyas of Timbuktu under Moroccan tutelage.[33]

Askiya Mūsā, as we have noted, would generally have no truck with holymen. However, in the case of his dealings with a scholar of

30. See my 'Askiya al-Ḥājj Muḥammad and his successors', *passim*.

31. See *TF*, 51.

32. See *TF*, 83.

33. See *TF*, 73-75.

from the merchants.[27] Askiya Muḥammad was therefore concerned to restore stability and confidence to the area, and the continuing tranquility of the area and the loyalty of its inhabitants may be presumed to have been a similar concern to his successors.

Such concerns seem to be reflected in the cordial relations he and several of his successors cultivated with the religious estate, most of whose members appear to have originated from these western regions -even those who were resident in Gao, such as the *khaṭībs* whose names (Cisse, Diakhite, Darame) suggest Manding origins. The active goodwill of the holymen of the western regions would have helped ensure the loyalty of the populations among whom their influence was felt. The goodwill of the qāḍī of the Timbuktu not only ensured the loyalty of that city, where religion and commerce were so closely intertwined, but may also have been a contributing factor in retaining the loyalty of southern Saharan nomads, many of whom were ultimately of the same stock. Marriage ties further strengthened relations between the ruling estate and nomads on the one hand and with the religious estate on the other. Both Askiya al-Ḥājj Muḥammad I and Askiya Dāwūd married daughters of theirs to nomad chiefs (Maghsharan - Koi) and Askiya Dāwūd further consolidated his relations with the religious estate (and with the 'commercial estate') by marrying daughters of his to them.[28] Such complex patterns of patronage and marriage were no doubt powerful adjuncts to sheer military might in holding together a state as large and diverse as Songhay.

We should not, however, ignore the importance of less tangible benefits to the Askiyas -those belonging to what we may broadly call the spiritual domain- in considering relations with the religious estate. The Sunnis appear to have derived their moral authority to rule over largely Songhay populations through their roles within the Songhay belief system.[29] This was no longer a sufficient basis as the state expanded and incorporated within it more deeply islamized populations, as is illustrated by the negative attitude of much of the religious estate towards Sunni ᶜAlī. In what had become a predominantly Muslim-inhabited state by the 1490s, the Askiyas' moral authority had to be rooted more firmly in an Islamic base. This

27 See my chapter, 'Songhay, Borno and the Hausa States, 1450-1600' in *History of West Africa*, ed. J.F.A. Ajayi and M. Crowder, 3rd edition, London, Longman 1985, I, 334-5, 341-2.

28. See *TS*, 83, 109, 136, *TF*, 118.

29. See Jean Rouch, 'Contribution à l'histoire des songhay', Mémoires de l'IFAN, 29 (1958), 181-6 ; Adam Konare Ba, *Sonni Ali Ber*, Niamey, 1977, 50-8. Contemporary evidence comes from al-Maghili's replies to Askiya Muhammad, see John Hunwick, *Sharīᶜa in Songhay*, Oxford, 1985, 69-70.

4. The historical context

The evidence presented above suggests that the askiyas of Songhay and their subordinates did develop a special relationship with a fairly broad spectrum of holymen, recognizing their *ḥurma* -with its multi-faceted connotations- making gifts to them, granting them special privileges, allowing some the right of granting sanctuary to political offenders and, in many cases, heeding their intercession. The question that poses itself is why did the Askiyas seek to cultivate such cordial relations with the holymen, and what benefits did the Askiyas, and through them the state they ruled, reap from such patronage ?

First, it is important to recall the historical circumstances in which such relationships evolved. Askiya Muḥammad had come to power in 1493 through a coup d'état following (possibly even causing) the death of his predecessor Sunni ᶜAlī, laying claim to a throne to which he apparently had no hereditary right and defeating and putting to flight the 'legitimate' successor, Sunni ᶜAlī's son, Abū Bakr Dacu. The state he then presided over was largely the creation of Sunni ᶜAlī who, during the course of his reign, had expanded the relatively small predominantly Songhay state lying along the eastern reaches of the Middle Niger into a large empire stretching all the way round the 'bend' of the Niger and including Timbuktu and its desert hinterland and the inland delta region to beyond Jenne. These conquered lands were inhabited by non-Songhay populations -Ṣanhāja, Tuareg, Arabs, Soninke, Manding and Fulani- who were in the main Muslims and in many cases had been for several centuries. In Timbuktu, Jenne, Diakha and Kabura, there were well-developed traditions of Islamic scholarship and pietism the influence of which radiated out into the countryside where minor scholars and holymen were influential figures in the smaller towns and villages.

Askiya Muḥammad seems to have come to power with the support of forces raised in these more Islamic westerly regions. The area lying between Timbuktu and Jenne, however, was important to him for much more than this, just as it had been to Sunni ᶜAlī. It contained a vast area of fertile land that was annually enriched by the silt bought down by the river Niger which flooded it for several months of the year and in addition contained the two great interlinked commercial centres of Jenne and Timbuktu that were of pivotal importance in the lucrative gold-salt trade. As I have suggested elsewhere, the prosperity of this trade had been seriously threatened by Sunni ᶜAlī's numerous campaigns in the area and his exactions

Askiya Mūsā after he deposed his father sought sanctuary in the house of the *qāḍī* of Timbuktu. The *qāḍī* interceded for him with the new Askiya, but while Askiya Mūsā apparently recognized the *qāḍī*'s house as a santuary in a general sense, he specifically excluded this official from making a claim upon it. The official then attempted to claim the *ḥurma* of some (presumably 'holy') books by placing them on his head so that he would be literally 'under" their protection. This bid likewise failed and he was taken before the Askiya who ordered him to be burried alive.[22]

(ii) When Askiya Isḥāq I (reg. 1538-43) was about to die he sent his son ᶜAbd al-Mālik to the *khaṭīb* of Gao to be palced under his *ḥurma*, knowing that his son's arrogance and high-handedness might lead to his being killed by an enraged populace once he was gone.[23]

(iii) In the aftermath of the great civil war of 1588, several of those implicated sought *ḥurma* so as to escape death at the hands of the triumphant Askiya Isḥāq II. One of them, a certain Saᶜdi Mara, entered the mosque of Gao and persuaded its *imām* to intercede for him with the Askiya. The attempt was successful and he then asked, through the *ḥurma* of the *imām* and his mosque, to have the pardon publicly proclaimed to protect him from his numerous enemies.[24]

A provincial governor who had participated in the uprising sought the *ḥurma* of Alfa Kaᶜtī whose intercession he wanted to seek. The official's son opposed this -perhaps fearing that the intercession would not be accepted- and father and son fled to the remote province of Kala.[25]

A group of army commanders and senior functionaries who opposed the accession of Askiya Isḥāq II and were trying to place a brother of his on the throne were cornered by the askiya and a body of his loyal troops. They asked for pardon and claimed that they had 'entered the *ḥurma* of Askiya al-Ḥājj Muḥammad and the *ḥurma* of his feet that had stood before the Messenger of God in his noble atrium (*rawḍa*)'. Surprisingly, they were successful.[26]

(iv) The case already refered to above of the man who offended against the sultan of Jenne and obtained the intercession of the holyman Fudi Muḥammad Saqu on account of the latter's *ᶜiṣma*.

---

22. See *TS*, 83-4.
23. See *TS*, 99.
24. See *TS*, 130.
25. See *TS*, 131.
26. See *TF*, 134.

Hawgaru clan lived in a location called Mori-koira -'holyman's village'- near Dire at the northern end of the interior delta of the Niger and we may suppose that they enjoyed considerable prestige and influence among the Muslims of the area. Their village may, in some ways, have resembled the later *fuqarā'* settlements of Sinnar and Dar Fur or the *malemtis* of Borno -centres of influence both spiritual and 'political' to which people flocked to acquire *baraka* and to seek arbitration in disputes and intercession with local chiefs, etc. As recipients of the Askiya's favours the Hawgaru clan could be expected to preach the ruler's virtues and to support the status quo. Also, perhaps, important to the Askiya was the fact that in such a situation he could be sure of avoiding the dreaded curse of the holyman, an aspect of ruler-holymen relations that will be discussed further below.

3. Sanctuary and intercession

As noted above, the concept of *ḥurma* includes within it both the qualities of sanctity and immunity -the holy is untouchable. This is nowhere better illustrated than in the related matters of sanctuary and intercession. The *ḥurma* of a holyman enables him in a passive way to provide sanctuary for an offender against the ruler, while on the other hand his *ḥurma* in the sense of his sanctity, operates in an active way to secure pardon for the offender through his intercession. *Ḥurma* in the sense of sanctuary is primarily a state one may enter into through becoming enclosed by the sacred and inviolate space associated with the holyman -the mosque in the case of an *imām* or *khaṭīb*, or the private dwelling in the case of a *qāḍī* . But buildings are not the only kind of space. In one case an offender attempted to gain sanctuary through the *ḥurma* of some sacred books he placed on his head. In another case a man tried to claim inviolability through the *ḥurma* of Askiya Muḥammad who at the time had been dead for half a century.

Not all rulers were willing to recognize the right of holymen to give protection or the power to their intercession. Askiya Mūsā, who succeeded Askiya al-Ḥājj Muḥammad, was inclined to turn a deaf ear in such cases, but he paid the penalty. His assassination after only three years in office seems to be attributed by the chroniclers to a curse put on him by a holyman and by the curse of his father who was, of course, possessed of *ḥurma*.

The following select cases may help to illustrate the twin themes of sanctuary and intercession.

(i) A provincial governor who had taken up arms against

b- The clan is exempted from state obligations and taxes (*gharāma*). Nothing may be demanded of them, even 'hospitality' (*ḍiyāfa*). The latter is no doubt a reference to the right of representatives of the Askiya to demand food and lodging from whomever they thought fit. Exemption from a similar obligation is also granted in Borno *maḥrams* issued by Mai ᶜAlī Gaji Dunamami (late fifteenth century) and Mai Aḥmad (late eighteenth century).[20]

c- No one but the Askiya may hear cases brought against them. The Askiya places a conditional curse on any of his descendants who may treat them unjustly.

d- The descendants of Mori Hawgaru are granted the right to take a wife from any group they wish and the offspring of such a union would be free. This is an apparent reference to the fact that offspring of unions between 'noble' men and women from 'servile' groups normally assumed their mother's status.

The only exceptions of this general permission are for the women of two 'servile' groups considered the Askiya's personal property, the Sorko and the Arbi. In the version of the document which has survived embedded in a much later literary text (the *Tārīkh al-Fattāsh*), a rider is added under which if this rule is broken the offspring are still considered free but their 'servile' mothers revert to the Askiya's possession upon their husbands' death or upon divorce. I have argued that this clause is a literary forgery designed to protect the issue of such 'mixed marriages' who in the mid-seventeenth century were openly being sold as slaves in Timbuktu.[21] This, however, does not invalidate the document as a whole as evidence for issuance of royal documents of privilege under the Askiyas. Even if it could be demonstrated that the *entire* document is a literary forgery, we would still have to suppose that it is modelled on a type of document that was once issued by rulers.

What seems lacking in it, however, is any demand for a *quid pro quo*. What one would have expected is that the Askiya should ask members of this 'holy' clan to offer prayers for the Askiya, to intercede with God on his behalf, or to provide some service such as reciting the Qur'an for him. But it seems to be solely the sanctity (*ḥurma*) of Mori Hawgaru that entitles them to such privileges. It may be suggested, however, that something is left unspoken. The

---

20. See H. R. Palmer, *The Bornu Sahara and Sudan*, London, 1936, 21-50.

21. John Hunwick, 'Studies in the *Tārīkh al-Fattāsh II* : an alleged charter of privilege issued by Askiya al-Ḥājj Muḥammad to the descendants of Mori Hawgaro', *Sudanic Africa*, 3 (1992), 133-48.

pilgrim and threatened to cut off his hand for daring to present it to the Askiya. Dāwūd then sought the advice of Alfa Maḥmūd Ka^cti who was accompanying him and who replied as follows :

> How should it not be permissible to cut off the hand of one who has stood at ᶜArafa and circumnambulated the Kaᶜba and placed his hand on the Black Stone, then on the Yamani (southern) corner and then used his hand to twice throw the pebbles [symbolically stoning 'Satan'], then 'visited' the Messenger of God -May God bless him and grant him peace- and placed his hand on the Prophet's seat in his noble pulpit and entered the noble atrium and placed his hand on the grill [surrounding the Prophet's tomb] and upon the tombs of Abu Bakr and ᶜUmar ? ... On the contrary, the possessor of such a hand should have been sparing it and preserved it from pollution and refused to share hands with you !

On hearing this the Askiya was shamed and turned on his linguist, relieved him of his post and imprisoned him. He then turned to the 'Kantawi' pilgrim and said, 'I hereby abandon my claim upon you, on account of the sanctity (*ḥurma*) of your hand. I also abandon my claim upon fifty men from your father's clan and fifty men from your mother's clan and also exempt them from state obligations'.[18]

(iii) Mori Hawgaru's descendents and the *ḥurma* document.

Mori Hawgaru, a holyman of uncertain origin[19], had apparently accompanied Askiya al-Ḥājj Muḥammad I on pilgrimage in 1497-8 and had visited the Prophet's tomb with him. Some ten years later, so the account in *Tārīkh al-Fattāsh* goes, the Askiya was in Kabara when he was appoached by some grandsons of Mori Hawgaru who asked him to redress wrongs done to them by Sunni ᶜAlī. The Askiya made them gifts of slaves and cattle which he promised to repeat yearly. They further requested a 'document of immunity' (*kitāb ḥurma*) which the Askiya ordered to be drawn up. Its principle provisions, as given by the text included in the *Tārīkh al-Fattāsh*, are as follows :

a- The Askiya's officials, both civil and military, are warned not to oppress or tyranize members of the clan. Clauses of similar import appear in many of the Sinnar and Dar Fur charters, while in Borno *maḥrams* the goods and dwellings of the grantee are often made inviolate (*ḥaram*).

---

18. See *TF*, 112-13.

19. His title, *Mori* (holymen), is a Manding word.

ancestor of his, of 'sanctity/inviolability' (*ḥurma* or *ᶜiṣma*).[14] In the two cases of *ḥurma* it is quite clear that this quality is acquired by physical contact with sacred Islamic objects, either the *Kaᶜba* in Mecca or the Prophet's tomb in Medina -both cities themselves being inviolate / holy areas (*ḥaram*). But it is also applied to a building (the house of a holyman and a mosque) and one individual even tried to appeal to the *ḥurma* of some sacred texts.

Let us examine the three cases in greater detail :

(i) The sultan of Jenne pardonned a man whom he had threatened with death, in response to the intercession of a local holyman who had previously refused all contact with the ruler. The pardoned man and his clan were also relieved in perpetuity from all state obligations (*waẓā'if as-Salṭana*).[15] The only condition laid on the holyman by the sultan was that he share a meal with him. There are several other references in the chronicles to a ruler sharing a meal with a holyman and it is clear that this is one way of acquiring some share of the holyman's *baraka*..[16]

(ii) The Case of the 'Kantawi' pilgrim

According to the *Tārīkh al-Fattāsh*, it was Askiya Dāwūd's custom to greet returning pilgrims outside his capital, Gao, to share in their *baraka*, and to present them with gifts of cloth and robes. In greeting them the Askiya would kiss their hands, which would seem to be the way for him to acquire the *baraka* they brought back with them from visiting the two Holy Places. The 'Kantawi' pilgrim was from a low-status group and is described as a 'slave' (*mamlūk* - 'possession') of the Askiya, hence perhaps a Sorko.[17] The Askiya did not realise this, but when he was about to kiss the man's hand his 'linguist' (*wanadu*) snatched his hand away, upbraided the 'Kantawi'

---

14. Both *TS* and *TF* use the term *ḥurma* which means 'a state of being forbidden, sacred or inviolable, entitled to respect, reverence, honour' (E.W. Lane, An Arabic-English Lexicon, London 1863-93, II, 555, col. 1). *TS* also uses the term *ᶜiṣma* which means [divine] protection, preservation, especially from what would cause a man perdition', see Lane, *Lexicon*, V, 2066-7.

15. See *TS*, 18.

16. See Westermark, *Pagan Survivals*, 84-6, for the notion of sharing food with another as a silent covenant that embodies a conditional curse.

17. On the connexion between the Sorko boatmen/fishermen and 'Kanta', the title of the ruler of Kebbi and also (in the chronicles) his kingdom, see my article 'A little-known diplomatic episode in the history of Kebbi (c. 1594)', J. *Hist. Soc. of Nigeria*, 5, iv 1971, 575-81.

establish 'historical precedent' as this forger on behalf of Seku Aḥmadu of Masina was.

Thus, though the hard evidence for royal land grants to holymen in the sixteenth century is slender, it is nevertheless suggestive of an institution similar to what we find abundantly documented in other areas of Sudanic Africa a little later on -notably in Dar Fur and the Funj kingdom of Sinnar in the seventeenth and eighteenth centuries (*jāh* and *hakura*).[12] The granting of privilege to holymen, especially relief from state taxes and services, which is a marked feature of such relations in both the Nile valley and in Borno, was also clearly a feature of relations between the ruling estate and the religious estate in Songhay and it is to such practices that we now turn.

2. Grants of Privilege

Three cases of rulers granting privilege to holymen are recorded in the chronicles -two in the *Tārīkh al-Fattāsh* and one in the *Tārīkh as-Sūdān*. Two of these cases involve the intercession of a holyman which results in pardon for the individuals concerned and exemption for them and their clan from 'state obligations' (*waḏā'if as-Salṭana*). The third, which is recorded in a document incorporated in the text of the *Tārīkh al-Fattāsh,* not only grants exemption from state obligations and taxes (*gharāma*) to the descendents of a holyman, but extends these privileges to their subsequent descendents along with the right to be judged in cases of claim against them by the Askiya or his successor. This 'document' (despite the apparently forged nature of a codicil to it), echoes both in form and language later documents of privilege from Sinnar and Dar Fur as well as documents of immunity (*maḥram*) issued by rulers of Borno, some of which allegedly date from the late fifteenth or early sixteenth century.[13]

In all three cases the justification for granting privileges is rooted in the concept of the possession by the recipient, or an

12. On such practices on these states, see Jay Spaulding and Muḥammad Ibrāhīm Abū Sālim, *Public Documents from Sinnar*, East Lansing : Michigan State University Press ; R.S. O'Fahey and M.I. Abū Sālim, *Land in Dar Fur*, Cambridge, 1983.

13. I have published the text and translation of this 'document' and discussed its problems in 'Studies in the *Tārīkh al-Fattāsh II* : the *ḥurma* document issued by Askiya al-Ḥājj Muḥammad to the descendants of Mori Hawgaro', *Sudanic Africa*, 3, 1992, 133-48.

3. To the *imām* of the Great Mosque, in return for which he was asked to offer prayers for the Askiya's pardon and forgiveness.

4. To the *imām-khaṭīb* of Gao and another parcel of twenty seven for him to give away or to sell and distribute the proceeds to those entitled to receive alms (*ṣadaqa*).

5. To the sharif ᶜAli b. Ahmad for himself and his family.

Finally the *qāḍī* of Timbuktu al-ᶜAqīb was given one hundred for his own use, for his family and for others thought deserving of them. In return the *qāḍī* was asked to be the Askiya's 'agent' to 'purchase' for him a place in Paradise.[10]

Kaᶜtī mentions two occasions on which he received gifts from Askiya Dāwūd and one on which Askiya Isḥāq I showed him generosity. On one occasion Kaᶜtī received a gift of ten cloths (*thawb*) and five slaves from Askiya Dāwūd as a reward for having saved him from divine wrath over the incident of the 'Kanta pilgrim' which will be discussed below. On another, Kaᶜtī boldly approached the Askiya through Alfa Bukar and asked for a number of gifts for himself and his children. Unlike the scholars of Timbuktu, who made a point of never seeking out the Askiya, Kaᶜtī seems to have had no scruples about attending the askiya's court and asking favours. Among the gifts he says he received were a farm, thirteen slaves to cultivate it and seed to plant it. This is the only clear example of a holyman being granted land, but it is unlikely that it was an isolated incidence of this. The forged MSC passages of the *Tārīkh al-Fattāsh* (written in the early nineteenth century but purporting to refer to the reign of Askiya al-Ḥajj Muḥammad I)[11] mention several exaggerately large grants of land and servile persons to holymen. Even though the historicity of the actual grants is in question, such accounts may still be considered supporting evidence for the occurrence of royal land grants to holymen in the time of the askiyas. Not only do we have one concrete example of the practice, but no forger of traditions simply invents practices *ex nihilo*, especially when he is trying to

10. See *TF*, 107-8.

11. On the forgery, committed at the behest of Shaykh Aḥmad Lobbo (Seku Aḥmadu) of Masina to further his claims over certain occupational groups, see N. Levtzion, 'A seventeenth-century chronicle by Ibn al-Mukhtār : a critical study of the *Ta'rikh al-fattāsh*', *Bull. SOAS*, 34 (1971), 571-93. Also my 'Notes on slavery in the Songhay empire' in J.R. Willis (ed.), *Slaves and Slavery in Muslim Africa*, vol. II, The Servile Estate, London, 1985, 16-32.

On one occasion, Askiya Muḥammad sent the qāḍī Maḥmūd of Timbuktu a concubine and a gift of 1,000 *mithqāls* of gold (equivalent to about 4,25 kg / 150 oz.), the only condition attached to the gift being that he give any child born of the concubine the name of the Askiya -Muḥammad. A male child was duly born and named Muhammad. He became *qāḍī* on the death of his father in 1548 and enjoyed close relations with Askiya Muḥammad's son Dāwūd (reg. 1549-82).[9]

The *qāḍī* Maḥmūd was from the Aqīt family which had suffered at the hands of Sunni ᶜAlī. The Askiya's gift to him and other signs of deference were no doubt intended to highlight the contrast between Askiya Muḥammad and Sunni ᶜAlī as well as to ensure the loyalty of the religious estate in Timbuktu. A second case also concerns a family that had suffered at the hands of Sunni ᶜAli. Eight grandsons of Mori Hawgaro, an intimate of Askiya Muḥammad but not from Timbuktu, came to the Askiya bemoaning their sufferings at the hands of Sunni ᶜAlī. Each subsequently received one hundred head of cattle, we are told, and ten slaves with a promise that they should receive a like gift in every year of the Askiya's reign. This story may have been embellished in the telling, but more interesting is the 'document of immunity (*Kitāb ḥurma*)' which the grandsons asked for and were granted by the Askiya, the text of which -albeit I believe with some dubious emendations- has been preserved in the pages of the *Tārīkh al-Fattāsh*. It will be discussed in the next section of the paper.

We have even more detail on gifts made to members of the religious estate by Askiya Dāwūd, thanks to the close relationship with this Askiya enjoyed by Maḥmūd Kaᶜtī, who was himself the recepient of several such favours. In a long passage designed to praise the generosity of his patron, Kaᶜtī details gifts of parcels of slaves that the Askiya gave to holymen out of the goods and chattels left by a deceased state official that reverted to the Askiya. They were given out in parcels of twenty-seven as follows :

1. To Askiya-Alfa Buker, the Askiya's secretary / 'chaplain'.

2. To the Great Mosque (presumably of Timbuktu - *Jingere-ber*) -the males to repair it and the females to weave mats and rugs for it.

9 See Maḥmūd Kaᶜtī / Ibn al-Mukhtār, O. Houdas & M. Delafosse, *Tā'rikh al-fattāsh*, ed & trans. O. Houdas & M. Delafosse, Paris, 1913-14 (hereafter *TF*), 82.

Rather than accepting uncritically the often self-serving accounts of Aḥmad Bāba about his ancestors or the 'tales' told by the chronicles which may belong more nearly to the literature of *Karāmāt*, let us examine the more concrete expressions of royal patronage of the religious estate alluded to in the chronicles and which involve such things as gifts of slaves, land, cattle, cloth and cash, as well as exemption from state obligations and taxes. A further sign of the respect which at least some of the Askiyas had for the religious estate is the power of intercession that some of them could exercise with the rulers and the recognition by rulers of the quality of *ḥurma* that holymen and their houses, as well as mosques, might possess. Not all the askiyas showed such respect for the religious estate. Askiya Mūsā was notorious for his rejection of a special status for holymen, but this again highlights the need to search for a more multifaceted and nuanced picture of relations between the ruling estate and the religious estate. In looking at this relationship, we shall have to point to parallels that can be observed in such relationship throughout the Sudanic belt -in Borno at about the same period (and perhaps earlier) and in Dar Fur and the Funj kingdom in the following two centries.

1. Gifts to holymen

The Askiyas were not the first Songhay rulers to make gifts to holymen. Sunni ᶜAlī, despite his hostility to certain holymen -notably the Aqīt family of Timbuktu and the Hawgaro clan of Mori Koira- in fact made gifts of female slaves for concubinage to those who found favour with him. As-Saᶜdi's ancestor ᶜAbd Allāh al-Balbalī was one of these so favoured.[8] He had particularly warm feelings for certain scholars of Timbuktu and his hostility towards those of Ṣanhāja origin is certainly related to the fact that the rulers he supplanted in Timbuktu were Ṣanhāja. Indeed, the city was a Ṣanhāja creation and only came within the Songhay cultural and linguistic orbit following Sunni ᶜAli's conquest.

Information on gifts to holymen is more abundant when it comes to the Askiyas, especially al-Ḥājj Muḥammad I and Dāwūd.

---

8. The women were Fulani and hence, it is implied, Muslims. As-Saᶜdī comments : 'Those who had no care for the dictates of their religion [took them as concubines] while those who had, took them in marriage'. He points out that his ancestor was one of the latter. The woman he was given became the mother of his father's grandmother ; hence it was important to al-Saᶜdi that she was, and was treated as, a free woman. See ᶜAbd al-Rāḥman al-Saᶜdi, Tārīkh al-Sūdān (ed. & trans. O. Houdas, Paris 1899-1900 - hereafter TS), 67.

It may perhaps be naive to take too literally the evidence of local chronicles or of Aḥmad Bāba's portraits of his ancestors in trying to form a picture of relations between the askiyas and the religious estate. Such sources make much of askiyas such as al-Ḥājj Muḥammad I and Dāwūd respectfully calling upon *qāḍīs* of Timbuktu, listening to their reproaches, seeking their *baraka* and 'being submissive' to them.[4] As-Saᶜdī, author of the *Tārīkh al-Sūdān*, and Aḥmad Bāba very much represented the Timbuktu view of things, while Maḥmūd Kaᶜti, author of the *Urtext* of the *Tārīkh al-fattāsh*, was a close associate of Askiya Dāwūd and his descendants were members of a scholarly clan. We cannot, however, dismiss their evidence entirely, especially since the attention paid to members of the religious estate by Askiyas al-Ḥājj Muḥammad I and Dāwūd were also remarked upon by observers from outside the region. The Moroccan traveller al-Ḥasan b. Muḥammad al Wazzān (Leo Africanus) who visited the court of Askiya al-Ḥājj Muḥammad I remarked that the 'king' showed a great honour towards scholars.[5] Later in the century the Moroccan biographer Ibn ᶜAskar (writing in 1577 and thus possibly about Askiya Dāwūd) commented that 'their king shows the utmost respect for learning and for scholars. He honours the *ahl al bayt* (i.e. the *shurafā'*) and is generous towards strangers'.[6] Some time after the fall of Songhay and before about 1725 a certain al-Imām al-Takrūrī known to us only through a quotation from his *Naṣīḥat ahl al-Sūdān* in al-Ifrani's *Nuzhat al-hādī*, wrote that Askiya al-Ḥājj Muḥammad was 'greatly respectful of the religious leaders and very fond of the scholars, showing them the greatest honour. He would make a place for them in his audiences and give them handsome gifts'.[7]

---

4. *Baraka* is too complex a term to succumb to easy translation. As a general statement, we may describe it as a beneficient force of divine origin that may bring both material and spiritual benefit to those to whom it is communicated or who acquire it from those who possess it. An exhaustive study of *baraka* and its manifestations in Morocco may be found in Edward Westermarck's *Ritual and Belief in Morocco*, London 1926, I, ch. 1 & 2, and more briefly in his *Pagan Survivals in Mohammedan Civilisation*, London 1933, ch. 4 & 5. See also the brief but valuable discussion in Bryan S. Turner, *Weber and Islam*, London 1974, ch. 4, 'Saint and Sheikh'.

5. See Jean-Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*, trans. A. Epaulard, Paris 1956, II, 468.

6 See Muhammad b. ᶜAskar al-Shafshawni, *Dawḥat al-nāshir li-maḥāsin man kān bi 'l-maghrib min mashāyikh al-qarn al-ᶜashir*, ed. Muhammad Ḥajjī, Rabat 1397/1977, 131.

7. See translation in J.O. Hunwick, "Askia al-Ḥājj Muhammad and his successors : the account of al-Imām al-Takrūri", *Sudanic Africa*, 1, 1990, 85-9.

settlements of scholars (who were often also Ṣūfīs) grew up at Arbaji and Kutranj ; in Borno at the same period holymen established 'malemtis' or scholar communities, such as Kalumbardo and Yale Garuwa ; in Hausaland we hear of the community of Yandoto ; to the west of Agades the community of Anuṣamman ; while in Mali there were the towns of Diakhaba and Gunjūru, so holy that they were said to provide a refuge from the wrath of the sultan.[3] It is no surprise, then, that during the period of Songhay domination of the Middle Niger the major scholars of the period remained in Timbuktu and the askiyas seem to have had trouble in attracting suitable candidates to hold religious offices in Gao.

There were, of course, more material reasons for scholars to gravitate towards Timbuktu -not least the commercial prosperity of the city- which both made possible the pursuit of learning and, paradoxically, as Gomez points out, made it a special object of the askiyas' attentions. After the overthrow of the regime of the Askiyas and the establishment of the Bāshalik under Saᶜdian tutelage in 1591-2, Timbuktu slowly lost its pre-eminence as a centre of learning. There are a number of reasons for this. One of them is no doubt the very fact that the city then became the political centre of gravity under a military regime in which converts of convenience (otherwise called 'renegades' or *ᶜulūj*) and eunuchs (technically 'slaves') played a major role in an administration that owed loyalty (at first in reality and later at least in theory) to a remote master. Such a regime effectively robbed scholars of their independence, since it would not have been possible to render judgements without risk of continuous political interference. Signs of disaffection were dealt with severely. The arrest of the leading scholars (and the killing of those who resisted) and the deportation of members of the Aqīt family also clearly had a negative effect on the cultivation of higher learning. Finally, the Bāshās themselves do not seem to have been (at least until much later) patrons of holymen in the same way that the askiyas were in the sixteenth century. It is to this latter aspect of the relationship between the political and the religious estate -that of patronage- that we shall now turn.

3. On settlements of holymen in the Fuji state, see Neil McHugh, 'Holymen of the Blue Nile : religious leadership and the genesis of an Arab-Islamic society in the Nilotic Sudan, 1500-1850', Ph.D. dissertation, Northwestern University, 1986, ch. 4 ; on 'malemti', see Hamidu Bobboyi, 'The ᶜUlama of Borno : a study of the relations between scholars and state under the Sayfawa, 1470-1808', Ph.D. dissertation, Northwestern University, 1992, ch.5 ; on Anusamman, see H.T. Norris, *Sufi Mystics of the Niger Desert*, Oxford 1990, 15-17 et *passim* ; on holy towns in Mali, see Lamin Sanneh, *The Jahanke*, n.p. [London], International African Institute 1979, 27 ff.

more delicately negociated nature than Gomez's model might suggest. In almost no Muslim state can one think of having the scholars have a decisive say in affairs of state ; yet at the same time their influence -subtle, even silent- upon the ruler may be considerable. In fact, we should not restrict our examination of such influence of 'scholars (*ᶜulamā'*), however they are defined. We should rather examine a broader category of persons whom one may for convenience call the 'religious estate' of the realm, which would include not only the *qāḍīs* and other respected jurisprudents and teachers, but *imāms, khaṭībs, Ṣūfīs*, ascetics, pietists (*ṣulaḥā'*) and in general all those who may be described as 'holymen'. The term 'holyman', which in a sense embraces the other categories (many of which tend to develop), is intended to correspond to what is called in Manding '*karamoko*', in Fulfulde '*cerno*', in Hausa '*malam*', in Sudanese Arabic '*feki*', in Songhay '*alfa*', and in the ubiquitous French-Arabic terminology '*marabout*'.

Depending on the individual, and also the general ethos of the time and place, holymen may have a closer or a more distant relationship to those who hold political power. Those who live in the ruler's city and frequent his court run the risk of being labelled *ᶜulamā' al-sū'* or 'venal scholars' who give preference to their worldly interests over their duty to God and put their immortal souls at risk. Such was the description that ᶜUthmān b. Fūdī later gave to scholars who frequented the court of the sultan of Gobir. The highest ideal of the scholar, and especially the active jurisprudent, was to take pride in never having visited the court of a ruler and to be able to boast of never becoming embroiled in the affairs of rulers. Muslim scholars on the whole had an ill-concealed mistrust of rulers who were generally accounted to be oppressors (*ẓalama*). Aḥmad Bābā himself wrote two works advising the learned to steer clear of rulers. The first, written in 997/1588, is entitled *Jalb al-niᶜma wa-dafᶜ al-niqma bi-mujānabat al-wulāt al-zalama*. Ten years later (while in Marrakesh) he wrote another small treatise called *Mā rawāhu 'l-ruwāt fī mujānabat al-wulāt*. In the first work, which remains unpublished but which has been extensively analysed by Mahmoud Zouber, Aḥmad Bāba points out the risk that scholars run of losing their independence of opinion if they associate too closely with rulers.[2]

Throughout the Sudanic belt one may observe that scholars often tended to establish themselves in cities at some distance from the ruler's city. Thus in the 17th-18th century Funj state of Sinnār,

2. See Mahmoud A. Zouber, *Ahmad Baba de Tombouctou (1556-1627) : Sa vie et son œuvre*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1977, 156-62.

Piety and Power : Relations between the Religious Estate and the Ruling Estate in Songhay under the Askiyas*

John. O. Hunwick
Northwestern University, Evanston

Introduction : the problem

In a recent article Michael Gomez argued against the position of earlier scholars (including, at one time, myself) who were perhaps too ready to give credence to the view propounded by Timbuctu scholars -among them the authors of the famous chronicles, the *Tā'rīkh al-Sūdān* and the *Tā'rīkh al-Fattāsh*- that the city of Timbuctu enjoyed a large measure, even a complete measure, of autonomy under the Askiyas, and that its scholars, or its *qāḍīs* at any rate, had influence over succeeding askiyas. 'Far from enjoying autonomy', he concludes, 'the city was under the firm control of Gao. Matters of local significance were left to the municipal government of the *qāḍī*, a form of freedom accorded to most peoples within the realm. But those matters affecting the empire, especially commercial matters, were supervised by the askiyas, who generally achieved what they were after'.[1]

While I would agree with the general thrust of such conclusions, I would suggest that we should try to go beyond the dichotomous model of autonomy versus 'firm control' and look for a more nuanced interpretation of the relations between rulers and scholars which seem to me to have been of a more ambivalent and

---

* An earlier version of this paper was presented to the annual meeting of the African Studies Association in 1984 under the title 'Sanctity and Privilege : holymen and the state in the Songhay empire'. I am grateful to Ben Soares for reading and commenting on the present version.

1. See Michael A. Gomez, "Timbuctu under imperial Songhay : a reconsideration of autonomy", *Journal of African History*, 31 1990, 5-24.

Stone, Thora G., "The Journey of Cornelius Hodges in Senegambia, 1689-90", *English Historical Review* 39 (1924), pp. 89-95.

Whitecomb, Thomas, "New evidence on the origins of the Kunta - I - & II", *Bulletin of the School of Oriental and Africain Studies,* 38 (1975), pp. 103-23 ; 403-17.

Willis, John Ralph, "The Western Sudan from the Moroccan invasion (1591) to the death of al-Mukhtar al-Kunti (1811)", *History of West Africa*, Vol. I., ed. 3. Eds. J.F.A.Ajayi, Michael Crowder. Longman Group Ltd., London :1985, pp. 531-76.

Yahya, Dahiru, *Morocco in the sixteenth Century problemsand patterns in Africa's foreign policy,* London, Longman Group Ltd., 1981.

McDougall, E. Ann, "The Ijil Salt Industry: Its Role in the Pre-colonial economy of the Western Sudan", Ph. D. Dissertation, University of Birmingham U.K., 1980.

McDougall, E. Ann."Salts of the western Sahara: myths, mysteries and historical significance", *The International Journal of African Historical Studies,* 23, 2 (1990), pp. 231-57.

McDougall, E. Ann, "The Economics of Islam in the Southern Sahara : the rise of the Kunta clan", *Asian and African Studies,* Special Issue : "Rural and Urban Islam in West Africa", Eds. Nehemia Levtzion and Humphrey J. Fisher. V. 20, 21 (1986), pp. 45-60. (Reprinted by Frank Cass, Co., *Rural and Urban Islam in West Africa,* Ed. Elizabeth Savage,1986).

McDougall, E. Ann, " The view from Awdagust : war, trade and social change in the southwestern Sahara from the eighth to the fifteenth century". *Journal of African History* 1(1985):1-30.

McDougall, E. Ann, " The quest for'Tarra' : toponymy and geography in exploring history", *History in Africa* 18 (1991), pp. 271-89

Meakin, James Edward Budgett, *The Moors : a comprehensive description.* V. III. London, 1902.

Miské, Ahmed-Bâba, *Al Wasît. Tableau de la Mauritanie au début du XXè sciécle,* Paris, Librairie C. Klincksieck, 1970.

Norris, H. T., "Znaga Islam during the seventeenth and eighteenth centuries", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 32 (1969), pp. 496-526

Norris, H. T., *Saharan Myth and Saga,* Oxford, Clarendon Press, 1972.

Norris, H. T., "Future prospects in Azayr Studies", *African Language Review,* 9 (1970/1), pp. 99-109.

Ould Cheikh, Abdel Wedoud, *Eléments d'histoire de la Mauritanie,* Nouakchott, R.I.M., Institut Mauritanien de la Recherche Scientifique, 1988.

Pereira, Duarte Pacheco, *Esmerado de situ orbis*; Ed. G. H. T., Kimble. Hakluyt Society Sér. II, V. 79, London, 1937.

Pianel, Georges, "Les préliminaires de la conquête du Soudan par Maulay Ahmad al-Mansur", *Hesperis* 40, (1953), pp. 185-97.

Robert-Chaleix, Denise, "Fusaïoles décorées du site de Tegdaoust", in *Tegdaoust III. Recherches sur Aoudaghost. Campagnes 1960/65, enquêtes générales,* Paris, 1983, pp. 447-513.

in the era of the Slave Trade, Madison, University of Wisconsin Press, 1975.

Dramani-Issifou, Zakari. *L'Afrique Noire dans les Relations Internationales au XVIè siècle: analyse de la crise entre le Maroc et le Songhai,* Paris, Karthala, 1982.

Ech Chennafi, Ahmed Lamine, *El Wasit,* Etudes Mauritaniennes, n° 5, Saint Louis, Centre I.F.A.N. Mauritanie, 1953.

Ech Chennafi, Mohammed, "Sur les traces d'Awdagust : les Tagdawest et leur ancienne cité", *Tegdaoust I : Recherches sur Aoudaghust.* Eds. D. and S. Robert Africaine, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, 1964.

Fernandès, Valentin, Description de la Côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal (1506-1507). Ed. and Trans. P. de Céneval, Th. Monod. Paris, 1938.

Gerteiny, Alfred A., *Historical Dictionary of Mauritania,* New Jersey, Scarecrow Press, 1981.

Hodgkin, Elizabeth, "Social and Political Relations on the Niger Bend in the Seventeenth Century". Ph. D. Dissertaion, Birmingham U.K., 1987.

Kane, Oumar, "Les relations entre le Maroc et les états riverains du fleuve Sénégal de la fin du XVèe au milieu du XVIIIè siècle", (présent volume).

Levtzion, Nehemia, *Ancient Ghana and Mali,* London, Methuen & Co Ltd., 1973 ; rprt. Africana Publishing Company, 1980.

Ly-Tall, Medina, *Contribution à l'histoire de l'empire du Mali (XIIIe-XVe siècles),* Dakar, 1977.

Marty, Paul, *Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan. Vol. I, Les Kounta de l'Est, les Berabish, les Igellad,* Paris, Ernest Leroux, 1920.

Raymond, "L'expédition marocaine d'Ouadane (Mauritanie) vers 1543-44". *Bulletin de l'Institut Français d'Afrique Noire,* Sér. B, 11, Nos. 1-2, jan.-avr. (1949), pp. 129-40.

Mauny, Raymond, "Notes d'histoire et d'archéologie sur Azougui, Chinquetti et Ouadane", *Bulletin d'Institut Français d'Afrique Noire,* Sér. B, 17 (1955), pp. 142-62.

Mauny, Raymond, *Tableau géographique de l'ouest africain au moyen âge,* Dakar, 1961.

References cited

Abitbol, Michel, *Tombouctou et les Arma : de la conquête marocaine du Soudan nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'Empire Macina en 1833,*. Paris, Maisonneuve & Larose, 1979.

Abitbol, Michel, "Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIè siècle au début du XIXè siècle", *Revue de l'occident musulman et de la Mediterranée* 30 (1980), pp. 5-19.

Abitbol, Michel, "The end of the Songhay Empire". *UNESCO General History of Africa. V. Africa from the Sixteenth to the Eighteenth Century,* Ed. B.A., Ogot, Heinemann, University of California Press, 1992. pp. 300-67.

Barry, Boubacar, "Senegambia from the sixteenth to the eighteenth century : evolution of the Wolof, Sereer and 'Tukuloor'", *UNESCO General History of Africa. V. Africa from the Sixteenth to the Eighteenth Century,* ed. B.A., Ogot, Heinemann, University of California Press, 1992, pp. 262-99.

Bathily, Abdou'aye, *Les portes de l'or. Le royaume de Galam (Sénégal) de l'ère musulmane au temps des négriers (VII-XVIIIe siècle),* Paris, l'Harmattan, 1989.

Batran, Abdal - 'Aziz Abdulah Batran, "Sidi al-Muktar al-Kunti and the Recrudescence of Islam in the Western Sahara and the Middle Niger ca. 1750-1811", Ph.D. Dissertation, University of Birmingham U.K., 1971.

Bonafos, V., "Les Ida ou Ali Chorfa Tidiania de Mauritanie", *Revue du Monde Musulman* 31 (1915-16), pp. 223-73.

Cadamosto, Alvise da., *The Voyages of Cadamosto and other Documents on Western Africa in the Second Half of the Fifteenth Century,* Ed. and Trans. G.R. Crone. Hakluyt Society, Ser. II, V. 80, London, 1937.

Caillie, René., *Travels through Central Africa to Timbuctoo; and across the Great Desert to Morocco, performed in the years 1824-28.* 2 vols., London, H. Colburn & R. Bentley, 1830.

Centre National de la Recherche Scientifique (Paris), *Introduction à la Mauritanie,* Paris, Editions CNRS, 1979.

Cissoko, Sékéne Mody, *Tombouctou et l'Empire Songhay,* Dakar, Nouvelles Editions Africaines, 1975.

Curtin, Philip, *Economic Change in Precolonial Africa: Senegambia*

subsequent passages, it is generally argued that the references really mean other mines like al-Ghizlan and Tawdeni.[91] Meanwhile, the Moroccan force established a garnison at the mine and levied a tax of 1 mithqal per camel load of salt removed.[92] The *TS* says that anyone who went there risked having all their goods stolen. This evidence together suggests that the whole effort was a failure, especially as a substitute for Tegaza had been found. Shortly thereafter the force of occupation returned to Marrakesh (p. 194).

1586 : Abitbol ("End of Songhay", p. 301) claims that al-Manṣūr wanted to undertake the conquest as early as 1586 but a combination of difficulties at home percluded it (the recent failures in both the Wadan and Tagaza expeditions, added to objections that there was no moral reason for this action played no small role).[93]

1589 : The arrival of a refugee from Songhay in Marrakesh with information of the ongoing political rivalry surrounding the Askya prompted a letter from al-Manṣūr making somewhat vague demands on the mine.[94] This time he argued simply that a resource of such value must belong only to the head of the Muslim community at large - namely, to him. Effectively, "no one had the right therefore to exploit the mine without the authorization of the Sultan or his representative" (Pianel, "Les Préliminaires". pp. 188,9). It was inferred that the armies which were so effectively protecting the

---

91. Mauny, *Tableau Géographique*, pp. 331-2. The *TS* says the "Idelai" (?) couldn't live without salt (meaning here the commerce in salt) and sought new sources, settling on "Tenaoudara". The "others" went elsewhere and Tegaza was abandoned (p. 194). Pianel suggests, however, that after that the conquest was abandoned by the Moroccans, the Sudanese re-installed at Tagaza ("Les préliminaires", p. 188). On this question, see McDougall, "Salts of the Western Sahara" *passim*. and discussion in the text.

92. Hodgkin is the source specifying the building of a garrison and levying of a tax but both are consistent with the other evidence ("Social and political Relations", p.157). The *TS*'s references to rovery or extortion are consistent with declining revenue from "legal" taxation. And it would have been logical for the military force to have built itself a garrison, anticipating a much longer stay.

93. Yahay's discussion of this period would tend to support Abitbol's reasoning, but he does not specifically attribute a desire to undertake conquest to al-Manṣūr this early. Indeed, he says that the second and final stage of his Sudan policy began with his actions of 1589 below ; (*Morocco in the Sixteenth Century*, pp. 145-54).

94. This letter is reproduced in its original Arabic (pp.195-7) and in French translation (pp. 190-2) in G. Pianel, "Les préliminaires".

in the long-policy to conquer Songhay (Abitbol, "End of Songhay", p.301; Cissoko, *Tombouctou et l'empire Songhay*, p.92).[87]

1583-84 : The Moroccan sultan sent an ambassador to Askya al-Ḥājj (successor to Dāwūd), with "superb presents". He was well received and returned to Morocco, it is said, with gifts worth twice as much again from the new Askya. Subsequent events (see below "1584") suggest that this was intended as a 'spy mission', a reconnoitring of the internal situation prior to launching the next year's expedition. Whether the Songhay ruler realized this or not is unclear. His response can equally well be intrepreted as accepting the ambassador at face value and responding in kind (*TS*, p. 193), or as an attempt to diffuse the situation (Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, p. 153).[88]

1584 : Following directly on the 1583-84 mission to the Songhay capital, two further expeditions were dispatched. The first was some 20.000 men with orders to travel in the direction of Wadan, taking all the towns they found along the way or elsewhere, and to folow the route as far as Timbuktu. Rumours reached the Niger Bend (the size of the Moroccan army growing commensurately along the way). According to the *TS*, Songhay was saved by God : the expedition was decimated by hunger and thirst and the survivors forced to return to Morocco. A second dispatch of 200 men headed directly for Tegaza, with orders to destroy those found at the mines. But forewarned, the inhabitants and workers had already abandoned the mine[88] and there was little left to conquer. New mines came into use, notably "Tenaoudara" which Cissoko among others, argues was Tawdeni.[90] The *TS* says Tegaza was abondoned - the implication being permanently. Although Tegaza continues to be referred to in

87. Yahya, on the other hand, quite explicitly does not include these conquest as part of the Songhay ambition (Morocco in the sixteenth century, p 153) which he says began with the mission of 1583-84 (below).

88. Yahya states that in addition to accepting the gifts and reciprocating, the Askya granted the Sultan a subsidy (presumably on the mine). Unfortunately, his only reference to this event is an incorrect one to the *TS* (he cites pp. 120-1 when in fact the incident is described on p. 193) ; the *TS* makes no mention of the subsidy. None of the other references mentions it. Cissoko adds that in addition to collecting information, the sultan hoped to "buy" some friends in the imperial court (*Tombouctou et l'empire Songhay*, p.92).

89. Ironically, several who fled ended up in Tuat and Gurara and may well have helped instigate a rebellion against the Moroccan state (Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, p. 153).

90. Cissoko, *Tombouctou et l'empire Songhay* p.93.

when or under what circumstances, but the Moroccans seem to have left Tegaza (probably because of lack of labour) and Songhay undertook exploitation of Tegaza again.[85]

1578-81 (?) : The *TS* says this is a confusing passage but it appears that on his accession to the throne (or very shortly thereafter), Mawlāy Aḥmad al-Manṣūr continued in the tradition of his predecessors in making contact with Askya Dāwūd. He asked to be 'let' the mines for one year and sent a 'present' indicative of his goodwill of 10,000 gold pieces. "[Thereafter] friendship ... united the two princes" (*TS*, p. 180). Although there is an inference here that Dāwūd accepted the offer (Mauny, "L'expédition marocaine", p.135, Ft. 1, asserts it without question), we have no definitive evidence that he did. (Cissoko, for example, states that he did not, *Tombouctou et l'empire Songhay*, p.91, although he acknowledges that an *entente cordiale* continued to hold until Askya Dāwūd's death in 1582).[86]

1582 : Under Mawlāy al-Manṣūr, Tuwāt and Gurara, major commercial entrepots of the Songhay trade, were re-taken by Moroccan forces. Abitbol and Cissoko interpret this as the first step

---

85. Abitbol states that "al-Mahdi" (Muḥammed ash-Shaykh), al-Manṣūr's grandfather did not want to jeopardize the deivery of salt to the Sudan, so he made arrangements with Askya Dāwūd to share out the revenue from the salt trade ("End of Songhay", p. 300). The implication here is that Morocco's holding of the mine was short-lived. While this is probably true, Abitbol's interpretation is misleading in two respects. First, he assumes the mine Tuareg workers moved to was Tawdeni, whereas in fact, Tegaza al-Ghizlan was much closer to the old Tegaza and seemingly, not of the same quality - hence the move back when the Moroccans left. Tawdeni's exploitation was probably begun much later (see discussion in the text), and it proved equal to, if not superior to, the old mines. Lastly, Abitbol collapses (it would seem) action taken by al-Manṣūr some dozen or so years later into this episode when he goes on to state that an agreement was made with Askya Dawd of Songhay over the immediate sharing-out of dues collected (pp.300 - 1). [See "1578/9 below]. Therefore, it is unlikely that this was the reason for abandoning their new conquest. Cissoko adds to the Moroccan inventives the story of a Songhay *Mondzo* who had lost his position at Tegaza to one of his cousins on the orders of the Askya, and appealed (presumably at this 'injustice') to the Sultan to redress the situation (*Tombouctou et l'empire Songhay*, p. 90).

86. I believe it was this episode occurring in the early years of al-Manṣūr's reign (and therefore after 1678-79), that Abitbol attributed to "al-Mahdi" shortly after the taking of Tegaza in 1556-57 (see above).

1543-44 : Morocco's Sultan Muḥammad ash-Shaykh dispatched a large force (some 1,800 horses and an "infinite number" of camels loaded with arms and supplies) along the old "Ṭrīq Lamtūna" or the coastal route used by the Ṣanhāja and the Almoravids which led from the Sequia al-Ḥamra through the Mauritanian Adrār and south to the Sudan. It reached Wadan, where according to our only 'eyewitness', Luis del Marmol y Caravajal[83], the leader heard that Songhay had dispatched some 300,000 men against them and returned with all haste to Morocco. Its original goal(s) remain(s) uncertain : Mauny interprets Marmol to be referring to an intent to conquer Timbuktu (and presumably from there, Songhay) ; Dramani-Issifou cites Wadan itself as the goal in its role as a "Tuareg outpost" nominally under Songhay suzerainty.[84]

1556-57 : A detachment was sent by Emperor Muḥammed ash-Shaykh to seize the Tegaza mines. It succeeded, killing the Askya's appointed *mondzo* (governor) and several Tuareg salt transporters. The remaining inhabitants fled, and sought permission from the Askya to begin mining at the nearby location of Tegaza al-Ghizlan. The mine was opened, but it seems not to have been considered an equivalent to the old Tegaza. Sources do not tell us

83. Known as Marmol, he was a Spanish historian born at Grenada around 1520. He served with Charles V for some twenty years and spent more than seven years as prisoner in Morocco. He accompanied the expedition to Wadan. His account was published in *Description générale de l'Afrique* (1573) [from Mauny, "L'expédition marocaine", p. 9.].

84. Mauny's article on the expedition examines in detail exactly when it probably took place, and why the sources are not in agreement about it. Although Marmol claims to have actually accompanied it, the *TS* does not mention it at all, which probably explains why Cissoko does not deal with it either in his otherwise very complete discussion of "the question of Tegaza" (*Tombouctou et l'empire de Songhay*). Abitbol acknowledges only that it took place between 1537-47 ("End of Songhay", p. 300). Mauny suggests that the real purpose of the expedition was to conquer Songhay, but that the Moroccans only approached the Askya about the mines, not wanting to alert them to their plans. Because it never went further than Wadan (which was neither a Tuareg town nor a part - even a nominal part - of the empire ; Dramani-Issifou is mistaken), the Sudan chronicles do not record it. Moreover, Mauny argues that the idea of an army of 300.000 being sent in retaliation more likely than not was the reason invented by the expedition's leader for justifying a return to Morocco when he realized just what lay ahead of him in travelling the desert from Wadan to Timbuktu ("L'expedition marocaine", *passim.*). Abitbol states that this was Morocco's first attempt to change a situation in which Songhay's rise had led to a dwindling of gold supplies to the north ("End of Songhay", p. 300).

APPENDIX I

A Chronology of "Pre-conquest" Relations

What the following attempts to do is establish the date of said 'relation', its nature and its aim(s). Information from several sources has been combined to give the fullest possible account. Where that information differs significantly, the most commonly accepted is presented in the text, the differences and debates discussed in the footnotes.

1539-44 (?) : "Mawlāy Aḥmed" of Morocco sent a peaceful emissary to Askya Isḥāq I of Songhay, requesting (or claiming, depending on interpretation) rights to the Tegaza salt mines located in the Sahara just about half-way between Marrakesh and the Songhay capital, Gao. These mines, which had never been under the acknowledged control of any one state, had been 'appropriated' by Songhay since about the beginning of the century. The Askya's reply was to send a force of some 2,000 Tuareg warriors to ravage the southern Drᶜa region of Morocco.[82]

82. The source of this request is as-Saᶜdi, *Tārīkh es-Sūdān* (hereafter *TS*, pp. 163,4), and the date is not specified. It refers to 'Mawlay Ahmed the great, Emperor of Morocco', therefore to'Aḥmed al-Aᶜraj, who lost considerable esteem following his brother's (Muḥammad ash-Shaykh's) retaking of Agadir in March 1541 (though he was not yet deposed, as Hodgkin claims, "Social and Political Relations", p. 156). He was finally deposed by ash-Shaykh and with his family placed under house arrest in 1544 (Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century* p.8). Askya Isḥāq I only came to the throne in 1539. Mauny ("L'expédition marocaine", p. 133-4) and Pianel ("Les préliminaires", p. 187), therefore, argue with the same logic that this first attempted extension of power occurred between 1539 and 1544. Hodgkin, because she places al-Aᶜraj's desposition in 1540, gives the date as 1539 ; or she suggests, if it occurred later, the name 'Aḥmed' may have been invoked to provide a parallel to the more famous 'sultan Aḥmed (al-Manṣūr)' and 'Askya Isḥāq (II)' of 1591. (Mauny also comments on this 'coincidental' parallelism). This may explain why Cissoko says it was Mawlāy ash-Shaykh who made the claim (*Tombouctou et l'empire du Songhay*, p .87). The *TS* quotes Askya Isḥāq as saying in his tart reply that "The Ahmed who listened to [this advice about claiming Tegaza] would not know how to be the actual emperor of Morocco...", which although ambiguous might well have referred to a time when Mawlāy Aḥmed's power vis-à-vis his brother was waning sufficiently to raise the question of which one was 'actually' emperor (p. 163); in other words, sometime after March 1541. This would tend to support Dramani-Issifou's contention that the date of the aggravating 'request' was 1542. (Dramani-Issifou, *Analyse de la crise*, pp. 106-7).

Conclusions

It appears that in the course of the sixteenth and seventeenth centuries, the whole of the southern Sahara and Sahel came under the sway of Morocco's influence through various religious, political and economic relations.[79] In terms of the last, it seems that full encouragement was given to continuing and where possible, expanding commerce.

This was especially true in the salt industry. If anything, the interaction between the trans-Saharan trade (destined for Moroccco) and the inter-regional trade was strengthened. While it appears that direct Moroccan control in the Middle Niger had a short-lived history, and was soon supplanted by a still nominally loyal but largely locally born administration, the arma, it is ironic that in the west, where there never was any 'conquest' *per se* ' personal and political ties remained strong.[80] At the end of the nineteenth century, the 'land of Shinqit' was still believed to mark the southern-most limits of the 'Moroccan Empire'.[81] The commercial and ultimately, political implications of this have remained very important for the Adrār in particular and the southern Sahara as a whole. It would seem that 'the question of Tegaza' has engendered an enduring legacy.

79. See especially the sections on "Commerce et Politique : Le Maroc Alawite et le Bilad al-Sudan", "Routes et Caravanes" et "Echange" in Abitbol, "Commerce Transsaharien", pp. 8-13.

80. These were reflected in marriages in the Brakna and Tagant, numerous military alliances in the Trarza, Brakna and Tagant, the investiture of the chief of the Awlad M'Barak in 1672, among others. For a fuller account, see Kane "Les relations entre le Maroc et les états riverains", especially 'Part I : relations entre le Makhzen et le 'bilad Shinquitti'.

81. Meakin, *The Land of the Moors*, p. 396.

In short, Sultan Mawlāy Ismāᶜīl succeeded in securing recognition of his religious hegemony over the tribes of the Adrār and Tagant, complete with the obligation this carried to pay him taxes on all the region's trade and production. Religious influence translated into economic revenue. Or, put another way, "Islam and commerce became in the eyes of the eighteenth-century sultans, the best 'tools' for penetrating [the Mauritanian Sahara and Sahel], as effective as they were peaceful in nature".[77] The goal Morocco tried to achieve in the Middle Niger for almost a century, and which ultimately necessitated military conquest, was achieved peacefully in the west. I am suggesting that the Adrār, Tagant and perhaps even the Ḥodh (at least temporarily), were considered part of 'Greater Morocco' and, just like the Middle Niger, they had an economic role to play in that trans-Saharan empire. Far from trying to disrupt and destablilize the region[78], it was to the benefit of Morocco to encourage its development.

---

77. Abitbol, "Commerce Trans-Saharien", p.9.

78. As Kane argues was the case for the Senegambian region ("Les relations entre le Maroc et les états riverains").

won. And by the eighteenth century, they had, ousting the Ijamaan not only from their capital but the region.[71]

Such an action was in keeping with relations Morocco was nurturing in the Adrār. Under Mawlāy Ismā^cīl, close relations were developed with the Ida Ali *shurfa* of Shinqit where a garnison had been built. Efforts to extend Moroccan presence emanated from there. Religious and commercial influence spread into the Tagant with the seventeenth-century immigration of a fraction of Ida Ali Tidjikja. It was the launching pad of the expedition Hodges' men witnessed, as well as numerable others.[72] And as for the trade, from Hodges' account it would seem there was a thriving commerce in cloth, gold and slaves to which salt was central and in which "ye Moors" played the key role. As in the Middle Niger, the sultan nominally controlled the region's resources. the evidence is less direct here than for the Niger Bend, but it would seem that he exercised a similar authority over Ijil as he did over Tegaza / Tawdeni, but without a physical presence at the mine.[73] Whatever Moroccco's role was, it was not overly intrusive. According to other sources, this "salt of ye Moors" was being brought from Shinqit, Which suggests that the presence of a Moroccan garrison had not hurt the town's commercial reputation; on the contrary, it seems to have surpassed in importance the medieval salt centre of Wadan during its time as an outpost of Morocco.[74] By the early decades of the eighteenth century, merchants on the Senegal were complaining that these "Moors" were taking all the gold and cloth of the Upper Senegal (Galam) in exchange for their salt.[75] And slaves also featured prominently, at least under Mawlāy Ismā^cīl : the annual caravan sent with reinforcements for the Shinqit post returned regularly with slaves, reportedly recruits for the famous *^cabid* army.[76]

71. Abitbol, *Tombouctou et les Arma*, p. 186 ; el-Chennafi, "Sur les traces d'Awdagust", p. 106. Ft. 2,3 ; Norris, "Znâga Islam", pp. 512,3.

72. Bonafos, "Les Ida ou Ali", pp. 20-1 ; Ach Chenguiti, *El Wasīt*, p. 15 ; Mauny, "Notes d'histoire", p. 148 ; Norris, *Myth and Saga*, p. 401 ; Ly-Tall, *L'empire du Mali*, pp 72-5.

73. One tradition concerning the Kunta's acquisition of Ijil in the eighteenth century (*ca* 1766/67) remembers that a dispute ownership was taken to the Moroccan sultan for resolution ; he found in favour of the Kunta and the local rulers (the Ahel Barikhallah) were forced to respect the decision (McDougall, "The Ijil Salt Industry", pp. 98,9).

74. See Ft. 69, above.

75. *Archives Nationales de France Colonies* (6-10, 1 April 1732), "Mémoire en forme de lettre touchant le commerce de Galam", Gov. Ft. Saint Joseph à M. le Directeur de la Compagnie des Indes.

76. Hodgkin, "Social and Political Relations", p. 411 ; Kane, "Les relations entre le Maroc et les états riverains".

seige to It [Tarra]. Ye Emperor drew his forces and incamped without ye towne to receive ym there".[66]

Curtin has characterized this as typical of Mawlāy Ismāʿīl's slave raids.[66] But if the object of this 'seige' was actually the Tajakant's capital Togba, another interpretation is possible.

As we have seen, Tajakant relations with both Morocco and the Sudan were well developed by the late seventeenth century, and their role in facilitating Mawlāy Ismāʿīl's trans-Saharan commercial revenue made the Tajakant, and by extension, Togba, important to the sultan.[67] This importance was reflected in the 'gift' of his daughter in marriage to the chief of Togba's Tajakant, Sidi al-Maḥjūb, and according to at least one account, he also put a military force at al-Maḥjūb's disposition in order to fight their 'landlords', the Ijamaan.[68] Another tradition tells us that this battle took place with al-Maḥjūb personally leading the combined Tajakant-Moroccan armies. He is said to have died and been buried in Togba (*ca* 1690 /91).[69] To suggest that the battle Hodges' men reported was the same to which Mawlāy Ismāʿīl sent his assistance, and the same in which Sidi el-Maḥjūb lost his life, might be to push circumstantial evidence too far. Or, it might not.

Given the larger context of Moroccan involvement in the 'west', including the beginnings of alliances with Saharans and Senegalese which came to dominate eighteenth century politics along the river, I believe Curtin has misinterpreted this particular encounter. Hodges' men were well received by the "Emperor" who "drew his forces up and incamped without ye towne to receive my there". They were drawn into assisting "ye Moores" and "it pleased God to give ym such good success, they being all very good firemen, yt ye Emperor attributed ye victory and safeguard of his country wholely to Mahamit".[70] This does not sound like a slave raid. What it does sound like is an effort to reinforce Morocco's rights in what Mawlāy Ismāʿīl regarded as 'his' country and at the same time, to support the Tajakant in their attempts to gain freedom from Ijamaan taxation and control. If the local situation had deteriorated into open conflict, it was certainly in Mawlāy Ismāʿīl's interest to make sure the Tajakant

66. Curtin, *Economic Change*, p. 51.

67. Abitbol, "Commerce Transsaharien", p. 7.

68. Abitbol, *Tombouctou et les Arma*, p. 186.

69. Mohammed el-Chennafi, "Sur les traces d'Awdagust", p. 106, Ft.2.

70. Stone, "The journey of Cornelius Hodges", p. 93.

has underscored the importance of the Ḥodh for understanding emergent patterns of trade and production in the these regions. She reminds us of the continued existence of the medieval caravan route from Ijil which, in the seventeenth century, brought the Kunta and Ida Ali into the Tagant, the Tajakant into the Ḥodh and commerce to the Tajakant capital of Togba. Surrounding centres benefited, and even Awdagust, abandoned for at least two centuries, knew a short-lived revival. Salt, dates, locally produced and imported cereals and cloths were available, as were the gold and slaves which had made medieval commerce to Morocco so famous.[60]

Oumar Kane's contribution to this volume emphasizes the acceleration of Moroccan intrusions in Mauritania from the time of Mawlāy al-Rachīd (*c.* 1665), relates it to the general imperialist desire expressed in 1591, and emphasizes the growing role of slave raiding.[61] This analysis conforms in part to one Philip Curtin postulated some years ago, namely that seventeenth-century expeditiond by Morocco into the Adrār, Tagant and Ḥodh, and later into the Senegambia, were related to the desire to acquire slaves for Mawlāy Ismāᶜīl's slave army.[62] Central to his specific slant on the argument is the account of a seige on an unidentifiable town called 'Tarra', thought to have been located in the Ḥodh. In 1689-90, an Englishman, Cornelius Hodges, described Tarra as a market in "Ye Moores Countrey" where desert salt was exchanged for cloth, gold and slaves : indeed, 'Tarra' was "the only mart for slaves in all those western parts of Africa".[63] Elsewhere, I have argured that this town could well have been the Tajakant centre of Togba.[64] While his men were there, they witnessed the following :

> *Notwithstanding, in 3 days after yr arrival, ye Moores came with neare 40,000 horsemen and camells to Lay*

---

60. Robert-Chaleix, *Tegdaoust*, pp.510-12.

61. Kane, "Les relations entre le Maroc et les états riverains".

62. Curtin, *Economic Change*, p. 51-4.

63. Stone, "Cornelius Hodges", pp. 92,3.

64. This for a number of reasons, among them the history of Tajakant involvement in the salt and slave trade in the Adrār (Tinigi), and a founding Togba tradition which holds that when Tajakant immigrants arrived from the Adrar they were made to pay the price to settle, "one young female slave and 4 ozs of gold" to the controlling Ijamaan warriors for every house they built. This tradition, if true, strongly roots both the Tajakant and Togba in the slave and gold trade Hodges described in 'Tarra'. (See McDougall, "The quest for 'Tarra'", pp. 277-81).

65. Stone, "The journey of Cornelius Hodges", p. 93.

prosperity and influence of the Kel Antasar also have been connected to the new Tawdeni industry ? What all of this suggests is yet another way in which Morocco interacted with the evolving political economy of the Middle Niger-Azawaḍ region, and its Saharan populations.[56]

These observations are in keeping with the the work of both Abitbol and Hodgkin on Niger Bend commerce in the seventeenth century. Like Abitbol, Hodgkin tends towards the view that the Moroccan presence probably increased trans-Saharan trade overall. Following a decline of gold exports during the first part of the century, Hodgkin found a clear revival under the encouragement of Mawlāy Ismāᶜīl. As for the slave trade northwards from Timbuktu, it increased in volume over the century, most notably to feed the sultan's army during its later years.[57] The salt industry, as we have seen, continued to thrive--indeed, to expand. While the sultan's representatives were present at the mines (and nearby wells), the management of production and transport was left in the hands of Saharans like the Berabish, the Kel Antasar and above all, the Kunta.[58]

3.2. The Adrār, Tagant and Ḥodh

To the west, the Mauritanian Adrar, Tagant and Hodh, conquest also had an impact. Unfortunately, most attention has been directed to the political incursions of both Moroccans and the *arma* (*'orma, horma'* in some sources) in the Senegal River area, and we have less to draw on with respect to their economic and religious involvement in the southern Sahara-sahel.[59] Recently, Denise Robert

56. Caillié, *Travels through Central Africa* II, pp. 118-9 ; Batran, "Sidi al-Mukhtar al-Kunti", pp. 247-55.

57. Hodgkin, "Social and Political Relations", Ch. VIII 'The Trans-Saharan Trade', pp. 375-423 ; on slave trade, pp. 408-14. The significance of slaves from the Sudan in Mawlāy Ismāᶜīl's army has been questioned by Allen Meyers ("Class, ethnicity and slavery: the origins of the Moroccan *'abid*") ; Hodgkin argues that the intent was to make the slave army self-reproducing (p.411).

58. Hodgkin, "Social and Political Relations", p.425. She identifies as one of the important factors accounting for this healthy situation the development of the (Tegaza/Tawdeni) salt and (Tuwāt) tobacco commercial network established by the Kunta during the latter part of the century.

59. See especially, Kane "Les relations entre le Maroc et les états riverains", and "Les Maures et le Futa-Toro" ; and Barry, "Senegambia from the sixteenth to the eighteenth century". Some years ago, Abitbol argued that Mawlāy Ismāᶜīl's religious prestige was as important as his military power in terms of gaining the allegiance of the "grandes tribus *hasan* " between Wadi Nun and Senegal, but the idea has not really been appreciated ("Commerce Transsaharien", p.7).

the Azawaḍ-Niger bend was inextricably tied to their prominence in the region's salt trade.[52]

The Tajakant may also have established a place for itself in the Azawaḍ salt industry in the wake of Moroccan control. The problem of conflicting traditions over which of the salt works was being exploited when complicates the task of linking tribal affiliations with production. However, when Caillié visited the ruins of "Taraza", presumably the salt village of Tegaza, in 1828, he was told that formerly this had been a large village belonging to the Tajakant. "The inhabitants used to work the Tarsa salt and carried on considerable commerce in this article in the Sudan. They had many camels ... but the village had been destroyed by the Tafilelt Moors". Caillié was of the opinion that the village was abandoned voluntarily by its inhabitants "who might be discouraged by the great difficulty of finding fodder for their beasts and grain for themselves, and also by the annoyance of being always forced to drink salt water".[53] But the Tajakant tradition is consistent with the Kunta account cited above, namely that the Ksar of Tegaza lost its principal source of revenue in the wake of Tawdeni's development and was therefore destroyed by the Moroccan army around 1800.[54] This association with the Tegaza industry would be in keeping with their history of involvement with Ijil, and logical given their close relations with Morocco.[55]

The suggestion that both Tegaza and Tawdeni were mined either simultaneously or alternately during most of the seventeenth century, and that different groups may have been associated with each at different times, is a very plausible one. In this context, it would be interesting to speculate further on the rise of the Kel Antasar. Tradition holds that their "great marabout and saint" Moḥammed Quṭb-ag-Moḥammad had wells dug north of Timbuktu which attracted caravans to this route "so that his people became wealthy". Of the wells he is said to have had dug, several were located at In-Télig, half a day's journey east of Tawdeni. Tradition suggests that Morocco exercised the same control over In-Télig as over Tegaza itself, persumably because the wells were essential for the operation of the industry. Caillié noticed the ruins of some houses built of white buried in the sand, which suggests that at one time the Kel Antasar (or their clients) oversaw the maintenance of the wells and their use by caravans seeking salt at Tawdeni. Might the growing

52. Marty, *Etudes sur l'Islam*, I., pp. 184-7.

53. Caillié, *Travels through Central Africa* II, pp. 128-9.

54. Batran, "Sidi al Mukhtār al-Kuntī", pp. 247-53.

55. I shall return to the Tajakant and the Moroccan connection, below.

According to this scenario, the relationship between the conquest and the destruction of Tegaza was tenuous at best. It was not conquest but the successful development of a competitive mine, Tawdeni, which initiated the decline and ultimately called for Moroccan retribution. And even that process took some two hundred years! This rendering of Tegaza's history leaves open the possibility that Morocco's role as tax collector in the region was neither as destructive to commerce nor as all-encompassing as we have tended to assume. Indeed, Abitbol points out that the Moroccan monopoly over Tegaza from the early seventeenth century "does not seem to have had any detrimental effects on continental commerce *which may even have increased in volume*".[50] But if control was surprisingly non-intrusive, expressed mostly through tax collectors, it may none the less have occasioned some changes in the operation of the commerce, especially under the new direction of the Alawid dynasty from the 1650s.

Local traditions from Arawan tell us that from the arrival of the great merchant-scholar Aḥmed ag-Adda (*c.*1575), Arawan played an important role in the Tegaza commerce. At the time of the conquest, camels were requisitioned from the town, and in return, Arawan's clerics were exempted from paying the one-fifth tax levied by the Sultan on the salt of Tegaza (and later, Tawdeni).[51] This enhanced the reputation and the attractiveness of Arawan for clerical clans such as the Kel Antasar and Berabish. The arrival of the first Berabish migrants in the Tegaza region in the 1590s, and their reputed "immediate" involvement in transporting salt, may well have been associated with Arawan's changing fortunes and Tegaza's 'new master'. The success of the Berabish scholar Aboul Makouf in learning the commercial skills of Aḥmed ag-Adda and the subsequent attraction of further Berabish to Arawan in 1650 seem to attest to such a relationship. The latter, in fact, were responsible for first establishing an important commercial current between Iguidi and the Azawaḍ, extending progressively into the Ḥodh and Sahel towards the end of the century. Their rapidly earned wealth and influence in

---

50. Abitbol, *Tombouctou et les Arma*, p.184. The emphasis is mine ; I will return to the point.

51. Marty, *Etudes sur l'Islam*, p. 239 ; Bonnel de Mezières, "Le Sel de Tombouctou", p. 103. The version in TS is slightly different, recounting that Jawdar's army passed to the east of Arawan and, on encountering the camels of Abdallah bin Chein al-Mahmoudi, he took the number he needed. Abdallah then proceeded to Morocco to complain to Mawlāy Aḥmad (al-Manṣūr), thereby being the first to announce the successful arrival of the troops to the Niger ; Jawdar was ordered to pay him the value of the camels taken (pp. 218-9).

work confirms the viability of Tegaza at this time. Kunta tradition contends that the mine was supplying a thriving trade in which the kunta were directly involved, during the latter part of the seventeenth century. It was unquestionably within the domain of the Moroccan sultan[45], and reference was made to the sultan's representative at the mine sometime between 1729 and 1757.[46] However, by the 1740s, we also know that the Kunta's renowned *shaykh* Sidi al-Mukhtār was involved in the salt trade to a sebkha called Tawdeni.[47] A few years later, indications are that it was under the authority of the son of the Moroccan representative previously at Tegaza, Qaid ᶜAbd al-Malik. Consequently, Batran concludes, Tegaza must have been abandoned and exploitation begun (on a large scale at least) at Tawdeni during the office of one of these representatives, which would suggest some time in the 1730s.[48] The final stage of Tegaza's history did not occur until more than half a century later. Batran writes that :

> *"The village ... was destroyed by the Moroccans in 1800. The inhabitants of the Ksar [village] Tegaza ... having lost the principal source of their revenue from the ancient salt mines, failed to pay their taxes to the Moroccan Sultan. The Ksar, it is said, was consequently reduced to ruins by order of Mulāy Sulaymān".*[49]

45. Batran "Sidi al-Mukhtar al-Kunti", pp. 252-3 ; also the chapter dealing with the Kunta salt trade, pp. 235-88.

46. According to Batran, drawing on local chronicles, Qaid al-Hayuni was the first qaid of the Alawite Sultan to be installed at the mines *ca* 1694/5. "This is confirmed by the Kunta traditions which mention the presence of Qaid Ahmad al-Hayuni at Tegaza, adding that he was the representative (*kalifa*) of the Alawid Sultan, Mawlāy Abdallah b. Ismāᶜīl (reg. 1729-57)." ("Sidi al-Mukhtar al-Kunti", p. 253).

47. *Ibid.*, p. 254 : "It appears from the Kunta accounts that it was only in the first half of the eighteenth century that work started at Tawdanni. They indicate that the mines of Tawdanni were worked during Sidi al-Mukhtar's early adult years (1747-8) and that during this period he had on several occasions accompanied the salt caravans to Tawdanni. The Kunta version of the history of the salt mines ... reports that the exploitation of these mines started during the chieftaincy of Sidi al-Wafi al-Mir (1675-1730). "The later statement implies perhaps a typographical error in the dates given for Sidi-al-Mukhtār's involvement ; it is unlikely that a two year period constituted his "early adult years" or that" several occasions" would have arisen during this time to accompany salt caravans.

48. *Ibid.*, pp. 254-5. "Cortier claims that it was one of the Qaids of the Banu-Hayuni who discovered the mines of Tawdanni but does not specify his name. He adds that this happened during the reign of Mawlay Sulaiman (1792-1822)".

49. Batran, "Sidi al-Mukhtar al-Kunti", p. 253.

Some of these arguments have been challenged above. We have seen that there was already interest and involvement in the western Mauritanian region in the sixteenth century and that relations with Songhay had been initiated by at least two of al-Manṣūr's predecessors. While it is true that following conquest, Morocco's interests in direct control of Songhay appear to have declined in favour of increased involvement in Mauritania and Senegal, some of this is illusionary. Some of it, however, is also based on a misunderstanding of the post-conquest era, as recent work on seventeenth- and eighteenth- century southern Saharan history shows. A few examples will illustrate the need to look more closely at some of these long-held assumptions.

3.1. The Azawaḍ and Niger Bend

The question of Tegaza was prominent in the first part of this paper, and we left discussion of it with some uncertainty about the mine's post-conquest fate. While it is relatively commonplace to assume that references to "Tegaza" in the *TS* and elsewhere after the conquest refer in fact to modern-day Tawdeni[43], evidence from southern Morocco, and local Saharan traditions suggest otherwise. In so doing, they attest to a rather different Moroccan involvement in the Saharan salt industry than we have assumed to date. It has been recounted, for example, that the community of Tegaza requested the presence of a *qāḍī* from southern Morocco sometime during the latter part of the seventeenth century. Ahuzi Aḥmad al-Hashtūkī (d.1714) became *qāḍī* and *muftī* to the community, and reportedly amassed so much wealth there that he was able to make the ḥājj.[44] And Batran's

in the Sudan and in that sense, is more relevant than its date of completion would suggest. There us now enough research in the area support a revised edition of this important chapter and it very much need to be written.

43. This was Mauny's argument in *Tableau Géographique* (pp. 331 - 2), and it has been accepted by most historians looking at this question (eg. Cissoko, *Tombouctou et l'empire Songhay* and Abitbol "End of Songhay").

44. He made two pilgrimages, one in 1685, the other in 1707. It is not certain which was funded by his earnings in Tegaza; however, the fact that he was born in 1657 suggests the later more likely than the former it would have been unusual for a man of less than 40 years to achieve his status, and for him to have passed several years at Tegaza as *qāḍī* before making the pilgrimage in 1685 means he would have had to have done so as young as 23 or 24 years ; improbable to say the least. (Information on Ahmad al-Hashtuki from *Encyclopédie du Maroc*, T.I, Ed. Association des Auteurs Marocains pour la Publication, Rabat : 1989, pp. 194 - 5 as translated by Mohamed Nouhi. Information regarding his Tegaza connections, also provided by Mohamed Nouḥi. I am grateful to M. Nouhi for sharing this with me.)

Songhay. In focusing on the conquest of 1591 to the exclusion of other developments, we have lost sight of this intersecting but distinctive sphere of economic and religious interest. Morocco was as actively involved in it as in the eastern, Niger Bend oriented policy. I would argue that its sixteenth century rules, beginning with Aḥmed al-Aᶜraj, saw the potential for exploiting its riches in addition to those of Tegaza, and directed policy towards both. What at first appears to us as illogical or unclear about the early overtures acquires some clarity in this scenario of events.

3. In the wake of conquest ...

Depending on perspective, 1591 either marked a great achievement in the imperial expansion facilitating the unification of Islam, or it marked the end of a great imperial culture and the expansion of Islam among sub-Saharan societies. From both perspectives, however, it marked a watershed. In terms of Moroccan policy, Abitbol has argued that it marked the end of Saᶜdian focus on the Middle Niger and Songhay, and with the coming to power of the Alawite dynasty a shift to Mauritania and Senegal. Over the seventeenth, that shift also reflected a change in tactics, as Morocco moved away from expensive military intervention and more in exploiting family and religious ties.[40] Looking at the situation from a vantage point further south, Oumar Kane also sees the conquest as ushering in Moroccan interference in the politics of Senegal. Contrary to Abitbol, however, he sees no evidence of a shift in tactics and continues to chronicle military relations well into the eighteenth century.[41] In the Middle Niger, the conquest was seen as disruptive at best. It put an end, so it is said, to the medieval Tegaza salt industry, and (ironically) caused a decline in the gold trade in whose name it had been undertaken. In short, it frequently has been regarded as the great divide between a kind of medieval "Golden Age" (marked in Morocco by al-Manṣūr and the glory of Marrakesh, and in Mali by Songhay, the greatest and last of the medieval empires), and the descent of a "Dark Age", the chaos which brought to an end the Saᶜdian dynasty in Morocco, and the rise of 'pagan' warring states in the Middle Niger.[42]

40. Abitbol, "End of Songhay", pp. 314-16.

41. Kane, "Les Relations entre le Maroc et les états riverains".

42. Abitbol, "End of Songhay" and Bathily, *Les portes de l'or*, p. 237. Willis ("The Western Sudan from the Moroccan invasion (1591)") is unfortunately very dated (the 3rd edition date of 1985 is misleading: this chapter was not updated from the 1st edition and was written c. 1968). However, it deals critically with the notion of 'watershed' according to region, political, economic and religious change

conquering Moroccans on their arrival in Timbuktu. It is said they found an established quarter of merchants from "Walata, Wadan and the West" and similarly, another with "foreigners" from Fezzān and Tuwāt : "the first day was taken up with those from Tuwat and so on and the second was devoted to those from the West".[35] Distinctions determined by town affiliation, moreover, may well obscure family connections. As we have seen, the sixteenth century saw clan 'dispersals' and involvement in commercial and scholarly networks which might more accurately be described as diasporas-- relations which linked, rather than separated, the markets, oases and *zāwiya* of the Sahara. These 'itinerants' included clerics and merchants from Morocco, most specifically from the Drᶜa region. At the time of conquest, they resided in Walāta and Timbuktu, but were equally known in central Morocco and Mauritania. The Tajakant connection suggests similar relations established with the Adrār and Hodh.[36]

It is in this context that we need to rethink Moroccan expeditions sent in the direction of Wadan via the 'Ṭrīq Lamtūna' dispatched from the Sequia al-Ḥamra into the 'lands of the Almoravids' and Timbuktu[37]: it is entirely possible that these, and not Songhay, were the intended destinations. Wadan and Timbuktu in particular, but also most other towns in the Adrar, Tagant and Ḥodh, lay within the sultan's sphere of religious and familial connections.[38] And all were a potential source of wealth, including taxes, slaves and gold. Moreover, continued Portuguese interest in both Mauritania and Senegambia in the first half of the century must have raised some concern about reinforcing 'rights' and 'claims' from time to time.[39] It needs also to be reiterated that Timbuktu was not only a commercial centre for Songhay, it had become the heart of the western network, home to merchants and scholars who looked west and north to Mauritania and Morocco, not south and east to

35. Hodgkin, "Social and Political Relations" p. 479.

36. Evidence from the seventeenth and eighteenth century to be presented in the following section tends to confirm this supposition.

37. Appendix I.

38. Abitbol, "Commerce Transsaharien", p. 6. Abitbol's analysis in the section entitled "Constantes Géographiques et Structures Sociales" is extremely insightful.

39. Levtzion, *Ancient Ghana and Mali*, pp. 134,5. Activity at Arguin and Elmina (on the 'Gold Coast') had been active. Levtzion quotes an anonymous letter from sometime between about 1525 and 1550 complaining of a Portuguese trader who had flooded the Gambia (Rio de Cantor) with commodities of such value that the Mande traders who had gone to Elmina were bringing their gold to Cantor.

trader. The move also patched him into the commercial and scholarly networks centred on the Niger bend. At his death in 1515, he became the "patron saint" of travellers to Walāta. Mentioned specifically were merchants coming from "southern Morocco, Tuwāt and the salt mines of Tegaza and Ijil".[33]

During the time of his grandsons, towards the end of the century, the Kunta are said to have replicated the Tajakant dispersal. Splitting their tributaries and clients between them, one group (the Awlād Sidi ^{c}Umar al-Shaykh) settled between the Sequia al-Ḥamra and Tuwāt. A number of families established *zāwiya* around Tuwāt and from there became active in trade between Tuwāt, Sijilmasa and the Moroccan Dr^{c}a and Sous. In the seventeenth century, movement south into the Azawaḍ (north of Timbuktu) began. The other clan, the progeny of Sidi Muḥammad al-Kuntī al-Ṣaghīr, stayed in the Zemmour as pastoral nomads, moving between the Sequia al-Ḥamra and the Tiris, Adrār, Agān-Brakna, Tagant and Awkar in the south. In the seventeenth century, most settled in the Tagant, while one family remained in the Adrār and another moved into the Brakna. These far flung family connections, ranging from southern Morocco, to southern Mauritania, to the Azawaḍ and Tuwāt, combined with commercial opportunity and religious prestige, soon brought the Kunta to the forefront of Saharan affairs. By the eighteenth century, Kunta fractions controlled the salt trades of both Ijil and Tegaza, and the family based in Wadan had control over the mine as well.[34]

There is more of significance to explore in the post-conquest era, and we will do so in the following section. However, this brief visit with the history of commerce and migration in the southern Sahara during the fifteenth and sixteenth-centuries is extremely suggestive with respect to pre-conquest relations. First, it is clear that not only was there a second salt mine in the 'west', there was a whole commercial network with links to Morocco, the Atlantic and the gold producing regions of the Sudan. It interesected with the eastern Tuwāt-Tegaza trade to some extent in Walata but most especially in Timbuktu, the entrepot of Ijil and Tegaza salt alike. The nature of this situation is epitomized by the (possibly apocryphal) account of the swearing of the oath of loyalty organized by the

33. McDougall, "The Ijil Salt Industry", pp. 94, 5, based largely on the work of Batran, pp. 36-8. The interpretation I draw from this, that the Kunta were active in commercial affairs before their sixteenth-century move to Tuwat, differs from Batran's.

34. McDougall, "The Ijil Salt Industry", pp.81-98 ; for a summary, "Economics of Islam", pp. 50-2.

Many notable Saharan families and clans shared similar origins, among them the Tajakant and the Kunta. The former, as we have seen, gained widespread influence and prestige through its scholars and *telemidh*. They were said to have been made prosperous by their flourishing commerce in gold, and above all slaves, in Tinigi. During the sixteenth century, they dispersed from the Adrar[29] and moved both north into Tindouf, and south east into the Hodh where they built Togba. Togba remained patched into the salt network as evidenced by vestiges of *azayr* in the region. This meant it also tied into the inter-regional commerce operating east and west along the desert-edge with its terminus of Timbuktu, and the international trans-Saharan trade, with northern termini in the Drᶜa and Tuwāt. By the late seventeenth century, the Tindouf-based Tajakant were recognized masters of the caravan trade between southern Morocco and the Adrār, and through the Togba connection, a central link between the Adrār and the Sudan.[30]

The second was the Kunta. In spite of later claims to a fifteenth-century 'saintly' influence in the western Sahara[31], it is likely that for most of this century, they were actually a family of the Adrār Tajakant whose autonomy developed in conjuction with the late fifteenth, early sixteenth-century changes which also saw the clan's dispersal.[32] Although both phenomena, the break-up of the Tajakant and the emergence of the Kunta, have been attributed in large part to an economic 'decline' in the Adrār (itself attributed to a shift in trade routes towards the Niger Bend), I have argued elsewhere that the opposite was the case. Evidence suggests that the deciding factor was an expansion, not a decline, in this trade. This expansion benefited both regions, and thereby contributed to the rise of the Kunta. The story of Sidi Aḥmad al-Bakkāy the so-called "founder" of the Kunta tribe, illustrates the point. He came from Tinigi and is said to have had long-standing commercial relations with southern Mauritania as well as Tishit, where he owned date-palm groves. Sometime around 1500 he moved to Walata, where he was known as a preacher and a

---

29. Reportedly because of drought, but see below for more about the nature of their dispersal.

30. McDougall, "The quest for'Tarra'", p. 278 ; "The Ijil Salt Industry", pp.88-93 passim.

31. This through the *Risāla al-Ghalāwiyya*, whose authorship is credited to Sidi Muḥammad al-Khalīfa, son of the famous Sidi al-Mukhtār al-Kuntī (see Batran "Sidi al-Mukhtār al-Kuntī").

32. McDougall, "The Ijil Salt Industry", pp. 82-98. Much of that analysis is based on Batran, "Sidi al-Mukhtār al-Kuntī" and Whitcomb, "New evidence".

Tajakant of Lamtūna origin [for example] were renowned for having learned men and hundreds of students of both sexes.

In the thirteenth and fourteenth centuries, the dispersal of scholars followed the proliferation of [salt] markets along the desert edge. Tinigi, the centre of learning of the Tajakant, gradually gave way in importance to Shinguiti. Wadan was the home of the clerical clans of the Idaw al-Ḥājj and of the famous Aqit family, who later [in the course of the sixteenth and seventeenth centuries] became so prominent in Timbuktu [and so well known in Morocco]. Tishit was home to an important group of *shurafa*, and from the twelfth through fourteenth century Walāta attracted the migration of learned men from declining centres like Awdagust and Kumbi Saleh. These towns nurtured a "constant emigration of scholars towards the Senegal river, among them teachers, *qāḍis*, grammarians and calligraphists", several of whom achieved respected local reputations.

Several of the groups who enjoyed reputations as scholars were also associated with the trade and marketing of Ijil salt.[25]

This was an era of great change in the southern Sahara-Sahel. The infiltration of the Banu Ḥassān 'warriors', often credited with creating Mauritania's almost unique social and religious hierarchy, is also regarded as the central 'event' of the fifteenth and sixteenth centuries.[26] Neither perception is accurate, however. Mauritania'a social order was the result of a very long-term evolution (as suggested above), and from the fifteenth century, the Banu Ḥassān became part of that process. Nor was their arrival a single event. Over the course of two centuries, a variety of new relationships were formed with the already 'class conscious' Ṣanhāja which were peaceful as well as confrontational in nature.[27] Attention to the 'warrior' nature of the *ḥassānī* as they settled into the Sahara has tended to overshadow the active clerical and commercial activity of the Ṣanhāja which not only continued alongside but flourished. During this time, it seems that the development of scholarship and the accumulation of wealth, while generated in all the desert-edge "salt entrepots", was increasingly centring on the famed city of Timbuktu. The rise of the Aqit family, with its strong roots in the Adrar, epitomises this evolution.[28]

---

24. McDougall, "Salts of the Western Sahara", pp. 241-51.

25. McDougall, "Economics of Islam", pp.46-48.

26. For example, see Alfred G. Gerteiny, *Historical Dictionary of Mauritania*, or CNRS *Introduction à la Mauritanie*.

27. Miské, *Al-Wasit*, pp. 85-113 ; Ould Cheikh, *Eléments d'histoire*, pp. 23-50.

28. McDougall, "Economics of Islam", pp.45-50.

(Timbuktu). A flourishing commerce in salt and gold linked the system to the Atlantic trade centred on the recently established Portuguese post of Arguin and channelled Barbary horses to the 'Land of the Blacks'. According to Alvise de Cadamosto's mid-fifteenth century account, it intersected the trans-Saharan system at the salt entrepot of Wadan. Here, gold and slaves were divided between portions destined for Arguin and those headed for "the Barbary Coasts" of North Africa.[20] In the latter part of the century, the Portuguese attempted to move inland and establish a second post in Wadan, but it was short-lived.[21] Early sixteenth-century accounts confirm that while Arguin was attracting "much gold", Wadan still knew "a great traffic" in it ; Tunis merchants continued to frequent its market for gold and slaves.[22]

The development of this "salt-network" centred in the Mauritanian Adrar was intrinsic to the cultural and scholastic evolution of the southern Sahara-Sahel. It gave rise to its own commercial language, *azayr* and provided a skeletal frame for a commercial and religious system which soon spanned the desert and reached well into the sudan.[23] The development of Ijil (and other salts like the sea-salt of Awlil and the earth-salt of Tishit)[24] allowed for a 'surplus' more readily convertible into wealth than the products of pastoralism and oasis agriculture. A class of specialized traders who provided the economic basis for the growth of an indigenous stratum of scholars had emerged by the eleventh and twelfth centuries.

The evolution of early islamic scholarship in the Southern Sahara can be traced back to the Almoravids of the eleventh century...[T] heir scholarly influence was probably more important for the shaping of Islam in this region than the better known military aspects of the movement. The scholastic tradition of Azugi, [Adrar] 'capital' of the Almoravids, spread gradually among the Ṣanhāja nomads, many of whom were centred in the Adrar region.... The

20. McDougall, "The view from Awdagust", *passim.* ; Cadamosto, *Voyages*, pp. 17-22.

21. Local tradition claims they were driven out ; Portuguese texts suggest they left, probably because of the difficult desert conditions. Either way, they were unsuccessful in turning any more traffic to the coast. (Pereira, *Esmaraldo de situ orbis*, p. 75)

22. Fernandes, *Description*, p. 104; Pereira, *Esmeraldo de situ orbis*, p. 75. This trade is examined in more detail in McDougall, "The Ijil Salt Industry", Chapters II, III.

23. McDougall, "The view from Awdagust", *passim.* On *azayr*, pp. 27, 8; also Norris, "Future prospects in Azayr Studies".

But the rebellions in Tuwāt and Gurara raise the question of the degree to which merchants involved in trans-Saharan commerce may also have seen the moves as counter productive. In this context, the letter of 1589 can be interpreted as deliberately provocative : to have accepted al-Manṣūr's claims and acknowledged implicitly his military threats would have been disastrous politically (and probably economically) for Songhay's Askya. To reply as he did provided al-Manṣūr with the 'cause' he needed. But it is significant that in this letter too, the object of provocation was the question of revenue from the Saharan salt mines.[17]

Contrary to both 'Moroccan' and 'Sudanese' contentions, the evidence presented in 'Appendix I' suggests that until the successful occupation of Tegaza in 1584 failed to provide the tax revenue desired by al-Manṣūr, there had been no other "conquests" seriously considered. But as Songhay evidently had the means to prevent Morocco from reaping its expected rewards, in this case by shifting areas of production and associated trade routes, the state itself became the desired object of control. Al-Manṣūr then spent the next five years seeking justification and support for his new Sudanese ambitions, as Abitbol and Yahya have argued.

2. Salt, Saharans and Alternative Perspectives

Cissoko's identification of 'the question of Tegaza' as the catalyst in sixteenth century trans-Saharan relations opens up the whole issue of conquest to closer scrutiny. But we cannot stop with the mine itself. What was so important about Tegaza was its salt, and Tegaza salt was not the only source feeding the gold-producing Sudan. A mine producing comparable rock-salt had been exploited in the northern Mauritanian Adrar probably as early as the tenth and eleventh centuries.[18] Fifteenth and early sixteenth-century accounts give us a pretty clear picture of trade and production at Ijil.[19] Earlier commerce between the international caravan terminus of Awdagust and the markets of ancient Ghana had declined in favour of commercial and agricultural centres in Mauritania's Adrar (Shinqit, Tinigi and Wadan), Hodh (Tishit and Walāta) and in the Niger Bend

17. There was another letter following this one in which the subject of salt was dropped altogether. But Yahya argues that the rhetoric, whereby the Askya's very claim to legitimacy was questioned, was for internal consumption only and did not reflect the real issues (*Morocco in the Sixteenth Century*, p. 162).

18. McDougall, "Salts of the Western Sahara", pp.243-51.

19. See principally: Cada Mosto, *Voyages*; Fernandes, *Description*; Pereira, *Esmeraldo de situ orbis*.

political leverage (using shows of force), both of which can be interpreted as efforts to assure access to wealth.

If there is some question about the nature of power, as well as the goals involved in these expeditions, those of 1556-57 and 1584 to Tegaza are a little clearer : military occupation for the purpose of taxation. In the second case, a garrison was established and a specific tax (one mithqal of gold for each camel load of salt leaving) was imposed.[12] This was the precedent for the tax Al-Manṣūr asked again to levy in 1589.[13] But in neither case was the aim of conquest Songhay or even Timbuktu. Interest was centred on salt and the revenue in gold it could generate. What was clear after these two military "successes" however, was that control of the mines did not bring control of their wealth.[14] It seems likely, in light of the 1584 occupation of Tegaza, that the re-taking of Tuwāt and Gurara which were major entrepots for the salt-based trans-Saharan commerce, had more to do with the intent to take over the mines than to conquer Songhay itself. The fact that numerous refugees from Tegaza fled to both towns after the Moroccan arrival underscores their commercial, and quite probably, familial connections. It also suggests that these were not political refugees, fleeing Moroccans, but rather economic refugees, fleeing the decline of the Tegaza industry under Moroccan management. According to Yahya, they may well have joined in instigating rebellions in Tuwāt and Gurara to protest al-Manṣūr's military activities in the Sudan.[15]

Abitbol argues that from 1586, al-Manṣūr devoted attention to preparing for the events of 1591. Most of this preparation had to do with gaining political and religious backing for his venture which was seen as both unrealizable (given previous "failures"), and immoral (Morocco had been given no cause to attack a 'good' Muslim ally).[16]

12. Hodgkin *"Social and Political Relations on the Niger Bend in the Seventeenth Century"*, p.157.

13. Songhay's abandonment of Tegaza during the Moroccan occupation seems to have put a temporary stop to mining, thereby all but eliminating revenues for Moroccan tax collectors.

14. Part of the answer was that industry simply moved elsewhere, to al-Ghazlin or Tenaoudara (Tin-Warad) in these cases, and seemingly with only momentary disruption to trade. There are other factors to be explained as well, which I will return to below. McDougall, "Salts of the Western Sahara" is useful on the question of salt sources and historical problems of finding them.

15. Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century* Morocco, p. 153.

16. Abitbol, "The End of Songhay", p. 301 ; Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, pp. 152-62. Yahya sees the expeditions of 1584-5 as the first steps in the conquest, so would probably argue efforts began in earnest by 1584.

at military conquest (preparations, failed expeditions, threats there of) were present in five or six cases. But closer scrutiny reveals some of the same ambiguities about 'control' and 'leverage' as the 1589 situation. It is by no means clear that the 1543-44 expedition had Songhay as its aim. It is Mauny who infers from Marmol that the "goal" is really Timbuktu and hence, Songhay. Actually, the excerpt reads : "The Sharif Muḥammed... wanted to conquer this state [of Timbuktu] and the rest of the Negro country given to the prayer of the people of Libye as was done before by the Lamtūn a [Almoravids]. He took the route of the Sequia al-Ḥamra...".[10] It is not clear why Timbuktu and not Songhay or Gao was the reference here but the allusion to the Almoravids and the route from the Sequia al-Ḥamra (the ancient "Ṭriq Lamtūna") is unambiguous. It refers to the territory reputedly conquered by the Almoravid Lamtūna which stretched from the Adrār, where they established their capital at Azugi, through the sahel Takrūr (Senegal) and ancient Ghana in the Hodh. Dramani-Issifou contends that this expedition was an attempted conquest of Songhay based on the assumption that Wadan was a 'Tuareg outpost', nominally under Songhay's rule. But as this was not the case[11], there is nothing here to associate Wadan or the expedition with Songhay *per se*. The 1584 expedition seems to have taken the same coastal route to the Adrar, and was then to have proceeded along the shore of the River', taking towns along the way. Again, the final destination was Timbuktu, rather than (as one might expect) Gao. Unlike Wadan, Timbuktu was part of Songhay but its role was commercial and clerical, not political. Morocco was aware that Songhay's capital was Gao and its army knew the most direct route, as it proved seven years later. Why, especially after an earlier expedition had turned back after taking the Ṭrīq Lamtūna, would the same long, indirect route be taken again (unless, if Songhay had never been the goal of that first expedition) ? Why, in the second case, would the expedition be given instructions to risk men and exhaust supplies 'taking villages' along the way, (Which also gave Songhay time to prepare a defense to launch a pre-emptive attack) if the conquest of Songhay was the real object ? I would argue that to whatever degree there was interest in Songhay expressed in these expeditions, it was at least equalled by that being shown in Mauritania. Moreover, there is also some question here about whether the attempts were to political control (through conquest) or

10. Mauny, "L'expédition marocaine", pp. 129-30.

11. On Wadan's history during this era, see Mauny, "Notes d'histoire", and McDougall, "The Ijil Salt Industry". Indeed, in his "L'expédition marocaine", Mauny explicitly argues the reason this particular overture is not mentioned in the *TS* is because Wadan was not part of Songhay's territories (p. 137).

nonetheless clear that there is a "Moroccan" view which celebrates al-Manṣūr and the era of conquest and a contrasting 'Sudanese' view which cites a century of military expeditions and diplomatic pressure as evidence of Morocco's long-term plan to destroy the great Songhay empire.[6] Epitomising the first perspective is Dahiru Yahya's *Morocco in the Sixteenth Century*, in which Sudanic policy began with al-Manṣūr and the 1583 'spy mission' to Songhay. None of his predecessors' initiatives are mentioned. Indeed, even al-Manṣūr's actions are attributed to other geo-political concerns, specifically the alliance forged with Bornu in 1583, rather than to any relations with Songhay itself.[7] Almost everything written from the sudanese perspective shares the opinion that whether we begin by looking at the first "claim" on Tegaza by Aḥmad al-Aʿraj, by the Wadan expedition, or even by Muḥammad ash-Shaykh's mid-century seizure of Tegaza[8], everything which followed inevitably led to, and was meant to facilitate 1591. Differences in perspective, however, do not account for other ambiguities and questions apparent in this chronology.

In looking at the underlying intent of the letter sent by al-Manṣūr to Askya Isḥāq II[9], Yahya raises an important distinction between political control and political leverage. In this case he argues that it is unclear which was at stake. But it is significant that the 'object' of discussion was not the Songhay state *per-se* but the Tegaza salt mines. If we look at the list of 'relations' compiled (some ten instances between *c.* 1540 and 1591), it is arguable that attempts

201 - 24. I am convinced there is value in approaching these materials anew from what might be called a more Africanist view, and taking into account some of the questions I raise below. Such a task should be undertaken by someone more comfortable in Moroccan history and Arabic usage in sixteenth and seventeenth century southern Morocco than I am (or indeed most historians trained as West Africanists are). The difficulty in finding suitably prepared researchers for such a project reflects (in addition to some very real political sensitivities), the problems we have created for ourselves by 'dividing' the discipline into North African and Sub-Saharan African studies.

6. To some degree, it could be said that the topic of this conference and several of the contributions to this volume illustrate fairly clearly this dichotomy of perspective.

7. Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*. Chapter 7, "Aḥmad al-Manṣūr's Sudanic policy and aspirations to Islamic supremacy" makes the first mention of relations with Songhay.

8. Refer to Appendix I.

9. Yahya identifies this as introducing the "second and final stage" of the conquest (*Morocco in the Sixteenth century*, p.153).

quest, allow the single event of 1591 too much significance. Our examination adopts as a starting point "the question of Tegaza", the focal issue Sékéne Mody Cissoko identified some years ago as shaping trans-nationl correspondance over the course of the sixteenth century.[4] In Appendix I', this is chronicled from the time of sultan Mawlāy al-A^craj through Aḥmad al-Manṣūr. It is evident that we still have much to clarify about these early relations in spite of the amount of literature to be found on the general subject. What is most significant, however, it that attention to the Tegaza salt mines draws us not across but into the Sahara. Without exception, historians to have date weighted the questions of motive and impact solely in terms of 'north African' or 'sub-Saharan African' issues. But Tegaza and (as I will argue), other salt mines of importance were located in the desert ; so too were the oasis dwellers and pastoralists who exploited and transported the salts. Scholars, clerics, merchants and 'warriors' of many different families spanned the Sahara in the sixteenth and seventeenth centuries. It is time their role and their perspective on this tumultuous era were articulated. To explore fully all aspects of the question raised by this approach over the course of some two hundred years would require a work of considerable length, and knowledge of enormous breadth. The first exceeds the mandate of this publication, the second the talents of this historian! In the following, I content myself with a selective treatment of the evidence and issues involved, keeping 'salt and Saharans' central to the discussion. I hope that in making some critical observations of commonly accepted interpretations, I also succeed in opening new paths for exploration and new reasons to span the Saharan gap in terms of research.

1. Sixteenth Century Overtures : a Chronology

An examination of 'Appendix I' raises questions which go beyond the differences of detail and interpretation addressed in the footnotes. While this study makes no claim to have exhausted the literature on this era, especially the Moroccan sources[5], it is

---

3. See Curtin, *Economic Change*, pp. 51-4 ; Barry, "Senegambia from the sixteenth to the Eighteenth century" ; Kane, "Les relations entre le Maroc et les états riverains".

4. Cissoko, *Tombouctou et l'empire Songhay*, pp. 86-93 in particular.

5. Willis gives a listing of the traditional Moroccan sources for the Sa^cdian dynasty in his chapter "The Western Sudan" (Ft. 1, p. 531), and for a comprehensive listing of primary manuscripts, archival references and bibliographies (as well as secondary sources up to about 1980), see Yahya, pp.

The question of Tegaza´ and the conquest of Songhay : some Saharan considerations*

E. Ann McDougall
University of Alberta

The conquest of Songhay in 1591 was neither the first nor the last of Morocco's trans-Saharan adventures. During the two centuries following Morocco's first overture to Songhay (probably *c.*1539 / 40)[1], relations with the southern Sahara and Sudan took many forms. Prior to 1591, most were directed to the Niger Bend, and had as their raison d'être concern to increase access to and control over trans-Saharan commercial revenue. But to the the degree that they have interested historians at all, it has been in the context of precursors - warm-up acts for the 1591 final.[2] But 1591 was not the end. Interventions continued throughout the next century and a half. These were directed almost exclusively towards present-day Mauritania and Senegal, and were of multiple motivation, including slave raiding. Or so it is argued.[3] Few historians have looked at these eras, and these sets of relations, as part of the same historical question. For one who has, Michel Abitbol, the post-conquest era is seen as reflecting a marked change of orientation in Morocco´s role in the sudan.

The whole question needs revisiting. Through a closer examination of pre- and post-conquest relations, I hope to show that the interests of Morocco's rulers in the southern Sahara and Sudan had a greater longevity and more continuity than some may have assumed. Even Abitbol's insights, which take us furthest in this

* The author wishes to thank Mohamed Lahbib Nouhi for his comments and information, both of which have enriched this chapter.

1. See Appendix I.

2. See for example, Mauny, "L'expédition marocaine" ; Pianel, "Les Préliminaires de la conquête" ; Cissoko, *Tombouctou et l'empire Songhay* ; Abitbol, "The end of Songhay" ; Yahya, Morocco in the Sixteenth Century ; Dramani-Issifou, *Analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhai.*

The Sudan had all the natural resources but lacked divine leadership and military technology with which Morocco had been blessed. Aḥmad al-Manṣūr succeeded in persuading the *ᶜulamā'* of the consultative council by oratory and superior arguments of the necessity for the conquest of the Sudan.[40]

From all evidence regarding Morocco's policy towards Spain, there was no indication that the invasion of the Sudan was going to be a stepping stone to the conquest of Spain. In fact, there was no intention that the conquest of the Sudan was going to serve the interest of Islam. It would rather appear that the invasion was made necessary by a combination of domestic as well as external pressures. The economic consequences of these pressures had become unbearable, so that it became necessary to find solutions through economically worthwhile international exploits. The domestic scene was infiltrated, due to the state's liberal policy by legions of foreigners, mostly soldiers of fortune and bounty seekers, who constituted serious problems to state security and a drain to the state expenditure. External pressures came from all sides of the conflict. Spain requested territory on Morocco's Atlantic littoral, and nothing could stop it from taking it by force if its security so suggested. European enemies of Spain wanted a subsidy from Morocco to maintain their cherished friendship. While the Ottomans continued to receive annual tribute from Morocco, the Regency of Algiers wanted free ports for its corsairs, whose attacks on Spain would compromise the independence of Morocco. The invasion of the Sudan was therefore meant to stop the inevitable collapse of the country.

40. Al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafa*, p. 118-27.

planned to restore the pretender, Dom Antonio, to the Portuguese throne "usurped" by Philip II. England wanted Morocco's contribution in money and victuals, while Morocco was proposing to send military contingents. However, the idea of sending Moroccan Muslim soldiers to Portugal was rejected in England ; it was felt that it would be extremely scandalous in Europe for England to be instrumental in bringing Muslims to invade Christendom, whatever the political or confessional differences between Christian states. *Bloc* solidarity was still too strong to be easily breached.

Morocco was soon to realize, on its own, that it did not have the necessary resources to get involved in a war with Spain, and if the country was to make any headway in international relations its economy had to be sound and its military strong. Morocco had made plain to England its desire to participate fully in international commerce and colonisation and proposed that on the event of the victory of the campaign against Spain, England and Morocco should share up the two empires between themselves with Morocco preferring the warmer climate of the Portuguese East Indies.[37]

Sudan offered Aḥmed al-Manṣūr the key to his ambitions. The Sudan was rich and Morocco was poor, he declared. The only obstacle standing between Morocco and the control of the Sudan was the Islamic ideology -which stood against shedding Muslim blood in internecine war- and for solidarity and universal brotherhood between all Muslims. The Sudan had demonstrated that solidarity and universal brotherhood by contributing, on request and willingly, to Morocco's '*jihād*' efforts against Christian states. The plan to invade the Sudan therefore gave rise to a serious ideological crisis.[38] The invasion was opposed by the *ᶜulamā'* on the understandable ground that it would violate the solidarity of the Muslim *umma*. The economic motive was never hidden from the Moroccan people though. It was presented that the campaign against the Sudan would be in the inescapable interest of Islam. The campaign would unite the Muslim *umma*, marshal its forces and resources for the higher and overriding interests of *dār al-Islām* under the divine leadership of Morocco in its struggle against the forces of "idolatry and trinitarianism".[39]

---

37. PRO, CSP (FOR) Eliz. XII. De Castries (ed.) *Les sources (d'Angleterre)*. I, 2, pp. 206-9, 23 Shaᶜbān 1609, 27 Feb. 1601.

38. Al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafā*, p. 118-127, *Passim*.

39. Yaḥyā, *Morocco in the Sixteenth Century*, p162, 167 note 86.

Morocco's *rapprochement* with the Ottomans. However, the fact that Morocco stood across the lines of communication of the combined empires of Spain made the country more relevant to Philip II.

The strategic location of Morocco made the independence of that country crucial to both sides of the European conflict and to the Ottomans to the point that no state would wish Morocco to come under the influence, let alone the suzerainty, of any other state. The victory of Morocco over Portugal was therefore widely welcome in protestant Europe and by the Ottomans.[35] The prestige that went with that victory, real or imagined, raised the image of Morocco, although the real beneficiary of that defeat in concrete terms was Spain. However, one of the consequences of the defeat and subsequent developments was that a new factor was introduced by virtue of which religious ideology was brought to bear on a new Muslim-Protestant-Catholic diplomacy. Spain's European enemies sent in embassies to congratulate the Moroccan ruler -the victor of the Battle of the Three kings fought at al-Qaṣr al Kabīr- and to propose trade treaties and anti-Spanish alliances. The increased power of Catholic Spain with its combined empires was universally detested. The European opposition, led by the powerful victor over the Spanish Armada, the Protestant Queen of England Elizabeth I, mounted pressure against Spain in Morocco. This led to the destruction of the established notion which opposed extra-European alliances, even more so than when Francis I of France shocked Europe by his proposing an alliance with the "infidel" Ottoman Turks against fellow Christian Spain. In many respects, England supplanted France in this innovative diplomacy. English diplomats went further by trying to establish, with the encouragement of Moroccan rulers, common grounds between Islam and Protestantism which were presented as pristine and opposed to Catholic "idolatry". In other words, relations with Muslim states should not be adjudged as relations with infidels against Christendom since the Muslims were presented as more Christian than the Catholics.[36]

However, in order for Morocco to contemplate an anti-Spanish alliance on an equal footing with Spain's European enemies, there was felt the need to prepare the country militarily, economically and politically so as to derive maximum benefit from the venture. In the first place, Morocco had to make its contribution to the invasion

35. Public Record Office (London) *Calendar of State Papers (Foreign), Ellizabeth (1561-1603) 1578-9*, p. 232, Sept.1578.

36. PRO, CSP (FOR) Elliz. XII. De Castries (ed.) *Les sources (d'Angleterre)*. 1, 1, p. 376.

to be, in spite of internal odds and external threats. Secondly, it was understood that the struggle in Morocco was between a number of forces, e.g. ideological purity versus pragmatism, universal caliphate as opposed to national considerations, Islam and Christianity, the conflict between Catholicism and Protestantism as manifested in the Catholic monopoly of international commerce and discoveries and the challenges mounted against it. Finally, Islam was recognized as the foundation of the Moroccan state and was therefore given at least a pious status on lips and paper as well as in diplomacy and duplicity.

Islamic solidarity formed the shell, though not the kernel, of Moroccan policy toward the Ottoman and the Sudanic states. The danger the Ottomans represented for the Saᶜdis lay in the fact that the Ottomans, like the Saᶜdis, were Muslims and therefore were likely alternatives to the Saᶜdis in spite of the existing minor theological differences. They had installed rulers in Morocco before and they could do it again as they were later to actually do.[32] The Ottomans enjoyed universal *de facto* supremacy even though their *de jure* claim to Islamic leadership was debatable. With the assassination of Muḥammad Ash-Shaykh on the instruction of the Ottomans, subsequent Saᶜdi leaders decided to play it safe by recognising Ottoman supremacy through the payment of an annual tribute through maintaining pressure against the Christian enemies of the Ottomans. The Ottomans on their part extended "their protection" to Morocco.[33]

In spite of their subservience to the Ottomans, the Moroccan rulers increasingly continued to assume a spiritual aura in sublime dignity and independence which was gratifying to Moroccan national pride and to the universalism of the Moroccan *ᶜulamā'*. The Saᶜdi pretence to universal leadership of the Islamic *umma* was to lead to the invasion of the Sudan at a later stage of the Saᶜdi dynasty.[34]

The settlement with the Ottomans enabled Morocco to deal with European problems without looking too much over its shoulders. Portugal was the arch enemy -both territorial and ideological. The demise of that country as an independent state as a result of the defeat by Morocco at Qaṣr al Kabīr removed a formidable, chivalrous and uncompromising enemy and stablises the Iberian front under the level-headed pragmatist Philip II of Spain. The intensity of Moroccan diplomacy in Spain since Ash-Shaykh seemed to assure Spain's policy makers that there was no immediate threat to Spain in

32. Yaḥyā, *Morocco in the Sixteenth Century*, pp. 4, 66 *Passim*.
33. BA-MD 48 86/31 13 Rajeb 990 (Aug. 1582).
34. Al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafā*, p. 118.

invasion also brought in many Turks and European renegades many of whom remained in Moroccan service.[28] Blacks had been recruited in large numbers for military purposes or menial labour over a period of time. All these groups brought along with them a variety of religous traditions enriching and diluting religious practice in Morocco and thus transforming the ideological outlook of the state and the society.[29]

An important consequence of the liberal policy was that the Moroccan government came to be dominated by people who had no understanding of Morocco's state ideology or little sympathy for it. At best they were preoccupied with their group or individual interests which might not necessarily conflict with the goals of the state ideology and, at worst, they were mercenaries in search of fortune. Correspondingly, the patriotic and zealous *ᶜulamā'*, the guardians of the ideological movement, were losing ground under diminishing influence. Both Aḥmed al Manṣūr and his father before him had contempt for the *ᶜulamā'* on the ground that they (the *ᶜulamā'*) had little exposure and no undertanding of the purposes of state. The wedge that was placed between state and society by the liberal policy was never completely removed.[30]

There is perhaps the need to draw a distinction between liberality and illiberality as conceived by the state ideology and the *ᶜulamā'*. There was illiberality to the detriment of the dignity of Islam such as when charges were raised against Al-Mutawakkil by ᶜAbd al-Malik's supporters for his plundering the Jewish *Mellāḥ* thus violating the rights of the portected minorities.[31] There was also liberality at the expense of Islam such as when he allied himself with a Christian power against Muslims. Moroccan liberal policy belonged to a third category which sought to advance state interest, although subtly, at the expense of the dignity and interest of Islam. The liberal policy was ambiguous. It did not make a clear demarcation between the contingency of statecraft and the deliberate intentions of ideological purity. The very learned and patriotic *ᶜulamā'* enjoyed state recognition but were marginalized from the real state power. In their place the foreigners became dominant.

The broad outlines of this new policy were based on ideological and pragmatic considerations. The first consideration appears to be quite naturally that the Moroccan state came to be, and must continue

28. BA-MD 30, 466/197. 5 Rabia 29. levvel 985 (18 Sept. 1577).

29. Yaḥyā, *Morocco in the Sixteenth Century*, pp. 181-2.

30. an Nāṣirī, *kitāb al-Istiqṣā*, pp. 70-80.

31. Yaḥyā, *Morocco in the Sixteenth Century*, pp. 83-4

Catholic monopoly of world trade and colonisation was being effectively challenged and Morocco provided a potentially convenient ally in the strategic calculations of the enemies of Spain.[26]

Morocco was thus faced with international developments it did not anticipate. England, France and the beleagued Low Countries were all in Morocco seeking strategic alliances against both the Portuguese and the Spanish seaborne empires. Spain became vulnerable and was forced to seek special relationship with Morocco, especially after the unification of Spain with Portugal, against not only the traditonal Ottoman threat but also against the new and more dangerous Protestant foes who presented a dangerous threat to the Spanish and Portuguese lines of communication in the Atlantic across which the wealth of the two empires was transported. Even the Most Catholic King of France, who belonged to the European club of "Have nots", was no less disagreable to Spain. Further pressure was also put on Morocco by the Ottomans through their Regency of Algiers for greater cooperation against the Christian enemies in the name of Islamic solidarity.[27]

The sum total impact of these developments on Moroccan political structure and ideological outlook was the initiation of a liberal policy in domestic politics and culture as well as in international relations and economics in a world of ideologically narrow nations and states. This had a permanent impact on the Moroccan state and society up to the present time. Morocco thus became a safe haven for European fugitives, renegades, pirates, adventurers as well as for the dispossessed Christians and Jews expelled from Spain. Foreign powers who were parties to the international conflict were represented by ambassadors and merchants as well as spies. Morocco accepted and accommodated them since they often proved to be useful in the calculation of Morocco's external relations, where they acted as advisers, informers and deterrants against external ambitions. Those of them who were skilled became invaluable in Morocco's civil and military services.

The influx of foreigners became more pronounced at different stages and for different reasons. It was noted that the Spanish *Reconquista* resulted in a great human tragedy by which a whole population of Muslims were forced to come to Morocco where they formed a distinct and influential military caste. ᶜAbd al-Malik's

26. Yaḥyā, *Morocco in the Sixteenth Century*, pp. 120-139.

27. Basbakanlik Arsivi Istabul, *Muhimme Defrer* (BA MD) 30, 467/197. 5 Rabiulevvel 985 (18 Sept. 1577). De Castries, *Les sources (d'Espagne)* I, 3, pp. 258-61. Yaḥyā, *Morocco in the Sixteenth Century, Passim,* p. 109.

flow of the Spanish bullion from the New World. Morocco's economy had additional problems of its own because of the one-sided nature of Morocco's trade with Christian states. ᶜAbd al-Malik had reasons to complain when his proposals to reverse this situation was opposed on the ground that no benefit would be derived from the presence of Muslim "infidel" traders in European ports.[22]

Another important factor which made Morocco dependent on its neighbours was the tragic lack of strategic natural resources such as wood. Wood, like petrol today, was crucial for the greatness of any nation in the sixteenth century when sea-faring was the only source of greatness of nations. Moroccan English diplomacy was principally aimed at securing wood, ship builders and skilled labour. Furthermore, Morocco shared with the rest of the *Dār al-Islām* the great misfortune of having an inadequate technology.[23] Even with unskilled manpower, Morocco had always faced problems because of its disabling lack of population.[24] That Moroccan coasts were sparsely populated made them easy for foreign occupation. For example, Al-Ghālib was forced to betray solidarity and engage in double-dealings in his relations with the beleagued Spanish Muslims and the government of Spain. He was said to have developed the habit of encouraging the Muslim minorities to rebel against the government and at the same time urge the government to expel them to Morocco on account of their rebellion. His goal was understood to have been the desire to increase the population of the Mediterranean coast of Morocco and utilise what over-skilled manpower he could find among the expelled Moriscos.[25]

As the new Moroccan state grew, external developments quite independent of Moroccan internal situation came to assume an important place in Moroccan internal politics and external relations. Nonetheless, it is valid to say that it was the geostrategic location of the country which made it assume, inspite of its relative weakness, the importance that other states of similar size did not attract. The political break-up of Europe in the sixteenth century introduced new dimensions in European diplomacy as much as the ensuing ecclesiastical divisions had reshaped, to a certain degree, the European ideological outlook. The breakdown of religious and political unity in Christendom unleashed an unprecedented economic rivalry between the Catholic and Protestant states. The Iberian

22. De Castries, *Les sources* (d'Espagne) I, 3, pp. 286-91.
23. Braudel, *The Mediterranean*, p. 187.
24. Anonymous, *Tārīkh al-dawlah*, pp. 36-7.
25. Anonymous, *Ibid.*, pp. 36-7.

In the domestic economy, ash-Shaykh brought radical changes to meet the demands of a larger and growing state. Heavy non-canonical taxes were introduced to replace the light taxes imposed by the *Sharī ᶜah*. Those classes of nobility and clerics who enjoyed exemption from taxation were made to pay the heavy new taxes. Ash-Shaykh had, even as a governor in the Sous, pursued an economic policy independent of the ideological preference of the Saᶜdi movement.[16] He pursued economic relationship with the Portuguese when they were not at war. He also welcomed other European merchants. He was reputed to have developed Moroccan sugar industry and to have increased production in order to meet European demands. He had received the assistance of many Christian captives in his industrial and military policies.[17]

While ash-Shaykh's career marked a turning point in the role of ideology in Morocco's state policy, the circumstances of his death indicated the extent beyond which pragmatism could not be carried.[18] Thus, Al-Ghālib tried to review the policy of his predecessor and to reinstate Islam in its pragmatist rather than its dogmatic perspective though. The *ᶜulamā'* were symbolically reinstated in their influencial position. Some of them were allowed to enjoy a certain degree of influencial judicial authority within the confines of their *zāwiyas*.[19] The *rapprochement* between the dynasty, and the *ᶜulamā'* restored the grassroot support the dynasty had lost and the Sharīf was, on the other hand, raised to a spiritual position to put a seal on this marriage of convenience. This *rapprochement* did present the dynasty, in public perception, as worth defending since it was seen to have remained faithful to Islam as a mass ideology.

There were, however, other practical factors inherent in the structure of the Moroccan state which made pragmatism in Morocco's external relations necessary and its application inevitable. The major factor was, of course, the chronic poverty of the Moroccan state which Aḥmed al Manṣūr was forced to decry later in the life of the dynasty.[20] The sixteenth century, Braudel has observed,[21] witnessed the collapse of the economy of major world powers as a result of the

16. Cenival, *Chronique de Santa Cruz*, p.18.

17. Berthier, P., *Les anciennes sucreries du Maroc*, Rabat, 1966, pp. 221-65. Marmol y Carvajal, L. del, *L'Afrique de Marmol*, Paris, 1665, p. 353.

18. Yaḥyā, *Morocco in the Sixteenth Century*.

19. an Nāṣirī, *kitāb al-Istiqṣā*, pp. 47-8.

20. Al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafā*, p. 118.

21. Braudel, F., *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philipe II*, London,1972, vol. I, pp. 493-95.

carried with it the demand for a stronger economy and a more powerful military. These demands began to make themselves felt on the Moroccan policy makers who saw the need to dispense with familiar values and old grounds of arguments. The original idealism of the dynasty was gradually compromised.[11]

The first casuality of the new realities was, of course, the southern *ᶜulamā* who gave the society its original inspiration. After the incorporation of the cosmopolitan northern regions of the country under Saᶜdi rule, ash-Shaykh had this to say about the Sous and its *ᶜulamā'* . "I found their jurisconsults are weak in arguments, their ordinary people very haughty and the generality of the populace spiteful and wicked".[12] Islamic solidarity, which disapproved of intra-Muslim conflicts became, in both its internal and external dimensions, the second casuality. The third casuality was the hard line policy towards Christendom. Accordingly, Ash-Shaykh embarked on policies that reshaped the dynasty drastically. On the domestic front he quickly established a single command in the power structure of the country by eliminating all sections of the Saᶜdi family that were likely to constitute a threat to his rule. He thus destroyed the idea of family solidarity. He also quickly conquered the rest of the country ousting the Wattasids and taking over the important northern capital of Fez. This caused the *ᶜulamā'* some pains since ash-Shaykh's action violated the treaty they brokered between the warring Muslims in order to prevent the shedding of Muslim blood.[13]

In external relations, he reversed the traditional anti-Iberian policy and suggested an anti-Ottoman Spanish-Moroccan alliance instead.[14] He proceeded and attacked the Ottomans whom he believed had constituted a real danger to the Saᶜdis. In the process he introduced a new dimension to the Saᶜdi ideology. He perceived the Ottomans from a racist perspective. He believed they should be thrown out of the Maghrib, Egypt and the Holy Lands of Ḥijāz.[15]

---

11. Yaḥyā, D. *Morocco in the Sixteenth Century : Problems and Patterns in African Foreign Policy*, Harlow, 1981 pp.16-17.

12. Bibliothèque Nationale et Archives, Rabat (BN&A) (Rabat), Ms. J. 1059 vol.9.

13. Yaḥyā, *Morocco in the Sixteenth Century*, p. 9.

14. De Castries, H. et al. (ed.) *Les sources inédites de l'histoire du Maroc 1530 à 1845,* Première Série, Dynastie Saadienne. (1550-1660), Archives et Bibliothèques d'Espagne, 1, I, pp. 245-50.

15. an Nāṣirī, *Kitāb al-Istiqṣā*, pp. 31-2.

The conflict between these two tendencies dominated the entire history of the Sacdi dynasty. The Islamic idealists, that is the *culamā'*, had naturally greater control over the grassroot population whose commitment to popular and revolutionary Islam was unshaken. The *culamā'* derived their influence as much from the grassroots as their legitimacy from Islam. The Sacdi dynasty was brought to power by the very forces that these elements represented and continued to rely on them in times of adversity as it will be shown below. However, the Sacdi rulers were not themselves always faithful to these forces since the forces often constituted, in certain times, serious obstacles to state policies by their strict adherence to ideological purity. The *culamā* insisted not only on guiding the state but also on sharing power with the "secular" leadership.[8] What the *culamā* stood for were certainly at variance with Sacdi dynastic interests and the conduct of the practical issues of the state.

The reliance of the first Sacdi rulers on the zealous grassroot population was often given as partly responsible for the early success of the Sacdis against the Portuguese in Southern Morocco-the birthplace of the revolutionary movement. The break with the source of Sacdi power at the time of ash-Shaykh's conflict with the *culamā'* of the Sous shook the dynasty. It was only cAbdallah al-Ghālib's (1557-74) *rapprochement* with the *culamā'* which reinforced the domestic base of the dynasty.[9] When the *culamā* withdrew their support from Muḥammad al-Mutawakkil (1574-6) on account of his alliance with Portugal, cAbd al-Malik (1576-8) was able to mobilise the country on his side. Even Aḥmad al-Manṣūr (1578-1603) needed the *culamā* to endorse his plans for the invasion of the Sudan.[10]

By the beginning of the second half the sixteenth century new realities began to manifest themselves as regards the Moroccan state. Morocco now became an organized state with which relations were sought by other states - Muslim and non-Muslim alike. This gave rise to the need to consolidate and strengthen the entire Moroccan state under one unified dynasty with a single command. Consolidation

8. Anonymous, *Tarikh al-dawla as Sacdiyyah al-Takamdar iyyah*, Rabat, 1934. pp. 9-15 ; an-Nāṣirī, *Kitāb al Istiqṣā*, pp.13-22 ; R. le Tourneau,"La naissance du pouvoir Sacdien, *Al Andalus*, 18, 1953, pp. 271-94.

9. Al-Marrākushī, cA.I. *Al-Iclām bi man ḥalla bi-Marrākush wa Aghmāt min al-aclām* Fez, 1956 vol. II p. 23. al-Yufrānī, *Nuzhat al-hādī*, pp. 84-9 ; an-Nāsirī, *Kitāb al-Istiqsā*, pp.47-48.

10. Al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafā*, p. 126.

littoral.[6] Internally, the country was pacified and the Saᶜdi gains consolidated.

No sooner had these achievements been recorded than the contradictions inherent in the application of all ideologies began to manifest themselves. So many questions began to arise which needed immediate answers. The first question to arise as early as the time of Muḥammad ash-Shaykh (1555-7) concerned the validity, from islamic perspective, of incorporating the Sudan into the Moroccan state and of throwing out the non-Arab, but Muslim, Ottomans from the "Arabland" of the *Maghrib*. -The European question-was certainly the most disturbing one. How should economics and Christian - dominated international commerce be treated under the understandably hostile and belligerent Moroccan state ideology ? Finally, who were, with regards to these fundamental questions, the real interpreters and guardians of the state ideology ? Was it the state or was it the *ᶜulamā'*? In other words who were the true custodians of the state ideology ?

The pragmatist tendency of the political practitioners came to encroach upon the idealistic *ᶜulama* whose perception of Islamic solidarity appeared to preclude the possibility of a state policy that would undermine that solidarity. For the pragmatists, the Sudan offered unending possibilities for economic and political expansion on the one hand, and the Ottomans constituted serious political threat on the other. For the Islamists, the Sudan, though militarily weak, had its inhabitants which were even more pious than the Moroccans. To attack them therefore would betray the concept of Islamic solidarity. They also perceived the militarily powerful Ottoman state as a natural ally against Christendom in general and the Iberian state in particular. And again for the pragmatists, Christendom promised economic prosperity in terms of trade, industrial development and technology. In fact they believed Europe held the key to political and military power.

The Islamic ideologues, however, could not miss the underlined threat to Morocco of a European policy as a source of corruption, colonialism and capitulation. In their view Europe represented a total danger to Islam in general and to Morocco in particular.[7]

---

6. Diego de Torrea, *Relación del origan y successo de los xarifes y del catado de los Reignos de Marrueccos*, Sevilla, 1586, pp.46-69 ; P. de Cenival (trans.) *Chronique de Santa Cruz du Cap de Gue (Agadir)*, Paris, 1934, pp.16-18.

7. an-Nāṣirī, *Kitāb al-Istiqṣā*. pp. 70-80.

epistles may be cited in support of these notions, especially with regards to Morocco's relations with Christendom.[3]

The second factor has to do with the Moroccan perception of ideology within the wider Islamic perception of ideology, its militant outfit and its role in external relations and state policy. The geostrategic, political and social circumstances of the Moroccan state made ideology -or to be precise, the use of it- assume a high premium as an instrument for the achievement of certain goals. It provided and fulfilled certain necessary psychological needs of the population whose pride was injured, in a historical sense, by the occupation of their territories by their hostile non-Muslim neighbours whom they had once ruled. It thus provided the means to unite them behind a political movement aimed at liberating them, and which helped to create a strong state and to impose obedience to an effective central autority.[4]

The mission of this state, as ideologically perceived, was first and foremost to confront the Iberian states across the strait of Gibraltar in order to recover the Moroccan territories they occupied and ultimately reverse the *reconquista*.[5] Any revision of this mission was considered by Moroccan public opinion, reshaped by revolutionary zeal, as a deviation from the reasons for which the Sacdi dynasty was established. Guided by the *culāmā'*, the public opinion could be very strong and effective.

Islam, as the basis for the political and socio-economic system of Morocco and as an instrument for its internal mobilisation and the corner stone of its foreign policy, became firmly established in the minds of the populace. This made possible the initial success of the revolution based on Islamic ideology. With the Sacdi state for all practical purposes formed within a defined territory, recognised leadership and well articulated fundamental objectives of state policy, the Portuguese were quickly expelled from some of the most important outposts they had occupied on the Moroccan Atlantic

---

3. Nāṣirī, A.S. an-, *Kitāb al-Istiqṣā' li akhbār duwal al-Maghrib al-Aqṣā*, Casablanca, 1955 vol.V, pp. 70-80 ; Boxer, *The Portuguese Seaborne Empire, Passim.*

4. al-Yifrānī M.S. al-, *Nuzhat al-hādī fī akhbār mulūk al-qarn al-ḥādī '*, Paris, 1888 pp. 19 -23. an-Nāṣirī, *Kitab al-Istiqṣā*, p. 8.

5. Braudel, F., "Les espagnols et L'Afrique du Nord de 1492 à 1577", *Revue Africaine*, 1928, pp. 184-233, 351-450. Laroui, A. *L'histoire du Maghreb : un essai de synthèse*, Paris, 1970, pp. 229-32.

The Ideological Framework of Sa^c^di Foreign Policy

Dahiro Yahya
Bayero University, Kano

Two factors seem to have formed the ideological framework of Moroccan external relations under the Sa^c^di dynasty (1509-1603). The first factor was the universal norm which had established the international ideological framework. This norm was subscribed and accepted in both christian *(Corpus Christianum)* and Islamic (Dār al-Islām) ideological *blocs*. It was endorsed by the respective religions of the two blocs : Christianity and Islam. This ideological norm was built upon a number of notions. In the first place, the confrontation between the two ideological *blocs* was presented by the precepts of both religions as necessary and inevitable. From this, derived the idea that reconquest of occupied territories in Iberia and the holy lands of Palestine and expansion into the territories of the other *bloc* was a duty that must be discharged at the earliest opportunity. In fact expansionism, which formed the basis of the modern policy of colonialism and imperialism, was considered as a religious obligation.[1]

In the same vein, each ideological *bloc* was supposed to safeguard its territorial and ideological integrity regardless of the confessional or political differences existing within the *bloc*. These notions were popularised in literature, supported by law and promoted by secular and religious leaders.[2] Several examples of papal bulls, *fatwās* by the *^c^ulamā'*, political tracts and religious

1. C.R. Beazley, "Prince Henry of Portugal and the African Crusade", *African Historical Review*, XVI, 1901-11, pp. 20-3 ; Al-Fishtālī, 'A. al-, *Manāhil aṣ-Ṣafā fi ma'āthir mawālīnā ash-Shurafā'*, (ed.) K. Kriem, Rabat, 1974.

2. C.R. Boxer, *The Portuguese Seaborne Empire 1415-1825*, London, 1969. pp. 20-3.

3. Epilogue

The competition for the *bay^c^a* set off a kind of Muslim "scramble for Africa" in which even the smallest principality had to be canvassed and secured.[58] For the charismatic leader, success is the justification of any audacity -for Aḥmad al-Manṣūr, success fell just beyond his grasp. Out of the trodden mass of a suffering people, drought, famine and plague inflicted their terrible vengence and wrested from the sharifian clutch its moment of triumph. Ironically, the conquest of Timbuktu became a catalyst for contagion -heightened the sense of *fin des temps* which had companioned sharifian ascendance.[59] Again, in this climate of uncertainty, the faithful began to shift from one bond of allegiance to another. The rebel, Abū Maḥallī, put claim to the Mahdiyya and sought the *bay^c^a* on the strength of this distinction.[60] And, as the population to snuff out the last obedience, the dark cloud of *fitna* began to snuff out the last signs of sharifian invincibility and sink allegiance to its lowest value. Aḥmad al-Manṣūr ad-Dhahbī had by-passed every warning of his *Shūrā* -trumpeted the superiority of Moroccan muskets over the anachronistic weaponry of his Songhay foes. In the ultimate, fate could be reckoned no ally- sharifian muskets were no match for the horrors of hunger and disease. Though the Mahdist revolt was put down harshly, in retrospect, the advice of the *Shūrā* reads like an epitaph to Mansurian rule.

58. It is remarkable that not a trace of Ottoman comment on the conquest of the Sudan has surfaced -not even a *fatwa* on the subject. Could there have been an attempt to erase this embarassment from the collective memory ?

59. Willis, "Morocco and the Western Sudan", p. 94.

60. *Ibid.*, p. 96. The career of Abū Maḥallī is discussed in chapters 57-60 of al-Wafrānī's, *Nuzhat al-Hādī*.

the lack of prosperity and brought fully into counsels of state.[55] Aḥmad al-Manṣūr had conferred upon them the sugar concession -an unusual gesture, but one well within the limits of *'iqṭā^c*. It was a concession sustained on the sinews of Sudanese labor (though apparently of slaves of non-Songhay origin). Again, the Jews had weathered the storm of opposition to their elevated status, suggested most notably in their monopoly of trans-Saharan trade (especially from the Sus) in slaves and salt and their pre-eminence in the trade and manufacture of gold. It is the latter preoccupations that seize our attention.

There is considerable evidence to suggest that the Jews had been ousted from Songhay and uprooted from their favored position as brokers in the trade.[56] Hostility in the Sudan was echoed in the Sus where a series of pogroms against the Jews had, for a time, loosened their hold on that region. Was the attack on Songhay an attempt to maintain this enmity in good repairs - was the Sudan initiative the triumph of Jewish influence on the Moroccan sharif ? It is a dimension of the controversy that might have darkened their counsel- one difficult to decipher with complete certainty, yet one worthy of further consideration. From the time of Askia al-Ḥājj Muḥammad, (1493-1528) the supply of slaves to Morocco had been cut sharply and allowed to run dry.[57] Thus the fall of Songhay not only promised direct access and control of the Sudan's fabled gold, but also a renewed source of slave labor for the faltering sugar "plantations". Finally, there can be no doubt that the continued high standing of the Banū Isrā'īl in the counsels of state divided the loyalties of the *^culamā'* concerned to protect their interests.

55. Willis, "Morocco and the Western Sudan", p. 96 (note 5); cf. Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, (index, "Jews") ; Dramani-Issifou, pp. 38, 40 & 71.

56. This point is taken up in J.O. Hunwick, "Al-Maghili and the Jews of Tuwat. The Demise of a Community", *Studia Islamica*, p. 162, note 26 (see also, pp. 179 & 180), which is to be compared with an earlier analysis in Dramani-Issoufou (p. 39 & 11, where it is argued that the expulsion was contested and revoked). The original source for the explulsion is Leo Africanus, *Description de l'Afrique* (2 vols., translated by A. Epaulard), Paris, 1956 (p. 468) : "Ce roi est ennemi déclaré des Juifs. Il ne veut pas qu'aucun habite la ville. S'il entend dire qu'un marchand de Berbérie les fréquente ou fait du commerce avec eux, on confisque ses biens". The Hakluyt Leo says emphatically that the Jews were expelled and did not return until 1858 ("when the late Rabbi Mordokhai Abi Serour, of Akka, succeeded in gaining permission to reside and trade in the city", Beaumier, *Bull. de la Soc. Geog* ; Paris, April - Mauy, 1870).

57 Dramani-Issifou, *L'Afrique Noire*, p. 71. (See also, p. 41, where this contention is put forth as an hypothesis).

qurayshite leadership. This unity ... 'was only possible now that the Sun of [Aḥmad al-Manṣūr's] Prophetic, Imamic, Hashimite, and ᶜAlid Calipahte had risen. [And] ... since Aḥmad al-Manṣūr had been invested with leadership over the Islamic community... and the responsibility to inherit 'the Earth and all that is on it', it had become his duty to unite the community and to defend it more effectively, in order to protect (the light of) Islam to preserve and uphold the Shariᶜah everywhere.[52]

What we confront here is not a justification based on Islamic law, but an appeal to Mahdist sentiments. The Messianic vocabulary is all too pregnant -allusions to the "Hashemite and ᶜAlid Caliphate, at a stroke, establishes an overmastery of Sunnī and Shīᶜī expectations in anticipation of the year 1000 (1591). The mission of the Mahdī is to inherit "the Earth and all that is on it" ; the allegiance of the faithful is solicited on apocalyptic terms.[53] Not content to assign his muftis with the brief of a legal opinion in his favor, the Moroccan sharif transcends the bounds of legal contraint and sends forth a *fatwā* from his own emboldened hand. He embraces the mantle of the *Imām* al-Muntaḍar -the Shiᶜite *Imām* of the "Twelver" community. It is Napoleon crowning himself in the presence of the pope- the *Shūrā* convoked to witness a startling manifestation of trans-terrestrial power.

Yet the decision to attack the Sudan remained an unpopular and fratricidal affair fraught with all the negative symbolism that staked one Muslim faction against another -a proud conceit that possessed the Sharifian's imagination, and one funnelled from a surprising direction. It is startling to consider that in so cold a climate of general opinion that Aḥmad al-Manṣūr would have pressed this initiative. Though little has been said on the precise make-up of his *Shūrā* and the nature of its deliberations, it is known that the Moroccan sovereign retained a coterie of advisors from the Banū-Isrā'īl whose counsel may have stood in opposition to the *Shūrā* and nourished his extraordinary pretensions. At the moment of the Sudan initiative, the Banu Isrā'īl stood high in sharifian favor, hoisted to the surface by

---

52. Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, p. 157.

53. Willis, "Morocco and the Western Sudan", pp. 92 *sq*.

54. Al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafā*, p. 126. See also Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, p. 157. I am indebted to Professor Yahya for this interpretation of the *fatwā*.

But yet again the matter came to turn on the question of obedience, as Aḥmad al-Manṣūr sought to revive the fading notion of the universal caliphate. It was a notion that Askia Muḥammad, returned from the ḥajj and under the sign of eastern influences, had seized for himself.[50] It was a notion that became the central prize in these battles of the *bayᶜa* fought out so bitterly on doctrinal grounds.

As Professor Yahya and other historians of the period have carefully pointed out, Aḥmad al-Manṣūr was confronted with severe difficulty in his efforts to convince the Moroccan *Shūrā* that seizure of the salt mines (and the lucrative gold resources of the Sudan) could be justified on legal terms.[51] It was an effort that extended over a long period (beginning in 1577) and did not cease until the conquest of the Sudan. The argument could not be sustained on the principles of *'iqṭāᶜ* (concession) or *'iḥyā'* (vivification). Since Songhay was a "land of Islam" and under the sway of a Muslim sovereign, the principle of *iqṭāᶜ*, in which concessions to the mines, their management, and, especially, the collection of appropriate taxes (under the laws of *iqṭāᶜ*) could not be invoked. Nor could the sharif argue with any degree of plausibility that the mines had not been "brought to life (the principle of "vivification") or that they had been allowed to "go dry" and fall into disuetude. The mines were a cornerstone of Songhay economic policy and administered in accordance with the requirements of Muslim law. Professor Yahya summarizes succinctly the issue that had become joined so heatedly :

> In order to obtain a mandate to invade the Sudan, Ahmad al-Mansur called a consultative assembly [*majlis al-shūra*] of people 'who could tie and untie', people with insight and experience and those who were well-informed...' He told them that it was precisely because he respected the injunctions of Islam that, in accordance with the tradition, he had sent for them for consultation. He issued a fatwa (legal opinion) in which he enumerated his justifications for the invasion of the Sudan. First on the list was the need to bring about the unity of Islam under his

---

was not subject to the monopolistic pressure of Muslim political authorities". *Cf.* Yahya, *Morocco, in the Sixteenth Century*, pp. 155, 177, who holds a generally high view of the importance of gold, and Dramani-Issifou, *L'Afrique Noire*, pp. 99,107, who keys down the importance of gold.

50. Maḥmūd al-Kaᶜti, *Tārīkh al-Fattāsh*, where the claims of Askia al-Ḥājj Muḥammad to the universal Caliphate are put forth in detail.

51. See note 49.

the one who had given the oath of allegiance, any refusal to render the responsabilities attendant on this duty was again regarded as an apostasy punishable by death.[44] In any case, this was the theory that draped darkly over the entire institution.

With regard to canonical allegiance, it can be argued that the fin de siècle marked the end of an expiring tradition as it spelled the dawn (1000/1591) of the apocalyptic era and the beginning of a prolonged period of drought, famine, and plague.[45] Still again, in Morocco's relations with the Sudan, resort to force opened up an old wound of hostility against the peoples of the south --subjected to peril the very independence of Songhay itself. As we shall recognize, attempts to place the salt and gold of Taghaza and Bambuk under the heel of the Moroccan sharif weakened internal stability, as the *Shūrā* stopped short of consensus on the matter of the Western Sudan.

2. The Conquest of the Sudan

The assaults on the Sudan strained the bonds of allegiance on both sides of the Sahara. Askia Muḥammad was deposed -debased in maelstrom of internal upheaval.[46] Not even the accession of *jinns* to his line of antecedents sufficed to stem the tide of revolt.[47] Aḥmad al-Manṣūr entered into a querrulous period with his *Shūrā* and the Moroccan *ᶜulamā'* as he sought to extend the province of his authority in a southward direction. As he caressed the cause of his ruin, the symptoms of disorder were all too apparent. The construction of *Badīᶜ* -the expenditures abroad- brought the Moroccan sovereign to the threshold of decline.[48] The thrust south -the envious eyes cast on the resources of the Sudan- was a desperate attempt to retrieve his position. Although in retrospect we may endow these actions with great significance, they were difficult to sustain in legal terms. In Muslim law the mines were "open to the sky", the wealth of believers dispensed under *zakāt*, and the possession of no one individual.[49]

---

44. *Ibid.*, p. 1113.

45. Willis, "Morocco and the Western Sudan", p. 95.

46. *Cf.* the contrasting accounts of these events in Dramani-Issifou, *L'Afrique Noire* and Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*.

47. Maḥmūd al-Kaᶜti, *Tārikh al-Fattāsh* (ed. and trans., O. Houdas), Paris, 1913 (see index, "Chamharouch").

48. Willis, "Morocco and the Western Sudan".

49. Al-Māwardī, *al-Aḥkām aṣ-Ṣulṭāniyya*, pp. 426 *sq* ; pp. 447 et *sq*. Claude Cahen, "*Iktaᶜ*", New E.I., pp. 1088-1091; A.S. Ehrenkreutz, "*Dhahab*" (gold), New E.I., p. 214. The latter says, "it seems that the exploitation of gold mines

rising out of an old dilemma. We are reminded of the *fatwā* proclaimed by the Imām Mālik b. Anas delivering the people from a *bayᶜa* whose fealty had not been drawn freely. (We know also of his persecution and imprisonment for this uncompromising position).[40]

What then, is left of the *bayᶜa* ? As we have recognized, even the earliest recollections of the *nādī* betray a ceremony the purpose of which was to confer sanction upon a dignity previously grasped -decisions on a new leader having been reached before the convocation of the *Shūrā* and prior to confirmation by the general populace.[41] But the *bayᶜa* had always been seen as a two-sided coin-a solemn contract in which each side retained obligations to the other. Viewed in this light, the conditions placed by al-Manṣūr on Bornu in return for the bayᶜa do not appear quite so extravagant. The *bayᶜa* was from Allah ("...accept the 'True Word'", says Aḥmad al-Manṣūr, "... swear allegiance ... submit to the Islamic call" made compulsory in all lands"). The *ᶜajam* could never stand level with the Arab. The Sharifian grasped firmly the reins of the caliphate with all the confidence shown in al-Fishtālī's account. Hence, the Mai of Bornu was called upon to "... wage the *jihād* wars against the infidels in the name of the Moroccan sharif.[42] Whatever jihad the Mai wished to wage, the rewards coming from it could not be complete without the blessing of the *Imam* of the *Jamāᶜa*". Though Professor Yahya insists rightly that any consent coming from Bornu must be voluntary, the fact that the document was drawn up in Morocco and not in Bornu would not necessarily invalidate its intentions. From the vantage ground of the Sharif (and presumably also from that of the Mai, had he seen fit to enter into it), the *bayᶜa* was a covenant -a quid pro quo (military aid in return for recognition and support of Saᶜdi claims). Yet, though a voluntary expression of allegiance, this *bayᶜa*, like all others of its kind, would have carried the usual consequences should it have been breached by one of the signatories. Yet again, Professor Yahya is correct to set the greatest store by the voluntary aspect -it is this feature that clings to the principle down through the ages when all else has vanished.[43] Once consummated, however, the old view held that mere sinfulness on the part of the caliph -even general injustice-was not sufficient to break the bonds of fealty. The "only sin is apostasy", remarked Muḥammad Ṭalbi, and this signal feature served to observe the brand of fealty impressed by the *bayᶜa*. Equally, for

---

40. Ibn Khaldūn, I, p. 429.

41. *Supra*, note 25.

42. Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, p. 149.

43. Tyan, "*Bayᶜa*", p. 1113.

It must be clear from all of this that the descent from caliphate to *mulk* ("kingdom") is now fully compassed -the elaboration of titles under the ᶜAbbasids is only a symptom of this malaise. The actual possession of power is now the necessary basis for authority and a sufficient justification. Indeed, by the beginning of the ninth century A.D., the *bay*ᶜ*a* had been stripped of all practical significance- not even the principle of election to the caliphate is stressed. The only surviving principle is the fact of a caliph becoming the vice-regent of Allah on earth, and not how he got there.[35] Still, the ritualistic aspects of the ceremony, especially in the Muslim West, retained a vestige of importance. Under the Fatimid Caliphate of Ifriqiyya (909-1135), the ceremony extended to several days, but since the caliph was now regarded as impeccable and infallible, the *bay*ᶜ*a* accorded to him gave full rein to the expression of homage, and in no way could be regarded as an election or designation of the sovereign.[36] Again, pragmatists, such as Ibn Khaldūn, found no difficulty in accepting an individual who was not the best in the community, nor the most intelligent, nor even the most pious, but he insisted that the *bay*ᶜ*a* should be rendered to someone whose appointment was in the best interest of the public at that time.[37] And he embraced the view that the caliphate itself was "*farḍ kifāya*"[38] - a community obligation, the ritual of which was satisfied when a sufficient number of believers came forth to consummate the appointment on behalf of the others, and not "*farḍ al-*ᶜ*yan*", an individual duty analogous to fasting, prayer, and pilgrimage.

Still again, as the movement towards *mulk* continued unabated, and the use of force became more and more common to secure the *bay*ᶜ*a*, this unsettling feature drove a wedge through scholarly opinion and divided the ᶜ*ulamā'* on the question of allegiance. Was the *bay*ᶜ*a* accorded to a corrupt or evil sovereign valid ? -were the people honor bound to follow the lead of one who had seized obedience by force ?[39] This, of course, remained a nettling question

35. A.K.S. Lambton, "Khalifa", (New E.I., pp. 937-953), p. 949.

36. *Ibid.*, p. 943.

37. Ibn Khaldūn, *Muqaddimah*, I, p. 387. Ka Ka kel, "bayᶜa", p. 234-236.

38. *Ibid.*, p. 436.

39. *Ibid.*, p. 435. Ibn Khaldūn considered anarchy and widespread blooshed an evil greater than administration by a wicked caliph. Still, the imamate could be forfeited only through apostasy or the failure of the *Imām* to provide for communal prayer (see Madelung, "*Imāma*", 1164), a confirmation of Talbi's view. (See also, *Qur'an*, III : 103 ; Lambton, "*Khalifa*", pp. 940 & 948 ; Tyan, "*Bay*ᶜ*a*, "p. 1114. Ka ᶜKa Khel, "*Shūrā* in Early Islam", p. 274).

Rightly-Guided One. Traditions were circulated broadly that "the Prophet [had] declared that the Mahdi among us is Muḥammad b. ᶜAbd Allāh. His mother is not one of us. He will fill the earth with justice even as it has been filled with injustice". On the occasion of the official ceremony marking his proclamation as heir, the poet who sang this praise appealed to the Caliph's brother, ᶜAbbās b. Muḥammad, to confirm this tradition. Fearing the consequences should he refuse ᶜAbbās is said to have complied with the request, and the Caliph Manṣūr, called upon those present to swear allegiance to Muḥammad the Mahdī.[31] Not content with this affirmation, the Caliph despatched an agent to launch a propaganda campaign on his son's behalf in the Hijāz, declaring that the signs in him were now evident.[32]

There is a fascinating sequel to this episode which lends weight to my earlier point on the importance of "Mahdist futures" in the touting of caliphal claims. Firm in his own position, the new Caliph, Muḥammad al-Mahdī, began at once to promote and enhance the prestige of his own son, Mūsā. Poets were pressed into service to recite eulogies in favor of Mūsā, notably the combatant in poetical campaigns, Bashshār b. Burd, whose verses surpassed the propaganda poetry of others of his kind and calling. Moreover, the Caliph initiated a carefully orchestrated course of education and administrative support for his son, assigning the best tutors (and presumably, "speech writers") to prepare his advance in esteem. Remarkably, the Caliph himself seems to have relinquished his position as 'Expected Deliverer', conferring this distinction on Mūsā al-Hādī. Indeed, new "traditions" were launched in orbit in order to exalt Mūsā in his new role, that of the expected Mahdī. Farouk Omar, in his "Politics and the Problem of Succession in the Early ᶜAbbasid Caliphate", has shown how successive ᶜAbbasids, in order to satisfy the hopes of the masses and dissuade them from joining messianic opposition movements (notably the Fatimid one, or any of a number of Iranian religio-political risings), bequeathed successively the role of 'deliverer' from caliph to successor. And he draws attention to the tendancy of these early caliphs to carry regal titles impregnated with messianic connotations.[33] The Saᶜdis embraced this policy from the infancy of their rule in the hopes of crowning their presence with an apocalyptic flourish.[34]

---

31. Farouk Omar, "... Succession in the Early ᶜAbbasi Caliphate", pp. 34 et *sq*.

32. *Ibid*., p. 36.

33. *Ibid*., p. 41.

34. Willis, "Morocco and the Western Sudan", p. 92.

and that he will obey him by executing all duties whether agreeable or disagreeable.[27]

Here, we are driven back to the factor of "binding and loosing". Again, Ibn Khaldūn likens the situation to a financial transaction -an agreement or contract in which someone has sold something (as it were, his rights in the supervision of his own affairs), and the other principal in this arrangement has purchased something- the right to take charge of the first person's affairs. Now what must be grasped are the binding rules and guidelines of the contract. The word *bayᶜa* was used for "oath of allegiance to the caliphs" and in the phrase, "*al-bayᶜa*", "declarations of loyalty in connection with the oath of allegiance". The caliphs exacted an oath when the contract was sworn and collected the declarations of loyalty from all the Muslims. This then was called "*aymān al-bayᶜa*", "declarations of loyalty in connection with the oath of allegiance".[28] The *bayᶜa* was, as a rule, obtained by very forceful argument, and even compulsion. Again, we rely on Professor Yahya's *Morocco in the Sixteenth Century* to illuminate this point. Following al-Fishtālī, Yahya reminds us that Saᶜdi power took rise in the Sus, and its pacification and the winning over of its people to the new regime became a matter of extreme urgency. To secure the *bayᶜa*, al-Manṣūr despatched agents to treat with the leaders of the Sus and exact their loyalty. The suggestion here is that strong forces were required to impress on the people the strength of the Saᶜdī claim, but that a little political canvassing of opinion in favor of the new regime was the real order of business.[29] I have shown elsewhere how the Saᶜdis touted their merits -their claims to sharifian eminence- their association with Mahdist notions linked to the year 1000/1591. This apocalyptic period, as we know, was cut short with the appearance of the plague, but capped with the invasion of the Sudan at the precise moment of messianic anticipation.[30]

It is a faint echo of ᶜAbbasid time -an attachment of sharifian claims to the universal caliphate. We are reminded of another Manṣūr, Abū Jaᶜfar (c. A.H.150), the son of a slave woman, who seized the caliphate and sought to secure its success in his own line and for his own son. It was during this time that the Ḥasanid branch put forth similar claims that Muḥammad b. ᶜAbd Allāh the Hassani, was the

26. *Sharaf* ("nobility").

27. Ibn Khaldun, *Muqaddimah*, I, p. 427 et seq.

28. *Ibid.*, p. 429.

29. Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, p. 98.

30. Willis, "Morocco and the Western Sudan", *Passim*.

that al-Manṣūr had just experienced a remarkable recovery) -nevertheless, the *Shūrā* was convened into an emergency session. "Theoretically", says Yaḥyā, "the Sharif could nominate anyone in the family to succeed him. However, Sa^{c}di practice made it normal to nominate the senior member of the ruling family."[24]

Between these two accounts, the death of ^{c}Umar and the momentary paralysis of al-Manṣūr, we stand at the crossroads of the evolution of the *Shūrā* and the bestowal of the *bay^{c}a*, its most solemn expression. By the 16th century, in Morocco and the Western Sudan (and indeed, throughout the Muslim world), succession had become an hereditary affair, and the *Shūrā* served largely, it would seem, to ratify a situation that was already well advanced in anticipation. Indeed, it is a situation that does not differ markedly from the proceedings of the *nādī*. Levi della Vida, indescribing the accession of ^{c}Umar, says that this *khalīfa* had "...assumed power de *facto* and the recognition which was at once given him by the majority of the Companions assured him the exercise of it in a way quite similar to that in which the nomination of the emir in the tribes took place who, as we know, was only firmly seated when the individual approval of the members of the tribe had been asked and obtained after he had effectively assumed power."[25] While the principle of *sharaf*[26] remains relatively constant, the presence of the military signals a shift in circumstances (or perhaps this is too harsh a pronoucement -intervention of the military, even in the period of the *Rāshidūn*, remains always a distinct possibility).

Yet again, between these two accounts, ^{c}Umar on his deathbed and the momentary paralysis of al-Manṣūr, deep changes had come over the nature of the caliphate and with those who had come to seize this distinction. Here, we pause to glimpse a closer look at the meaning of *bay^{c}a* and the elasticity given increasingly to this supreme act of allegiance. The *bay^{c}a* began life as a voluntary act of loyalty rendered by individuals placed in parity, the one with the other. Still, it retained all the qualities of a commercial transaction in which, according to Ibn Khaldūn,

> ... the person who renders the oath of allegiance[makes] a contract with his *amīr* that he surrenders supervision of his own affairs and those of the Muslims to him and that he will not contest his authority in any of those affairs,

24. Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century*, pp. 98 *sq*.
25. Levi della Vida, "Omar b. al-Khattab", p. 983 (*cf.* old E.I., pp. 982-984,).

What is compelling about the above description, which leaves no doubt as to the qualities of leadership anticipated in early Arab society, is that it prepares us also for the tension that was to erupt so violently during the ᶜAlid crisis and the conflict that was to beset relations between Arabs and later converts to Islam. It is a tension that we can sense at the heighth of the transition of power following the assassination of ᶜUmar and the hasty convocation of the *Shūrā* or elective council. Yet, whatever our feelings about this event- about the events subsequent to it which were to rent Islam into its Sunni and Shīᶜa expressions- whatever our sentiments about the accusations advanced against Ibn Isḥāq (so much Shiᶜite *dichtung* in Gibb's terse phrase), we can appreciate the lingering factor of blood in the shaping of Arab leadership.[21] Morocco's relations with the Sudan teemed with such associations flung at the *ᶜajam* in a bold effort to uphold sharifian hegemony and cloak their imperfections.[22] The situation of ᶜUthmān stands as a metaphor for the plight of the *ᶜAjam* echoing through the ages of Islam. It became the mission of every "court" poet to trumpet the merits of his patron and dispraise the character of his rivals. The *Manāhil* of al-Fishtālī, weighed down heavily by the impress of his patron's personality, must be read with this predilection in mind.

In his last instructions, the wounded caliph, ᶜUmar, is seen to commend any decision on his successor to the *Shūrā* -"should anything befall me", he said, "the affair is for these six persons". ᶜAlī is clothed with the attributes of perfection, a shading of the narrative that was to awaken doubts as to the reliability of this account and promote the impression of Ibn Isḥāq's pro-ᶜAlid sympathies. It is his family relationship to the Prophet that accords the final mark of esteem against ᶜUthmān's claims by marriage only. Several points of interest converge in this account. We notice that ᶜUmar is made to convoke the *Shūrā* under these unusual circumstances in order to appoint a successor.[23] He has a short list, but the matter rests with the *Shūrā*. We compare this account with the crisis that befell the Sharifian rulers when Aḥmad al-Manṣūr lay dangerously ill (1579) following the battle of the "Three Kings". According to Professor Yahya (here paraphrased), "when the new sharif .. lay dangerously ill... his council of men of religion and the military [that is, his shūrā] insisted that an heir apparent should be nominated so as to settle in advance the question of succession." (Professor Yaḥyā makes clear

21. Abbou, "... the appointment of the *Shūrā*", p. 82.

22. See *supra*, note 15.

23. Abbou, "... the appointment of the *Shūrā*, p. 82.

and Arab hegemony. It was a burden Aḥmad al-Manṣūr was careful to leave undisturbed.[15]

Now all of this serves to unravel some of the mystery surrounding the *Shūrā*, its composition and historical terms of reference. But there is another side of *Shūrā* that commands our attention. Arab traditions speak of a consultative body called the *nādī*[16], a sort of council of elders -an assembly of *ashrāf*.[17] At this stage of the *Jāhiliyya*[18], the Arabs were already closely knit in lineage and extended lineage associations. Each group was led by its own men of distinction, and the *nādī* seems to have concerned itself with points of common interest as well as matters of succession upon the death of one of its leaders. It is out of the deliberations of the *nādī* that we begin to see the nascent form of the *bay^{c}a* and other forms of "royal" allegiance. We are informed that qualified members met and decided upon the appointment of an elder to succeed the deceased and pledged their loyalty to him. At Mecca, a kind of *nādi* presided over the affairs of the Quraysh and their allies (*ḥulafā'*).[19] It is this consultative assembly that is often referred to as "*mala'*", a term that came to describe the governing body of the Jewish or Christian community living as *dimmis* among Muslims. Yet the decisions of the *nādī* or *mala'* were decrees and not laws, as it acted as a kind of executive assembly subject to the limitations imposed by ancient custom(*^{c}urf*). What impresses us about this body is that the accent was on seniority and that no one member seems to have stood above the others or exercised authority over his affiliates unless so delegated. Again, what these members shared with one another was what the Arabs call "*ḥilm*" -a quality opposed to *Jahl* (*jāhiliyya*) and, as Goldziher once observed, distinguished by a mixture of attributes which conferred upon those who possessed them, and who were *sayyid*, an incontestable moral authority. Hence, with Islam, the noble qualities of the *sayyid* -his manliness, his discretion (*ḥilm*), liberality, and command of language- merged with aspects of character ennobled by Muḥammad (patience, tolerance, slowness to punish).[20]

15. See the damning characterization by the Mufti of Fas perplexed as to the proper mode of address to the Askias of Songhay ("Ma langue s'embrouille à chercher les termes à employer vis-à-vis de cet homme [i.e., the Askia] qui n'a, par rapport à une Majesté molouyenne [the quality of the Sa^{c}dis], que le rang d'une esclave", al-Wafrānī (*Nuzhat al-Hādī*, p. 156).

16. Ka^{c}Ka Khel, "Legitimacy", p. 167, and "... Shura in Early Islam", p. 271.

17. Ashraf (shurufa' or descendents of Muhammad).

18. Jāhiliyya (age of "ignorance" preceeding the rise of Islam).

19. Ka^{c}Ka Khel, "... Shura in Early Islam", pp. 271 et seq.

20. *Ibid.*, p. 272. See also my "Hunting, Hawking, and Learning"

reflections of the submission owed to the Almighty and the custodians of His *sharīᶜa*. The *bayᶜa* could be effected only through a close consultation with the "*ahl al-ḥall wal-ᶜaqd*"[11] that is, the people who possessed the power to "bind and to loosen" what Allah had enshrined in the principles of Islam. The origin of the *Shūrā* (consultative assembly) is an object lesson in how the new covenant of Islam began to edge out and subsume some of the traditions of the *Jāhiliyya*. The notion itself is embedded deeply in old Semitic practice such as we find in the Talmuds where the Jews are granted the power to bind and loosen in matters of religious conduct, and in the new covenant of chritianity, where the early apostles are promised that what they bind on earth shall be bound in heaven, and what they loosen on earth shall be unyoked in the after realm.[12] Qur'ān affirms that Allah had agreed to ratify what was consumated by Muḥammad, hence the extension of that side of the agreement to his Companions and their successors (*khulafā'* : caliphs).[13] One should hasten to add that under all these covenants, the power to bind and unbind included the authority to decide, "yea or nay", upon the candidacy of new aspirants to the community, as well as upon what terms they should be admitted. This was a matter of grave consequence in early Islam, and we know that Muḥammad and his closest Companions pronounced on the merits of new converts and established a priority among them according to the order of conversion and migration. Moreover, it has come down to us that the Companions themselves were classified in twelve grades on this order of merit.[14] Thus, priority of conversion -pride of place in Islam- became the yoke borne by the *ᶜajam* (non-Arabs) of all nations within the context of Quraysh

11. "*Ahl al-Ḥall wa l-ᶜAkd*", New E.I., pp. 263-264 ; KaᶜKa Khel, "Legitimacy", pp. 168 & 177. J. K, Mozley, "Binding and Loosing", *The Encyclopedia of Religion and Ethics*, pp. 618-621. Aḥmad Hasan, "*Ijmāᶜ*", p. 139.

12. Mozley, "Binding", p. 619.

13. KaᶜKa Khel, "Legitimacy", citing Sura XXIV : 40, and III : 110 ; 159; XIII : 38. See also, W. Madelung, "*Imāma*", (New E.I.), pp. 1163-1169, (p. 1165), where it is stressed that views concerning the number of electors necessary ranged from one to a "generality (*jumhūr*)", and that the obligation was *farḍ al-kifāya* (a general duty), and not *farḍ al-ᶜain* (individual duty). The point here is that the ritual be consummated by one person (the liberal view) acting on behalf of the entire community.

14. Abbott, "... The appointment of the *Shūrā*", p. 85.

within the frame of doctrinal justifications and the culminating military engagements sanctioned by legal opinions (*fatāwī*).[9]

1. The Bay^c^a in Islam

The decision to seize the salt mines of Taghaza and annex the gold of Songhay appears on first sight a collective one. The same can be said of the spectacular campaign that culminated in the conquest of Songhay itself. "On first sight", because Aḥmad al-Manṣūr employed every engine at his disposal to convey the impression that these actions had their ancestry in careful consultation (*shūrā*) with his leading men and recourse to legal texts which underscored their doctrinal justification. He sought at every turn to secure the *bay^c^a* (allegiance) of Sudanic sovereigns whose influence and military support might have a bearing on the outcome. Legal opinions (*fatāwī*) served as the text of his ideology, and the context, as will be seen from several contributions to this volume, was at once regional (political uncertainty on both sides of the Mediterranean), international (instability of relations with Europe and the Ottoman East), internal (a recurrent need to establish definitively his authority in the two "Kingdoms" of Morocco), and, in the ultimate, financial (a state treasury increasingly encumbered), but there was also a "sub-text" -a hidden agenda- which served as the motive force for Mansurian policy on all these levels of activity in a period of unparalleled apocalyptic expectations. Indeed, on closer inspection, the *shūrā* he sought did not always coincide with his intentions, and the *bay^c^a* on which he set such high store brought the indignation of his neighbors to a flame. Hence, it was within the comfort of his "hidden agenda" -its messianic anticipations, its reliance upon Mahdist allusions- that Aḥmad al-Manṣūr sought to crest his fame and hedge the security of his future ambitions.[10]

Bay^c^a and *shūrā* are two notions linked closely in the early history of Islam. *Bay^c^a* came to be rooted in the principle that obedience and allegiance to a Muslim sovereign were the mirrored

---

9. Al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafa* (p. 126 et seq.) ; Yahya, *Morocco* (p. 157). Al-Wafrānī, *Nuzhat al-Hādī* (pp. 160 et seq.), makes clear that the Sudan was a land of Islam, and makes explicit the *Shura's* reluctance to sanction the invasion.

10. Willis, "Morocco and the Western Sudan" ; Mercedes Garcia-Arenal, "Mahdī, Murābiṭ, Sharīf : L'avènement de la Dynastie Sa^c^dienne", *Studia Islamica*, 1989/90, p.85, traces the rise of the dynasty within the context of "Mahdist" expectations, but especially, as an anti Banū Ma^c^qil (Arabs who "cut the roads and oppress the people") movement (*jihād*).

central lands of Islam, the contest over allegiance came to be fought on increasingly disputed ground, and a veritable Muslim "scramble for Africa" took place in which the Sharifian claims of the Sa^{c}dian dynasty brought challenge to the Sublime Porte.[4] Finally, I press forward the view that the importance of the year 1000/1591 (the apocalyptic year in Muslim eschatology and the precise moment of Morocco's conquest of the Western Sudan) must be weighed heavily in the scale of events leading up to the invasion of Songhay.[5]

The claim to illustrious ancestors afforded the Sa^{c}dids a special entry into "high stakes"[6] of allegiance. From their very primacy, Sa^{c}did rulers trumpeted their descent from Quraysh (the Prophet's line) as a reproach to rivals in the Maghrib and the Ottoman east and a lash over the heads of Sudanic rulers who had gone over to Islam. Ancient pronouncements were revived in their favor : "the Quraysh are the heads of this government","the imams are Quraysh" ; "the power will remain with the Quraysh so long as two Muslims exist" ; "the caliphate remains in the Quraysh" ; "the *bay^{c}a* is to the Quraysh".[7] Sa^{c}di pretentions over the gold and salt mines of the Western Sudan were launched in the same spirit.[8] What is instructive about these "battles over *bay^{c}a*"is that the discource was pursued

4. This theme is taken up in Zakari Dramani-Issifou's *L'Afrique Noire dans les Relations Internationales au XVIè Siècle* , Paris, 1982 ; *cf.* B.G. Martin, "Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1576-1578", *International Journal of Middle Eastern Studies*, 3, 1972, pp. 471-490, and Dahiru Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century* Harlow, 1981, the most eloquent statement on this period.

5. See my "Morocco and the Western Sudan : Fin de Siècle - Fin des Temps. Some Aspects of Religion and Culture to 1600", *The Maghreb Review* , Vol. 14, nos. 1-2, 1989, pp. 91-94.

6. "The official view" is to be found in ^{c}Abd al-Azīz al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafā fī ma'āthir mawālinā al-shurafā'*, (., K. Kuriem, ed. Rabat, 1974). See also, al-Wafrānī, *Nuzhat al-Hādī*. (pp. 155 *sq.*)

7. H. Lammens, "Kuraish" (Old E.I. , pp. 1122-1124), and Abbott, "... the appointment of the *Shura*", ("...this affair is not fitting for those ... freed nor for the sons of those freed nor for those who migrated after the victory". (p. 82). See also, A. J. Wensinck, A *Handbook of Early Muhammadan Tradition*, Leiden, 1960, references under "Kuraish" and "Imams". Ka^{c}Ka Khel, "Legitimacy", p. 170.

8. See al-Fishtālī, *Manāhil aṣ-Ṣafā* (p. 120) ; *cf.* Yahya, *Morocco* (pp. 152-155), and Dramani-Issifou (index, "sel") ; al-Wafrānī, *Nuzhat al-Hādī* (p. 155).

dynasty was to be reckoned in the value of its loyalists. I take a wider view of the question of *bay*^{c}*a*[2], choosing to view this specific and most exalted form of "fealty" as a microcosm of something that became quite sought after and hotly contested, not only in the Maghrib and the Western Sudan, but in the wider Muslim world itself. As various regimes began to distance themselves from the practice of the early community, succession to power came to rest on the orchestration of public opinion well in advance of the change in rulers. We see the rise of what might be called "Islamic futures", wherein the heir apparent or his rivals are viewed on the level of princely "commodities" floated on a wave of speculation in which "investors" risk their loyalty on the chance of caliphal success. And as the candidate is touted and his merits promoted broadly, we see attempts to"corner the market" on charisma and eliminate the competition. Again, as the trend towards mulk continued, we witness a sharp upturn in the "bonds and shares" of loyalty as the attention of investors shifts to messianic movements launched in favor of one claimant or another.[3] Indeed, as we shall recognize, beyond the

2. The *bay*^{c}*a* and its associated themes in institutions (*shūrā* and *majlis*) have remained neglected themes in historical research, but see, on the hierarchy of personal obedience, Claude Cahen, Ikta^{c}, (New E.I. 1088-1091), p. 1090 ; *Nadwat al-bay*^{c}*a wa l-khilāfa fī' al-Islam* (Kingdom of Morocco, 3 vols, September, 1985).

E. Tyan, "*Bay*^{c}*a*", New E.I. pp. 1113-1114 ; Abu'l-Ḥasan ^{c}Ali al- Māwardī, *al Aḥkām al-Sulṭāniyya* (edited and translated by E. Fagnan, *Les Statuts Gouvernementaux*, Alger, 1915 ; Farouk Omar, "Politics and the Problem of Succession in the Early ^{c}Abbasid Caliphate 132/750-158/775", *Islamic Quarterly*, pp. 31-49 ; Muhammad Nazeer Ka^{c}Ka Khel, "The Conceptual and Institutional Development of Shura in Early Islam", *Islamic Studies*, Vol. Six, Spring 1980, no.1, pp. 271-282 ; and, "Legitimacy of Authority in Islam", *Islamic Studies*, Vol. XIX, Autumn 1980, n°. 3, pp. 167-182 ; and, "*Bay*^{c}*a* and its Political Role in the Early Islamic State", *Islamic Studies* Vol. XX, Spring 1981, n° 1, pp. 227-238 ; Nabia Abbott, *Studies in Arabic Papyri* (vol. I, Historical Texts, see document 6 on the assassination of ^{c}Umar and the appointment of the *Shura*), Chicago, 1957 ; M.J. Kister, "Notes on an Account of the *Shura* Appointed by ^{c}Umar b. al-Khaṭṭāb", *Journal of Semitic Studies*, Vol. IX Jan; - Dec. 1964, pp. 320-326 ; Aḥmad Ḥasan, "The political Role of *Ijmā*^{c}", *Islamic Studies*, (vol. VIII, June 1969, n° 2, pp. 135-150 ; "*Madjlis al-Shūrā*", *New E.I.* ; Franz Rosenthal, editor and translator, Ibn Khaldūn, *Muqaddimah*, 3 vols., New York, 1958, see index) ; Al-Ifrānī (Wafrani, Yufrani), *Nuzhat al-hādī fī akhbār mulūk al-qarn al-ḥādī*, Arabic text and French translation, O. Houdas, Paris, 1888-1889, 2 vols.; ^{c}Uthmān b. Fūdī, *Bayān wujūb al-hijra* ^{c}*alā l-*^{c}*Iāad* (edited and translated by F.H. El-Masri), Khartoum and Oxford, 1978, chapter VI.

3. Farouk Omar, "... Succession in the Early ^{c}Abbasid Caliphate".

The Bay^{c}a in Islam, and Some Aspects of the Bay^{c}a in Morocco's Relations with the Western Sudan

John Ralph Willis
Princeton University

> [Ibn Khaldun] has been accused of fickleness and a lack of patriotism. But for such judgements to be strictly applicable presupposes the existence of the idea of 'allegiance' to a country, which was not the case. The very concept scarcely existed and was not to appear in Muslim thinking until it was affected by contact with Europe. The only treason was apostasy, nor was loyalty understood except in the context of relations between one man and another.[1]

The "*bay^{c}a* controversy", as it raged in Morocco and the Western Sudan during the period under discussion, was charged with the current of unrest that swept over Muslim societies upon the demise of the universal Caliphate. As Muslim regimes rose up in conscious rivalry, "men of affairs" moved, sometimes cautiously, sometimes boldly, from one bond of allegiance to another political uncertainty brought challenge to a host of attitudes, both religious and secular, as well as to personal safety. I argue here that the most precious commodity in early Islam is to be recognized in the fluctuating currency of allegiance - that the power of any particular

---

1. Muhammad Talbi, "Ibn Khaldun", *The Encyclopedia of Islam* (New Edition, hereafter, New E.I.), p. 828. Other aspects of the theme of allegiance have been treated in my "Metropole and Cosmopole in Early Maghribi Thought", (to be published in the *Maghrib Review*). I would like to thank Muḥammad b. Madani and the members of his conference ("Culturel Expression in the Maghreb", London, July, 1992), and Professors Aḥmad Tawfiq and Fatima Harrak who convened the conference on Morocco's relations with the Sudan, for many useful comments.

auteurs se sont mis en dehors de leurs récits et ont pris de la distance pour relativiser l'impact de l'événement. Ils ont rapporté les faits et laissé le lecteur tirer les conclusions. Ils ont fait cela pour montrer le déséquilibre entre les deux armées en présence.

Ils se sont servi des informations données par al-Fashtālī tout en introduisant des éléments de réflexion nouveaux. Ils ont donné, ainsi, un bref aperçu sur l'histoire islamique du Soudan, contrairement à al-Fashtālī qui écarte tout indice qui pourrait signaler tout apport culturel ou civilisationnel du Soudan. Les deux auteurs parlent du massacre des musulmans noirs par l'armée sa^cdienne et mettent en valeur les souffrances et les malheurs d'Aḥmad Bāba, alors qu'al-Fashtālī occulte ces faits. Al-Yifrānī émet des réserves à propos des déclarations d'al-Manṣūr devant son conseil de consultation. Il fait remarquer que les Almoravides avaient tissé des liens solides avec le Soudan, contrairement à ce qu'avance al-Manṣūr. D'un autre côté, il rapporte que l'invention de la poudre à canon remontait à une époque antérieure à celle des sa^cdiens.

Conclusions

1. L'expédition nécessite qu'on s'en occupe dans des perspectives nouvelles et avec de nouvelles sources. Cela requiert des approches interdisciplinaires.

2. Il est temps de dépasser les complexes de part et d'autre du Sahara, et cesser d'expliquer tous les malheurs de l'Afrique noire par l'expédition. Celle-ci est à l'origine d'un complexe de culpabilité chez les Marocains en général et les *fuqahā'* en particulier. Il est curieux de voir comment l'historigraphie marocaine parle de la bataille des Trois Rois qui est considérée comme un facteur déterminant dans la construction de la mémoire nationale, alors que cette même historiographie occulte et marginalise la victoire sur le Soudan. Elle est considérée comme un fait officiel n'ayant pas bénéficié du consensus national. C'est pourquoi, j'ai parlé de l'expédition d'al-Manṣūr. Cette grande idée de ce grand sultan n'a pas eu son enracinement dans le substrat social.

3. L'expédition est d'abord marocaine, contrairement à ce que laisse entendre les écrits de l'Afrique noire ou quelque nouveaux écrits espagnols.

4. Al-Fashtālī n'est pas seulement un historiographe ; il est aussi manipulateur et dans son cas, on peut parler de discours. On peut aussi parler de discours en ce qui concerne l'historiographie de l'Afrique noire et surtout de la tendance globalisante.

Non seulement, cet auteur paraphrase al-Fashtālī, mais il reproduit des pages entières des *manāhil* et pour terminer son chapitre sur l'expédition, il tire trois conclusions. Selon lui, les soudanais devaient choisir entre :

1. se soumettre aux Ottomans et dans ce cas, ils devaient payer des impôts sans limite ;

2. accepter les razzias et le pillage des tribus voisines ;

3. s'allier avec le héros de la bataille des Trois Rois. C'est ce qu'ils ont finalement choisi de faire pour avoir l'amitié de ce sultan.[23]

2.2. l'expédition dans l'historiographie des opposants

Ce courant trouve le modèle dans la chronique anonyme. Cet écrit critique violemment l'initiative d'al-Manṣūr. Il considère son armée responsable des souffrances et du massacre des soudanais. L'*Anonyme* s'en prend d'une manière sévère au sultan, bien sûr, mais aussi à ses conseillers et aux savants qu'il considère comme des pseudo-savants. Il se révolte contre cette initiative abjecte qui était à l'origine du massacre de musulmans innocents.

Cette même attitude se retrouve dans les écrits d'Ibn Abī Maḥallī. Ce *faqīh* insurgé, en d'autres termes, se sert de l'expédition non pas pour la condamner clairement mais pour l'exploiter à des fins politiques. Il considère l'entrée d'al-Manṣūr au Soudan comme un signe supplémentaire qui annonce l'arrivée imminente du Mahdī.

> "L'entrée d'Abū al-ᶜAbbās au Soudan et sa conquête du royaume des Askiya et l'investissement de la demeure de son Calife et de sa principauté, c'est-à-dire Gao et Tombouctou, doivent être vus comme des signes annonciateurs de l'apparition du Mahdi".[24]
>
> "إن دخول رايات أبي العباس المنصور... للسودان واستيلاؤه على سلطانها سكية في دار خلافته، بل إمارته وهي جاغو مع تمبكتو بأعمالها كل ذلك من أمارته".

(الإصليت، ورقة 21 ظ)

Comment des auteurs comme al-Yifrānī et an-Nāṣirī ont abordé l'expédition d'al-Manṣūr ? Contrairement à al-Fashtālī, les deux

23. A. at-Tāzī, *op. cit.*, p. 238- 239.

24. Ibn Abī Maḥallī, *al-'iṣlīt*.

armée victorieuse, sa bien aimée est arrivée aussi à briser son cœur et réaliser une victoire absolue.

بالجند من الحافظ يحـــــرس　　　بمهجتي مليك حسبي غدا
إنسان عيني إن دنا نحـــــوه　　　أعزاه بالبيض وحادبو داه

(روضة الآس : 146)[19]

Al-Fashtālī continue à exercer jusqu'à maintenant son hypnotisme sur certains chercheurs. Dans un article sur l'expédition d'al-Manṣūr publié en 1991, on lit que cette initiative relève de la détermination de ce sultan de renforcer et faire l'unité islamique pour pouvoir relancer le *Jihād* contre les chrétiens afin de récupérer l'Andalousie et la réintégrer au monde musulman. La conquête, pour cet auteur, a permis aux soudanais d'avoir la stabilité politique, la prospérité économique comme elle a favorisé le rayonnement de la culture islamique.[20]

Al-Fashtālī se retrouve paraphrasé dans *l'histoire diplomatique* d'^{c}A. al-Hādī at-Tāzī (vol. 8). At-Tāzī met l'accent dans ce volume huit sur l'antagonisme ottomano-sa^{c}dien. Il n'hésite pas à présenter al-Manṣūr comme le stratège et le héros africain.[21] L'expédition était destinée -selon cet auteur- à arrêter les convoitises non africaines sur l'Afrique. Ce qui est difficile à concevoir, est le fait d'adapter le discours d'al-Fashtālī à notre satisfaction. Ainsi, at-Tāzī, parlant de la façon grandiose dont al-Manṣūr recevait l'envoyé du Bornou en 1583, en déduit que la majesté et l'autorité dont cet envoyé était témoin constituaient un signe de la volonté de ce sultan de manifester la puissance de *l'Imamat* du Maroc. D'un autre côté, al-Manṣūr, selon at-Tāzī - voulait "remettre à leur place quelques voisins trompés par ceux qui commençaient à menacer les régions frontalières du royaume".[22]

ومن جهة أخرى فإنه (المنصور) يتوق إلى وضع الأمور في نصابها مع بعض جيرانه المغرر بهم من الذين أخذوا يهددون أطراف مملكته.

---

19. Al Fishtālī, *rawḍ al 'ās*, p. 146.
20. M. Rezzouk, *Dirāsāt fi tārīkh al-maghreb.*
21. A. at Tāzī, *L'histoire diplomatique*, V. 8, p. 233.
22. A. at Tāzī, *Hist., dipl op. cit.* pp. 234 - 235.

manipulation et le façonnement de tout un état d'esprit et de toute une manière de se représenter un sultan et une dynastie, dans la mesure où il réussit à placer al-Manṣūr dans un espace sacré qui se situe entre le mythique et le réel.

Manāhil as-Ṣafā Fī Ma'āthiri Mawālīnā as-Shurafā' est un discours minutieusement élaboré par al-Fashtālī. L'idée centrale, qui affronte le lecteur à tout moment, se résume en l'apologie d'al-Manṣūr et la justification de toutes ses entreprises. Pour enraciner cette image, al-Fashtālī use de toute son ingéniosité créative. Ainsi, il élabore toute une stratégie discursive dans l'optique de manipuler et façonner un état d'esprit à propos des initiatives de ce sultan hors du commun et qu'on ne peut comparer à un être humain, car comment oser comparer l'argent au mercure.

Pour élucider cette stratégie discursive, je m'arrête sur deux exemples.[18] L'auteur use du phénomène de contradiction et de dissimulation pour tromper son lecteur ou le pousser à épouser son point de vue. Quand il parle des préparatifs de l'expédition ou de la tactique du *Djouder*, il emploie des mots comme "*al-makr*", "*Khud*ᶜ*a*" "Trahison", mais il les vide de leur charge négative ou morale pour les recharger positivement. Il fait le contraire quand il parle de la résistance des noirs. Il se sert de cette procédure constamment. Quand il justifie l'expédition devant le conseil consultatif, il applanit toutes les difficultés. Mais, quand il annonce la victoire, il fait le contraire.

Comme deuxième exemple, nous pouvons nous arrêter à son attitude à l'égard de la contradiction principale, à savoir comment accepter le fait qu'un pays musulman ose envahir un autre pays musulman. Il n'en parle jamais ouvertement. Pour éviter de le faire, il élève la discussion au niveau de l'*Imamat*. Dans ce cas, il résout la contradiction dans la mesure où l'expédition n'est plus qu'une simple *ḥarka* que l'*Imam* utilise dans le besoin. Il le fait avec le Rif, le Sous et Touat comme il peut le faire avec le Soudan. Les soudanais sont de simples sujets en rébellion.

Al-Fashtālī ne se contente pas de façonner les images, il arrive même à créer des concepts et à les propager dans d'autres champs. A propos de la victoire sur le Songhay, il arrive à introduire des images de guerre dans le *Ghazal*, cette poésie dite chant d'amour. Ainsi il considère sa bien-aimée comme l'armée d'al-Manṣūr. Comme cette

---

18. *Cf.* El Moujahid, E. et Kaddouri, A., "Ṣūrat as-Sūdān fī al-Khiṭāb at-Ta'rīkhī al-Maghribī fī al-qarn as-sādis ᶜachar, ***Linguistique et Histoire***, Publications de la Faculté des Lettres, Rabat, p. 27 - 35.

"A la limite, l'Empire chérifien se présente comme une fédération de tribus administrées, ou plus exactement exploitées, par l'administration centrale et les membres de la famille impériale".[17]

L'expédition d'al-Manṣūr fut abordée différemment dans l'historiographie de l'Afrique noire suivant les objectifs, la formation et la sensibilité des historiens. Il nous reste à savoir comment cet événement a été approché dans l'historiographie et les discours au Maroc.

2. L'Expédition d'al-Manṣūr dans l'Historiographie Marocaine

A propos de cette historiographie, j'aimerai faire les remarques suivantes :

1. Aucune étude entièrement consacrée à l'événement n'est encore réalisée.

2. Concernant l'attitude des marocains en général à l'égard de cette expédition, et plus particulièrement celle des *Fuqahā*,. l'événement est toujours abordé avec gêne, embarras et complexe.

3. La dernière remarque, à propos de cette historiographie, concerne l'impact qu'exerce al-Fashtālī sur elle. Pour faciliter la compréhension de l'exposé, je distinguerai trois tendances dans ces écrits: une tendance apologique, une tendance critique et une dernière de compromis.

2.1. L'expédition dans l'historiographie apologique

La référence et le modèle pour ce courant reste A. al-Fashtālī. Il est hors de question de s'arrêter longuement sur cet auteur trop connu. Cependant, j'aimerai attirer l'attention des chercheurs sur les méfaits qu'exerce un certain regard qui s'est bien enraciné dans les mentalités à son propos. Al-Fashtālī est présenté par tout le monde comme l'historiographe officiel et le secrétaire particulier d'al-Manṣūr. Cette présentation est insuffisante, à notre sens, et ne permet pas de cerner le personnage dans tous les rôles qu'il a pu jouer, surtout quand on sait les charges négatives que suppose le mot *historiographe officiel* dans les mentalités.

Al-Fashtālī, en plus de ce qui se dit à son propos, est aussi et surtout le personnage-clé pour ce qui est de l'élaboration, la

17. Zakari, *op. cit.*, p. 65 - 66.

comme centre politique et Djenné comme foyer autochtone de diffusion culturelle, elle arrive à la conclusion suivante :

"C'est pourquoi, si l'on peut assurément parler, au fil de l'histoire, de villes sub-sahariennes plus ou moins islamisées, on ne peut certainement pas parler de villes musulmanes en Afrique noire".[14]

La lecture rapide de ces deux ouvrages permet de relever les observations suivantes :

1. Zakari adopte l'approche des Annales dans une problématique qui épouse la logique de l'Afrique noire. Il n'arrive pas à se détacher complétement de la couleur nationaliste, comme il le montre d'une manière visible dans sa conclusion (qu'il élabore au conditionnel) quand il écrit :

"Cependant, l'histoire retiendra que l'addition a été plus sévère pour l'Empire Songhay. Et il semble bien qu'à la fin de cette tumultueuse seconde moitié du XVIè siècle, à la suite de Gao, tout le Soudan nigérien est sorti momentanément de l'histoire".[15]

2. Dahiru adopte la perspective marocaine. Il prend une distance vis-à-vis de son récit. Il analyse les agents et les institutions de la politique extérieure de la dynastie sa^{c}dienne, non pas pour déceler les mécanismes responsables de la crise entre le Maroc et le Soudan, mais -je pense- pour dégager au bout de son analyse, les éléments qui constituent l'identité nationale du Maroc. Celle-ci, écrit l'auteur, allait se démarquer par rapport aux concepts de Dar al-Islām et du phénomène tribal :

"The Sa^{c}di dynasty embodied a concept of national identity opposed at the same time to tribalism and the concept of Dar al-Islām".[16]

3. Si Dahiru donne cette conclusion, nous remarquons que Zakari Dramani Issifou, dans son analyse, arrive à une conclusion opposée. Cet auteur se base sur une lettre qu'il avait reçue de l'historien B. Rosenberger. Même si elle est écrite dans une logique différente, il s'en sert pour aboutir à la conclusion qui suit :

14. Coquery-Vidrovitch, C., *"Villes africaines"*, *Congrès méditerranéen d'Ethnologie Historique*, 4 - 8 nov. 1991.

15. Zakari, *op. cit.*, p. 221.

16. Dahiru, *op. cit.*, p. 126.

over songhay led to a marked change in Morroco's foreign policy. But paradoxically the invasion proved to be a turning point which signaled the beginning of the end of Sa^c^adi political good fortune".

Dahiru Yahya se place dans une problématique marocaine pour analyser l'événement de 1591. Dans son livre, qui reste le seul à être consacré entièrement à la crise maroco-soudanaise, Zakari Dramani Issifou se situe dans la logique de l'Afrique Noire. Il souligne, dès le départ, que la question fut abordée depuis le XIXè siècle mais toujours comme fait annexe et jamais en tant que telle. Il montre, dès le début, comment il pense aborder cette question quand il écrit :

> "S'il concentre sa réflexion sur le tragique dénouement de Tondi-Bi, l'historien n'explique certainement pas grand chose qui puisse mieux faire comprendre le sens des relations entre l'Empire de Songhay et le Maroc des Sa^c^diens".

Le problème que l'historien doit élucider - écrit encore Zakari Dramani Issifou - se pose ainsi : "Comment en est on arrivé à Tondi-Bi" ? L'auteur adopte l'approche des Annales pour tenter d'analyser, d'expliquer et de suivre le cheminement qui permet d'aboutir à la compréhension de la crise. Il se sert d'un texte d'Ibn al-Ḥakam pour situer le contact entre l'Afrique noire et le monde islamique au moment de la conquête musulmane de l'Afrique noire. Il fit remarquer que le contact entre les deux espaces a été conflictuel et ce, dès le début de ces relations.

L'auteur veut étudier les relations de l'Afrique noire avec le Maroc dans la perspective juridique. Cette approche a été toujours oubliée, au profit des analyses économiques et politiques. Après l'analyse de ses sources, il cherche à dégager, dans la deuxième partie du livre, les facteurs constants, permanents, c'est-à-dire, ce qui est structurel dans ces relations et comment le permanent allait être secoué par l'émotionnel et l'événementiel pour aboutir -dit-il dans sa 3ème partie- aux temps de crise puis au dénouement. Dans sa dernière partie, l'auteur fait une pause pour méditer sur la nature de ces contacts, sur la nature de l'Islam au Songhay et les concepts d'*interférence*, *assimilation* ou *rejet*. Il approfondit la question pour arriver à distinguer le mythe du réel, comme il intitule cette partie. Il est à noter, à ce propos, les travaux récents, en particulier une communication faite dernièrement par Catherine Coquery -Vidrovitch intitulée *"Villes africaines : diffusion maghrébine et facteurs autochtones dans l'Ouest africain depuis l'époque médiévale"*. Après avoir présenté Tombouctou comme colonie de lettrés islamisés, Gao

1. Les deux livres sont publiés presque en même temps. Ils restent connus des lecteurs quoique celui de Dramani soit le plus diffusé au Maroc à cause de la langue dans laquelle il est rédigée.

2. Les deux ouvrages sont à l'origine des travaux universitaires pour l'obtention de diplôme académique Ph.D. pour Dahiru et une thèse de 3ème sycle pour Dramani.

3. Dahiru aborda l'expédition dans l'approche anglo-saxonne alors que Dramani le fait dans une logique française.

Dahiru aborde le Maroc au XVIè siècle en huit chapitres. Il commence le XVIe en 1510 avec l'avènement sa^{c}dien pour le terminer avec la mort d'al-Manṣūr en 1603. Il se base sur les thèses d'Ibn Khaldūn pour distinguer entre trois phases dans la vie de la dynastie sa^{c}dienne :

> «In his *Muqaddima* Ibn Khaldūn puts forwards the theory that the life span of an average muslim dynasty extended approximately over three generations. i.e more or less one hundred and twenty years altogether».[13]

L'auteur analyse dans les premiers chapitres, les mécanismes de la montée sa^{c}dienne. Il propose que la recherche s'oriente vers la compréhension et la connaissance des agents et cadres politiques c'est-à-dire les grands décideurs de ce qu'il appelle, la première génération. La politique extérieure des sa^{c}diens est l'œuvre d'^{c}Abd Allāh al-Ghālib, dit l'auteur, qui considère le règne d'^{c}Abd al-Malik comme une phase charnière. Car la bataille des Trois Rois allait permettre au Maroc de changer de partenaire diplomatique et permettre à al-Manṣūr d'avoir ses propres visions et ambitions.

L'historien Dahiru Yahya réserve le chapitre sept à l'expédition d'Aḥmad al-Manṣūr au Soudan. Il donne le contenu à partir du titre qu'il intitule : "la politique soudanaise d'Aḥmad al-Manṣūr et ses aspirations sur le monde islamique". L'auteur se place dans la logique d'al-Fashtālī pour analyser les facteurs qui expliquaient l'initiative de ce sultan. Il termine son chapitre par un constat d'échec car "il considère que l'expédition constitue un tournant et signale le commencement de la fin de cette dynastie" :

> "The success of the expedition to the Sudan and the annexation of the Songhay empire brought prestige to al-Manṣūr and increased his political power. More importantly the economic benefits drawn from the victory

13. Dahiru. *Morroco, op. cit.*, p. 6.

A propos de l'expédition de 1591, Kizerbo se pose la question suivante : al-Manṣūr, a-t-il eu vraiment une vision claire et décidée ? Il laisse entendre que le sultan se laisse prendre par l'ivresse, la joie et l'enthousiasme de la victoire de la bataille des Trois Rois. C'est pourquoi ce sultan - dit - Kizerbo - conçut le grand dessein de vassaliser l'empire".[8]

De son côté, cet auteur considère l'expédition comme l'œuvre des mercenaires européens. C'est, dans ce sens qu'il écrit "Des mercenaires européens, offensive vers le sud plutôt que vers le nord, viennent s'enrôler dans le corps expéditionnaire".[9] Pourrions-nous aller jusqu'à cette conclusion : S'agit il vraiment d'une action européenne réfléchie ? En plus, de quelle Europe parle-t-il ?

Pour achever ce chapitre, Kizerbo attire l'attention de son lecteur sur deux idées : la première consiste à dire que la résistance noire fut farouche et meurtrière, la deuxième concerne l'existence ou non de corrélation entre l'expédition, les famines et les épidémies qui ont ravagé les pays de la boucle du Niger durant le XVIIè et le XVIIIè siècle. Il ne formule pas de réponses claires, mais il rapporte des faits à partir de *Tārīkh al Fattāsh* ou de *Tadhkirat an Nisyān* pour laisser le lecteur croire que le Soudan semblait être absorbé par son envahisseur hispano-marocain et d'en conclure qu'après l'expédition, "plus rien ne serait comme avant".[10]

Pour conclure sur ce point, disons que ce courant élève la problématique pour la situer au niveau universel, au moins sur les plans théorique et méthodologique, alors qu'il reste imprégné de la couleur nationaliste dans sa pratique de l'histoire. Qu'en est-il des travaux académiques récents ?

1.3. L'expédion dans les travaux universitaires

Je me suis basé, dans les remarques qui suivent sur la lecture de deux livres que je considère significatifs : celui de Dahiru Yahia[11], et celui de Zakari Dramani Issifou.[12] Les raisons de ce choix se résument comme suit :

---

8. *Ibid.*, p. 198.

9. *Ibid.*, p. 198.

10. *Ibid.*, p. 201.

11. Dahiru, Yahia, *Morocco in the Sixteen Century* , Bristol, 1981.

12. Issifou, Z. D., *L'Afrique Noire dans les Relations Internationales au XVIè siècle*, Paris Karthala, 1982.

d'Hiroshima. "Le mousquet eut sur les esprits, les effets semblables à ceux de la bombe atomique d'Hiroshima en 1945".[4]

Si l'armée marocaine envahit le Soudan, la civilisation noire arrive à assimiler aisément son envahisseur : "La civilisation raffinée de Tombouctou eut vite fait de vaincre ses farouches vainqueurs".[5]

Ce courant d'historiens nationalistes blessés a eu un impact énorme sur les relations du Maroc avec les Etats de l'Afrique noire dans les années soixante dix. Cet impact est dû à la propagation de ces idées dans les manuels d'histoire pour l'enseignement dans le secondaire ; Cissoko fut chargé officiellement en 1965 de superviser ce travail pédagogique. Cependant parallèlement à cette tendance une autre perspective de recherche vit le jour et élève le débat.

1.2. L'approche globalisante de l'expédition

Le débat allait se situer au niveau des institutions internationales. L'engagement du Cheikh Anta Diop et de J. Kizerbo prenait une ampleur beaucoup plus grande. Ce courant cherchait à arracher la reconnaissance d'une histoire active au continent africain. "Récupérer l'histoire de l'Afrique -dit C.A. Diop- ne veut pas dire l'embellir mais essayer de connaître son origine quelle qu'elle soit".

Conscience et personnalité africaines se construisent dans les contradictions et dans la douleur. Ces historiens cherchent à percevoir l'Afrique dans une unité au pluriel. L'expédition d'Aḥmad al-Manṣūr est perçue dans cette optique. Elle est abordée comme un fait endogène. L'histoire de l'Afrique ne doit pas -selon les dires de ce courant- se construire sur le principe de l'exclusion ou de l'assimilation mais sur celui de l'interculturel et l'interférence.

Joseph Kizerbo réserve un chapitre de son livre[6] à l'expédition d'Aḥmad al-Manṣūr qu'il intitule le "Tournant". Le titre en dit long sur le contenu. Des mots comme *ébranlement*, *conquête*, prennent une valeur particulière dans l'analyse. Selon cet auteur, l'Afrique a connu des zones de grands développements du XIIIè au XVIè siècles. Pendant ce temps, les Etats musulmans ont continué à jouer un rôle d'intermédiaire entre l'espace de l'Afrique noire et les autres espaces. Cependant, à la fin du XVIè siècle, les Etats musulmans vont passer à l'expansionnisme brutal.[7]

---

4. *Ibid.*, p. 192.
5. *Ibid.*, p. 222.
6. Kizerbo, J., *Histoire de l'Afrique Noire d'hier à demain.*
7. *Ibid.*, p. 197.

compréhension. D'un autre côté, cette communication ne vise pas, vous l'imaginez bien, à vous donner des réponses ; mais elle cherche d'abord à poser des questions et à stimuler la réflexion à propos du non-dit dans l'expédition afin de dépasser les stéréotypes, les clichés et les images forgées par des discours élaborés consciemment ou inconsciemment, depuis longtemps, à propos d'un événement qui se situe entre le légendaire et le réel.

Une rencontre entre historiens marocains, historiens de l'Afrique noire et africanistes constitue une première. Elle est à la fois souhaitable et nécessaire. Aussi remercions-nous les organisateurs pour cette initiative qui va nous permettre d'évaluer en commun le chemin parcouru dans nos pays respectifs et d'évoquer les orientations de la recherche en cours.

1. L'expédition dans l'historiographie de l'Afrique Noire

1.1. L'événement dans l'approche nationaliste passionnée

Je me base dans ce paragraphe, sur les travaux de l'un des pionniers de l'histoire de l'Afrique : il s'agit de S.M. Cissoko.[2] Ce chercheur blessé et engagé, voulant réagir à l'étouffement culturel de tout le continent noir, allait produire des écrits historiques engagés et souvent imprégnés de passion.

Dans ces écrits, l'invasion marocaine est présentée comme l'hécatombe, responsable de tous les malheurs du Soudan. Elle anéantit une civilisation brillante connue et reconnue de tous. Elle arrête l'évolution du continent noir, l'empire songhay, qui vivait la stabilité et le développement. La maturité atteinte par cet empire lui permettait d'être comparé par son humanisme à la renaissance européenne. Il y a lieu de parler - dit Cissoko - d'un humanisme soudanais. Le savoir tout entier est centré sur l'homme... Le génie soudanais a négrifié l'Islam".[3]

L'expédition d'al-Manṣūr, à l'origine, permet l'écroulement de cet empire. Elle détruisit l'ordre, l'Etat et instaura le pillage, l'anarchie, bref la barbarie. L'invasion est l'œuvre de renégats espagnols et de mercenaires européens. Cissoko pousse le cri nationaliste plus loin encore quand il parle de la "balkanisation" du Soudan ou encore quand il compare l'expédition à la bombe atomique

2. S.M. Cissoko, *Histoire de l'Afrique Occidentale, Moyen Age et Temps Modernes* VII - 1890, Paris, Présence Africaine, 1966.

3. *Ibid.*, p. 167.

L'expédition d'Aḥmad al-Manṣūr au Soudan
Historiographie et discours

Abdelmajid Kaddouri
Université Mohammed V, Rabat

Introduction

"Le passé existe maintenant, en ce moment, il coexiste avec la perception que nous avons du présent. Il clarifie le présent et explique l'avenir, mais sans rien donner du confort douillet des évasions complaisantes, et il dépend d'une manière vitale de la sensibilité qui l'évoque".[1]

Il est clair que cette position ne saurait s'accommoder d'une conception qui ne verrait dans le passé qu'une simple accumulation d'"événements", une simple masse inerte, une entité séparée, inaltérable, qui est derrière nous dans sa totalité et qui ne cesse de s'éloigner. C'est dans cette perspective que je voudrais vous entretenir à travers cette communication ; mais auparavant j'aimerai attirer votre attention sur les observations suivantes :

1. Les études consacrées à cette expédition sont rares, pour ne pas dire inexistantes, surtout au Maroc. Sur les 120 diplômes ou thèses soutenus à la Faculté des Lettres à Rabat, cinq études concernent les relations du Maroc avec l'Afrique noire en général.

2. Il y a cependant un énorme décalage entre ce manque d'étude et l'éclat et le rayonnement de l'événement. Autrement dit, le décalage entre l'événement-mythe et l'événement comme fait historique. Cette situation nous pousse à répéter ce que disait le pharaon de l'histoire africaine, Cheikh Anta Diop, à propos de l'histoire de ce continent, la citation s'y adapte : "Tout a été dit, sur elle, rien encore n'a été dit".

3. Cet exposé a fait des choix, les observations et les déductions qui y seront formulées ne manqueront pas de décevoir ou de choquer. Elles auront besoin de votre patience et de votre

1. Wolé Soyinka.

REFERENCIAS BIBLIOGRAFICAS

Abitbol, Michel : *Tombouctou au milieu du XVIIIe siècle, d'après la chronique de Mawlây al Qâsim b. Mawlây Sulaymân.* Maisonneuve et Larose, Paris 1982.

Anónimo : *Tadhkirat al-Nisyian fi Akhbar Muluk al-Sudan*. Ed. y trad. O. Houdas. Maisonneuve, Paris 1966.

Henin, Jorge de : "Del sitio del Reyno de Marruecos y de su disposición y vmor de la gente...". Biblioteca Nacional de Madrid, Fondo Gayangos, Ms. 17645.

al-Ifrani, Muhammad al-Saghir b. al-Hadj b. 'Abdallah : *Nuzhat al-Hadi bi-Akhbar Muluk al-Qarn al-Hadi*. Ed. y trad. O. Houdas. Leroux, Paris 1888-1889.

Mawlây al Qâsim b. Mawlây Sulaymân : *Fragment de l'œuvre de Mouley Rassoum*. Bibliothèque Nationale de Paris, Fonds Arabe, Ms. 5259, ff. 24-34 (véase Abitbol).

Saad, Elias N.: *Social history of Timbuktu*. cambridge University Press, Londres 1983.

al- Sa'di, 'Abd al- Rahman : *Ta'rikh al-Sudan*. Ed. y Trad. O. Houdas. Maisonneuve, Paris 1964.

Tymowski, Michal : *Sociétés sans Etat et sociétés à organisation étatique en Afrique Noire pré-coloniale*. Instytut Historyczny, Uniwersytet Warszawski, Varsovia 1990.

acontecimiento hondamente arraigado en la dinámica profunda tanto de la metrópolis como de la colonia. Otra cosa son sus consecuencias a largo plazo, entre las que cabe destacar la progresiva clanización del Pachalik. Pero ese es otro tema cuyo análisis excedería con mucho los límites en que se inscribe el presente trabajo.

"... los cristianos con la artillería todavía tiraban, pero sin provecho porque la pólvora no tenía fuerza de alcanzar y las cureñas sobre que iban encabalgadas las peizas del primer tiro se quebraban y muchas piezas, como estaban la mayor parte de hierro y cargadas en demasía para que alcanzasen, reventaban y no fueron de provecho" (Henin : 76).

Pero no sólo jugaba el descrédito en que habían caído los elementos militares de origen extranjero. Eso sucedía en la metrópolis y llegaba como una mera corriente de opinión al Níger, donde aluchi y andalusíes seguían constituyendo la punta de lanza militar. Lo realmente importante fue la pérdida de importancia de esa punta de lanza, al irse convirtiendo los arma en un ejército de ocupación más que de conquista. La estabilización de las fronteras dio lugar a un despliegue en guarniciones, unidas a la colonización de la tierra, funciones para la que estaban mejor dotadas las fuerzas tribales. Por tanto, el superior valor militar de los mercenarios inmigrados como fuerza de choque no tenía que seguir siendo primado. En una palabra, los elementos puramente marroquíes del ejército ganaron peso respecto a los mercenarios.

He dejado para el final el factor que a mi juicio tuvo mayor importancia: la dimensión política de la reforma. en unos momentos en que se avanza hacia el autogobierno, la constitución de las Divisiones establece un esquema de poder fundamentado en la vida de guarnición, pero a la vez libre de connotaciones territoriales. Habría sido posible que la elección de Pachás recayera en una especie de senado integrado por los jefes de las grandes guarniciones; pero el nuevo sistema concentra la autoridad en los comandantes de las Divisiones que, lógicamente, establecen su cuartel general en Tombouctou. La reforma borró de un plumazo la importancia política de Gao, de Bamba y, con el tiempo, de Djenné.

A partir de entonces la capacidad de decisión --tanto oficial como oficiosa-- se va concentrando progresivamente en la capital. En ese contexto,, la rebelión protagonizada en 1623 por el qa'id de Bamba 'Abdallah b. 'Abderrahman el-Hindi, apoyado por el amin de Teghazza y por una facción de Djenné (Ta'rikh al-Sudán : 345), ha de interpretarse como el último estertor de una periferia postergada por el centralismo de Tombouctou.

Así pues, debe rechazarse la interpretación simplista de que la reestructuración "marroquinizante" del ejército arma fue un simple episodio en la lucha entre dos cabecillas locales. Las fuentes históricas disponibles apuntan, por el contrario, que se trató de un

imperio. Hubo momentos en que el poder efectivo del Sultán "oficial" Mulây Zidân se reducía al Hawz de Marrakech y a la región de Dukkala. En esas circunstancias, reorganizar el ejército de la Curva del Níger apelando a los nombres de Fez y Marrakech suponía la reafirmación simbólica de una unidad que estuvo perdida hasta la entronización de la dinastía alawita, pero que los arma necesitaban para su legitimación como gobernantes islámicos (véase la nota 15).

Un segundo factor de mayor importancia fue la pérdida en la metrópolis del prestigio que antaño tuvieron los aluchi y sus modernas técnicas militares. El fundamentalismo profesado por el movimiento marabútico tuvo mucho que ver para la extensíon de ese modo de sentir entre los marroquíes[25] ; pero más peso tuvieron las sucesivas derrotas de las tropas "modernas", bajas de moral, ante desorganizados pero vigorosos ataques al arma blanca. La última batalla en que los saadíes dispusieron de un ejército equipado y formado al estilo turco --la librada por Mulây Zidân contra Abû Mahalli en 1612-- acabó en una terrible masacre y la huída del Sultán con sólo seis caballeros claro que mucho antes los ejércitos "regulares" eran sólo una sombra de lo que fueron. Véase si no la descripción del que reclutó Mulây Zidân para apoderarse de Fez :

> "Hizo reseña y se halló con seis mil hombres de a pie y mil quinientos de a caballo, y ochenta flamencos y catorce piezas de artillería. En todo este ejército no había sino un alcaide viejo y casi toda la gente de a pie eran forzados: iban metidos los pescuezos en unas cadenas de hierro muy largas en que cabían en cada una veinte hombres" (Henin : 153-154).

En cuanto a los medios técnicos, no era mejor su estado. En la batalla de Ras el-Aïn,

25. Dos ejemplos sacados del Memorial de Henin bastarán para avalar esta afirmación. Cuando los seguidores de Mulây Mahamad Abû Hassun le preguntaron por qué licenció a los cristianos que manejaban la artillería, "respondió que los moros no la habían de menester, que el valor consistía en el brazo y que la artillería era invención de cristianos y que los moros ganaron a toda España sólo con las lanzas y atrevimiento" (página 91). Y,refiriéndose a Abû Mahalli, dice Henin que "como este marabuto ponía toda su felicidad en la caballería, intentó vedar las armas de fuego ; cargó muchos camellos de las escopetas que había ganado y las envió en la Sahara" (página 232). En cuanto a la reputación de los aluchi, el Nuzhet el-Hâdi deja claro (véanse págnas 419 y 427) que estaban estereotipados como "seres de natural pérfido y prontos a la traición".

La permanencia en el tiempo de la organización en Divisiones se antoja milagrosa. No es concebible que una operación pensada por el amin ez-Zobeyr como recurso táctico ante una situación concreta pudiera consolidarse tras el triunfo de su antagonista 'Ali et-Telemsâni. Tampoco era previsible que la caída de este ùltimo no acarreara la supresión de su división --contradivisión, podría llamársele-- de los Cheraga.

A mayor abundamiento, el cuadro resultante fue de lo más artificioso. Los estudiosos han asumido acríticamente que las divisiones de Fez y Marrakech se formaron con los contingentes que provenían de los respectivos reinos. Pero, para empezar, los andalusíes --cuyos mayores efectivos estaban asentados en el reino de Fez-- fueron adscritos a la división de Marrakech, mientras que con los aluchi sucedía lo contrario. De todas formas, el mayor contrasentido era el representado por la división de Fez que, privada de los cheraga, se formó a base de unir a los aluchi contingentes tribales venidos del Draa o del reino de Sus[24]. En los nombres de notables de la División citados por el Ta'rikh al-Sudan no se encuentran referencias a ninguna de las tribus guich del reino de Fez en tiempos de Ahmed al-Mansûr: khlot, Tliq, Sofiân, Beni Mâlik ... Sólo en el Tadzkiret en-Nisiân o en la Crónica de Mawlay al-Qâsim --documentos bastante posteriores-- se menciona en alguna ocasión la nisba al-Fasi, pero es cuando ya la División estaba tan consolidad que prestaba el patronímico a sus miembros, cualquiera que fuese el origen remoto de éstos.

5. Una hipotesis explicativa

Las causas de la pervivencia de ese modelo organizativo hay que buscarlas más allá de la pura coyuntura de una lucha entre dos personalidades. Todo parece indicar que ez-Zobeyr y et- Telemsâni fueron intérpretes ciegos de una tendencia más profunda que sus circunstanciales estrategias. Ahondando en la situación y su dinàmica cabe encontrar al menos cuatro factores que coadyuvaron a consolidar el sistema de Divisiones.

Quizás el motivo de menor peso sea el de carácter simbólico. Ha de pensarse que las enconadas reyertas surgidas en Marruecos a la muerte de Ahmad al-Mansûr pusieron en cuestión la unidad del

24. Recuérdese que los Awlad Massa fueron durante bastantes años la etnia dominante en la división de Fez

viejos esquemas iban desapareciendo y el sistema de Divisiones tenía vía libre para consolidarse.

Sin embargo, todavía quedaba una figura de la vieja guardia: el antguo moqaddem Haddu b. Yusef el-Adjenâsi, luego jefe de fila de la Division de Marrakech. Un mes después de que 'Ammâr el-Feta partiera hacia Marrakech, la guarnición de Tombouctou decidió derrocar al Pachà Ahmed b. Yusef y reemplazarlo por el qa'id Haddu, que había salido al frente de las fuerzas arma a repeler un ataque de los songhay del Dendi. La incursión songhay quedó frustrada por la inopinada muerte de su rey y Haddu b. Yusef pudo volver a Tombouctou con sus tropas para hacerse cargo del Pachalik.

Ahmed b. Yusef había pertenecido a la división de Fez ; el qaiid Haddu era miembro de la de Marrakech. Con este cambio, pues era miembro de la de Marrakech. Con este cambio, pues, se produce por primera vez lo que luego sería regla general : la alternancia de las Divisiones en la designación del Pachá electo. Es evidente que este principio no se siguió rígidamente por la interferencia de las circunstancias y equilibrios de cada momento histórico. Por ejemplo, hasta la muerte de Mulây Zidân no se atrevieron los cheraga a proponer a uno de los suyos, habida cuenta de la inquina que les profesaba ese Sultán. En compensación, entre 1632 a 1647 los turnos se los repartieron las divisiones de Marrakech y de los Cheraga con exclusión de los de Fez, probablemente por repudio a los Ahl Massa que entonces dominaban en esa División.

Así resultó que el modelo organizativo de la partición en Divisiones consiguió un arraigo que dificilmente podía habérsela augurado. Sobrevivió a la hostilidad de Mulây Zidân hacia los cheraga pese a que el creador de esta División fue un iconoclasta que acabó ajusticiado de forma infamante. Resistió también el destierro de los Ahl Massa a los confines occidentales de los dominios y el consiguiente debilitamiento de los de Fez. El sistema ternario se mantuvo vigente hasta la profunda crisis de los cheraga, consumada en la segunda década del siglo XVIII[22]; y continuó con la alterancia de las dos Divisiones restantes todo el tiempo que los de Fez permanecieron en Tombouctou.[23]

---

22. El golpe final fue un ataque masivo en 1730 de la división de Fez, que se tomaba así una revancha histórica sobre sus rivales.

23. La crónica de Mawlay al-Qâsim (antes denominada "Fragmento de La obra de Mouley Rassoum") precisa que el sábado 11 de octubre de 1800 el conjunto de la gente de Fez, con su comandante el qa'id al-Mustafâ et-Tezerkîni, abandonaron la ciudad (p-30 de la traducción).

A partir de su abandono de la ciudad la autoridad del pachá se fue deteriorando con rapidez, hasta que fue depuesto por las tropas el 13 de marzo de 1617. Los arma aclamaron por unanimidad como nuevo Pachá a Ahmed b. Yusef el-Euldji, antiguo amigo de 'Ali et-Telemsâni, luego depuesto por él de su cargo de comandante de Djenné y a la sazón jefe de filas de la división de Fez. También encarcelaron al pachá depuesto y escribieron a Mulây Zidân relatándole sus agravios, con especial hincapié en las malversaciones al tesoro público pese a los esfuerzos del amin: otra muestra de que lo característico de esa época fue la pugna entre un bando guerrero y otro de recaudadores.

Viendo la situación despejada, Mulây Zidân se decidió por fin a tomarse la revancha; y lo hizo con los medios más poderosos a su alcance porque estaba en juego el prestigio de la corona. El 27 de marzo de 1618 llegó a Tombouctou el ex-Pachá 'Ammâr el-Feta[20], uno de los qa'ids míticos de Ahmed al-Mansur. Para hacerse respectar traía una guardia de cuatrocientos soldados escogidos, entre aluchi y andalusíes[21], que de hecho constituyeron el último refuerzo militar enviado por Marruecos al Níger. 'Ali et-Telemsâni fue muerto entre torturas y el amin substituído por otro de la confianza de Mulây Zidân.

4. Consolidación del sistema de divisiones

Se supone que el Pachá en funciones Ahmed b. Uusef el-Euldji fue confirmado en su puesto, dando así el espaldarazo al sistema de elección local sin intervención del Sultán. Dos meses después, el ex-amin 'Amir b. el-Hasan ez-Zobeyr acompañaba a 'Ammâr el-Feta en su regreso a Marrakech ; así se truncaba una incipiente dinastía cuya constante fue la enemistad con el difunto 'Ali et-Telemsâni. Los

20. 'Ammâr "el esclavo" provenía de un experimento de Ahmed al-Mansûr, que había creado en Marruecos el equivalente de la "Casa del Sultán" otomana. Escogió niños y jóvenes prometedores de entre los extranjeros del reino --mandando castrar a al gunos de ellos-- para educarlos cuidadosamente a su servicio. De esa escuela de altos esclavos-funcionarios salieron, entre otros, los Pachás jawdar y Mahmud Zegun así como los qa'ids Abû Bakhtiar, el-Oludj y Beghî (Nuzhat : 196).

21. Debieron ser enormes los esfuerzos del sultán para reclutar un contigente tan Lucido porque, como dice Henin (p.127) refiriéndose a una época algo anterior, "no quedaban a Muley Zidân alcaides ni soldados de que echar mano para emplear en cosa del gobierno, ni se hallaban escopetas ni lanzas ni dardos por dinero... no se hallaban herraduras ni plomo para bala".

Todas las culpas recayeron sobre 'Ali et-Telemsâni, que empezó a ser visto como un hombre condenado.

Mulây Zidân no era persona que olividara una tal afrenta, pero por el momento estaba impotente, mediatizado y sin recursos para ejecutar el castigo. Ya le había advertido Yahya es-Susi, al reponerlo en el trono, que

> "... así como había tenido poder para restituirle el Reino, así lo tendría para tornárselo a quitar si para eso daba ocasión. Muley Sidân le agradeció la buena obra y, como no tenía gente propia para quedarse en campaña, se metió en su casa" (Henin : 252).

Esto dio un amplio respiro a et-Telemsâni, que siguió gobernando hasta 1617. Sin nadie a quien rendir cuentas, siguió con la política de innovaciones adoptada desde el comienzo de su mandato. Como dice es-sa'di (Ta'rikh al-Sudán : 335), "las cosas cambiaron de aspecto y la organización del país fue modificada; no se veían sino acontecimientos inesperados e innovaciones sin interrupción". Las fuentes parecen indicar que los cambios se dirigían a una fuerte centralización, aplicando normas generales en detrinento de las costumbres de cada localidad.

Las innovaciones debieron contrariar a la vieja guardia de funcionarios formados a la sombra del antiguo amin ez-Zobeyr. Y fue precisamente uno de sus más dilectos discípulos, el moqaddem Haddu b. Yusef el Adjenâsi[19], quien a la postre aprovechó el descontento supersticioso creado por una catastrófica avenida del Níger y provocó un violento conflicto. 'Ali et-Telemsâni se sintió inseguro en la Qasba y se aposentó fuera de la ciudad con un grupo de soldados escogidos.

El análisis del incidente nos demuestra que por entonces el modelo de las antiguas relaciones todavía estaba vigente y en plena competencia con el sistema de Dvisiones impuesto por al-Hasan ez-Zobeir. El Pachá et-Telemsâni se encontraba en Tombouctou como un extraño, con su división de los Cheraga desperdigada por las zonas de Tendirma, Asafaï y Wenzaga; cuando desaloja la Qasba los fieles que le acompañan son miembros de la división de Marrakech. Sin embargo el moqaddem Haddu, cabecilla del levantamiento, pertenecía a dicha División. Por el contrario, había más unanimidad en la división de Fez, que no perdonaba a et-Telemsâni la ejecución de su primer comandante.

19. Este personaje ya había intentado enfrentarse a et- Telemsani cuando éste adquirió el señorío de Tendirma.

Para deshacerse de Mahmud Longo y de su consejero Mami b. Barrun --que apenas sobrevivieron un par de meses a su deposición--, el nuevo Pachá había aprovechado una excelente coyuntura. Desde 1610 los habitantes del Draa y luego los de Tafilalt habían estado sometidos a las más crueles extorsiones por parte de el-Hadj el-Mir, gobernador de Mulây Zidân en aquellas tierras (Henin : 149 ss). abû Mahalli[17], el morabito más prestigioso del desierto, había aprovechado el descontento para apoderarse de lo que había sido el feudo de origen de los saadíes; luego se apoderó de Marrakech, apenas seis meses antes de la autoproclamación de 'Ali et-Telemsâni como Pachá.

No debe olvidarse que el qa'id 'Ali comandaba la división de los Cheraga, enemigos jurados del derrotado Mulây Zidân y aliados del morabito usurpador; ni tampoco que su pariente el qa'id Azuz se había unido con sus uazguiti a la causa de Abû Mahalli (Henin : 213). De ahí que el nuevo Pachá completase el giro de los acontecimientos jurando fidelidad a Abû Mahalli y convenciendo a los soldados de Tombouctou y djenné a hacer lo mismo --pese a su inicial resistencia-- en abril de 1613.

3. La revancha de Mulãy Zidãn

Pero mientras tanto la situación en Marruecos había dado un vuelco. Un venerado morabito del Sus llamado Yahya[18], ante la petición de ayuda de Mulây Zidân, reunió un fuerte ejército contra Abû Mahalli :

> "...a 23 de octubre de 1613 años el marabuto Haya bajó con muchos bárbaros de las montañas de Sus, en los llanos de Marrakech, y dio batalla al marabuto Rey de Marruecos y lo venció; y lo mató a él y a toda su gente y entre ellos al alcaide Azus, el postrero que quedaba de los alcaides viejos" (Henin : 251).

Tanto Henin como al-Ifrani sospechan que Yahya es-Susi quería alzarse por rey; pero luego rectificó y entregó el reino a Mulây Zidân. El efecto fue fulminante en la Curva del Níger. La guarnición de Djenné reprochó vivamente a los arma de Tombouctou que la hubieran obligado a romper el juramento de obediencia al legítimo soberano de Marruecos. Junto con los soldados de Gao hicieron que el conjunto del ejército volvieran a la fidelidad de la dinastía saadí.

17. Sidi Abû'l Abbâs Ahmad b. Abdullah es-Sauri (Nuzhat : 325).
18. Abû Zakaria Yahia b. Abdallah b. Saïd el-Hahi ed-Daudi (Nuzhat : 339).

Mahmud Longo como una figura meramente simbólica durante los cuatro años y medio que siguieron.

Este relevo fue providencial para los arma. El estado de revuelta general entre los pueblos de su entorno hacía necesario un jefe enérgico y con carisma para hacerle frente. Durante los terribles años de 1608 y 1609, mientras que en Marrakech Mulây Zidân asistía impotente a la consolidación del emirato de Iligh y su progresiva conquista del Sus, las orillas del Niger fueron el escenario de épicas luchas --y también forzadas componendas-- donde se jugada la supervivencia del Pachalik. El principal antagonista era el poder songhay refugiado en el Dendi --aguas abajo del Niger-- que agotaba así sus últimas energías antes de sumirse en la impotencia.

El instigador último del estado general de criiis había sido el principe indigena de Djenné[16], que por razones políticas sólo fue castigado con una multa pecuniaria. Sin embargo, el Pacha Mahmud quería un chivo expiatorio y, contra la opinión de et-Telemsâni, ordenó en 1611 la ejecución del kala-Cha'a Mohammed, uno de los presuntos colaboradores del djenné-Were. Esta especie de "insubordinación " de Mahmud Longo debió molestar fuertemente al qa'id et-Telemsâni, que quizá desde ese momento tomó la decisión de eliminar los últimos restos de poder del Pachá títere.

Pero la seguridad del país tenía prioridad. En el verano de 1612 se encontraba ya et-Telemsâni en las marcas del Pachalik para proveer a su defensa. Y en efecto, hubo de adentrarse en el Binka --a la orilla derecha del Niger-- para cortar el paso a una gran expedición songhay que venía del Dendi. Los dos ejércitos se formaron "uno frente al otro, luego se separaron sin combate dándose la espalda para tomar dos direcciones opuestas" (Ta'rikh al-Sudán : 307). Fue el reconocimiento de hecho de un equilibrio que ya venían demostrando los encuentros de los años precedentes.

Con el convencimiento de tenter asegurado el país a medio plazo, el qa'id 'Ali et-Telemsâni volvió a Tombouctou y asumió así la cadena de nombramientos legales, que nunca más volvieron a producirse.

---

16. Su título era Djenné-Were (en lengua marka) o Djinni-koï (en songhay). La ciudad de Djenné y su rico y poblado territorio nunca fueron colonizados por los *arma*, que se limitaban a mantener una fuerte guarnición para asegurar la cabecera de su emporio fluvial. Es un caso típico de *indirect rule*, donde el gobernador militar sólo se relacionaba con los indígenas a través del Djenné-Were.

Ante ese cúmulo de problemas, el Pacha Mahmud quiso reafirmar su posición llamando a su lado al hombre fuerte del momento, el qa'id 'Ali et-Telemsâni, pero fue disuadido por su sabio consejero Mami b. Barrun[13], que le previno contra 'Ali y su ambición de poder. Desgraciadamente para Mahmud, la situación siguió empeorando. El comandante de Fez Mo'allem Selimán, una vez fallecido su protector el-Hasan ez-Zobeir, se sintió liberado de sus lazos de lealtad y aumentó sus agresivas exigencias.

Tampoco ayudaría a la estabilidad del Pachalik el regreso del desterrado Ahmad-Bâbâ en abril de 1607, que sin duda fue interpretado por los letrados de Tombouctou como símbolo y arranque de un renacimiento de su influencia en la ciudad.[14] Téngase en cuenta que en un país africano de aquella época la legitimidad del gobernante venía de su especial relación con la divinidad (en los pueblos animistas), de su cualidad de jefe de los fieles a los ojos de los musulmanes (Tymowski 1990 : 40) o de sus poderes mágicos. Ninguno de estos caracteres se daban en el Pachalik, que dependía para su legitimación "religiosa" del sultan de Marruecos[15]. Pero el califato marroquí pasaba por una época de crisis aguda : de 1606 a 1613 Marrakech cambió de manos ocho veces, por no hablar del casi absoluto bloqueo de las comunicaciones subsaharianas impuesto el resurgir de los letrados como contrapoder en Tombouctou debió adquirir gran pujanza.

Acosado por todas partes, Mahmud Longo acabó por escorger lo que le parecía el mal menor. Hizo venir al qa'id 'Ali, cuyo primer acto fue la ejecución sumaria del comandante Mo'allem Seliman (Ta'rikh al-sudan : 296). El pánico se apoderó de los habitantes de Tombouctou al ver dentro de la ciudad y con plenos poderes a quien la propaganda oficial difundida por los partidarios del amin ez-Zobeir había calificado como su peor enemigo ; pero pronto se calmaron los ánimos y 'Ali et-Telemsâni se instaló en Tombouctou, donde gobernó con mano de hierro los asuntos del Pachalik, quedando de hecho

13. La historia de este personaje, eminencia gris del Pachalik desde su llegada al Niger acompañando a Mahmud Zergun, merececería un estudio monográfico.

14. los letrados y religiosos fueron siempre, al margen de su funión mediadora, un contrapoder frente a los arma. Algunos autores (cfr. E.N.Saad: Social history of Timbuktu, Cambridge University press, 1983) llegan a considerarlos el grupo hegemónico en la historia del Pachelik, salvo el breve paréntesis iniciado con el destierro masivo de 1594.

15. De ahí viene, posiblemente, la especial fidelidad que los arma profesaron durante toda su historia al gobernante de la antigua metrópolis.

el-Arfawi, de la división de Fez- se reveló como un hombre indócil, causante de innumerables dificultades para el Pacha Mahmúd. Finalmente, no era hombre et Telemsâni para permancer pasivo ante una agresión de ese calibre. Con las tropas bajo su influencia creó una tercera división, la de los Cheraga, cuya existencia rompía el esquema organizativo de al-Hasan y anulaba los efectos de su maniobra.

El poder y prestigio del señor de Tendirma crecieron sin cesar ante un Pacha contestado por su comandante de la división de Fez y en delicada situación política por tener su nombramiento de un Sultán derrotado y depuesto. De hecho, la precariedad de la permanencia de Mahmud Longo en el cargo se puso pronto de manifiesto. Cuando Mulây Zidân arrebató Marrakech a 'Abdallah b. ech-cheij en febrero de 1607, uno de sus primeros designios fue sustituir a Mahmud, reponiendo a Solimán en su antiguo puesto de Pacha de Tombouctou:

> " Al cabo de tres meses de descanso [de la batalla contra 'Abdallah, Mulây Zidân] mandó pregonar paga y dió orden al bajà Solimàn, cordobès, que recogiese a si los soldados xaracas que habían quedado de los de Muley Abdalà. Junto con ellos algunos seiscientos, les dió seis meses de paga y armas y vestidos y, con algunos renegados y doscientos de a caballo, les envió con el bajà Solimán a Tafilete con orden de que se quedasen allí hasta que le enviase orden de ir por virrey al Reino de Gago y llevar toda aquella gente consigo" (Henin : 63).

Pero los cheraga de su tropa, dirigidos por Sa'id b. obeïd (Ta'rikh al-Sudán : 295), aprovecharon la primera ocasión para decapitar a Solimàn y huir al reino de Fez. Mulây Zidân mandó matar en represalia "a todos los xaracas que vivían ciudadanos en Marruecos[12], hasta a las mujeres y criaturas (Henin : 66). Tal matanza marcó el comienzo del odio irreductible entre Zidân y los cheraga, quienes juraron no avasallérsele en ninguna circunstancia.

2. El encumbramiento del Qa'id 'Ali Et-Telemsani

Mientras tanto, las cosas iban de mal en peor en el Pachalik. A la indocilidad del comandante de Fez se unió, en 1608, un estado de fronda generalizada entre los pueblos antes sometidos al Imperio Songhay y "heredados" por los marroquíes, al ver en los desordenes de la metrópolis una oportunidad para escapar del dominio exterior.

---

12. Conociendo el estilo de jorge de Henin, no es posible dilucidar si se trataba de los cheraga vecinos de Marrakech o de todos los qu vivían en el reino de Marruecos, sobre todo en Dukkala, aposentados allí por 'Abd al-Malik (Henin : 79).

obeïd, entonces gobernador del Kissu[10], se sintió en peligro - probablemente por algun problema tributario con el amin- y corrió a buscar la protección de et-Telemsâni, quien se negó a devolver al fugitivo.

Al-Hasan ez-Zobeyr inicia entonces una serie de maniobras para erradicar lo que él consideraba un cancer que acabaría con el Pachalik. De acuerdo con Mahmud Longo, hizo jurar a todos los soldados que, en adelante, ninguno se pasaría a los dominios de et-Telemsâni. A continuación envió a éste un mediador, un santo hombre que, exhortandole a "no destruir la organización de este ejército", logró convencerle para que devolviera al fugado 'Ali b. Obeïd.

Envalentonado por este éxito parcial, el amin se dispuso a reorganizar las tropas de manera que quedasen todas, bajo su control. Dividió al ejército en un ala derecha, llamada de Fez, a la que se subordinó el contingente de los aluchi ; y en un ala izquierda o de Marrakech, bajo cuyo mando quedaron los andalusíes. Seguro de la protección del omnipotente qa'id Azuz, que ya lo había defendido cuando fue acusado de cohecho por el Pacha Solimán, al-Hasan pretendía que esa medída le había sido dictada por el propio Sultán Abû-Fâres. Naturalmente, la maniobra culminó con el nombramiento de dos marroquíes de su confianza para los puestos de comandantes de ambas divisiones del ejercito. La pronta muerte de al-Hasan al-Zubayr en diciembre de 1606[11] apenas le dió tiempo para darse cuenta de sus errores de cálculo.

En primer lugar, el qa'id Azuz debió permanecer neutral ante la jugada de al-Hasan porque iba dirigida contra et-Telemsani, tío de uno de sus hijos. En segundo lugar, Azuz perdió todo su poder en el Makhzen con la derrota de Abû- Fâris (14 de noviembre de 1606) a manos de su sobrino 'Abdallah b. ech-Cheikh. Para colmo, uno de los comandantes designados por al-Hasan -Mo'allam Selimán

---

10. La fértil región que se extiende al oeste de Tombouctou hasta Goundam y formada por las provincias de killis y kessu, fue el objeto preferente de la colonización de los arma.

11. El Ta'rikh al-Sudán (p. 294) sitúa erróneamente el deceso en la primavera de 1607, en contradicción con lo que se dice otros lugares. Además, Abû-Fâris había nombrado nuevo amin a Amer, hijo de al-Hasan --quizá por enfermedad de éste y a su instancia-- antes de su derrocamiento en noviembre de 1606. Eso explica que el nuevo amin apareciera con sus credenciales en Tombouctou ocho días después de la muerte de su padre (Ta'rikh al-Sudán : 295).

Este 'Ali et-Telemsâni, según nos cuenta el Ta'rikh al-Sudán (239-254), era hijo de uno de los principales qa'ids de Fez en época de al-Mansur. cuando su padre murió, fue designado para ocupar su plaza; pero la conducta libertina y disipada que llevaba le hizo perder pronto toda popularidad. No obstante, su cuñado el poderoso qa'id Azuz quiso redimirlo enviandole al Sudán como lugarteniente de una columna, probablemente de extracción cheraga, destinada a reforzar el ejército de Mahmud Zergún (Pacha entre 1591 y 1595). Ascendido de nuevo a qa'id por muerte de sus superiores, "realizó las más extraordinarias acciones hasta el punto que se le citaba como modelo en todas las circunstancias dificiles o críticas". su carta al Sultán se referia a la falta de medios para financiar las numerosas expediciones a emprender y la guarda de las plazas fuertes (Ta'rikh al-Sudan : 292).

A su vuelta a Tombouctou, Ahmad b. Yusef el-Euldji trajo una orden de Abû-Fâris otorgando a et-Telemsâni la villa de Tendirma con todas sus rentas; esta concesión, entre otras cosas, puede interpretarese como el primer paso hacia una feudalización del territorio conquistado que con el tiempo se extendería por doquier. El qa'id 'Ali, a la sazón en Wenzaga[9] para defender los límites occidentales del Pachalik, se dirigió a Tendirma; ante esa noticia el gobernador designado por al-Hasan al-Zubayr huyó despavorido, provocando la ira del amin, que perdía así una de las más ricas plazas bajo su administración.

El Ta'rikh al-Sudán deja entrever que 'Ali et-Telemsâni, con un gran poder autónomo y cargado de prestigio, era un foco de atracción para los soldados descontentos de sus qa'ids, perseguidos por intrigas palaciegas o siplemente deseosos de gloria y botín. Este goteo de refuerzos engrosaba las filas de su tropa de primera línea, pero a la vez irritaba a las autoridades del Pachalik por dos razones: primero, porque ponía fuera de su alcance a gente que a su juicio debía ser castigada; y segundo, porque reforzaba a un peligroso rival en potencia.

Poco después de la infeudación de Tendirma, una defección de importancia colmó la paciencia del amin al-Hasan: el cheraga 'Ali b.

9. Wenzaga (Wandyaqa) está en la orilla del Níger, a 25 kilómtros aguas bajo de Mopti; el viejo asentamiento de Tendirma era la capital de una provincia que, con el kessu y el killi, constituía la zona central de colonización en la región de Tombouctou.

Aunque Djawdar tenía el mando del ejército de Abû-Fâris, éste creyó conveniente llegar a un acuerdo con ech-Cheikh y enviarlo a la batalla "a la cabeza de seiscientos hombres tomados en los diversos cuerpos de tropa que al-Mansur había reunido con la intención de enviarlos a Gao" (Nuzhat al-Hadi : 311). Esta medida tuvo excelentes resultados: los soldados que trajo consigo Mulây Zidân no quisieron pelear contra su autiguo señor y el invasor, derrotado, hubo de huir a Fez. Djawdar tenía "orden secreta de tornar a prender a Muley Xeque (ech-Cheikh) después de haber tenido la victoria" (Henin: 19). Pero éste marchó sobre Fez acompañado por sus fieles y Djawdar debió volver a Marrakech sin él. Esto provocó el disgusto de Abû-Fâris, quien decidió (por consejo de su gran privado el qa'id Azuz[6]) debilitar la posición de Djawdar en el ejército trayendo del Sudán a alguien con tanto prestigio como el eúldj cordobés Solimàn, entonces Pachà de Tombouctou.

Para substituir a Solimàn envió al qa'id Mahmud Longo (sevillano de nacimiento, segun Henin), que llegó a Tombouctou en julio de 1604. Mahmud había pedido al qa'id Azuz que le permitiese llevar como lugarteniente a Muhammad al-Mâssi, preso en Marrakech por fomentador de disturbios. De ese modo el nuevo pacha se aseguraba el concurso de la tribu Mâssa, que aportó casi la totalidad del séquito de más de 300 soldados que consiguió llevar consigo a Tombouctou. Este contingente contribuyó a modificar en el Sudàn la correlación de fuerzas entre extranjeros y marroquíes.

Una vez traspasados los poderes, Solimán volvió a Marrakech llevando consigo mucho oro de atiber[7]. En consonancia con las razones políticas que habían aconsejado reclamarlo a la capital, fue muy bien recibido por Abû-fâris y confirmado en su antiguo cargo de caballerizo mayor (Henin : 21).

Pero más relevante que la vuelta de solimán resultó ser, a la larga, la del qa'id de Yenné Ahmad b. Yusef el-Euldji, también reclamado por el Sultán, presumiblemnte para ser informado en directo por alguien de confianza de la corte. Lo realmente crucial es que el qa'id Ahmad llevaba consigo una carta petitoria de 'Ali et-Telemsâni[8] que a la larga iba a desencadenar graves consecuencias.

6. 'Abd al- 'Aziz b. Sa'id al-Uzkîtî, hombre de confianza de al-Mansour y Luego de su hijo Abû-Faris.

7. Polvo rojiro de oro en bruto (*or de tibre*, en francés de la época, de la árabe *tbr*).

8. 'Ali b. 'Abdallah al- Tilimsâni

De esa forma, las contradicciones se dulcifican y muchas lagunas se colman, diseñando en conjunto un cuadro que demuestra no sólo como algunos acontecimientos tienen su réplica puntual al otro lado del desierto, sino sobre todo que existe un telón de fondo comùn que condiciona simultaneamente a Marruecos y Tombouctou.

Nuestra recapitulación e interpretación del periodo gira en torno a un hecho altamente significativo : el cambio organizativo que experimenta en torno a 1605 el ejercito conquistador del Sudán. Hasta entonces, los aluchi o "renegados"[4] integraban el ala derecha de la formación de batalla, los andalusíes (moriscos) la izquierda, y los marroquíes la fuerza auxiliar de lanceros. El amin de Tombouctou al-Hasan al-Zubayr, afirmando que actuaba bajo un pretendido mandato de Abû-Fâris que sólo él conocia (Tārīkh as-Sūdān : 111)[5], reestructura a las fuerzas en dos divisiones: la de Fez, que incluye como subordinado al cuerpo de los moriscos. Con esta operación, los marroquíes asumen el protagonismo y el poder que antes estaban en manos de los extranjeros.

Para un historiador que se acerque a los hechos de manera superficial, las razones de este viaje resultan obvias: fue un simple episodio en la lucha entre dos cabecillas locales que se disputaban la hegemonia en el Pachalik. Sin embargo, un análisis de la cadena de acontecimientos que desembocó en esa trascendental reorganización da a entender que sus causas fueron muy distintas de las que parecen evidentes.

1. Guerreros versus recaudadores

El arranque del episodio tiene como marco las luchas dinásticas entre los hijos de Ahmad al-Mansûr. Cuando Abû-Fâris fue proclamado Sultàn en Marrakech gracias al apoyo del Pachà Djawdar y el qa'id Ahmad b. Mansûr Corito (Henin:18), su hermano Mulây Zidân vino a darle batalla desde Fez con un ejército compuesto en su mayor parte por antiguos soldados de ech-Cheikh, el tercer hermano en discordia y a la sazón preso en poder de Abû-Fâris.

4. Aunque la costumbre ha impuesto que se traduzca aluchi (uldji) por "renegados", es bien sabido que el término significa propiamente "extranjeros al servicio del Sultan". Y aunque es cierto que la mayoría de los aluchi de la época eran antiguos cristianos convertidos al Islam (freucuentemente con muy poco fervor), también había no pocos musulmanes del Mediterrànco especialmente turcos.

5. Los números de página que remiten a citas del Ta'rikh al-Sudán o del Nuzhat al-Hadi se refieren a la traducción y no al texto árabe.

La marroquinizacion del ejercito conquistador del Sudan

Torcuato Perez de Guzman Moore
Université de Valence

La larga historia del Pachalik de Tombouctou ha tenido periodos cruciales, llenos de acontecimientos relevantes para su devenir posterior. Uno de estos periodos de gran trascendencia es el que abarca desde la muerte de Ahmed al-Mansur[1] hasta la de su hijo Mulāy Zidān[2] (1603-1627). Son unos años en que Marruecos también se ve sometido a las convulsiones que acompañaron a la decadencia de la dinastía saadí. Un análisis integrado de las fuentes históricas pone en evidencia que este paralelismo entre la metrópolis y sus recientes conquistas sudanesas no es obra de la casualidad, sino consecuencia de las influencias mutuas de los sucesos acaecidos a uno y otro lado del Sahara. En este trabajo se han utilizado fundamentalmente tres fuentes : el Tārīkh al-Sūdān, el Nuzhat al-Ḥādī y el Memorial de Henin. Este ùltimo documento, relativamente poco conocido, es de singular valor por su detallada relación de las luchas que, como un sangriento y prolongado ballet, enfrentaron a los pretendientes a la sucesión de al-Mansur ; su autor, un aventurero flamenco que luego sirvió largos años a la política exterior española, fue en buena parte-por su condición de consejero de Mulāy Zidān-testigo presencial de los hechos que consigna en su informe de 1641 al rey Felipe III.

Para compaginar la informacion proporcionada por tres textos tan disímiles es necesario hacer una lectura crítica de ellos, teniendo en cuenta el propósito y los presupuestos ideológicos de cada autor.[3].

1. Abū l-ᶜAbbās Aḥmad al-Manṣūr al-Dhahabi.
2. Abū l-Maᶜālī Mawlāy Zaydān.
3. Así ha de tomarse en consideración el peculiar afán cultista y la aversión a los saadíes que caracterizan a al-Ifrani ; o el prurito de es-sa'di de establecer la preeminencia del estamento letrado y religioso de Tombouctou. En cuanto a jorge de Henin, su Memorial se encamina a convencer a Felipe III para que conquiste Marruecos; de ahí cabe sospechar una exageración respecto a la pérdida de capacidad y técnica militar en los ejércitos marroquíes.

économique liés à l'occupation par le Maroc des salines de Taghaza, ce qui créa de sérieux problèmes de trésorerie au Songhay. Il y a également, la crise morale dénoncée avec véhémence dans les deux *Tārīkhs*. Il y a enfin, la grave crise qui, à la veille de la conquête marocaine, a ébranlé l'armée Songhay à travers des mutineries et une guerre civile durement réprimées.[123] C'est en définitive, en considérant un large faisceau de facteurs, aussi bien proches que lointains, internes qu'externes, qu'il est possible d'aboutir à une interprétation objective et raisonnée de la bataille de Tondibi.

En guise de Conclusion

A travers les différentes catégories de la bataille de Tondibi, il a été possible de procéder à la décantation et à la mise en rapport des facteurs qui l'ont modelée : contraintes issues des mutations techniques, des considérations économiques, politiques et idéo-religieuses. Les chroniqueurs et historiens, dans leurs commentaires et interprétations, ont eu tendance à mettre en exergue et à privilégier le facteur technologique qui fait apparaître une nette disparité entre les troupes marocaines dotées d'armes modernes et les troupes songhay munies d'armes archaïques. La conquête marocaine du Songhay s'apparenterait ainsi aux conquêtes de Cortez et de Pizarro qui, en quelques années, grâce à une poignée d'hommes disposant d'armes à feu, firent s'effondrer les prestigieux empires Aztèque et Maya au 16ème siècle.[120] Ce point de vue cadre avec la théorie selon laquelle l'art militaire tout entier dépend, dans son ensemble, des moyens techniques, du caractère de l'armement et se réorganise selon les exigences présentées par les armes nouvelles.[121] Appliquée à la bataille de Tondibi, cette théorie est partiellement juste car dans une grande mesure, la disparité technologique décida de l'issue de la bataille où la charge traditionnelle de la cavalerie et le choc de l'infanterie ont été mis en question par l'effet dévastateur des armes à feu.

Cependant, si l'on se situe dans un contexte plus large, qui tienne compte des événements militaires dans la moyenne durée, il importe de nuancer l'idée de la toute puissance des armes qui, selon certains, constitue une théorie mécaniste, subjectiviste et unilatérale.[122] L'enlisement des troupes marocaines dans les sous-bois et les marécages du Dendi, l'effet dévastateur des flèches empoisonnées sont, de ce point de vue, riches d'enseignements.

Tout en considérant le pouvoir dévastateur et l'effet de surprise que procurèrent les armes à feu, il importe de mettre en rapport d'autres facteurs qui ont modelé la bataille de Tondibi. Il y avait tout d'abord des facteurs d'ordre politique que l'auteur du *Tārīkh as-Sūdān* a bien perçu, lorsqu'il évoqua ce régime "féodal" où les vassaux ne songent qu'à détruire l'unité du pays et favorisent les attaques venues du dehors. Il y a ensuite, des facteurs d'ordre

---

120. Perré, J., *op. cit.*, p. 231.
121. Lénine, *op. cit.*, p. 213.
122. Mao Tsé Toung, *op. cit.*, p. 69.
123. *TF.*, p. 230 - 31.

contre une armée totalement désorientée. Ici, l'humidité et le couvert végétal constituèrent même un handicap pour les fusiliers, et l'arme à feu dans cet environnement, perdit quelque peu de sa suprématie. Par contre, les flèches empoisonnées des archers songhay faisaient des ravages dans le camp adverse. Le Pacha Maḥmūd, qui avait remplacé Djouder à la tête de l'expédition, fut lui-même atteint par des flèches et mourut ; sa tête détachée fut envoyée à l'Askya Nūḥ.[113]

Sous l'effet des intempéries et des maladies provoquées par les parasites tropicaux, les troupes marocaines, déjà affaiblies par les pénuries alimentaires, se décimèrent littéralement. A Gao, le paludisme fit des ravages et en dix-sept jours, il mourut 400 hommes; le Pacha Djouder lui-même fut atteint par la maladie.[114] Ailleurs, l'eau attaqua les intestins des hommes, provoqua la dysenterie et en fit mourir un très grand nombre.[115]

Incapable d'assurer le contrôle d'un si vaste espace et manquant du support des populations[116], le corps expéditionnaire marocain fut réduit à occuper quelques centres urbains et les principales voies de communication. Des forteresses (*qaṣba*) furent construites en différents lieux, pour la sécurité et la retraite des troupes et pour dissuader les mouvements de révolte.[117] Les deux plus grandes forteresses furent édifiées à Tombouctou et à Gao. Le Pacha Maḥmūd fit également bâtir une qaṣbah dans la ville de Kolen, où il installa une garnison de 200 fusiliers sous le commandement du Caïd ᶜAmmār-al-Fatā.[118]

En définitive, ni la puissance des forteresses, ni les nombreux renforts et détachements de relève[119] envoyés au Soudan ne purent venir à bout de la résistance, et jamais les marocains ne réussirent à s'emparer du Dendi.

114. De Castries, *op. cit.*, p. 453 - 454.
115. *TS.*, p. 239.
116. Kaba, Lansiné, *op. cit.*, p. 23.
117. *Anonyme*, p. 477.
118. *TS.*, p. 237.
119. *Ibid.*, p. 232.

L'Askya Isḥāq II, en se retirant, put sauver l'essentiel. Son armée était certes sortie éprouvée de cette terrible bataille, mais ses ressources allaient même favoriser un retournement de situation, les forces se modifiant par rapport à ce qu'elles étaient au début du conflit. S'étant soustraits à l'opération offensive de décision rapide planifiée par Djouder, les songhay entraînèrent le corps expéditionnaire marocain dans une guerre prolongée. Comme le souligne Mao Tsé Toung[110], dans ce genre de guerre, la supériorité du conquérant se trouve réduite lorsqu'il se heurte à des facteurs tels que l'étendue du territoire, l'immensité de la population, l'importance numérique de son armée, et sa résistance acharnée dans la guerre nationale. C'est en d'autres termes, la théorie de la dilution tactique de la violence dans le temps et dans l'espace.[111] Les Songhay vont ainsi adopter une stratégie de type indirect qui, à travers l'histoire, est l'une des caractéristiques essentielles de la guerre de partisans : il s'agit, par la multiplication des actions de petite guerre (guerrilla), trop fluide et malaisément computable, de harceler l'ennemi et de l'épuiser avant de l'anéantir.

La guerre de partisans a également pour caractéristique, l'extension de la base sociale du conflit, qui prend des allures de guerre populaire. C'est ainsi que :

> "Amar, huissier du qāḍī ᶜUmar (...) donna l'ordre aux habitants de se soulever pour combattre les marocains. Cet ordre fut donné la nuit même et le lendemain matin, toute la population était en armes, prête à combattre les marocains".[112]

Les conditions écologiques elles-mêmes favorisèrent la résistance songhay et l'épuisement du corps expéditionnaire marocain. L'Askya Nūḥ qui avait pris la tête de la résistance, s'était replié dans le Dendi, la province la plus méridionale de l'Empire, à cheval sur le Bas-Niger, entre Niamey et les rapides de Bousso. Cette zone humide, marécageuse et boisée allait modifier le cours de la guerre et soumettre les marocains à des conditions tropicales particulièrement difficiles. Dans les forêts-galeries, les songhay multiplièrent les embuscades, les suprises et les coups de mains

110. Mao Tsé Toung, *De la guerre prolongée. Pékin* 2ème éd., nov. 1960, p. 11.

111. Charnay, J.P., *Stratégie terresire...*, p. 16.

112. *TS.*, p. 240.

113. *Ibid.*, p. 268.

Il serait intéressant de mesurer l'acharnement de la bataille de Tondibi et les phénomènes d'exultation et de panique en considérant les pertes subies. La nature des sources ne rend pas la tâche aisée car souvent les chroniques se limitent à des généralités : ainsi, de façon laconique, le *Tārīkh as-Sūdān* indique "qu'il périt en ce jour un grand nombre de personnes parmi les fantassins".[107] L'unique décompte précis est fourni par l'auteur du *Tārīkh al Fattāsh* et concerne le tout premier choc et la mêlée qui s'en suivit : Les marocains tuèrent 34 songhay et les songhay blessèrent 13 marocains dont 5 tombèrent. Il est certain que la puissance de feu des marocains et la farouche détermination dans les deux camps furent à l'origine d'un taux de mortalité inouï durant cette fatidique bataille de Tondibi. A la tombée de la nuit, alors que les armes s'étaient tues, Tondibi devait offrir un spectacle macabre avec un nombre impressionnant de blessés et de morts, parmi lesquels les éléments de la Sounna qui, au terme d'une résistance héroïque, furent presque tous égorgés.[108]

4.4. La retraite stratégique

Tondibi apparaît comme une bataille stratégique décisive où se joue le sort de l'Empire songhay. Les marocains, bénéficiant d'une puissance de feu extraordinaire, ont planifié une opération offensive de décision rapide. A Tondibi, ils remportèrent la victoire mais sans pour autant gagner la guerre. L'armée songhay n'aura pas connu un échec total, mais une défaite partielle et temporaire, et la retraite stratégique à laquelle se résolut l'Askya Isḥāq II s'avèra salutaire. Cette retraite fut éxécutée selon un plan et décidée pour sauver une armée confrontée à un adversaire de force supérieure dont elle ne s'estime pas capable de briser l'offensive dans l'immédiat. Il fallait préserver ses propres forces et attendre le moment propice à une contre-offensive stratégique. C'est l'Askya Alfa qui formula en ces termes, cette proposition et réussit à convaincre le souverain songhay :

> "Crains Dieu, ne va pas au devant de la mort, ne fais pas tuer tes frères et ne fais pas périr tous les songhay à la fois et en un seul lieu (...). Nous te demandons d'éloigner tes hommes aujourd'hui des atteintes de ce feu. Ensuite, nous réfléchirons à ce que nous devons faire et demain nous reviendrons au combat, résolus et décidés".[109]

---

107. *TS.*, p. 219.
108. *Anonyme*, p. 472.
109. *TS.*, p. 265.

de l'armée de l'Askya et repoussant les ennemis qui cherchaient à la rejoindre".[102]

Un autre témoignage éloquent de l'extrême vaillance des troupes songhay est relaté par l'*Anonyme* qui décrit des guerriers poussant si en avant les troupes de Djouder, qu'ils prirent une barrière de renégats.[103] L'exaltation la plus spectaculaire lors des combats de Tondibi, reste l'acte collectif posé par l'unité d'élite que constitue la Sounna. La conscience de leur prestige, l'esprit de corps, la bravoure inouïe et leur fidélité sans faille à la personne de l'Askya déterminèrent les éléments de la Sounna à accepter stoïquement le sacrifice suprême, comme en témoigne le *Tārīkh al-Fattāsh* :

> "Lorsque les compagnons de l'Askya virent qu'il avait tourné bride et s'enfuyait, aucun d'eux ne demeura sur place à l'exception de ceux qu'on appelait Sounna et qui étaient au nombre de 99. Pas un seul ne bougea ; ils restèrent assis à l'abri de leurs boucliers et c'est dans cette posture que les compagnons de Djouder les trouvèrent et les tuèrent tous jusqu'au dernier".[104]

Dans le camp marocain également, des actes de bravoure inouïe sont rapportés par les chroniqueurs qui louent l'effort individuel du guerrier agissant avec bravoure et panache et chantent la victoire des étendards hachémites.[105]

Dans ses multiples actions, la bataille de Tondibi fut également le théâtre de panique dont il est facile de retracer le processus. Les tirs de fusil et surtout l'artillerie ont eu un grand effet, ébranlant les nerfs des soldats qui pour la première fois découvrent ces armes terrifiantes. Dès lors, le combattant songhay constate, à son grand dam que le courage personnel et la volonté d'en venir au corps à corps sont devenus impuissants face à des armes servies par des hommes qui dispensent la mort à distance. Aussi, souligne l'auteur du *Tārīkh al-Fattāsh*, la poussière et la fumée enveloppèrent la foule des combattants et Dieu jeta la frayeur et la crainte dans les rangs de l'armée songhay[106] qui laissa sur le champ de bataille de nombreux morts.

102. *TS.*, p. 266.
103. *Anonyme*, p. 472.
104. *TF.*, p. 265, également *TS*, version presque identique.
105. Lettre d'al-Manṣūr, in De Castries, *op. cit.*, p. 486.
106. *TF.*, p. 263.

confrontation, les exhortations ne manquèrent pas pour réveiller le sentiment patriotique ainsi que les chants et récits des griots[97] relatant les hauts faits d'armes de la dynastie des Askya. Des procédés mystico-religieux devaient également assurer aux combattants songhay un moral à toute épreuve. Bien que musulmans, la plupart des peuples du Soudan avait en effet conservé des pratiques magico-religieuses susceptibles d'assurer aux soldats le don d'ubiquité et l'invulnérabilité. Le *Tārīkh as-Sūdān* rapporte à cet effet, que le jurisconsulte al-Hādj qui vivait à Tombouctou, distribuait du millet sur lequel il avait prononcé certaines paroles. Les soldats qui en consommaient n'avaient plus à redouter les traits de l'ennemi.[98] Aussi, l'armée Songhay était toujours suivie de magiciens qui par leurs sortilèges, devaient contribuer à la victoire.[99]

De part et d'autre, la surexcitation était maintenue par les cris et la musique militaire : l'armée songhay était en effet munie d'une longue trompette appelée kakaki dont se servent les cavaliers ; il y avait également les tambours de guerre qui accompagnaient toujours l'Askya.[100] Quant à l'armée marocaine, elle était accompagnée de joueurs de clarinettes.[101]

Tous ces facteurs créèrent à Tondibi un mouvement d'enthousiasme marqué par de nombreux actes individuels et collectifs d'abnégation. Dans cette perspective, les deux *Tārīkhs* dressent un véritable palmarès, rendant hommage aux chefs militaires ayant le plus manifesté le sens du devoir :

> "Les plus braves des Songhay en ce jour-là, ceux d'entre eux qui montrèrent le plus de hardiesse et de force de caractère, furent le Balamâ Muhammad Gao, fils de l'Askya Dāwūd, ᶜUmar fils de l'Askya Isḥāq, le Goreï-Farma ᶜAliou et le Bârei Koi Tabakali l'eunuque. Ils ne cessèrent, après la fuite du gros de l'armée, de s'exposer délibérément aux situations les plus périlleuses, allant et venant partout, pressant les derrières

---

97. Dans le Soudan occidental, les griots détenteurs de la tradition, conseillers des souverains, moralistes et parfois sortes de troubadours occupent une place importante.

98. *TS.*, p. 46.

99. *Ibid.*

100. *TF.*, p. 234, note 2.

101. *TS.*, p. 302.

A Tondibi également, les marocains purent déjouer le stratagème des songhay. Selon une première version, Djouder ouvrit à dessein des couloirs dans son armée, par où s'engouffrèrent les vaches.[92] Quant à l'auteur du *Tārīkh al-Fattāsh*, il affirme que lorsque les vaches commencèrent à entendre le bruit de la fusillade, elles se retournèrent, suffoquées et affolées contre les soldats de l'Askya, et bousculèrent un grand nombre d'entre eux dont la plupart moururent.[93] Il est fort probable que les deux scénarios aient opéré concomitamment.

4.3. Le moral des combattants et les manifestations d'héroïsme

L'importance de l'élément psychologique à la guerre est indéniable. La guerre, en effet, apparaît comme une tumultueuse manifestation des sentiments les plus variés : la peur, l'honneur, le désespoir, la haine de l'ennemi[94], mais également l'enthousiasme et l'héroïsme qui conduisent parfois au sacrifice suprême pour la défense de la patrie. Aussi est-il indipensable d'évoquer le climat moral des troupes et l'état d'esprit des combattants au cours de cette bataille décisive de Tondibi.

Du côté marocain, il faut d'emblée écarter l'exaltation liée au *jihād*. Ici, la guerre fut essentiellement étrangère à toute finalité religieuse. Au contraire, elle opposa deux peuples qui sont "frères en religion".[95] Il faut par ailleurs considérer que l'armée de Djouder, constituée en majorité de mercenaires, n'était mue par aucun sentiment patriotique. Pour ces renégats, l'amour du butin, celui de la gloire et l'attrait des aventures sont les seuls fondements d'une quelconque motivation. Aussi, la nuit précédant la bataille, Djouder parla à ses soldats, les encourageant au combat ; il leur promit le sac de Gao et leur donna 24.000 onces lui appartenant.[96]

Du côté Songhay, par contre, il faut considérer sérieusement l'élan patriotique qui animait une armée et un peuple, conscients du caractère juste d'une guerre conduite pour assurer l'intégrité du territoire national. Il est permis de penser, qu'à la veille de la

92. *Anonyme*, p. 472.

93. *TF.*, p. 264.

94. Lénine, *op. cit.*, p. 364.

95. C'est ce que répétaient les soldats songhay sur le champ de bataille, au moment où on les achevait.

96. *Anonyme*, p. 471 - 472.

Ils font cela pour que les autres soldats, les voyant demeurer fermes, combattent avec plus de courage et ne s'enfuient pas".[86]

A tout point de vue, la disparité était grande entre l'arc et l'arme à feu ; celle-ci assurait un tir plus précis, de portée beaucoup plus grande, avec un potentiel destructeur autrement plus important. A Tondibi, le mousquet, reflet du progrès tactico-technique, détermina une incandescence de la bataille, sans précédent dans les annales du Soudan occidental. L'auteur du *Tārīkh al-Fattāsh* s'en fait l'écho : les balles, écrit-il, volaient au dessus des têtes, allant frapper les gens qui se trouvaient devant ou derrière, à droite ou à gauche.[87]

Les songhay, exposés au feu de la mousqueterie alors que l'armée marocaine était hors de portée des flèches et des sagaies, eurent l'idée d'un assaut vivement mené, qui déboucherait sur le corps à corps. Pour ce faire, ils eurent recours à un stratagème ainsi décrit dans le *Tārīkh al-Fattāsh* :

> "Or l'Askya avait amené mille vaches avec lui et, lorsqu'il avait pris ses positions de combat, il avait fait placer ces vaches entre son armée et l'armée ennemie, afin que les balles tombassent sur elles et que les fantassins, poussant les vaches devant eux, puissent arriver (sans être blessés) au contact direct des marocains".[88]

Ce stratagème, identifié par Ibn Khaldūn chez de nombreux peuples qui emploient la technique de l'attaque et du repli[89], a été expérimenté dès l'Antiquité. Au combat de Zama en 202, les Puniques alignèrent des éléphants, qui effrayés par les cris des légionnaires, se ruèrent dans les couloirs ouverts à dessein.[90] De même, à la bataille de Qādisiya (635) sous le Califat de ᶜUmar, Rustum avait disposé son armée en ordre de bataille et fait placer des éléphants devant les rangs. Ceux-ci rendus furieux par une grêle de traits et des coups de sabre qui frappaient leurs troupes, tournèrent le dos et s'enfuirent.[91]

---

86. *Anonyme*, p. 472.
87. *TF.*, p. 266.
88. *Ibid.*, p. 264.
89. Charnay, J.P., *Principes de stratégie-socio-stratégie selon Ibn Khaldun.* Paris, l'Herne, 1984, p. 320.
90. Perré, J., *op. cit.*, p. 71.
91. Charnay, J.P., *Principes de stratégie*, p. 320.

fleuve pour attendre l'arrivée de l'ennemi[80] tandis que le pacha Djouder, ayant réparti ses troupes en six corps, s'adossa au fleuve même, pour que les ennemis ne puissent l'entourer.[81] Dans l'ensemble, on sait que la topographie de la vallée du Niger présente un terrain découvert, peu accidenté, de dimensions suffisantes pour autoriser des manœuvres de grande envergure.

4.2. Le choc et les tactiques militaires

A Tondibi, Djouder adopta l'ordre de bataille suivant : à l'aile droite, se trouvait la section des renégats comprenant 500 spahis avec leur kâhia (lieutenant-général). L'aile gauche, qui formait la section des Andalous, comprenait aussi 500 spahis avec leur kâhia.[82] A l'arrière, se tenaient les cavaliers gardant les convois. Djouder, lui-même, s'était placé au centre avec son escorte d'esclaves chrétiens.[83] Quant à l'armée songhay, dirigée par l'Askya en personne, elle se déployait selon la formation traditionnelle dite de l'oiseau, les troupes étant réparties en trois grandes formations : deux ailes, le corps et la tête, celle-ci étant formée par l'Empereur et sa garde prétorienne.

Les marocains commencèrent par une manœuvre opérée par leur cavalerie. Celle-ci exécuta des mouvements tournants dans le but de cerner les troupes Songhay[84], avant d'opérer une poussée frontale. Djouder avait fondé toute sa tactique sur une opération offensive de décision rapide, ce qui l'amena à concentrer l'essentiel de ses forces pour anéantir l'ennemi. Dès qu'ils furent à portée de l'armée Songhay, les fantassins marocains, armés de fusils, s'accroupirent sur les genoux pour lancer leurs balles.[85]

Du côté Songhay, la rencontre commença par un tir à l'arc nourri. La technique décrite par l'*Anonyme*, est quelque peu singulière :

> "Au moment du combat, (ceux-ci) plient la jambe et l'attachent au dessus du genou, ils posent ensuite ce genou à terre et lancent de là leurs flèches aux ennemis.

80. *TS.*, p. 219.
81. *Anonyme*, p. 472.
82. *TF.*, p. 263.
83. *Anonyme*, p. 451.
84. *TS.*, p. 265.
85. *TF.*, p. 264.

Il n'y a pas non plus unanimité sur le lieu exact de la confrontation, bien que le nom de Tondibi se soit imposé dans l'historiographie. Maḥmūd Ka^{c}tī écrit à ce sujet :

> "Les marocains reprirent ensuite leur marche. Ils se dirigèrent vers la ville de Kâgho et rencontrèrent sur leur route le prince Askya Isḥāq à l'endroit appelé *Tenkondiboo*, près de Tondibi".[73]

Quant à ^{c}Abd ar-Raḥmān as-Sa^{c}dī, il affirme que la bataille entre l'Askya Isḥāq et les troupes de Marrakech eut lieu à Sonkia, en vue de Tondibi.[74] Cette dernière localité qui signifie en Songhay "la pierre noire" est située sur le fleuve Niger, à 45 km environ en amont de Gao.[75] Il faudrait donc, comme suggère l'auteur du *Tarīkh al-Fattāsh*, croire qu'il y eut en fait une série de batailles, peut être trois, auxquelles se livrèrent les deux armées aux alentours de Tondibi.[76]

Il est intéressant de s'interroger sur la durée de la confrontation, ce qui permet de se faire une idée sur l'intensité des combats. Le *Tārīkh as-Sūdān* affirme de façon laconique qu'en un clin d'œil, les troupes de l'Askya furent mises en déroute.[77] Ceci est en contradiction avec le témoignage de l'*Anonyme Espagnol* qui fait état de l'opiniâtreté des troupes Songhay, tout en affirmant que la bataille dura deux heures.[78] Il faudrait, à ce niveau également, s'en référer au *Tārīkh al-Fattāsh* dont le récit, plus précis, paraît plus crédible. Il est alors question d'une série de batailles qui durèrent toute une journée : les deux armées livrèrent les premiers combats dans la matinée, mais les hostilités se poursuivirent jusqu'à la tombée de la nuit.[79]

Le champ de bataille de Tondibi et ses environs ne nous est connu par aucun plan, aucune description précise. Ce qui est certain, c'est qu'il jouxte le fleuve Niger, situation que chacune des armées en conflit, mit à profit : les troupes songhay se postèrent le long du

73. *TS.*, p. 219.
74. *TF.*, p. 271.
75. *Ibid.*, p. 230, note 1.
76. *Ibid.*, p. 271.
77. *TS.*, p. 219.
78. *Anonyme*, p. 472.
79. *TF.*, p. 271.

la présence d'armes à feu antérieurement à la conquête marocaine. Certains auteurs ont voulu trouver une explication dans l'archaïsme d'une aristocratie militaire allergique à une "arme démocratique".[67] Il faudrait plutôt envisager une volonté délibérée d'embargo de la part des souverains marocains soucieux de maintenir leur suprématie dans le domaine de l'armement face au Songhay, objet de leur convoitise.

A Tondibi, la puissance de feu des marocains était impressionante ; 2.000 arquebusiers à pied, 500 arquebusiers à cheval, et des munitions en quantité (300 quintaux de poudre, 10 quintaux de pulverin et 300 quintaux de plomb).[68] En outre, les marocains disposaient d'éléments d'artillerie qui, par l'intensité de son feu et son pouvoir destructif allaient jouer un rôle déterminant dans la bataille de Tondibi et les campagnes de pacification. Il y avait, rapporte l'*Anonyme*, 6 pierriers et quelques petits canons dont 2 font la charge d'un chameau.[69]

4. La bataille : Le choc

Il importe à présent d'étudier la bataille de Tondibi à travers sa structure morphologique, l'expansion dynamique de la manœuvre tactique, et l'examen des forces morales.

4.1. Les circonstances

Un travail préalable consiste à s'interroger sur les circonstances. Selon le *Tārīkh as-Sūdān*, la bataille s'engagea le mardi 17 du mois de jumādā II de l'année 999, qui correspond au 12 Avril 1591.[70] Quant à l'auteur du *Tārīkh al-Fattāsh*, il avance la date du mardi 16 jumādā Ier en l'année 999, qui correspond au 12 mars 1591.[71] Une troisième source, al-Yifrānī opte pour 16 Rabi^{c} II, ce qui correspond au 16 février.[72] Il n'y a donc pas concordance au niveau de la date. Celle du 12 avril 1591, fournie par le *Tārīkh as-Sūdān* semble cependant plus crédible, car l'auteur donne l'impression d'une connaissance plus précise des faits.

---

67. Robert Smith, *op. cit.*, p. 82.
68. *Anonyme*, *op. cit.*, p. 478.
69. *Ibid.*
70. *TS.*, p. 219.
71. *TF.*, p. 271.
72. Cité par Hunwick.

Tondibi est aussi avancé par le *Tārīkh al-Fattāsh*.[59] Ce chiffre, tout à fait raisonnable, tiendrait compte des pertes subies lors du voyage[60] et du principe tactique élémentaire qui veut que toutes les forces ne soient pas engagées en même temps.

3.3. L'armement

Du point de vue numérique, il y a incontestablement sur le champ de bataille de Tondibi une disproportion des forces à l'avantage du Songhay. Cependant, la faiblesse numérique des troupes marocaines était largement compensée par leur équipement moderne, la portée et la puissance de leur armement. Les combattants songhay ne disposaient en effet que d'un armement rudimentaire. L'*Anonyme Espagnol* rapporte que quelques uns portaient des lances, mais ils étaient peu nombreux à cause de la pénurie. Les autres étaient munis de dards qu'ils lançaient à l'ennemi. Les fantassins étaient tous archers.[61] Comme armes défensives, il y avait des boucliers en cuir ou en métal et des casques.[62] L'aristocratie militaire adopta la mode des cavaliers ottomans consistant à porter des cotes de mailles bourrées à l'intérieur de kapok ou d'un tissu de coton.[63] Toute cette panoplie, efficace dans le contexte des guerres traditionnelles, apparut obsolète avec l'avènement des armes à feu qui imposèrent leur loi à l'art militaire des temps modernes.

De tous les peuples du Soudan, seul l'empire du Bornou avait pu se procurer des mousquets. Léon l'Africain fait état de la présence dans le royaume de Gaoga vers 1512 d'un négociant en armes d'origine égyptienne.[64] Mais c'est surtout au 16ème siècle que le Bornou, à l'initiative d'Idris Aloma, mit sur pied un corps spécialisé de fusiliers entraînés par des instructeurs ottomans.[65] Le souverain du Bornou dépêcha même une ambassade auprès du Sultan al-Manṣūr pour solliciter une assistance militaire sous forme de fusils et de canons.[66] S'agissant du Songhay, aucune source ne mentionne

---

59 Bovill, *op. cit.*, p. 153.
60. Monteil, V. *L'Islam noir*. Paris, Seuil, 1971, p. 79.
61. *Anonyme*, p. 471.
62. *TS.*, p. 204.
63. Bathily, *op. cit.*, p. 17.
64. Robert Smith, *op. cit.*, p. 81.
65. *Ibid.*, p. 50 - 51.
66. Hunwick, *op. cit.*, p. 211.

9.700 fantassins dont 12 Sounna armés de leurs bâtons".[53]

Sans aucune allusion à ses sources, ᶜAbd ar-Raḥmān as-Saᶜdī, dans son *Tārīkh as-Sūdān*, fournit des chiffres différents ; il estime l'effectif des forces engagées à Tondibi à 12.500 cavaliers et 30.000 fantassins.[54] Encore plus considérables sont les chiffres avancés par l'*Anonyme Espagnol* à savoir 8.000 soldats[55] et l'auteur du *Manāhil* qui estime l'armée songhay à 104000 hommes.[56] Ce dernier chiffre, manifestement exagéré, voudrait sans doute valoriser le corps expéditionnaire marocain, qui aura pu vaincre une telle multitude. Il sera toujours difficile de connaître les forces exactes alignées par l'Askya Isḥāq II à Tondibi. Une révision à la baisse est ici indiquée car il paraît difficile que le front de bataille ait permis le déploiement, en une seule fois, de 30.000 combattants. La conclusion qu'on peut tirer valablement c'est que la plupart des chroniqueurs ont confondu l'effectif total des armées songhay et ceux autrement plus réduits alignés pour la bataille de Tondibi.

Les données chiffrées concernant le corps expéditionnaire marocain sont par contre, plus précises et fiables. Les registres de l'armée étaient fort bien tenus et pour la conquête du Soudan, al-Manṣūr ne pouvait négliger aucun détail. Le *Tārīkh al-Fattāsh* avance le chiffre de 3.000 fusiliers en se référant à l'auteur du *ad-Durar al-ḥisān*, ou 4.000 selon d'autres.[57] Le *Tārīkh as-Sūdān* fait état de 3.000 hommes d'armes, tant cavaliers que fantassins, accompagnés d'un nombre double de suivants de toutes sortes, ouvriers de divers genres, médecins, etc....[58]

L'*Anonyme Espagnol*, tout en précisant la nature des armes, donne aussi le chiffre de 4.000 hommes dont 2.000 arquebusiers à pied, 500 arquebusiers à cheval ou spahis, renégats pour la plupart et 1.500 Arabes armés de lances. Toutes ces évaluations numériques concernent le corps expéditionnaire au départ de Marrakech. Il faudrait tenir compte des pertes inévitables dûes à la soif et à l'épuisement au cours de ce long périple de plus de 2.000 kilomètres. Le chiffre de 1.000 soldats marocains ayant participé à la bataille de

53. *Ibid.*, p. 264.
54. *TS.*, pp. 218 - 219.
55. *Anonyme*, p. 471.
56. *TF.*, p. 262 - 263.
57. *TS.*, p. 217.
58. *Anonyme*, p. 495.

impériale proprement dite, les armées des provinces du domaine impérial et les armées des Etats alliés ou tributaires.[49] Au sein de l'armée impériale, la Sounna constituait un corps d'élite de 3000 hommes, richement vêtus, bien nourris et d'une fidélité inconditionnelle.[50] Placée aux premiers rangs de l'armée, la Sounna, qui constituait une sorte de garde prétorienne, était véritablement le fer de lance de l'armée Songhay.

L'armée Songhay était fortement hiérarchisée et bénéficiait d'un encadrement efficace. L'Askya était le chef suprême des armées, mais c'est le Balama qui assurait le commandement effectif des troupes. Il était personnellement responsable de la base stratégique de Kabara. Les corps spécialisés étaient commandés, pour la cavalerie, par le Tara-Farma, et pour la flotte de guerre, par le Hi-Koi. Les régions militaires étaient commandées par des officiers supérieurs choisis parmi les San(princes Askya)[51], à l'instar du Kourmina-Fari qui était chargé de défendre les provinces de l'Ouest. La hiérarchie militaire comprenait également des officiers de deuxième ordre (Toumkoi) et des officiers subalternes (Soria).[52]

3.2. Les effectifs

La connaissance des effectifs constitue l'un des moyens permettant d'apprécier la puissance d'une armée. Malheureusement, à toutes les époques, même à l'époque moderne, les question relatives à la démographie militaire posent problème. Les effectifs sont souvent exigés et pour les périodes lointaines, les sources apparaissent vagues, lacunaires et souvent contradictoires. Aussi les évaluations numériques concernant la bataille de Tondibi ne sauraient prétendre à l'exactitude : ce ne sont que des ordres de grandeur. Cela est surtout valable pour l'armée songhay. L'auteur du *Tārīkh al-Fattāsh*, écrit à ce propos :

> "J'ai entendu dire par un homme tout à fait digne de confiance, qui le tenait de gens présents à cette affaire, que l'Askya se porte à la rencontre des marocains avec 18.000 guerriers à cheval (...) et qu'il avait en outre

---

48. *TS.*, p. 118.
49. Bathily, *op. cit.*, p. 5.
50. Cissoko. *Tombouctou et l'Empire Songhay,* Dakar, NEA, 19, p. 109.
51. Bathily, *op. cit.*, p. 5.
52. *TF.*, p. 97.

poursuivi par ᶜAbd al-Malik et surtout al-Manṣūr qui, doué de qualités incontestables, fut le premier souverain marocain à définir une politique nationale résolument tournée vers le modernisme.[42] Pour son armée, il eut surtout recours aux étrangers. Celle-ci se composait de mercenaires considérés comme permanents et professionnels, parmi lesquels figuraient des soldats de métier issus de divers pays. Aux turcs, al-Manṣūr emprunta l'organisation militaire ; il leur confia même l'instruction de ses soldats.[43] Il bénéficia également des traditions militaires espagnoles dont la spécificité s'est forgée au cours des huit siècles qu'a duré la reconquista[44] : celle-ci était faite d'une discipline de fer basée sur l'obéissance absolue aux chefs et sur une longue accoutumance aux exercices.[45] Ce fut donc à un corps de troupes éprouvées, presque exclusivement composées de renégats et de chrétiens, qu'al-Manṣūr confia l'expédition du Soudan. Au sein de cette armée, existait un corps d'élite, celui de makhāznīs, qui n'intervenait que quand le commandement en chef se mettait lui-même en mouvement.[46]

Le pacha Djouder, qui fut porté à la tête du corps expéditionnaire, était assisté d'une dizaine de généraux ayant le titre de caïd, dont trois renégats. Deux lieutenants-généraux commandaient les ailes.[47] C'est donc une armée fortement structurée et bénéficiant d'un encadrement adéquat qui campait au bord du Niger, prête à la confrontation.

En face, l'armée Songhay avait aussi ses lettres de noblesse. Après le règne de Sonni Ali (1464 - 1492), elle avait connu de profondes mutations : le système de la levée de masse fut remplacé par l'enrôlement de volontaires et l'armée devint une armée impériale, professionnelle.[48] Elle se perfectionna au fur et à mesure des conquêtes, faisant du Songhay la plus redoutable formation militaire du Soudan occidental. En fait, il n'y eut pas une armée unique, mais des structures militaires articulées de la manière suivante : l'armée

42. Laroui, Abdallah, *L'histoire du Maghreb*, Paris, Maspero, 1970, p.

43. Julien André Ch., *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 1969, T. 2, p. 213.

44. Quatrefages, R., "Pour une morphologie du combat...Centre d'histoire et de perspectives militaires". Actes de symposium 1986, Pully (Suisse) p. 22.

45. *Etudes et documents, Armée Suisse*, Service Historique, année 1984, p. 49.

46. *TS.*, p. 300.

47. *TS.*, p. 217.

une longue distance de 2040 km, couverte en 135 jours dont 40 à 50 jours de marche effective, le reste réparti en repos et pour organiser le ravitaillement.

En matière de logistique et d'intendance, al-Manṣūr ne laissa en effet rien au hasard, et y apporta tous les soins requis. Selon l'*Anonyme Espagnol*, le lourd convoi devant accompagner le corps expéditionnaire comprenait 8000 chameaux et 1000 hommes pour les conduire, 1000 chevaux de bât, le tout assisté de 600 sapeurs.[39] Le service d'approvisionnement ne semble avoir souffert d'aucun manque. C'est dans le Drᶜa, riche région agricole et base de départ de toutes les expéditions à travers le Sahara, que l'essentiel du ravitaillement fut organisé, des fournitures complémentaires étant prélevées dans les principales oasis jalonnant la route vers le Soudan. Le choix porta essentiellement sur des denrées non périssables : viandes séchées, dattes écrasées et réduites en pâte compacte suivant le procédé habituel aux sahariens.[40] Le problème de l'eau était de la plus grande importance[41] ; celle-ci était transportée à dos de chameau, dans de grandes outres en peau, et distribuée avec parcimonie. Tout cela assura à l'armée marocaine une sécurité relative et lui permit, sans trop de difficultés, d'atteindre les rives du fleuve Niger.

3. Les forces en présence

Quel est, à la veille du choc décisif de Tondibi, le rapport des forces en présence ? Nous tenterons de répondre à cette question en évoquant brièvement quelques problèmes relatifs à l'organisation des armées, à la hiérarchie et au commandement, aux effectifs et à l'armement.

3.1. Structure et encadrement des armées

C'est, sous le règne de Muḥammad al-Mutawakkil (1574 - 1576) que l'armée marocaine fut engagée dans un parcours de modernisation. Le Souverain mit à profit ses voyages en Espagne, en Italie et un long séjour dans l'empire ottoman pour mettre sur pied une armée fortement structurée et bien équipée. Cet effort fut

39. *Anonyme*, pp. 444 - 445.

40. De Castries, *op. cit.*, p. 448.

41. Bovill, *op. cit.*, p. 145, met en exergue l'importance de l'eau à travers ce proverbe Maure "To give water is better than to give bread".

à mieux faire pour acheminer à bon port l'important corps expéditionnaire.

Il lui fallait pour cela identifier *l'itinéraire le plus direct et le plus sûr*, celui permettant la remonte des chevaux et des chameaux et le ravitaillement des troupes. Les marchands maghrébins voyageant vers le Soudan ou installés à demeure dans les grands centres caravaniers, furent sollicités pour fournir des informations. Mieux, al-Manṣūr semble avoir attaché un prix considérable au renseignement politique ou militaire, ainsi qu'à la transmission rapide des informations et des ordres. Un puissant réseau d'espionnage qui opérait parfois sous une couverture diplomatique fut organisé.[33] Al-Manṣūr trouva en la personne de d'Wuld Kirinfil l'espion de choix qui allait lui livrer des informations de haute portée stratégique sur le Sahara et l'empire Songhay. Condamné au bannissement à Taghaza par l'Askya Isḥāq II, Wuld Kirinfil avait pu s'échapper. Parvenu à Marrakech, il approcha le Souverain, accusa l'Askya de l'avoir indûment écarté du trône et se proposa pour servir de guide et d'informateur du corps expéditionnaire marocain.[34]

Des garanties sûres étaient ainsi prises, pour assurer la traversée du Sahara dans les conditions les moins mauvaises possibles. L'importante colonne fut placée sous la direction du pacha Djouder, eunuque originaire de Las Cuevas en Espagne. Capturé tout jeune, il avait été élevé à la Cour royale de Marrakech. Sans expérience particulière dans le métier des armes, ce collecteur d'impôts rassurait, cependant, par sa fidélité indéfectible au souverain marocain.[35] La colonne s'ébranla de Marrakech, selon le *Tārīkh al- Fāttāsh* le dernier jour du mois de dhul ḥijja qui termina l'année 998 de l'hégire (29 octobre 1590)[36], c'est à dire au moment où la fraîcheur s'installe. Toujours selon le *Tārīkh al-Fāttāsh*, l'arrivée à Karabana, sur les bords du fleuve Niger eut lieu au cinquième jour du mois du jumādā 1er de l'année 998 (vendredi 1er mars 1591).[37] De Castries qui a tenté une reconstitution de l'itinéraire à partir des données fournies par l'*Anonyme Espagnol*, en donne les principales étapes, les distances et la durée[38] : le décompte indique

33. Robert Smith, S., *Warfare and Diplomacy in Pre-colonial West Africa.* London, James Currey, 1989, p. 19.

34. Bovill, *op. cit.*, p. 145. Voir aussi *TS.*

35. *Ibid.*, p. 147.

36. *TF.*, p. 263.

37. *Ibid.*

38. De Castries, *op. cit.*, p. 448.

risque de se perdre[26] ; Quant à l'époque de ᶜUqba ibn Nāfiᶜ dans le Sahara au 7ème siècle, elle relève davantage du mythe que de la réalité historique.[27] La seule tentative connue est celle des Turcs qui, partis de l'Egypte, tentèrent de s'emparer de l'Empire du Bornou, en empruntant sans doute le couloir de Darfour -Kordofan. L'*Anonyme Espagnol* mentionne qu'ayant traversé le désert de sable, les Turcs, attaqués par le roi du Bornou, ne purent se défendre, étant sans force à cause de leur soif et furent battus.[28] Le Songhay se sentait donc conforté dans sa situation d'invulnérabilité et l'idée d'une ligne de défense faite d'un réseau de postes fortifiés, à l'instar du *limes* romain, ne fut envisagée par aucun de ses souverains.

Mu par des sentiments puissants nés de la convoitise des richesses du Soudan, des ambitions politiques et des mobiles d'ordre affectif, al-Manṣūr était d'un avis contraire. Prenant l'exemple des caravanes qui, dès la plus haute antiquité, relièrent les deux rives du Sahara, il imposa son point de vue au Conseil qui, sans conviction, se plia néanmoins à la volonté du Souverain.

Aussi, bien avant le choc, l'issue de la bataille de Tondibi se jouait dans l'aptitude d'al-Manṣūr à faire traverser par son armée les immensités désertiques. Des stratégies d'approche en direction du Sud auront déblayé le terrain par l'envoi de troupes de reconnaissance. La première eut lieu vers 1543 - 1544 et atteignit Ouadane.[29] La seconde fut entreprise vers 1584, également vers Ouadane. Elle fut décimée par la faim et la soif et dut se replier.[30] La troisième parvint à s'emparer de Taghaza en 1585.[31] Toutes ces expéditions devaient permettre d'acclimater les troupes aux rigueurs du Sahara, leur assurer une meilleure connaissance du terrain et rapprocher par là même le Soudan des limites de l'Empire Chérifien.[32] Al-Manṣūr en tira les leçons qui s'imposaient et chercha

---

26. *Limes* : Frontière de la province romaine d'Afrique, protégée par une ligne de fortification.

27. ᶜUqba, selon certaines traditions orales, serait l'ancêtre des Peul. Il aurait épousé, après avoir franchi le Sahara, une princesse du Soudan avec laquelle il eut quatre enfants.

28. *Anonyme*, p. 475.

29. Mauny, R. "L'expédition marocaine d'Ouadane (Mauritanie) vers 1543 - 1544", *Bull. de l'IFAN*, T. XI, p. 129.

30. *TS*, p. 193.

31. *Ibid.*, p. 194.

32. De Castries, *op. cit.*, p. 442.

tenta une alliance avec le Roi du Bornou, pour mieux contrer et affaiblir l'Empire Songhay.[23]

2.2. *Une donnée fondamentale : le Sahara*

Le Sahara, qui sur des milliers de kilomètres, sépare le Maroc du Songhay apparaît comme une donnée fondamentale de l'espace géo-stratégique. C'était pour le Maroc, l'obstacle le plus périlleux, autrement plus redoutable que l'armée Songhay. Les témoignages des voyageurs qui s'y sont aventurés, tels Ibn Baṭṭūṭa et Léon l'Africain, sont édifiants sur les tourments endurés, du fait de la chaleur diurne, des nuits glacées, de la soif et de la fatigue. La lettre d'al-Manṣūr annonçant la victoire des armées marocaines, rend bien compte de l'adversité que constitua le Sahara :

> (...) Le Soudan, vous le savez, s'enfonce profondément dans le Sud, à l'extrémité des contrées et des lieux habités. Il est séparé (de votre pays) par un désert de sable que le mirage fait ressembler à une mer mouvante, désert dans les vastes solitudes duquel s'égare l'oiseau Khata (ganga). Combien de générations, le désert a-t-il fait disparaître en recouvrant les hommes et leurs montures (...).[24]

Conscients de cette situation, les membres du Conseil, firent opposition à l'unanimité au projet de conquête d'al-Manṣūr. Ils arguèrent, de surcroît, qu'aucune des trois précédentes dynasties ayant règné sur le Maroc n'avait osé envisager une opération aussi hasardeuse.[25]

Pour ces mêmes raisons, les souverains du Soudan ont pensé que l'obstacle du Sahara constituait pour leurs Etats, le plus sûr bouclier contre un éventuel ennemi venant du Nord. En effet, jamais auparavant, une armée n'avait pu traverser les immensités du désert. Les légions romaines ne s'aventuraient guère au-delà du *limes*, au

---

23. Hunwick, J.O., "Songhay, Bornou and Hausaland in the sixteenth century", in J.F. Ade Adjahi, M. Crowder, *History of West Africa*, vol. I, 1971, p. 236.

24. Lettre d'al-Manṣūr aux chérifs, aux jurisconsultes et à tous les notables de Fez, in de Castries, H., "La conquête du Soudan par El Mansour", *Hespéris*, T. III, 1923, p. 485.

25. Bovill, E.W., *The golden Trade of the Moors*, London : Oxford University Press, 1958, p. 145.

Au lendemain de la bataille des Trois Rois (4 août 1578), l'Empire chérifien était devenu une puissance qui en imposait dans tout le bassin de la méditerranée occidentale. Proclamé Sultan sur le champ de bataille, al-Manṣūr (le victorieux) se sentait véritablement à l'étroit à l'intérieur des frontières de son royaume. Au nord, l'Andalousie était fermée au lendemain de la Reconquista. A l'Est, le Royaume de Tlemcen s'était érigé en une puissance nouvelle, verrouillant toute velléité d'expansion dans cette direction. Cette situation amena les stratèges marocains à rechercher, en direction du Sud, une zone de basse pression qui servirait d'exutoire.

Les Songhay, établis sur les deux rives du cours moyen du Niger, avaient bâti, au terme d'une longue évolution de huit siècles environ, un Etat puissant qui, davantage que les formations préexistantes du Ghana et du Mali, apparaissait comme une vaste construction militaire.[20] Askiya Muḥammad incarne ici l'idée du conquérant victorieux : "Il étendit son autorité jusqu'à l'Océan Atlantique du côté de l'occident et de la frontière du pays Bindoko jusqu'à Taghaza et ses dépendances".[21] L'Empire atteignit dans les premières décennies du 16ème siècle son apogée et connut un grand essor économique et un épanouissement intellectuel sans précédent dans la région. Cependant, le Songhay allait connaître, quelques décennies plus tard, une période de turbulence politique, marquée par une compétition acharnée pour le pouvoir, suivie de trois années de guerre civile (1586-1588).[22] L'armée en sortit divisée et affaiblie, l'appareil de l'Etat désorganisé avec en prime une profonde crise morale qui ébranla les valeurs les plus sûres de la société Songhay. Objectivement, le Soudan occidental apparaissait donc, à la fin du 16ème siècle comme une zone de basse pression où allait s'engouffrer le conquérant venu du Nord.

A la même période, les considérations géo-stratégiques devaient tenir compte des ambitions des puissances européennes, soucieuses de détourner à leur profit, vers le littoral Atlantique, le flux de l'or. Les Portugais, établis à Arguin depuis l'époque de Jean II (1481 - 1495), étaient particulièrement actifs. Le puissant empire du Bornou, confiné à l'Est avec le Songhay, n'échappe pas non plus à la trame stratégique marocaine. C'est dans ce sens qu'en 1583, al-Manṣūr

20. Bathily, A., *op. cit.*, p. 2.

21. *TS*, p. 121.

22. Cissoko, S.M., " Les Songhay du XIIème siècle," in *Histoire Générale de l'UNESCO*, vol. IV, p. 222.

Si les causes de la conquête marocaine du Songhay et ses conséquences sont bien connues, la dimension militaire, dans ses aspects techniques, reste assez mal connue. C'est cette lacune que nous avons voulu combler en regroupant, de façon méthodique des données éparses afin de proposer un mode d'analyse cohérent de l'art militaire des deux protagonistes, marocains et songhaï. Pour ce faire, nous avons ordonné notre étude autour de la bataille de Tondibi. Il ne s'agit nullement d'un retour à l'histoire de la bataille, justement critiquée par les historiens militaires et les polémologues. Nous nous situerons au delà de l'événementiel, pour découvrir les trames et les couches multiples qui déterminent les formes de la guerre.

Dans cette perspective, la bataille de Tondibi apparaît, pour reprendre une formule de J.P. Charnay, comme le temps fort, le choc effectif d'un processus se déroulant dans la durée moyenne, engageant, dans la contingence, les destinées des individus et de leurs groupements antagonistes.[16] Elle aura été modelée par divers facteurs qu'il importe de mettre en rapport : contraintes issues de l'organisation des armées, de la technique des moyens de combat, de l'état politique, démographique, social, économique ainsi que des facteurs idéo-religieux.[17] Tenter d'éclairer Tondibi, c'est en définitive, découvrir et ordonner les éléments les plus essentiels ayant marqué les rapports entre le Maroc et le Songhay, avant, pendant et après cette bataille décisive.

2. Avant la bataille : les préliminaires

2.1. Considérations géopolitiques

Pour apprécier la politique déterminant le caractère d'une guerre, il faut d'abord analyser profondément l'époque pendant laquelle se produit cette guerre.[18] Il s'agit, en d'autres termes, de procéder à une évaluation géopolitique en considérant les rééquilibrages, non seulement militaires, mais également politiques, économiques, sociaux et culturels.[19]

---

16. Charnay, J.P., "Stratégie terrestre et navale... propositions méthodologiques", Revue *Internationale d'Histoire Militaire*, n° 37, 1977, fasc. 3, p. 21.

17. Perré, J., *La guerre et ses mutations*, Paris, Payot, 1961, p. 7.

18. *Lénine et la Science militaire*, Editions du Progrès, Moscou, 1967, p. 49.

19. Charnay, J.P., *Stratégie terrestre et navale, op. cit.*, p. 12.

un économisme excessif, il met en avant, pour faire comprendre cet épisode majeur des relations entre le Maroc et le Soudan, la mystique religieuse et les pulsions sentimentales d'un Souverain, al-Manṣūr, soudanais de cœur et en partie par sa naissance.[12]

L'étude de Abdoulaye Bathily, "L'Empire Songhay et son armée aux 15ème - 16ème siècles"[13], prend en compte, délibérément, la dimension militaire. Après avoir examiné l'organisation de l'armée Songhay et sa tactique, l'auteur en vient à la bataille décisive de Tondibi. Il situe le débat sur la théorie de la primauté du facteur technologique.

D'autres études, que nous n'aurons pas eu la possibilité de recenser, existent peut-être. Ce bilan provisoire montre à l'évidence l'intérêt que porte l'école historique sub-saharienne aux relations entre le Maroc et le *bilād as-Sūdān* et la grande résonnance de la bataille de Tondibi dans leurs travaux.

L'historiographie de la question, pour être complète et objective, devra nécessairement prendre en compte d'autres perspectives. Au niveau des sources, intégrer les témoignages maghrébins tels ceux d'al-Yifrānī[14], et européens, à l'instar de la chronique de l'*Anonyme Espagnol*[15], si riche de substance. Il en sera de même au niveau de la production scientifique. C'est là le gage le plus sûr pour conduire une étude critique et crédible d'un événement de grande portée historique. Il sera dès lors possible de faire abstration des préjugés, en situant Tondibi dans son véritable contexte, afin d'apprécier sans passion aucune, un évènement certes tragique, mais qui ne doit pas masquer des siècles de relations pacifiques entre le Maroc et le *bilād as-Sūdān*. C'est à cette tâche que nous nous sommes attelé, dans cette communication.

---

12. *Ibid.*, p. 52.

13. Abdoulaye Bathily, "L'Empire Songhay et son armée (15ème - 16ème siècle)", Mise en forme d'une conférence donnée à l'Ecole Nationale des Officiers d'Active (ENOA) de Thiès (Sénégal). Texte gracieusement mis à notre disposition par l'auteur.

14. Al-Yifrānī fut l'historiographe attitré de la dynastie saᶜdienne. Son œuvre est marquée par des élans panégyriques. Un autre historiographe marocain renommé fut al-Fashtālī (1549 - 1621) dont l'œuvre a malheureusement disparu.

15. C'est là un document de premier ordre, d'une grande précision sur les faits se rapportant à Tondibi, attribué à un agent officieux de l'Espagne résidant à Marrakech.

un mémoire de maîtrise dont le titre "Tondibi : premier élément de désintégration africaine" est fort éloquent et révélateur de la thèse fondamentale de l'auteur selon laquelle Tondibi fut le catalyseur des forces centrifuges qui ébranlèrent définitivement le continent africain et aboutirent à sa balkanisation. Félix Abiola Iroko a également consacré son mémoire de maîtrise à la politique marocaine au Soudan aux XVIème et XVIIème siècles[8], avec un accent particulier sur les motivations de la conquête et les multiples résonnances de la bataille de Tondibi.

- L'engagement pour la question a amené Ibrahima Baba Kaké[9] à produire un ouvrage sur *Djouder, la fin de l'Empire Songhaï*, dans la collection "Grandes Figures de l'Histoire Africaine", qui est destinée à un public plus large. Le récit est marqué par une narration fluide et passionnante qui va de pair avec la rigueur et l'érudition d'un historien de bonne école.

Trois publications méritent de retenir l'attention, pour avoir élargi le champ de recherche et approfondi des aspects d'une grande pertinence, renouvelant ainsi la problématique de la conquête marocaine de l'empire Songhaï. Il y a tout d'abord, l'article de Lansiné Kaba intitulé "Les archers, les mousquetaires et les moustiques".[10] Le titre, à lui seul, est édifiant et situe d'emblée les protagonistes dans ce qui fait leur force et leur faiblesse. Se démarquant du courant qui prévilégie l'étude de l'administration marocaine au Soudan et du morcellement interne de l'Etat Songhay, Lansiné Kaba cherche plutôt à éclairer un aspect mal connu, celui de la résistance opiniâtre que les populations Songhay ont opposée à la domination marocaine. Son étude, conduite de façon pénétrante, apparaît extrêmement suggestive et d'une grande originalité.

Félix Abiola Iroko fait également preuve d'originalité, dans son article intitulé "Motivations psychologiques et religieuses de la conquête de Gao en 1591".[11] Se démarquant des thèses fondées sur

8. Iroko, F., "La politique marocaine au Soudan : XVIème - XVIIème siècles", Mémoire de Maîtrise sous la direction de R. Mauny, Paris I, Sorbonne, 1971.

9. Kaké, Baba Ibrahima, *Djouder la fin de l'Empire Songhai*, Paris, ABC, 1975.

10. Lansine Kaba, "Les archers, les mousquetaires et les moustiques. Une interprétation de l'invasion marocaine du Soudan et la résistance Songhai (1591 - 1612), *Bulletin de l'Institut Fondamental d'Afrique Noire*, Tome 42, Série B, n° 1, Janvier 1980, p. 1 - 36.

11. Iroko, F. L., "Motivations psychologiques et religieuses de la conquête de Gao de 1591", *Afrika Zamani*, n° 14 et 15, Yaoundé 1988, pp. 49 - 63.

analyse, accordé une place prépondérante à la bataille de Tondibi. Aussi nous avons eu, sur divers points, à emprunter leurs travaux pour illustrer ou étayer cet essai d'interprétation.[3]

Au nombre de ces travaux, nous citerons :

- L'ouvrage de Issoufou Dramani Zakari[4] qui, fondé sur des sources, examine les relations diplomatiques entre le Maroc et l'empire Songhay dans une perspective novatrice. Dramani Zakari ne néglige pas le facteur militaire né des conflits d'intérêt, et consacre des pages intéressantes à Tondibi.

- La thèse de Dahiru Yahya, intitulée *Morocco in the sixteenth century. Problems and Patterns in Africa Foreign Policy*[5], qui grâce à une documentation abondante et en partie inédite, et se fondant sur la théorie cyclique d'Ibn Khaldūn, apporte un éclairage nouveau sur la question. L'auteur après avoir évoqué le contexte géopolitique ayant favorisé l'offensive marocaine, aborde les problèmes spécifiques à l'armée et tente une interprétation pertinente des événements liés à la bataille de Tondibi.

- Egalement riche de substance est la thèse de Kodjo Niamkey George[6] : "Isḥāq II et la fin de l'Empire Songhay (1588-1593)".

L'auteur met l'accent sur la grande césure que représente Tondibi, en se plaçant d'abord au ras des événements pour esquisser ensuite de solides analyses socio-politiques.

- Le grand intérêt pour les relations entre le Maroc et le Soudan et la fascination qu'exerce la bataille de Tondibi ont amené de nombreux étudiants de l'Afrique sub-saharienne à consacrer leurs travaux à ce thème, C'est le cas de Dagnon Anne-Marie [7] qui a rédigé

---

3. Dramani Zakari, I. *Les relations internationales au XVIème siècle. Le Maroc et l'Empire Songhay*, Paris, Karthala, 1982.

4. Nous exprimons tout particulièrement notre gratitude à nos collègues et amis Lansiné Kaba et Bathily Abdoulaye qui ont mis leurs textes à notre disposition.

5. Dahiru Yahya, *Morocco in the Sixteenth Century. Problems and Patterns in Africa Foreign Policy.* Humanities Press Inc., 1981, 224 p. (Ibadan History Series).

6. Kodjo, Niamkey (George), "Ishaq II et la fin de l'Empire Songhay (1588-1593)", Thèse, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Paris, 325 p. (dactylographie + arts).

7. Dagnon Anne-Marie, "Tondibi : Premier élément de désintégration africaine (cas de l'Afrique soudanaise)", mémoire de Maîtrise d'Histoire, Université de Yaoundé, Septembre 1982.

d'historiographie par l'examen critique des sources et de la production scientifique sur ce thème. Pour ce faire, nous nous situerons essentiellement dans une perspective sub-saharienne.

Les sources sur lesquelles reposent les exposés historiques de la conquête de l'empire Songhay sont principalement les deux volumineuses chroniques, rédigées en arabe au 16ème et 17ème siècles par deux érudits soudanais : le *Tārīkh al-Fattāsh* de Maḥmūd Ka^{c}tī [1], et le *Tārīkh as-Sūdān* de ^{c}Abd ar-Raḥmān as-Sa^{c}dī [2]. La plupart des informations contenues dans ces ouvrages, proviennent de témoins oculaires ou de l'auteur lui-même, à l'exemple de Mahmūd Ka^{c}tī mêlé directement aux affaires en sa qualité de confident de l'Askiya al-Ḥāj Muḥammad. Outre la glorification de Tombouctou et de ses savants, la plus grande préoccupation des auteurs est la relation de la conquête et de l'occupation par le Maroc de l'empire Songhay. La narration de la bataille de Tondibi en occupe une bonne place, de manière à la fois précise et vivante.

Il se pose évidemment, le problème de l'objectivité des auteurs soudanais, étant donné par exemple le vif sentiment patriotique qui transparaît dans certaines de leurs appréciations. En fait, ils restent dans les limites raisonnables, ne manifestant aucune animosité pour les marocains, qui au demeurant sont des frères en religion. Nous avons donc souvent une relation qui se contente d'enregistrer les faits, tels que racontés par les acteurs ou les témoins. De ce point de vue, les auteurs soudanais apparaissent plus crédibles que certains historiographes marocains, qui ont un penchant pour la dithyrambe, et déforment à souhait la réalité.

Sur les questions relatives à l'armée et à la guerre, il est donc possible de glaner des données utiles. Malgré les lacunes, une lecture attentive, un effort de recoupement entre les deux *Tārīkh* est à même de fournir un tableau sur l'organisation militaire, la tactique et la stratégie du Songhay mais aussi du corps expéditionnaire marocain.

Les divers aspects des relations entre le Maroc et l'empire Songhay ont retenu l'attention des universitaires de l'Afrique sub-saharienne. A partir des sources, ils ont reconstitué une histoire qui révèle mieux les corrélations structurelles. Ils ont tous, dans leur

1. Mahmūd Ka^{c}tī , *Tārīkh al-Fattāsh* , Texte arabe, traduction française par O. Houdas - Paris, A. Maisonneuve, Coll. Unesco, XX + 362 p. *(TF)*.

2. As-Sa^{c}adi, Abderrahman, *Tārīkh as-Sudān*. Texte arabe édité et traduit par O. Houdas, Paris, A. Maisonneuve, 1964, Coll. Unesco, XIX + 434 p. *(TS)*.

La bataille de Tondibi

Thierno Mouctar Bah
Université de Yaoundé

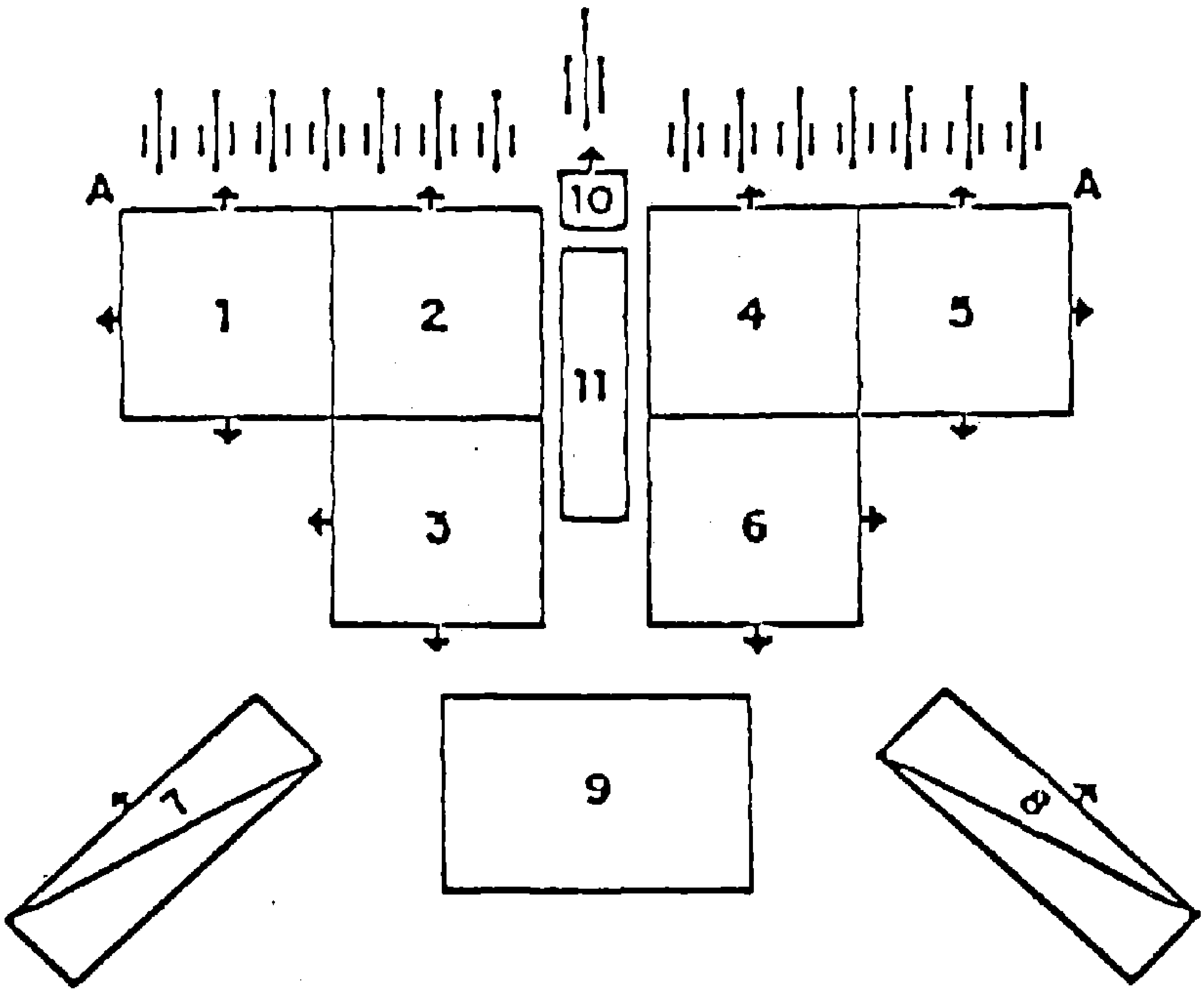
Les relations entre le Maroc et le *Bilād as-Sūdān* se situent dans la longue durée. Elles ont connu, entre le 9ème et le 16ème siècles des aspects multiformes, marqués par l'intensification des échanges commerciaux à travers le Sahara, le transfert des valeurs de civilisation, en particulier par la diffusion de l'Islam, les mouvements de personnes, les relations diplomatiques. Autant de facteurs qui ont favorisé l'entente et la paix entre les souverains et les peuples de part et d'autre du Sahara.

Avec l'accession au pouvoir en 1578 du Sultan Mawlāy Aḥmad al-Manṣūr, la nature des rapports entre le Maroc et le Soudan allait connaître de profondes mutations. Une situation conflictuelle fut créée par le désir du Souverain marocain de s'assurer le contrôle exclusif des mines de sel de Taghaza, sa volonté de s'accaparer les fabuleuses richesses en or du Songhay, et d'intégrer cet empire dans la sphère d'influence politique du Maroc. Un puissant corps expéditionnaire fut organisé par al-Manṣūr avec pour objectif la conquête de l'empire Songhay. Ainsi, les tractations et pressions diverses exercées sur l'Askiya Isḥāq II ayant été vaines, la violence armée demeura *l'ultima ratio regis*. La confrontation décisive eut lieu à Tondibi en 1591.

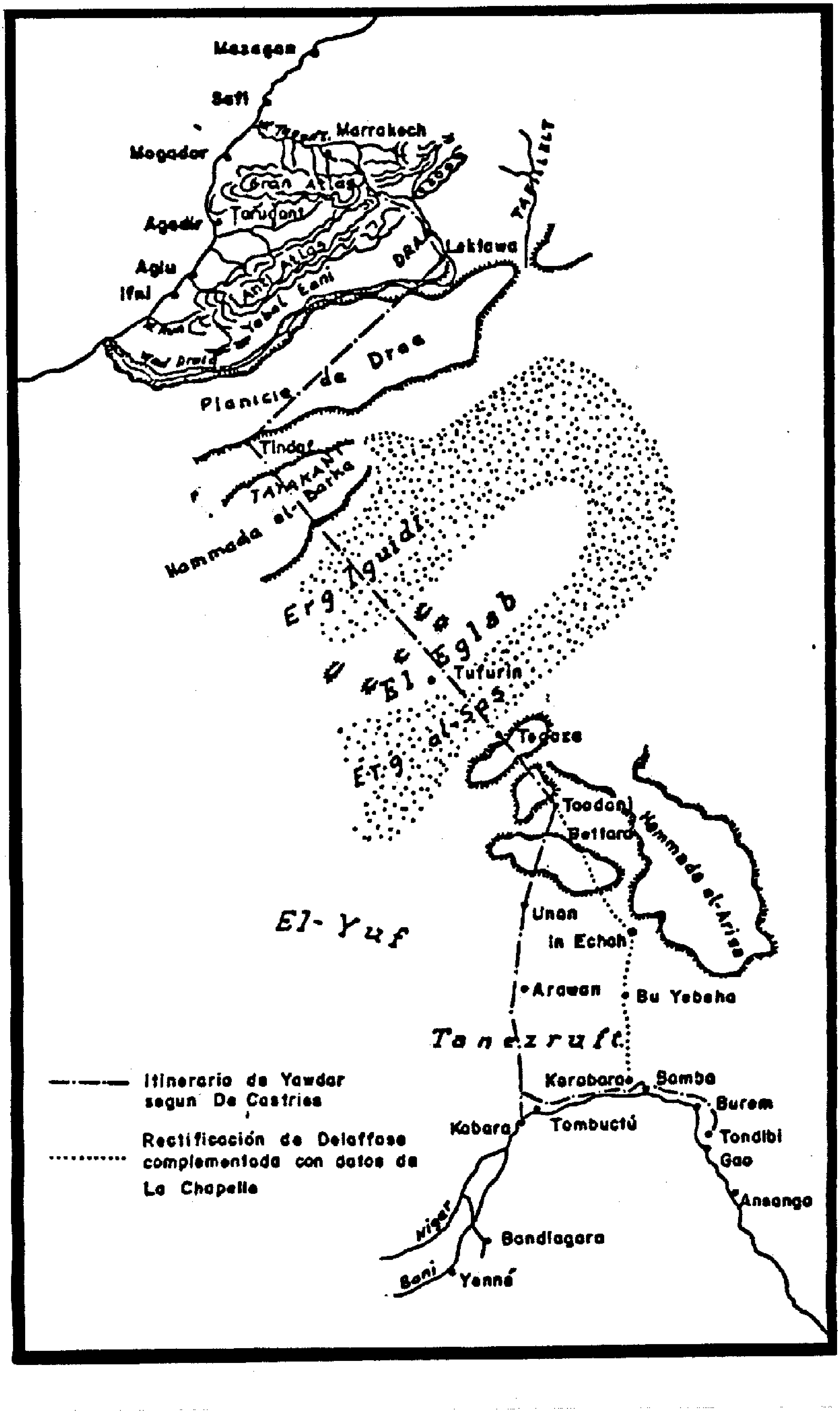
1. L'Historiographie

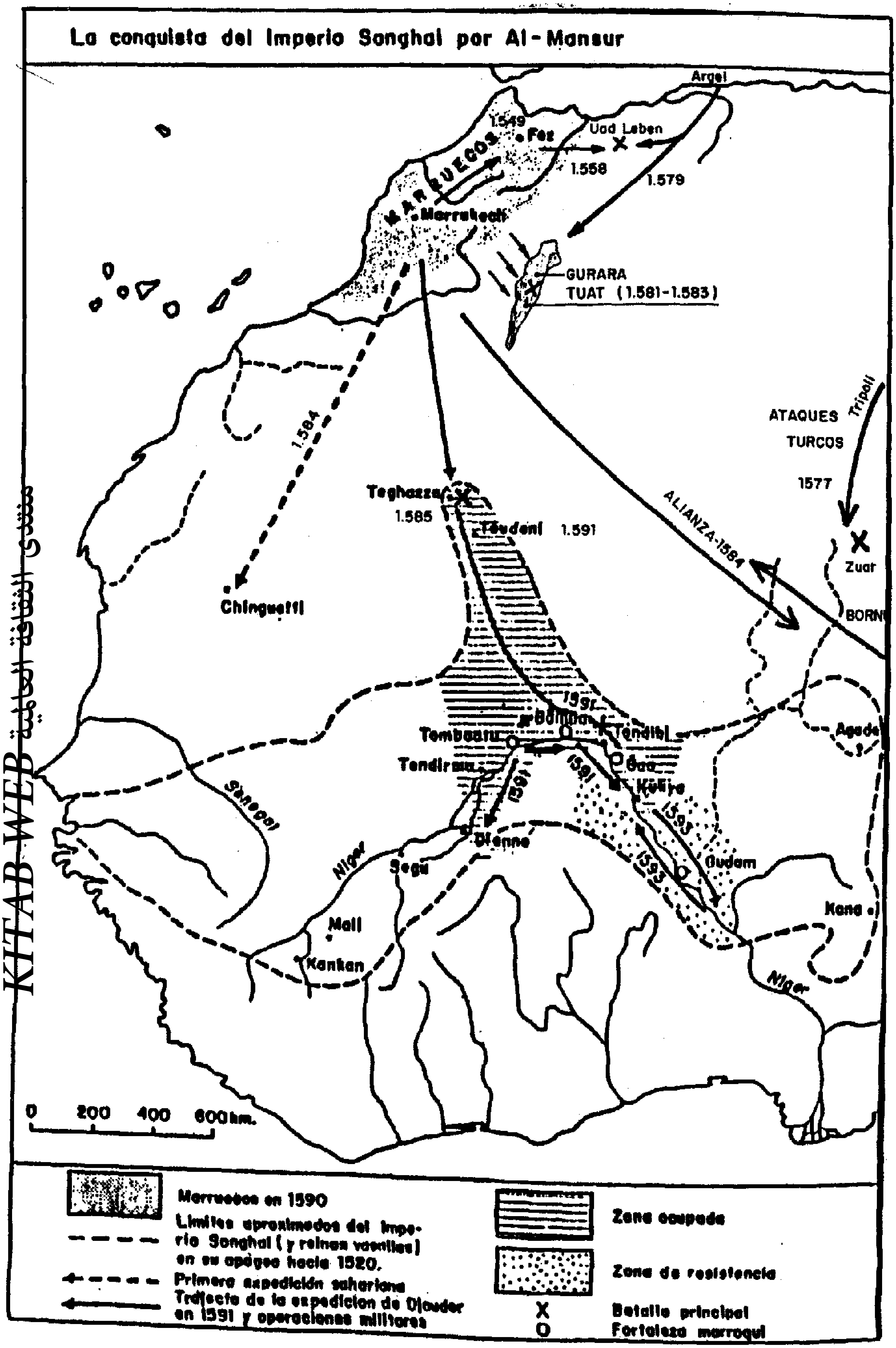
Par son caractère à la fois spectaculaire et dramatique, par sa portée historique exceptionnelle, la bataille de Tondibi aura considérablement marqué la conscience collective tant au Maroc que dans le Soudan. Elle aura également été pour les chroniques et les historiens, un thème privilégié.

C'est l'histoire de cette terrible bataille, véritable tournant dans l'évolution historique du Soudan occidental, qui fait l'objet de cette étude. Il nous a paru utile, au préalable, de poser les problèmes



Batalla de Sankia o de Tondibi (12-14/III/1591)
Esquema aproximado del orden de batalla de Yauder


Mazagan
Safi
Marrakech
Mogador
Gran Atlas
Tarudant
Agadir
Agiu
Ifni
Anti Atlas
Yebel Bani
DRAA
Laktawa
TAFILALT
Planicie de Draa
Tindaf
TAMAKANT
Hammada el-Darka
Erg Iguidi
El Eglab
Tufurin
Erg al-Sps
Tegaze
Toodoni
Bettara
Hammada el-Arisa
El-Yuf
Unan
In Echah
Arawan
Bu Yebeha
Tanezruft
Karabara
Bamba
Burem
Kabara
Tombuctú
Tondibi
Gao
Ansongo
Niger
Bandiagara
Bani
Yenné
Itinerario de Yawdar segun De Castries
Rectificación de Delaffose complementada con datos de La Chapelle



La conquista del Imperio Songhai por Al-Mansur

Villar Raso, Manuel (et alii) : *Yuder Pacha, conouistador granadino.* Aventura, febrero 1985.

Villar Raso, Manuel : *Españas perdidas. La guerra Africana de Yuder Pacha.* Cálamo octubre 1985.

Juan Manuel Riesgo, Cuaderno : "*Los arma de Mali polemica y realidad*" May 1988, Cuadernos del Centro de Informacion y Documentacion Africanas, Gaztambide, 31, Madrid. Número Monográfico.

ARTICULOS DE REVISTA

Boisboissel Yves de La "*Colonne Djouder*" (1591) Revue Internationale D'Histoire Militaire XVII 1956.

Cortes Lopez. José Luis : *EL-Jodher, conquistador del imperio Songay*. "Mundo Negro" febrero 1985.

Costa Morata, Pedro : *Españoles al servicio del marrooui en el Sudán del siglo XVI la expedición del Yaudar*. Historia International, noviembre 1975.

De Castries : *La Conquête du Sudan par El-Mansur,. Hespéris*, 1923. Paris.

Garcia Arenal, Mercedes. *Los Andalusies en el ejército Sadi : Un intento de golpe de Estado contra Ahmad Al-Mansur* Revista Al-Quantara. Vol V Madrid. 1984.

Garcia Arenal, Mercedes : *Vidas ejemplares Said ALDUGALI . Un Granadino en Marruecos*. Coloquio Relaciones Ibercias con Marruecos, Madrid 1988. C.S.I.C.

Garcia Gomez, Emilio : *Españoles en el Sudán*. Revista Occidente 1935.

Iniesta, Ferrant : *Djuder Pacha, el Andaluz que conquistó Tomboctou*. Historia 16 n° 57, enero 1981.

Ortega y Gasset, José : *Las ideas de León Frobnius*. El sol, 12 de marzo de 1924. Reproducido en Revista occidente.

Portillo Togores, Coronel Joaquín: *La expedición militar del Bacha Yaudar a través del Sahara*. Revista de Historia Militar nos: 30, 31 y 37. 1971y 1974.

Portillo Joaquin : "*La aventura de Yaudar en Africa*" Calmo n° 15 Octubre 1987. Madrid.

Ramos Charco-Villasenor, Coronel Aniceto : *La Batalla de los tres Reyes y sus Caudillos*. Revista de Historia Militar n° 5, Madrid 1959. Servicio Histórico Militar.

Sanchez Ruano, Francisco : *Andaluces en Africa. Tomboctou la misteriosa*. Nuevo Acropolis.

Sanchez Ruano, Francisco : *La Etnia de los Arma de Mali y España* Expoturismo. Mdrid AGOSTO 1989

Regal, Joan : *Estudios sobre los Moriscos.* Ariel, Barcelona1974

Sola, Emilio : *Un Mediterraneo de piratas corsarios y renegados cautivos* Tecnos. Madrid 1988.

Temprano, Emilio : *El Mar maldito Cautivos y Corsarios en el siglo de oro* Mondadori 1989.

Torres, Diego : *Relación del Origen y Suceso de los Xarifes.* Sevilla 1586. Edición Siglo XXI. Madrid 1981.

Villar Raso, Manuel : *Las Españas Perdidas.* Ed. Andaluzas, Granada 1984.

Weiner, Jerome : *Al Mansur and the Tomboctu's Golden* "les Africans", J. A., Paris 1971.

Corral, José : *Ciudades de las Caravanas*. H. Blume, Madrid 1985.

Cortes, J. L. : *Introducción a la Historia de Africa*. Espasa C., Madrid 1984.

Chaunu, P. : *L'Expansion Europeenne du 13ème au 15ème siecle*. Paris, P. U. 1969.

Danvila, Alfonso : *Felipe II y el Rey D. Sebastián*. Espasa Calpe, Madrid 1954.

Dominguez Ortiz, Antonio; Vincent Bernar : *Historia de los Moriscos* A. U. Madrid.

El-Ufrani, M. : *Nozhet El Hadi.Histoire de la Dynastie Saadienne 1511-1670*. Paris,traducción O. Houdas 1889.

Fernandez Alvarze, Manuel : *Felipe II. Isabel I y Marruecos* CSIC Madrid 1951.

Carcia Arenal, Mercedes: *Los Moriscos*. Editora Nacional Madrid 1975.

Co-Zalbes Busto, Guillermo : "*ALMANDARI, El Granadino Fundador de Tetuan*" Granada 1988.

Ibarra Berge, Javier : *Murga, el Moro Vizcaíno*, Editora Nacional Madrid 1944.

Kati, Mamud ; *Tarik-El Fettah*. Tr Houdas y delafosse.E. Langues Orientales Paris 1913 / 2978.

Lourido, Ramón : *Marruecos en la segunda mitad del siglo XVIII*. Instituto Hispano Arabe. Madrid 1978.

Nekrouf, Younes : *La Bataille desTrois Rois*. Albin Michel, Paris 1984.

Perez de Guzman ; Torcuato, Martin Mingorance, Leocadio, Villar Raso. Manuel et alii : *Andalucia en la curva del Niger*. Univ. deGranada 1987.

Patrimoine Culturel du Mali et Center for African Art of New-York : *Monuments historiques et architecturaux de la ville de Tomboctou*, (Mali). 1986.

Potocki, Jan : *Viaje al Imperio de Marruecos*. Edición de 1987 del original de 1791. Laertes. Barcelona..

Quiroz Velloso, Joao : *Don Sebastián 1544-1578*. Espasa C., Madrid 1943.

BIBLIOGRAFIA

Abitbol, Michel : *Tomboctou et les Arma*. Maisoneuve et Larose, Paris 1979.

Al-Sadi, Ab-al Rahman : *Tarik es Sudan*, Ecole de Langues Orientales, PAris 1900

Anonimo, "Relación de la Jornada que el Xerife manda *hacer* a la provincia de Guinea" Real Academia de la Historia. Manuscrito.S. XVI.

Arques Enrique, Las adelantadas de España, plazas Españolas del litoral africano Madrid 1966 CSIC.

Azzuz, Mohamad Ibn : *Epitome de Historia de Marruecos*. Inst. de Est. Políticos, Madrid 1969.

Bauer y Landauer, Igncio : *Relaciones de Africa : Marruecos*. Editorial Ibero-Africana Madrid 1922.

Bentez, Cristobal : *Viaje a Tomboctou*. 1880, reimpresión Laertes, Barcelona 1987.

Bertaux, Pierre : *Africa hasta nuestros días*. Siglo XXI. Mdrid 1974.

Boulnois Jean y Boubou Gama : *"L'EMPIRE DE GAO"* Maisonneuve Paris 1954.

Braudel, Ferdinand : *El Mediterráneo en tiempo de Felipe II*. F C. E.Madrid 1986.

Cardaillac Louis : *Moriscos y Cristianos un enfrentamiento polémico* F. C. E. Madrid 1979.

Caro Baroja, Julio : *Los Moriscos del Reino de Granada*. Istmo 1985.

Caro Baroja, Julio : *Introducción al libro de Diego Torres, Origen y Suceso de los Xarifes y el Estado del Reino de Marruecos, Fes*... Siglo XXI 1981

Casanova Parraga. Diego Antonio : *El Almanzora*. Madrid 1963.

Cisoko,S. M. : *Los Songhay desde el siglo XII al XVI*. En *Historia de Africa* de la UNESCO, Technos, Madrid1985. Especialmente cap. 5 y 6.

Cornevin, Marianne y Robert : *Historia de Africa*. Moretón, Bilbao 1969.

A Yudar, uno de los comandantes del señor, conquistador del Sudan (999), le dediqué una casida (poema) con ocasión de esta memorable conquista ; Prosiguió a su lectura en su presencia, el alfaquí, y gramático Abu l-'abbas Ahmad Ben'ali a-zamuri.

Y decía así :

"Gracias al aroma del almizcle, desde el lucero del palacio bendito viene, Oh victorioso !, la esperada buena nueva : tus estandartes proclaman la victoria".

Y acababa diciendo :

"Por lo que al Sur respecta, tu ejército no ha abandonado y no hubo nadie que pretendiera la escisión ni que la llevara a cabo, hiciste de ellos minoría, morandola tu cuerpo (la tierra). Marrakes, por tu vida, es mas grande y te han dejado las tierras sin enemigos Por dios ! que el abandono es una muerte roja, no dejaste de ser para la espada constructor y por ello nos vanagloriamos frante a otros sennores.

Y le felicitó el secretario Abu Fahris abd-azziz ben Muhammad el Fastali con una casida que comenzaba así :

"El ejército de la mañana se cierne sobre las tinieblas y su luz y resplandor las aniquilan".

Y le felicitó Abu Mohammed abd-Allah ben Uyal almalzuzi (hombre de letras) con otra casida que comenzaba así :

"Damos la enhorabuena al sultán desde occidente, con la alegría de las buenas nuevas".

Yudar, hombre resuelto enérgico y decidido en la guerra sigue vivo.

Traducción : Barbara Herrero.

Revisión : Utman El-Azami.

Durat alhijal

Ibn El-Qadhi Ahmed Ben Mohamed Ben Elafia

جؤذر القائد أحد قواد المخدوم وهو الذي افتتح بلاد السودان 999 وهنأت مولانا بقصيدة في هذا الفتح المذكور وتولى قراءتها بين يديه الفقيه الأستاذ النحوي أبو العباس أحمد بن علي الزموري ونصها.

حمدا من المسك المفتق اعطر   من غرة القصر يسفر

يا أيها المنصور أبشر بالمنى   النصر حقا من لوائك ينشر

إلى أن قلت في آخرها.

أما الجنوب فإن جندا لم يدع   شخصا بها ينوي الشقاق فيغدر

اجليتهم منها وجسمك ثاويا   مراكشا هذا لعمرك أكبر

تركوا لك الأوطان دون منازع   تالله إن الترك موت أحمر

لازلت للسيف المهند بانيا   شرفا به نحو الموالى نفخر

وهنأه وزير القلم أبو فارس عبدالعزيز بن محمد الفشتالي بقصيدة مطلعها :

جيش الصباح على الدجا يتدفق   وبياضه لسواد ذاك يمحق

وهنأه الأديب أبو محمد عبدالله بن عجال الملزوزي بقصيدة مطلعها.

هنيئا لسلطان المغارب مذاتي   بشير توالت بالسرور بشائره

وجؤذر هذا ذو حزم وعزم وقوة على الحرب وهو حي الآن.

درة الحجال

ابن القاضي أحمد بن محمد بن العافية

Por su virulencia contra los Alfaquíes y Jurisconsultos musulmanes, se decía que eran renegados que venían a Andalucía y muy poco mahometanos.

De los pachás que sucedieron a Yaudar fueron también espannoles, Mahmud Zarco y Mansurico, luego el genovés Thaba que por su avanzada edad murió pronto. Yaudar continuó como jefe político, aunque asumió el poder militar a la muerte de los sucesivos Pachás. De 23.000 hombres sólo 500 regresaron y de ahí "la creación de estirpes con mujeres del país que aún perduran" en palabras de nuestro gran polígrafo ORTEGA Y GASSET, aunque del castellano sólo quedan algunas palabras pero muy significativas. El verdor del Niger les recordó su Andalucía natal y por la melancolía de su tierra ya no regresaron a Marruecos.

renegado veneciano) en los Oasis de Gurara y Tuat, siendo incorporados al Imperio Marroquí (hoy pertenecen a Argelia).

En 1.585 una expedición similar a la que participó Mármol, tuvo que regresar del desierto ante la falta de agua y las noticias de que el Emperador ASKIA SONGAY, acudía para enfrentarse al ejército Xerifiano, con 300.0000 hombres.

7- La expedicion al Niger. Conquista del imperio Songay

Ahmed Al Mansur en buenas relaciones con Felipe II, después de devolver y llegar a Céuta el cadáver de su sobrino D. Sebastián, a travès de los renegados Sufiyán y el genovés Thaba, decidió beneficiarse del respeto impuesto a los turcos y decidió invadir el Imperio Songay del Niger. Encomendó esta misión al Pachá de Marrakech, el almeriense Yaudar educado en su palacio desde niño. Con cerca de 6.000 hombres la mayor parte renegados, 70 cristianos, y "los andaluces". Entre Octubre de 1.590 y Marzo de 1.591, Yaudar salió de Marrakech y se presentó en el Niger procurando en las escaramuzas que mantuvo, no utilizar las armas de fuego, que suponía desconocidas en Africa negra, a pesar de que los Songay poseían un cañón, obtenido probablemente por el comercio de oro con los portuguese del Golfo de Guinea (Bauer y Landauer : "Relaciones de Africa"). (Página 35).

El 12 de Marzo Yaudar en Tondibi con los sobrevivientes de la travesía del desierto junto al Niger se enfrentó al Ejército Songay, que eran más de 30.000 hombres, algunas crónicas dicen que 80.000. Dejó para seguridad el río a su espalda, colocó la artillería con los cristianos en el centro y cuando los songay les lanzaron 10.000 Zebúes a una señal convenida hicieron una nutrida descarga con todos los cañones y la arcabucería, que asustó a los Búfalos y les hizo retroceder, desbaratando el ejéracito Songay. Las sucesivas descargas hicieron el resto y la caballería que mandaba Azan (o Hassan o Hussein) Ferrer el soldado más destacado del Imperio, masacró a la guardia real Sonna, atados para que no huyeran y les arrebató sus brazaletes de oro.

A partir de aquel momento empezó la conquista del país, cuando algún destacamento era atacado por los songays gritaba el españolísimo grito de ¡Arma Arma ! y a continuación se escuchaban los disparos que aterrorizaban a los indígenas con el fuego y la muerte a distancia. Por ello les llamaron los "Armas", denominación con la que se les conoce aún hoy en día.

Moluco", fingiendo recibir instrucciones para ocultar a su ejército la muerte de el Sultán que había dado lugar a la desbandada. En el momento de la victoria Ahmed fue proclamado sultán, a pesar de que hubo instantes que por el empuje de los caballeros fronterizos y los portugueses del joven rey, el príncipe marroquí emprendió la huída.

No tenemos noticias fidedignas de la participación en la batalla del almeriense de Cuevas de Almanzora, Yaudar, luego Pacha de Marrakech, pero si sabemos por la biografía de Ahmed Al Mansur que escribió Jerome Weiner, que se le encomendó la educación musulmana de los miles de jóvenes y pajes capturados en la batalla de Alcazarquivir. Fue la iniciación de los "jenízaros a la turca" en Marruecos.

Ademas con el rescate de los miles de prisioneros entre ellos toda la nobleza lusa, al Sultán Ahmed no sólo le llamaron Al Mansur (El Victorioso) Sinó Tambien "El Dahabi" (El Dorado).

Los Duque de Braganza, de Barcelos, el Prior de Crato, etc., resultaron prisioneros y su rescate con los beneficios del comercio de caña de azúcar con Inglaterra, enriqueció extraordinariamente a un país unido después de un largo periodo de luchas civiles. Y los soldados españoles renegados y moriscos, contribuyeron decisivamente a esta etapa de grandeza, no sólo aportaron los conocimientos militares en uso en la Península Ibérica, incluso Ibrahim-Al-Andalusí (recuerda Mercedes G. Arenal. Art. Cit.) llegó a escribir un libro en español dedicado a los inventos europeos utilizados por los españoles también en América, en materia de artillería, pólvora, instrumentos de geometría, construcción de cañones, regla de cálculo, peso del obús, etc. Con dibujos gráficos de trayectorias balísticas, etc. La obra tuvo tanto éxito que Quasin-Al-Andalusí la tradujo al árabe y tuvo mucha difusión en Marruecos.

Sin embargo, Ahmed guardaba ofrentas de los Alcaides peninsulares de su hermano especialmente del sinuoso Al-Dugali, compañero forzado en las luchas en el sur del Imperio contra Muhamad "El Negro". Por ello, cuando hubo indicios de conspiración por el "siempre traidor" Al Dugali, Ahmed El Mansur decidió ordenar su ejecución, la del Chambelán-Reduán y del granadino El Gori, encargándoselo a la milicia tribal Cheraga, rival de los andaluces.

En 1.581 las tropas de renegados y moriscos derrotaron a los turcos que tenían de rehenes a la viuda e hijo de Abdel Malek, (el hijo fue llevado a Constantinopla y la viuda contrajo matrimonio con un

Abdekl Malek queriendo evitar la lucha, envió a Andrea Gasparo Corso para que ofreciera cuatro leguas de tierra de labranza alrededor de cada una de las tres plazas fuertes portuguesas, pero D. Sebastián no aceptó. Cuando desembarcaron en Marruecos llevaban los portugueses 160.000 hombres entre hidalgos, nobles portugueses y hombres de leva poco disciplinados, 1600 españoles mal armados, más holandeses, alemanes e italianos. Y sin embrago iban 8.000 mujeres, pajes y sacerdotes e incluso niños. "El Negro" sólo pudo aportar 300 jinetes. Lo mejor del Ejército luso era la aguerrida guarnición de Tánger : "Los fronterizos", 200 arcabuceros y 600 jinetes.

Después de la aventurada marcha hacia el interior para ocupar Alcazarquivir y tras sitiar Larache, el 4 de agosto cruzan el Muaheçen y se encuentran frente al Ejército marroquí.

El contingente africano era muy superior al portugués, pues además de los contingentes de habla española, el Alcaide de Alcazarquivir, el renegado Ibrahim Sufiyan, predicando la Guerra Santa, consiguió decenas de miles de jinetes irregulares.

Pero el principal error de D. Sebastián, fue hacer correr la voz de que los renegados serían ejecutados al ser capturados. Pensando que así huirían, consiguió lo contrario, que fueran decisivos en la derrota portuguesa. Respecto a los moriscos recordando su expulsión de España ardían en deseos de luchar contra los cristianos, cansados ya de las escaramuzas con los turcos de la Regencia argelina. Respecto al "Negro" si sólo tenía partidarios en el sur, al aliarse con los cristianos, los perdió.

Los jefes más destacados del Ejército de Abdel Malek eran : Su hermano Ahmed, mandaba la caballería siendo su consejero más próximo el granadino Mohamed Zarco, el experto en armas de fuego. Osarían de Ragusa (probablemente Azan Ferrer de origen aragonés, mandaba los arcabuceros a caballo). Mohamed Thaba, genovés, los renegados. El Caid Dugali (según el historiador marroquí Nekrouf, pues otras fuentes no confirman su presencia) los andaluces. Ali Muza, descendiente de los reyes de Granada, mandaba la guardia personal del Sultán. Y el cordobés Soliman del Pozo la artillería camuflada entre pajas y arbustos.

No viene al caso describir la batalla que ya sabemos, acabó con la victoria africana, la muerte valerosa de D. Sebastián, de Abdel Malek y de "El Negro", ahogado, huyendo al final de la batalla. Durante la misma, los renegados Reduán, de origen portugués y Chambelán de la Corte y Solimán del Pozo acudieron a la tienda "El

gran Atarazana donde trabajaban los cautivos cristianos en la herrería y forja, bajo el mando de maestros renegados y andaluces. Mudéjares y granadinos hacían pólvora, construían artillería y labraban espadas, ballestas y arcabuces. Había doce alojamientos de Mudéjares granadinos y valencianos ballesteros.

El santanderino Acen Curto, fue uno de los Generales del Ejército Xerifiano. Pero el personaje más notorio por su controvertida trayectoria fue Al-Dugali, recorrió los asentamientos andalusíes, y reclutando a los belicosos voluntariamente y a algunos letrados forzosamente, llegó a reunir 14.000 llevándolos a Marrakech donde a la manera jenízara turca, les concedió asentamientos con terrenos para cultivar con agua y árboles a la andaluza. Pues la nostalgia de su tierra fue una constante hasta cuando llegaron al Niger, y muchos eran naturales de Orgiva, en el reino de Granada.

Como muchos vestían a la española y no hablaban árabe fueron llamados Elch o Elches renegados. Y se les asentó en acuartelamientos, en las dos grandes capitales del Reino como "Marrakis" y "Fassis", denominaciones que transplantadas claramente en la conquista del Niger, dieron lugar a la confusión de los investigadores.

6- La bataille de alcazarquivir

La batalla de Al-Ruk se decide al pasarse al bando de Abdel Malek, Al Dugali con la flor y nata de las tropas andalusíes.

El valor de estos soldados de habla castellana quedó probado en Alcazarquivir. Los portugueses por el empuje religioso de Xerifes habían visto sus plazas fuertes reducidas a Mazagan, Tánger y Céuta.

El joven rey y temerario caudillo D. Sebastián ya había estado a punto de perecer junto a Tanger, pero quería con su pequeño ejército conquistar Africa. Había creído en las palabras de Diego de Torres de las continuas rendiciones de Fez ante la presencia de un Ejército y se adentró aventuradamente entre un calor insoportable, camino de Alcazarquivir para conquistar Fez y el Reino Xerifiano.

Abdel Malek, amigo de la corte de Felipe II, había escrito al tío de Don Sebastián intentando disuadir del ataque,pero el propio Felipe II había sido incapaz de convencer al impetuoso monarca portugués.

Muhamad Al Mutawakil que había huído por el Peñón Español de la Gomera, se trasladó a la Corte de Lisboa para recuperar su trono con ayuda portuguesa.

europeos. Desde 1554 tuvo que huir a Argel para evitar ser asesinado por sus crueles parientes, tanto hermano como sobrino, con el que desde niño se había peleado a golpes (Muhamad Al Mutawakil) llevándose a su joven hermano Ahmed (luego El Mansur y El Dorado). Aprendió "las artes" de la guerra europea y turca y resultó prisionero en la batalla de Lepanto que quebrantó el poder turco. Ayudado por un cristiano al que se dio a conocer, conoció la cultura europea y aprendió el francés, el alemán e italiano, que decía Cervantes. De esta época, cautivo y voluntario entre cristianos, recibió la denominación de Moluco que es la castellanización del Moluk que viene de Mamluk, cautivo o esclavo.

Por ello recibió con gozo en su bando al andaluz El Dugali y cuando Muhamad reorganizó sus tropas, envió a su hermano Ahmed y el propio Al-Dugali contra su sobrino. "El Negro", con 6.000 bereberes y la ayuda de los "Morabitos" de las montañas, sitió Tarudant pero sin fortuna, recibiendo la adhesión de gentes de Sus. Por fin en "Boxoleía" fue desbaratado y de nuevo en el campo abierto junto a Tarudant vencido por Ahmed y El Dugali, a pesar de la ayuda de los Morabitos Sidi Hehete,(probablemente de la tribu marcial Haha), y Sidi Boceden que le consiguió 30.000 hombres. Después, con Abdel Malek presente, quemaron la "Zauia" de Sidi Hahete para que sirviera de ejemplo.

En todos estos combates, la artillería manejada por renegados y moriscos y la arcabucería andaluza resultaron decisivos.

Mohamad "El Shayk" abuelo de El Mutewakil había empezado según Mercedes García Arenal (pág. 9 Los Andalusíes en el Ejército Saadí), el reclutamiento de europeos renegados o moriscos que supieron utilizar las armas de fuego. Las tribus que proporcionaron los hombres voluntarios al Ejército del Sultán, las Haha y Cheraga diestras en el uso de armas blancas cimatarras, espadas y lanzas carecían de las características de los ejércitos modernos, y en España estaban los mejores arcabuceros en la nueva organización que culminaría Gonzalo Fernández de Córdoba en los tercios.

Abdallah El Galib, hijo de El-Shaik, por consejo de Abu-Ali Al Hassan, dignatario de la corte encomendó el mando al Corsario granadinó Al-Dugali. Les importaba mucho además del manejo de las armas de fuego, especialmente de la artillería y la fabricación de Arcabuces, después de mosquetes y los cañones denominados "tiros pequeños".

Marmol y Diego de Torres (obras citadas) confirman que dentro de la ciudad de Fez en las proximidades de las murallas, había una

pensaba que dominaba el turco, el español, el tudesco, el italiano y el francès". Estaba acostumbrado a dormir en cama alta y comer sentado en la mesa como los cristianos.

El mismo Diego de Torres consideraba a Muhamad que había mandado decapitar a uno de sus hermanos y encarcelar al menor, casi un niño, muy "malquisto" por sus subditos.

En Diciembre de 1575 Abdel Malek partió de Argel con 6.000 arcabuceros andaluces y renegados, 1.000 azuagos (Kabyleños del rey de Cuco), 800 jinetes con armas blancas y 12 cañones. En Marruecos se le unieron 60.000 partidarios, muchos de ellos a caballo.

Muhamad puso a su hijo como cabeza teórica del Ejército, por su sangre real, mientras el mando efectivo lo desempeñaba Ali-Sacra "Capitán esforzado y de gran autoridad en Berbería", que dispuso de más de 35.000 jinetes de Fez, 12.000 infantes espingarderos mandados por el virrey de Mequinez Sidi Ben Muza. Muhamad permaneció un cuarto de legua más atrás y con él estaban 15.000 hombres a caballo como reserva.

La batalla tuvo lugar el 17 de Marzo de 1576 en Al-Ruk cerca de Fez. El combate comenzó ya puesto el Sol y duró hasta las dos de la madrugada y en el momento decisivo Al-Dugali, morisco granadino se pasó al bando, con 1.500 andaluces donde había mayoría de sus paisanos, abandonando a "El Negro". Por lo que Muhamad huyó, con sus jinetes y Abdel Malek fue proclamado Sultán, entrando triunfalmente en Fez. Su hermano Ahmed fué nombrado gobernador de El Sus.

5- Abdel Malek y su ejercito de habla castellana

Abdel Malek según el moro vizcaíno Murga Mugaetegui[12] había sido educado por el cautivo español Francisco Carrillo que había sido miembro del séquito de Carlos V y por ello tenía en gran estima a los

12. Murga Mugartegui, militar español sobrino del famoso Almirante Mazarredoque bombardeó Argel y consiguió la paz con la Regencia de Trípoli durante el reinado de Carlos III, participó como observador en la Guerra de Crimea. No limitándose a ser un pacífico testigo de los hechos, el Coronel Murga participó en el asalto a la torre Malakow, Viajó por Turquía y ampliamente por Marruecos, cuya historia manejó en fluentes quizas perdidas actualmente. En Marruecos conoció a los renegados y músicos españoles al servicio del sultán y su información es fuente de primera calidad por sus inteligente, atinados y simpáticos comentarios.

recordemos que algún Papa como por ejemplo Pío V (anécdota del poeta Marera[11] fueron inflexibles en este tipo de castigos.

Cervantes escribió "La hija de AGI MORATO", pero la hija de Agi Morato, Zara, nieta de una mallorquina capturada en 1529, se casó en Argel con el Xerife Abdel Malek, conocido por El Moluco, destronado por su sobrino Muhamed.

A esta Zara descendiente de cristianos por padre y madre, atribuye Cervantes ser simpatizante de la religión de sus mayores. Lo cierto es que Abdel Malek nacido en 1541 se casó con ella en 1574 y al año siguiente tuvieron un hijo al que llamaron Muley Ismail. Y desgraciadamente cuando Abdel Malek recuperó su trono, su mujer e hijo fueron convertidos en rehenes de la Regencia Turca, siempre en dificiles relaciones con el hermano de religión vecino, que conservó celosamente su independencia, con natural disgusto del Imperio Califal de la Sublime Puerta : Turquía.

En 1.574 a la muerte de Abdallah Al Galib, accedió al trono de Marruecos su hijo Muhamad, conocido por "el negro" por su color, ya que era hijo de una favorita, antigua esclava.

Abdel Malek, sostenido por los ulemas de Marrakech mantenía que él como hermano de mayor edad del sultán muerto era el heredero. Los Ulemas de Fez apoyaban a Muhamed como hijo primogénito y heredero del sultán fallecido.

La guerra empezó favorable a Muhamad, y Abdel Malek "El Moluco" se tuvo que refugiar en Argel. Allí con la capacidad técnica de los turcos y la ayuda eficacísima del morisco de Guadix, Mohamed Zarco que le acompaño en el exilio, Abdel Malek preparó un gran ejército a base de renegados cristianos, artillería y moriscos arcabuceros españoles encuandrados por Zarco. Como además Muhamad fue déspota, cruel como muchos de sus antecesores no es de extrañar que el pueblo recordara a Abdel Malek. Cervantes, según cita Jaime Oliver (ob.cit), lo definía como gran soldado, hombre sabio, liberal, adornado de mil gracias, versado en su religión y

---

11. Un poeta romano en unos lucidos versos, ponía en burla la virtud de una mujer esposa de un noble pontificio. Cuando el Papa le llamó a su presencia dijo como explicación que "el apellido de esa dama era el único que rimaba con el resto de la poesía y por ello lo había colocado allí". El Papa le preguntó que como se apellidaba él y el poeta contestó "Marera, Su Santidad", a lo que respondio el Papa: "Pues yo también soy poeta y cumpla usted señor Marera cinco años de galera".

No es de extrañar que muchos no tuvieran otra vía que integrarse en los Ejércitos musulmanes para poder vivir mejor. De 1501 a 1571 la piratería arreció, siendo protagonistas especiales los corsarios moriscos como El Dugali, natural de Motril.

Estos musulmanes españoles de Africa conocían el idioma, las costumbres y tenían en la península los espías perfectos. Después de Lepanto, en 1571, la piratería disminuyó y se produjo un cierto acercamiento entre España y Marruecos, pero ya en el s. XVII con la expulsión definitiva de los Moriscos, un grupo muy cohesionado de ellos los "hornacheros" se establacieron en Salé y se constituyeron en un verdadero poder naval valiéndose de la anarquía por las guerras civiles producidas a la muerte de Ahmed Al Mansur. Tenían su propio "divan" y fueron una República morisca dentro del Imperio Marroquí, siendo el terror de los barcos españoles que volvían de América, sorprendidos al ser asaltados por piratas que hablaban perfectamente su idioma. Llegaron a ofrecer entregar la fortaleza de Salé y su flota si se les devolvían sus tierras en España, estando dispuestos a indemnizar a los actuales habitantes de Hornachos. Pero la monarquía española no aceptó.

Entre los capturados en el mar había muchos soldados de fortuna procedentes de las "Talasocracias mediterraneas" : genoveses sobre todo y también venecianos y florentinos, e incluso de Ragusa, hoy Dubrobnik, como Azan Ferrer al que Torcuato Pérez de Guzmán consideró descendiente de los Almogavares.

Argel llegó a tener 25.000 prisioneros cristianos, pues las flotas turcas y berberiscas se beneficiaban de las guerras entre España y Francia y de las rivalidades de las Ciudades-Estado italianas.

Cervantes, que estuvo prisionero en Argel entre 1575 y 1585, es decir, en pleno predominio Saadí en el vecino Marruecos, fue testigo de muchos hechos curiosos que luego le inspiraron personajes de sus obras, aunque como es lógico, no siempre respetando la verdad histórica.

Uno de sus personajes es realmente importante en nuestra historia, el corsario de origen albanés Agi Morato, jenízaro arrebatado a sus padres cristianos fue el terror del Mediterráneo, valiente en el ataque a Malta de 1565 y en el asalto a las naves que abastecían Orán y Túnez. En abril de 1580 capturó en el puerto de San Estefano, dos galeras pontificias. Como las tripulaciones escaparon en su mayor parte los prisioneros fueron los remeros, que precisamente eran clérigos y frailes que por graves delitos estaban condenados a ellas y

cabalgadas que desde Canarias se hacían hacia el interior del Africa Musulmana, dan lugar al florecimiento de mercedarios rescatadores de cautivos, bien por religiosos o por comerciantes que eran también diplomáticos y espías.

No siempre los renegados eran gente humilde, Emilio Temprano[9] mantiene que en Argel había nobles franceses y tenemos los casos de Pedro Navarro y otro pretendido navarro lugarteniente de Barbarroja, que según Caro Baroja[10] era amigo personal del hijo del Duque de Alburquerque con el que había mantenido un duelo singular, y que al final de su etapa Argelina regresaba a España con cautivos y riqueza para compensar su apostasía, siendo desviado por una tempestad yendo a caer en manos de los genoveses, que a pesar del testimonio de los cristianos liberados se quedaron con todos los bienes que quería entregar al Monarca español. La presión del Duque de Alburquerque y de su hijo consiguió su libertad pero no sus bienes.

Los frailes principalmente mercedarios y ciudadanos particulares como Fernán Gómez o Diego de Torres se dedicaban a la difícil labor de rescatar cautivos en Fez, Marrakech y Argel, aunqua la acción militar de España y Portugal, conquistando plazas costeras y los cambios de humor del Sultán y Regentes complicaban su labor.

Algunos cristianos molestos por la tardanza en su rescate, amenazaban con convertirse al Islam, para que los rescatadores agudizaran las gestiones. Los clérigos se preocupaban sobre todo de los jóvenes para que no fueran objeto de abusos ni fueran convencidos de abjurar de religion.

En Argel, de 1562 a 1590, en 5 ocasiones se rescataron cristianos: 427,980, 102, 560 y 133, en total 1.407. Un soldado podía costar 1.507 ducados, un obrero de maestranza 457. Los simples marineros o tripulantes 307.

---

9. Emilio Temprano en "El Mar Maldito" sin llegar al nivel del libro dea Emilio Sola, elata unos hechos curiosos un tanto olvidados, aunque sí sabemos por las biografías de Agi Morato y Al Dugali y la "Marine D. Alger" bastantes datos desde el lado musulmán, que él no ha podido debido manejar. Emilio Sola, por su permanencia como professor en Argelia ha disponer de más fuentes.

10. Julio Caro en "Una visión de Marruecos a mediados del S.XVI, la del primer historiador de los Xerifes Diego de Torres, "CSIC Instituto de Estudios Africanos. Madrid 1956".

consideraron que para luchar contra tan pocos turcos no eran necesarios los cristianos y sobre todo según los preceptos del Corán no se podría conceder la libertad al que no ha pagado rescate por ella. A pesar de que muchos de estos cristianos eran "horros" o libres.

En la batalla confiaban en los ágiles jinetes del Sus, pero la artillería turca manejada por los renegados y los arcabuceros moriscos, desbordó facilmente a la artillería y al ejército del Xerife, y así Sala Ráez Barbarroja y el Marinida Muley Buazon, entraron en fez, mientras el Xerife abandonó rápidamente la ciudad escapando con sus riquezas y abandonando a la población. Al final los cautivos cristianos pasaron a poder de los turcos y el error de los Xerifes terminó con el asesinato de los dos hermanos, El Arish y El Cheik ; ancianos de más de 80 años. El Xerife que reinaba en Fez fue asesinado en 1557 por el renegado turco Acen que fingió pasarse a su bando.

Su heredero, hijo y sobrino de ambos, Muley Abdala, viendo el buen éxito de los turcos con los moriscos y los renegados cristianos, decidió imitar la organización turca en su Ejército. Comprendiendo el gran valor de las armas de fuego en los Ejércitos modernos, armas en las que tan diestros eran los castellanos, moriscos, renegados y cautivos, en general españoles.

La larga lucha de la Reconquista, dió lugar a combatientes de fortuna en ambos bandos, o aventureros que prefirienron pasar a Africa antes que luchar en las frías tierras Centro Europeas, enfrentados a Francia en el Franco-condado, a Alemania en las Guerras de Religión y después en Flandes con motivo de la sublevación contra Felipe II.

Son los cristianos capturados en la batalla de Alcazarquibir, o en las muchas escaramuzas con las guarniciones de las plazas fuertes costeras que los españoles y portugueses poseían en la costa del Norte Africano. Algunos se adhirieron voluntariamente a las filas musulmanas al renegar de su religión para hacer mas llevadero su cautiverio. Otros lo hicieron al ser demasiado pobres, para que su familia pudiera pagar un rescate, siendo la única forma de obtener la libertad, ganarlo combatiendo a favor de un soberano. Especialmente muchos de los capturados que eran destacados combatientes.

Precisamente en 1591 Felipe II da una Real cédula, animando a Alguaciles y Jueces para conseguir remeros en Galera, con condenas, aprisionamientos, etc. Para evitarlo pasan a Africa. Los capturados, a consecuencia de las escaramuzas con las plazas fuertes y de las

3. La regencia de argel y el nuevo equilibrio en el miditerraneo occidental

Paralelamente a los sucesos en la Península, una prolongación del poder turco en el Mediterráneo se establecía en la Regencia de Argel, tan próxima a España. Desde 1504 tres hermanos llamados Barbarroja, oriundos de Mitilene, (isla de Lesbos), se habían apoderado de la costa berberisca y asolaban toda la navegación y los puertos de la cristiandad. España desde Orán a Mazalquivir, plazas de la costa Argelina, luchaba denodadamente contra ellos. En 1518, el Alférez García de Tineo consiguió acabar con Horux Barbarroja. Pero no con ello disminuyó el peligro.

Los hermanos Barbarroja paralelamente a sembrar el terror en el Mediterraneo, se valieron de la gran experiencia militar de los moriscos españoles, no en balde Julio Caro Baroja en "Los Moriscos de Granada" califica a las milicias andaluzas de "célebres unidades militares". Mercedes García Arenal, en su Biografía de Al-Dugali, publicada en las Actas del Congreso, "Relaciones Ibéricas con Marruecos", reproduce la frase de Harrison "For the Andaluzes... as I said before are the best soldiers". No es de extrañar que los Jenízaros turcos y los moriscos andaluces, derrotaran a los reyes de Tenes y Tremecen y llegaran a conquistar Fez. El Xerife marroquí se había apoderado de esta ciudad en 1550 valiéndose de su condición de antiguo preceptor del Rey "Hamete Wattasie" y en uno de sus arrebatos ordenó que en Marrakech y Tarudant en 1552 fueran ejecutados toda la familia. Sólo un superviviente, Muley Buezan pudo salvarse y buscó ayuda de la Regencia de Argel, y el Corsario Sala Ráez se brindó a ayudarle para vengarse en 1554 los turcos con sus moriscos y jenízaros se presentaron ante Fez.

4. El origen del nuevo ejercito xerifiano

Ante ese peligro el Xerife reunió a los renegados cristianos libres y cautivos, pensando que por su destreza en el manejo de las armas podría usarlos frente al enemigo común. Probablemente por su dominio del árabe, fue elegido para hablar en nombre de los cristianos Diego de Torres, que se deslizó en alabanzas del Xerife y ofreció a los cristianos para luchar en favor de los marroquíes contra los turcos.[8] El Xerife reunió a su diván de Consejeros, y sus Alfaquíes

8. Esto aparece en el libro de Diego de Torres en la edición Siglo XXI que yo poseo en las pag. 255 y 256. Las dudas del Xerife le costaron perder la ciudad de Fez.

que fueran cristianos, hizo que muchos acabaran decidiondose a marcharse de su país natal donde tan mal se les trataba. Y así en 1540 hay toda una organización de evacuación. Desde pueblos de la costa, en zonas acordadas previamente, hacían señales por medio de fuego, a fustas a vela que trasladaban a los moriscos levantinos a Argel. La inquisición llegó a condenar en 1569 al Almirante de Aragón D. Sancho de Cardona en un proceso que había empezado en 1540 por simpatizar con los moriscos, asistir a sus prácticas religiosas y animarles a escribir al rey y al Papa denunciando que su conversión al cristianismo fue forzada y no voluntaria.

Sin embargo el hecho que determinó la marcha masiva de moriscos a Africa fue la encarnizada Guerra de las Alpujarras de 1568. El 1 de Enero de 1567 el Rey Felipe II ordenó la destrucción de los baños musulmanes y de las mezquitas, prohibió el uso de las vestimentas tradicionales, obligaba a tener las puertas de las casas abiertas, de día y de noche, tres días a la semana, para que su vida privada fuera controlada. Ello motivó una sublevación masiva, reuniéndose un ejército de 40.000 hombres, 10.000 de ellos armados con arcabuces, que estuvo a punto de conquistar Granada, si la población urbana del Albaicín les hubiera apoyado. Nombraron rey a Frenando Valor (Aben Omeya), y, como corresponde a una guerra civil, las crueldades fueron muchas por ambos bandos. Al final D. Juan de Austria, con tropas aguerridas (57.000 hombres) les venció, haciendo inútiles los socorros turcos por mar y procediéndose a la dispersión de la población alpujarreña por Castilla y Valencia.

El destierro forzoso, aún de aquellos que no habían participado en la sublevación y habían visto morir a mujeres y niños, provocó que en Castilla moriscos expulsados de Granada, desarraigados y desesperados se convirtieran en salteadores de caminos. Lo que aumentó si cabe la animadversión del pueblo que lo pagó con agricultores que vivían sedentaria y pacíficalente. Ello hizo que muchos hombres de probado valor se pasaran a los turcos de Argel, que seguían acrecentando su poder conquistando los Reinos de Tremecen y Tenes y hasta el de Fez arrebatándoselo al Xerife en 1554. El factor básico de estas victorias eran los Jenizaros, jóvenes cristianos arrebatados a sus padres, educados en la fe de Mahoma, entrenados militarmente con gran eficacia y a los que se daba tierras fronterizas al final de su trayectoria militar para asegurar las fronteras.

Este peligro llega a la dinastía Xerife, aún más que los cristianos.

muchos se habían convertido sinceramente al cristianismo. Pero Felipe III no tenía ni la capacidad de decisión, ni la visión de política interior, ni muchísimo menos la independencia de criterio de su padre y abuelo.

Pero la marcha a Africa de los moriscos había empezado mucho antes. Las familias nobles que con sus disensiones tanto contribuyeron a la victoria cristiana, fueron los primeros en comenzar su particular diaspora y así los partidos encabezados por Boabdil y El Zagal, Zegríes y Abencerrajes fueron los primeros en cruzar el Mediterraneo. El propio Boabdil después de su famosa subida a las Alpujarras y su triste despedida, fue acogido amablemente por los reyes de Fez y contrariamente a su injusta fama murió violentamente cerca de los setenta años de edad, luchando en favor de sus protectores contra los usurpadores Xerifes.[7]

En 1520 se prohibió a los moriscos españoles la práctica pública del Islam, lo que encolerizó a los que habían creído en lo pactado con los Reyes Católicos. Muchos de ellos fueron masacrados en las alteraciones de las Germanías y tomaron parte en las luchas a favor de sus señores y de Carlos I, lo que generó el odio de muchos valencianos que consiguieron se les forzara a convertires en 1525. En la revolución de las comunidades que según Maraval fue la primera revolución ciudadana burguesa de la Historia, los moriscos granadinos, lucharon contra los sublevados bajo el mando del Marqués de Mondejar (Mercedes García Arenal, en "Los Moriscos").

El Marqués de Albayda los protegió, al igual que el Conde de Padul y los moriscos castellanos desconocían el árabe.

Todo ello no fue óbice para que fueran calificados como "mala secta" y aunque se les impedía la emigración a América, su destreza en la construcción de armas y en el uso de ellas motivó que muchos se enrolaran en los tercios donde se aceptaba a los voluntarios sin muchas preguntas. Pero las afrentas que se les hacían y los escritos que se les dirigían desde Africa, ofreciéndoles además Iglesia para los

7. Recientemente "El manuscrito Carmesí" de Antonio Gala ha ganado el premio Planeta y el autor ha declarado en la radio, que ha inventado una muerte valiente de Boabdil. Nada más lejos de ese supuesto invento. Yo lo he publicado en mi cuaderno monográfico CIDAF MAYO 1988 "Los Armas de Malí,Polémica y Realidad". Pero ya en el siglo pasado "El Moro Murga" en "Recuerdos de un moro vizcaíno" lo recordaba de unos anales granadinos. también Aniceto Charco en la batalla de de Alcazarquivir (ver bibliografía y Jaime Oliver Asin, (bibliografía) y Mercedes García Arenal)

de Mármol Carvajal. Mercedes García Arenal en su Introducción a la edición del s. XXI en 1980, aclara que fue Torres quien realmente copió a Mármol. De todas formas el periodo estudiado comprende de 1502 a 1574 y es un periodo apasionante de la Historia de Marruecos, previo al gran paso de Alcazarquivir en 1578, que significó la entrada de la dinastía Saadí en la *Puerta grande de la historia.*

2. El paso de los moriscos a Africa

En los años de lucha y convivencia entre musulmanes y cristianos, las guerras civiles del advenimiento de la dinastía de Trastámara y los del periodo de Enrique IV,y su supuesta hija Juana -contra los Reyes Católicos, supusieron un periodo de convivencia pacífica con el Reino Nazarí de Granada, donde era más cómodo para los Reyes Cristianos cobrar tributos, que no forzar la Reconquista. Además tanto Pedro I como Enrique IV tuvieron importantes contingentes musulmanes a su servicio e incluso Enrique IV vestía "a lo árabe". Por ello no es de extrañar que la gran mayoría de Mudéjares y Granadinos hablaran castellano.

Con la conquista de Granada la influencia cristiana se acrecentó y una parte de los moriscos se convirtió sinceramente, pero otros lo hicieron por conveniencia y algunos incluso, siguieron praticando su religión con cierta ostentosidad. Pero la Regencia del Cardenal Cisneros acrecentó la intolerancia con la quema pública de libros y empezó a hacer cada vez más difícil la vida de Mudéjares y Moriscos. No eran ajenos a estos motivos el fanatismo cristiano de la época, la codicia y falta de escrúpulo de algunos malos cristianos, que lo que pretendían era ocupar las tierras de los moriscos, apoderarse de sus bienes y privar a la nobleza valenciana y aragonesa de servidores fieles y grandes cultivadores de la tierra. Cuando las presiones conjuntas del alto clero y los codiciosos supuestos cristianos viejos, basándose en los antecedentes de la terrible guerra de los Alpujarras y en la colaboración de los moriscos con el temido peligro turco y berberisco acrecentado en esos años, por continuos ataques a las costas del Imperio Español, consiguieron la definitiva expulsión de los moriscos a principios del siglo XVII. Historiadores muy relevantes de la Edad Moderna como Antonio Dominguez Ortiz y Bernard Vincent coinciden en afirmar que esta expulsión contribuyó decisivamente a la decadencia de España. Es notable reseñar que ni Carlos I ni Felipe II, a pesar de su demostrada fe católica, quisieron tomar la decisión de la expulsión de los Moriscos y fue uno de los Austrias menores, el que la tomó cuando por el tiempo transcurrido,

biblioteca acabó en poder de dos africanistas "oficiales", Enrique Arqués y Tomás García Figueras. Cuando este encomendó al polígrafo Julio Caro Baroja la realización de un estudio antropológico sobre el Sahara español, D. Julio unió a la ya importante biblioteca paterna y propia la adquisición de múltiples libros y compró a Enrique Arqués el raro ejemplar, cuya cuidada reedición por la arabista García Arenal celebramos los estudiosos. D. Julio Caro, ya en 1956 en el C.S.I.C. publicó un sugestivo estudio, "una visión de Marruecos a mediados del s. XVI", indicando la necesidad de una nueva edición que diera a conocer tan curiosa obra.

Pues bien, Diego de Torres, por los estudios que había hecho en su estancia en Marruecos, deduce que los ricos comerciantes de Fez nunca quieren combatir ni sufrir largos asedios y por ello se rinden cada vez que un fuerte Ejército se acerca a la ciudad. Así lo comprobó con la caída de los Marinidas y con las luchas civiles entre los "Xerifes", de ahí su convencimiento cuando recorrió el país con el Capitán Aldana, (que luego mandaría el pequeño contingente español que sucumbió con los portugueses de Alcazarquivir) que la conquista de Marruecos era una empresa fácil, para un Ejército cristiano fuertemente armado cuya presencia bastaría para atemorizar a los moros y convencerles de la inutilidad de toda resistencia para no verse perjudicados en sus bienes. Para su desgracia, sus predicciones no se cumplieron y al ser derrotado el rey al que aconsejaba, pasó de la riqueza a la indigencia en la que murió, pues no tuvo el favor de Felipe II, molesto con Torres por no haber disuadido a su sobrino D. Sebastián de empresa tan temerosa y por el contrario alentarle a ella.

Diego de Torres se aventuró en Africa en 1546 como rescatador de cautivos (oficio muy necesario en aquella época) con sólo 20 años, al servicio de Juan II de Portugal, acudió a Marrakech a la Corte del Xerife Muhamad, donde aprendió el árabe en los 4 años que pasó en la capital Saadí. Por déudas del anterior rescatador Fernán Gómez fue encarcelado en la Sahariana Tarudant, ciudad-fortaleza de murallas altas. Era cuna de esta dinastía de donde los Xerifes surgieron predicando la guerra Santa contra los cristianos portugueses, que habían ocupado 7 plazas fuertes costeras y acusando a los Wattassíes de Fez, de "debilidad y complicidad con los invasores". Ello, su crueldad, astucia y sobre todo sus traiciones, acabaron dándoles el dominio de los tres reinos de Tarudant, Marrakech y Fez. Torres una vez que recuperó la libertad, rescató más cautivos y regresó en 1554 a la Península donde escribió su obra probalmente en Sevilla. Julio Caro Baroja cuando estudió la Relación de los Sucesos de los Xerifes, creyó que en muchos capítulos había sido copiados por Luis

de la rebelión y castigo de los moriscos de Granada". Lo que también nos da las pautas de la masiva emigración morisca a Africa, perseguidos en sus ropas y costumbres primero, obligados a convertirse después, y por último masacrados. Tras su sublevación, no les quedó mas camino que trasladarse donde su amplia experiencia militar fue acogida con verdadero júbilo y no es de extrañar que fueran utilizados en la extraordinaria expedición al Niger en 1590-91.

La tercera fuente sobre el Norte de Africa de la Epoca es la "Topografía e Historia General de Argel" con muchos datos sobre la regencia turca desde la que se provocaban y hacían gran parte de los ataques contra la Gristiandad. Fue publicada en Valladolid en 1612 atribuída a Fray Diego de Haedo.

Emilio Sola, antiguo profesor en la Universidad de Oran y hoy en Alcalá de Henares, opina que ninguno de los dos Diego Haedo (aunque uno fue gobernador de Sicilia) pudo haberlo escrito, el autor fue Antonio de Sosa, cautivo en Argel entre 1578 y 1581 donde coincidió con Cervantes y así se dice por Camamis en "Estudios sobre el cautiverio en el Siglo de Oro" publicado por Gredos en 1977. En esta Topografía de Argel se dan muy interesantes detalles sobre el Corso y la notoriedad de famosos Corsarios.

La 4ª fuente española del Norte de Africa es para mi investigación muy útil. Es la "Relacion del Origen y suceso de los Xerifes y del Estado de los Reinos de Marruecos, Fez y Tarudante que comprende el periodo de 1502 a 1574 con una breve referencia final a la batalla de Alcazarquivir de 1578. Escrito por Don Diego de Torres, su viuda no consiguió publicarlo hasta 1586 y fue muy poco conocido precisamente por la ruina de las armas portuguesas de D. Sebastián en esta infausta batalla, a la que Diego Torres alentó. Este libro tiene una historia apasionante y muy ceutí, no sólo por ser Céuta la vía de rescatadores, viajeros y de los embajadores que recibieron el cuerpo del Rey D. Sebastián. Es por la curiosa historia de cómo este libro ha llegado a poder ser reeditado en 1980 merced a la labor de Mercedes García Arenal. Ya en 1894 se definía por el bibliófilo Escudero como obra rarísima de la que sólo se conocía un ejemplar en biblioteca particular, además de los conservados en la Sección de raros de la Biblioteca Nacional. Ese ejemplar probablemente fue el que, llegó a poder del arabista Clemente Cerdeira muy vinculado a Céuta y traductor en 1917 (Madrid, Tpografía Moderna) de la versión marroquí de la Guerra 1859-60 publicado por el Jurisconsulto Laled-Eb-Basiri. Durante la Guerra Civil, Cerdeira militó en el bando republicano y se refugió en Tánger. Muerto trágicamente, su

En primer lugar la "Descripción de Africa" del famoso "León el Africano" apasionante personaje cuya vida es toda una novela[5]. Nacido en Granada hacia 1487 se trasladó con su familia a la Capital Marinido Fez. Viajó por los más importantes centros de la Cultura Islámica, Tomboctú, Istambul y la Meca ; y a la caída de los Marinidas sirvió a la nueva dinastía de los Xerifes, especialmente en las luchas contra las plazas fuertes portuguesas hasta que en 1520 fué capturado en la isla de Yerba (Túnez). fué llevado ante El Papa, pues desde el principio los marinos cristianos captaron que se trataba de una persona principal. Sabía castellano, pronto aprendió italiano y en 1524 realizó un vocabulario Hebreo-Latín-Arabe. Se convirtió al cristianismo bajo los auspicios del Papa León y dió clases de árabe en Roma y Bolonia. Pero después de la muerte del Papa, acabó volviendo a su fé islámica y regresó al reino de Fez.

Esta descripción de Africa, fue publicada en Venecia en 1566 y claro está, describía el vecino continente hasta el momento de su captura en 1520.

Con este mismo título apareció en 1573 y 1599, la obra de Luis Marmol Carvajal en 3 volúmenes. El primero publicado en Granada y los dos siguientes en Málaga, 26 años más tarde. Granadino, al parecer de familia morisca[6] desembarcó en Túnez en 1535 con Carlos V, vivió durante 22 años en el Norte de Marruecos hasta 1557, 8 de ellos como cautivo de los Sultanes Xerifes, acompañando al Ejércido de su Rey Musulmán en la primera de las expediciones al Sahara que fracasó aute las adversas condiciones climatológicas que les obligaron a regresar, pero que, demostró sin duda alguna, las apetencias de los soberanos para ocupar los territorios del Africa Negra y beneficiarse de su supuesta riqueza aurífera a pesar de que por practicar la misma fé islámica no había ningún pretexto de guerra Santa que lo justifique. Marmol tradujo las inscripciones de la Alhambra y participó en la represión de la sublevación morisca, sobre la que escribió "Historia

---

5. El escritor árabe-libanés Amin Maluf, ha novelado la vida de tan apasionante personaje. Y en un curso de verano de la Universidad de Granada en el que participamos, el professor Bernard Vincent me coménto que había muy pocos errores históricos en el contexto. De ahí el éxito de "Léon el Africano".

6. Luis de Màrmol a lo largo de su azarosa vida y por su conocimiento del árabe fue un observador extraordinario de Marruecos, las regencias de Argel, la Kabylia, e incluso del Sahara en cuya primetra expedición participó personalmente, por lo que pudo hablar con los moriscos de esta zona deAfrica.Merecería una reedición, esta vez de los los tres tomos, ya que la anterior fue sólo del primero en 1953 C.S.I.C.

de "L'Ecole des langues orientales vivantes" se encontraron referencias a la lengua del Ejército invasor a la que llamaban "técnico-militar" por utilizar expreciones ininteligibles, desconocidos por los Alfaquíes del Imperio Songay, buenos conocedores del árabe, y estas expresiones eran tales como "mas aina" (deprisa, en castellano antiguo), "Cortale la Cabisa"(por cabeza) pág; 290-291[3] del *Tarīk Fettāch*. Para los traductores franceses, no hay duda de que la mayoría de los componentes de este Ejército eran en su mayoría españoles. Así se refleja en las obras *Tarīk-es-Sūdān* de Amir-es-Sa^{c}dī, traducida por O. Houdas en 1899 y el Tarik Fettach, que en 1913 publicaron en edición bilingüe franco-árabe el mismo Octave Houdas y Maurice Delafosse. También Houdas había hecho dos traducciones realmente notables, una sobre la anónima *Tādkhirat-el-Nissyān* : las biografías de los cadíes de Tombuctú publicadas en 1899 "L'Ecole de Langues Orientales Vivantes" y además de estos tres trabajos que cubrían la Historia de Africa Occidental hizo la versión francesa (en 1889) del *Nuzhat-el-Ḥādī* de *El-Ufrānī* que es la crónica del gobierno de Marruecos de la dinastía Saadí en los s; XV al XVII. En dicho período se produjo la conquista de "la Curva del Niger" y el asentamiento en esta zona de una población Hispano-Marroquí, que progresivamente fue perdiendo sus lazos con Marruecos por la anarquía de este país y al mismo tiempo también perdió la lengua de comunicación entre su triple componente renegado, cristiano y morisco que era el castellano.

Pero para comprender el significado de la Expedición de Conquista del Níger buscando el oro legendario con el que el "Kankha Musa" revolucionó los precios de El Cairo en el s. XIV[4], hay que considerar las fuentes españolas sobre el Norte de Africa y especialmente de Marruecos. Son muy pocas :

---

3. Los linguistas Octave Houdas y Maurice Delafosse, conocerían por sus estudios algo de castellano y de ahí su sorpresa al reconocerlo entre lo que los cronistas de la zona, que sólo conocían el árabe y las lenguas indígenas llamaron "lenguaje técnico".

4. El Lamoso mapa de Abraham Cresques, representaba al Kankha Musa con una pepita de oro, atribuyendo una riqueza desmesurada a esta región. Desgraciadamente, cuando los marroquíes conquistaron el país encontraron que el oro se acumulaba lentamente, o se comerciaba a travès de Ghana y Guinea con los portugueses en la costa, por lo que no había la supuesta riqueza, lo que disgustó al sután marroquí, cesando como jefe militar al Almeriense Yauder cuando supo la noticia.

La formation de un ejercito Hispano-Marroqui y la conquista del Sudan Nigeriano en 1591

Juan Manuel Riesgo
Madrid - Espagne

1- Introducción

Una de las mayores hazañas norteafricanas de la Historia es la Conquista del Imperio Songay del Niger en 1591 por un Ejército del Sultán Marroquí Aḥmed El Manṣūr de la Dinastía Saᶜdí llamada de "Los Cherifes". Pero este hecho es poco conocido en España, sólo Ortega y Gasset en 1924 le dió la importancia que se merece[1] y ello gracias a su amigo el gran antropólogo y africanista alemán León Frobenius[2], que pudo comprobar sobre el terreno en el Africa Occidental Fraucesa, lo que los eruditos arabistas franceses acaban de saber sorprendentemente : que ese Ejército que conquistó un Imperio, utilizaba el Castellano como lengua de comunicación.

Al preparar las ediciones bilingües de las crónicas árabes sobre la historia del Sudán Occidental que describían los legendarios Imperios Mali y Songay y hacer su traducción francesa los lingüistas

1. Don José Ortega y Gasset comprendió la grandeza de esta hazaña y le dió con sus ajustadas palabras en "El Sol" en 1924 y la revista de Occidente, el realce que se merece. Alentaba a visitar a "nuestros parientes en el Niger" y la Universidad de granada organizó dos expediciones con este fin. La asociación 2020 a la que pertenezco, ha conseguido una Beca en España para uno de sus eruditos descendientes de estos "Armas" hispanos.

2. León Frobennius, autor de "El Decamerón negro" investigó Africa Occidental durante años. Pronunció importantes conferencias en la Residencia de Estudiantes y mantuvo interesantes conversaciones en alemán sobre este tema con Ortega y Gasset, hoy el más importante Instituto africanista de Alemania, el de Francfort, se llam León Frobenuis en su honor.

importations en provenance de la rive Sud. C'est le fait le plus remarqué qui permet en même temps de barrer le chemin à l'expansionnisme Ottoman. Néamoins, le besoin de limiter un tel risque ne justifie pas à lui seul le déploiement d'un pouvoir direct sur un réseau d'alliance tribale impossible à tenir de manière permanente. Du point de vue de la nécessité économique, la dévaluation monétaire par al-Manṣūr lui-même, est largement significative d'un état de crise déjà chronique.[31] Cette mesure tend, au moment même où les revenus du commerce transsaharien connaissent une chutte libre et où les besoins de financement des projets sultaniens sont de plus en plus grands, à adopter une stratégie de réanimation, comme tout organisme vivant et bien renseigné, le pouvoir Saᶜdien établit son plan de conquête avec une précision et une minutie qui défie les chroniques.[32] Son erreur fondamentale réside dans le manque d'appréciation des quantités importables. Cela signifie qu'un tel pouvoir, peu présent dans les contrées lointaines, a tout au plus élargi sa capacité d'action isolée des tribus sahariennes. Si les razzias des populations sahariennes pour l'esclavage ont diminué jusqu'en 1615, c'est essentiellement grâce aux débats entre jurisconsultes vivant entre et au delà des deux rives. L'ordre économique transsaharien s'inscrit certes dans l'orientation imposée par la conquête, mais l'analyse diachronique de la dynamique retrouvée à l'Ouest, n'en admet pas moins l'uniformisation de la gestion autonome de l'espace tribal. Nous ne développerons pas cette reprise et ses variantes et modalités, définies à partir de la diversité des rapports d'échange entre régions. On précisera seulement que l'ordre commercial transsaharien s'inscrit dans une conception continentale largement diffusée, conception mondiale où l'Atlantique conditionne l'ordre encore stabilisé. Il ne prendra de forme définitive spatialement et temporellement qu'avec la constitution au XVIè/XVIIè siècles des émirats de l'Adrār, du Tagant, des Brakna, des Trarzas et de l'Azawāḍ.[33]

---

31. M. As-Sūsī, *al-Maᶜsūl*, III 295 ; *T.F*; 123-149, *T. S*, 40, *Rasā'il saᶜdiya*, 217

32. Une ample démonstration est livrée par l'analyse pertinente du professeur Mohamed Allaoui concernant le monnayage Saᶜdien.

33. Ismael Hamet, *Chroniques de la Mauritanie Sénégalaise, Nasser Eddine*, Paris, Leroux, 1911; H. Martin, "Les tribus du Sahel mauritanien et du Rio de Oro", *Bull. IFAN*, 1 fas 1-2, Dakar, Avril- juillet 1939, 587-629 ; A. Delcourt, "La France et les établissements français au Sénégal entre 1713 et 1763", *Bull. IFAN*, 1952 ; C. Hamies, "L'évolution des émirats maures sous l'effet du capitalisme marchand européen", in *Production Pastorale et Société*, Paris et Cambridge, M.H et Cambridge University Press, 1979, 375-398.

entendre que les Maghafra qui ne participent pas au trafic, ont toutefois un rôle à jouer en tant que forces auxilliaires.[27] L'organisation d'une armée professionnelle spécialisée limite donc les rapports de la cour d'Al Manṣūr à ces tribus et réduit leur rôle d'encadrement. Le registre d'un officier d'Al-Manṣūr indique qu'en 991/1584, la capacité de mobilisation saᶜdienne ne dépasse pas les ᶜAbda contrôleurs du fonds ethnique Illmmidan (Lamta) et Iguzuln (Gazula) dans le Wād Nūn.[28] De même que la conquête de l'axe côtier [Sagya al-Ḥamra, Tiris, Adrār, Tabria, Sénégal] se limite à réunir les produits de l'élevage et à instaurer par des alliances nouvelles la protection occidentale de la conquête envisagée. Le départ de Tagaonst dans le Wād Nūn au mois de Rabia II 992/ Avril 1584, éclairé par le registre de l'officier al-Ḥassānī, est à cet égard très utile. L'énumération des noms des entités distinctes les unes des autres permet la mise en place d'une taxinomie correcte mais pas encore définitive. La fragmentation en unités régionales sociologiques restreintes susceptibles d'être traitées de façon monographique, établit nettement la distinction entre fonds ethnique local et arabe. Il fait état de cohabitation par terroir tout en les distinguant bien. Les ᶜAdba qui ne sont pas désignés en tant que suzerains du Wād Nūn, le seront lors de l'expédition, à la même année 992/1583-4, par l'historien officiel d'al Manṣūr.[29] De ce point de vue, on peut considérer que la conjoncture historique singulière s'exprime dans le postulat d'une indépendance du fonds ethnique seul maître réel de l'espace villageois. Si l'on souhaite interpeller l'espace humain en ce moment, on suggérera une dimension qui semble essentielle où l'étude des rapports entre composantes ethniques sert de fondement à la réalité spatiale. Seule cette démarche nous permettra de comprendre le positionnement du makhzen Saᶜdien par rapport à l'autonomie du mouvement tribal.[30] On verra que le contrôle de la saline de Taghaza vise à comprimer les

---

27. *Manāhil*, 30-31-39- 135- 162-174-175-176-193

28. Ibrāhīm b. ᶜAlī al-Hassānī, " Le Kennach. Une expédition du Sultan Aḥmad El Mansour dans le Sous 988/1580", trad. et annote par L.C. Justinard, in *Archives Marocaines*, XXIX, 1933, 165-214 ; texte arabe annoté par Omar Afa in *Revue de la Faculté des lettres et Sciences Humaines*, Université Ibn Zuhr, Agadir, n° 1, 1987, 85-120. *Cf.* également Al-Fashtālī, *Manāhil*, 30-31.

29. Al Fashtālī, *Manāhil*, 59.

30. Le recours aux razzias du cheptel camelin des Aulād ᶜAbd Ar-Rahmān de la tribu Maᶜqilya Brabish à l'Est d'Arawan lors de la grande conquête du Niger, en constitue un exemple. As-Saᶜdī, *T.S.* 172 ; ᶜAbd Allāh Gannūn, *Rasā'il saᶜdiya*, Imprimerie al-Mahdya, Tétouan, sind, 193.

l'ombre les constantes contradictoires manifestes entre la structure d'alliance intertribale et les pouvoirs Askyas et Saᶜdiens. Il est d'ailleurs malheureux que la disparition du texte original du *Tārīkh al Fattāsh* permette difficilement de résoudre le problème des remaniements tendancieux de ce livre. *La question de l'autonomie de l'ensemble complexe villageois- transhumants-grands nomades entre les deux rives du Sahara atlantique n'a pour détermination propre que l'indivisibilité.*

Chaque centre et sa périphérie géographiquement indivisibles, sont maintenus, mais dépourvus des prérogatives essentielles du self contrôle face à l'invasion des Maghafra.

C'est précisément ce que semble avoir bien compris les Saᶜdiens originaires de la rive N-O. Dans la région centrée autour du Tuwāt, ils vont commencer par établir une série de rapports d'autorité dès la conquête de l'Adrār at Tmar et Taghaza en 951/1544 par le père d'al-Manṣūr.[25] Leur objectif se résume en l'établissement tout au plus d'un réseau d'alliance et d'écoulement des produits vers la barrière douanière établie par les Songhay.[26] Al Fashtāli laisse

---

année, L, fasc 183, 1929, 249 *sq.* ; C. Desiré Veuillemin, *Contribution à l'histoire de la Mauritanie de 1900 à 1934*, Dakar, 1962, 69 *sq.*; P. De Cenival et De la Chappelle, "Esquisse d'une histoire du sahara occidental" *Hespéris*, XI, 1930, 35-95, G. G. Colin, "Mauritanica", *Héspéris*, XI, 1930, 142 *sq.* ; Damirão de Gois, *Les Portugais au Maroc, de 1495 à 1521*, Mehay, 54, traduction R. Ricard, 130-131 ; Mustapha Naïmi, *as-Sahrā' min khilāl Bilād Takna, Tārīkh al ᶜalāqāt at tijāriya wa as-siyāsiya*, Okad, Rabat, 1988, 101 à 121.

25. Abū Fāris abd-ᶜAl Aziz al Fashtālī, *Manāhil As-Ṣafā Fi-akhbār al-Mulūk ash-Shurafā*, résumé du second volume, annotation ᶜAbd Allāh Gannūn, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Université Mohamed V, Rabat, Tétouan 1964, 55-56-57 ; G. Pianel, "Une source nouvelle de l'histoire saadienne", in *Hespéris*, 1949, 1er et 2è trim, 243-245 ; *id*, "les préliminaires de la conquête du Soudan par Moulay Ahmad al Mansour d'après trois documents inédits", in *Hespéris*, 1953, 1er et 2ème trim, 185-197 (textes arabes, trad et commentaires).

26. Al Fashtālī, *Manāhil*, 129, As Saᶜdī, T. S. 157; Anonyme Espagnol, "Relacion de la jornada que el Rey de Marruecos ha hecho a la conquista del reyno de Gao...", ou " Relation de l'expédition envoyée par le roi du Maroc à la conquête du royaume de Gao, le premier de ceux de Guinée en venant de la province de Lebtaoua et de ce qui s'y est passé jusqu'à présent", trad et publié par H. De Castries sous ce titre " la conquête du Soudan par El Mansour", *Hespéris*, 1923, III, 4è-trim, 433-488 en particulier 438-439 ; Aḥmad b. Khālid an-Nāsirī, *Al Istiqṣā*, 1ère édition, Dar Al-Kitāb, Casablanca, 1954-56, V, 121 ; Aḥmad b. Muḥamad b. Abī al ᶜAfiya Ibn al-Qāḍī, *Al Muntaqā al-Maqṣūr ᶜalā Maḥāsini al-khalīfa Abī al- ᶜAbbās*, B.G. ms 1059 j d w et 764d.

ouvertement dès le IXè/XVè siècle finit par faciliter la domination des Songhay. Ceux-ci ne manquent pas dès 1494 d'imposer de lourds tributs et de perpétuelles expéditions punitives et de razzias d'esclaves et de pillage.[21] Il est d'ailleurs très significatif qu'à l'appel de Boubou Mariama, les Peuls se révoltent contre l'Askya al-Ḥāj [1583-1586] et pillent une de ses embarcations. L'alliance de Ḥamdi Amina avec les Saᶜadiens contre les Songhay montre à quel point les Massina supportent mal l'autorité de Gaw.[22] En réalité, comme le font remarquer P. Pélissier et G. Sautter, c'est la zone soudanienne de l'Ouest qui constitue en Afrique de l'Ouest la terre d'élection de la civilisation villageoise[23], même si les centres et périphéries du Hodh, du Tagant, de l'Azawaḍ et de l'Adrār at-Tmar n'échappent pas à cette règle. Le recouvrement de la libre action étant aussi redoutable que le ralliement désintéressé, les tribus n'ont rien à dévoiler sinon leurs conflits d'intérêt. Celui qui veut entreprendre une étude dans ce sens doit cependant se contenter de cas de laboratoire. L'étude de cas est seule capable d'expliquer la longévité de l'entité étudiée et d'isoler ses variables structurales puisque toutes les lois sociologiques se manifestent par les actions et les attitudes.

Ce tableau sommaire des relations conflictuelles entre fond ethnique Iznago-soudanien et les Maghafra[24] ne fait que sortir de

---

pourraient échapper à la mort". *Cf. T.S*, 125. De son côté Sekou Aḥmadou, qui s'annonçait le successeur de l'Askia Muḥammad 1er, ne réussit pas à maîtriser sa volonté de vengeance. Avec l'aide de quelques érudits du Massina et d'habiles retouches du *Tārīkh al Fattāsh*, il se livre au massacre des Surku, des Gabibi, des Zinj etc... *cf.* sur cet aspect Niamkcy Georges Kodjo, "Contribution à l'étude des tribus dites serviles du songaï", *Bull IFAN*, XXXVIII, B, 4, 1976, 790-812 en particulier 800-801 ; J.O. Hunwick, "The term *Zanj* and its derivatives in a west African Chronicle", *Research Bulletin*, Centre of Arabic Documentation, University of Ibadan, CAD, 4, 1968, 41-51.

21. Les expéditions en vue de transformer les biḍān Ḥassān ou Iznagan en esclaves sont citées par *T. S*, 109 et *T. F*, *cf.* L.E. Koubbel, "Les agglomérations serviles et leur place dans l'histoire ethnique du Delta Moyen Niger du XVIè siècle d'après le *Tārīkh al Fattāsh*", VIIè Congrès International des Sciences Anthropologiques et Ethnologiques, Moscou, Editions Naouka, Aout 1964, tirage à part, 19p.

22. N. Georges Kodjo, *Isḥāq II et La fin de L'empire Songaï*, thèse de 3ème cycle, Paris, Sorbonne, 1972, 195 *sq.*, in *id*, "Etude des Tribus dites serviles du Songaï", 799.

23. "Bilan et perspectives d'une recherche sur les terrains africains", *Etudes Rurales*, Janvier-Septembre 1970, n°37-38-39,14.

24. Valentin Fernandès, *Description*, 68 *sq.* ; Bonafos, "Une tribu marocaine en Mauritanie, les Oulad Ben Seba", *Bull Trim Socio, géogr.* Archéo. Oran, 52è

Entre Shagiṭi et Wādan, les Tajakant d'origine Imssufn (Massūfa) ajoutent depuis le VIè/XIIè siècle le contrôle de Tnigi à celui, plus ancien de Tindūf. Les Ida-u-l'Ḥajj et les Ida-u-ᶜIsh maintiennent leur présence à Tishīt. Faute de pouvoir se livrer librement au négoce jadis plus florissant sur ces axes de l'Ouest, on s'oriente vers le circuit le mieux desservi Tuwāt-Niger. Le rôle des Kunta s'annonce incontestablement stratégique puisque l'alliance de Sidi Muḥammed al-Bakkāy et son fils ᶜUmar avec les Tajakant, par exemple, agit sur la structure de résistance face aux Maghafra. Elle consolide l'ordre confrérique tandis que les transformations du réseau Tindūf-Tuwāt-Tawdanni, occasionnées par l'apport de l'Askya Muḥammad, introduisent une certaine mobilité sociale. En effet, si quelques subdivisions Kunta sont réparties entre le Tuwāt et l'Azawāḍ, d'autres vont apparaître dans le Ḥodh. De même si la plupart des Tajakant sont les maîtres de Tinigi et sa périphérie, ils vont s'attacher partant de là, à mieux pénétrer l'Azawāḍ. Toute une série de centres et leurs périphéries successifs qui s'emboîtent les uns dans les autres, mettant en évidence la nature conflictuelle avec les Maghafra qui tentent encore, aussi bien que mal, de contrôler quelques parcours de nomadisation. A Tinigi par exemple, il tentent de déstabiliser les Tajakant et ne réussiront qu'à la fin du siècle. A Walāta, ce sont les Maḥājīb[18] et les Sarakollé[19] qui se partagent les riches pâturages. Les Peuls, sous la direction de Magan, s'installent à Massina en masse, ce qui mécontentera les Sarakollé de Dia ainsi que les Bozo et les Somo plus anciens sur place.[20] Le conflit qui a éclaté

18. Mukhtār wuld Ḥamidūn, *Encyclopédie, la partie géographique*, 38 *sq.*

19. Si par bien des aspects les Soninké, Sarakollé, Toucouleur sont identifiables à certains rameaux Iznagan, Iwalatan [Walāta] étant l'un des lieux de résidence commune, ils n'en sont pas moins les protégés religieux de Sidi Aḥmad al-Bakkāy b. Sidi Aḥmad al-Kuntī. On pourrait alors se demander quels types de liens pouvaient bien nourrir ces entités face à toutes les expéditions, qu'elles soient du Nord ou du Sud.

20. Quoique attachés à leurs valeurs ancestrales, ces entités déjà islamisées en ce moment [J. Rouch, *la religion et la magie songhay*, Paris, 1960, 24]. Cependant *Tārīkh al-Fattāsh* indique que Sonni ᶜAli "n'avait pas d'ennemis qu'il haïssait aussi vivement que les Peuls et ne pouvait voir un Peul sans le tuer qu'il fût savant ou ignorant, homme ou femme" [*T. F*, 83]. De son côté, l'Askia Muḥammad 1er n'hésite pas à décimer dès sa victoire sur le Chî Baro, les partisans de Chî Ali. Il déclare à son frère lors de la bataille de 1505 contre le Burgu "Tous ces gens que tu viens de voir succomber nous auraient rendu la vie difficile au Songaï s'ils étaient restés avec nous. Il ne nous était pas possible de les traiter nous-mêmes comme ils viennent de l'être, c'est pourquoi je les ai amenés ici afin qu'ils fussent décimés et que nous fussions débarrassés d'eux. Je savais qu'ici ils ne

que nous assistons à la mise en place d'un cadre passablement complexe et d'un ensemble de moyens maniés avec précaution sur fond d'influence religieuse. L'amende de guerre exigée dans le Zammūr et au Nord de l'Adrar at-Tmar par les puissants Awlād Dlaym et les Awlād b. Dāwūd dès 868/1464 indique le type de tensions et conflits qui s'annoncent.[14] Si la saline d'Ighīl qui s'y trouve demeure en 913/1507 sous le contrôle du fond ethnique Iznagan[15], c'est essentiellement parce que la présence des Awlād Dlaym est amoindrie dès 873/1469 par la famine qui les a guidés vers l'Azawaḍ.[16] L'essentiel reste pour nous que cette réorientation géospatiale et la dérive qui en est le corollaire, facilitent le glissement des Kunta également dans l'Azawaḍ. Les années de pénurie et des conflits d'intérêts ont été mises à profit pour se livrer librement au négoce au Nord de la boucle du Niger avec le Tuwāt, auquel ils demeurent attachés. La soupape religieuse servira les générations du Xè/XVIè siècles à éviter les pertes sèches en production minière, en élevage et dans le domaine commercial. En parallèle, l'échange et la rétention, se combinent chez la plupart des divisions Iznagan de plus en plus soumises à la pression guerrière des Maghafra, en une structure complexe. Dans une société matrilinéaire[17] où la structure des communautés claniques est articulée autour de la matrilocalité, les Maghafra font irruption en tant que groupes d'alliances lignagères solidaires, pratiquant le contrôle des parcours de nomadisation indivis. Contrairement au fond ethnique Iznagan, le pouvoir chez les Maghafra appartient au plus âgé des agnats et se transmet selon les règles de l'agnatisme patrilinéaire.

---

14. Léon L'Africain, *description de l'Afrique*, Tierce partie du monde..., nouvelle édition par Ch. Scheffer, Paris, Leroux 1897-30, -Valentin Fernandès, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal* (1506-1507), traduction P. de Cenival et Th. Monod, Paris, 1938, 68-69 ; - Paul Marty, "Les Awlād Dlaym" in *Les tribus de la haute Mauritanie*, Paris, Leroux 1916-47*sq.* ; R. Basset, *Mission au Sénégal, Recherches historiques sur les Maures*, Paris, Leroux 1913, 450 et suiv, Muḥammad al Mukhtār wuld an-Nday, *Archives Nationales*, Nouakchott, Dossier politique, A.P.E. /2/7, texte arabe et traduction, Sophie Caratini, *Les R'gaybat (1610-1934)*, I, Paris, L'Harmattan, 1989, 61-69 ; Muḥammad Sālim Wuld al-Ḥabīb wuld al-Ḥusayn wuld ᶜAbd al-Ḥayy, *Les Principales Préoccupations des R'gaybat* , étude et traduction Mustapha Naïmi, 1992, 16 n°6 ; P. Bonte, "Ramages Maures", *Journal des Africanistes*, 55 (1-2), 1985, 39-52.

15. Valentin Fernandès, *Description de la Côte*, 76.

16. Voir note n° 11.

17. Al-Maghīlī ne manque pas de dénoncer les pratiques matrimoniales à Gaw rappelant en cela l'attitude d'Ibn Baṭṭūṭa à Iwalatan (Walata) ; *cf.* J. Cuoq, *Recueil*, 433 ; *id*, *Histoire de l'Islamisation*, 93.

avec ou sans désordre, d'échapper aux multiples formes de domination politique. Le point le plus important ici est que les Ahl Sidi Aḥmad al-Kuntī servent de paradigme pour une certaine catégorie de tensions qui menacent le maintien en cette phase cruciale de la cohésion entre les subdivisions des Imssufan (Massufa)[10] auxquels ils semblent appartenir.

Ces faits d'ordre généalogique se situent dans le cadre de la distinction entre les Ahl Sidi Aḥmad et les autres lignages Kunta. Un document de 864/1460 affirmant la version des sources du XIXè siècle[11], dévoile l'antériorité d'une structure de ramification. Il paraît même que d'autres branches Kunta commencent durant ce siècle l'exploitation des mines d'argent de jbal ᶜAddāna dans l'Adrar Zuggwar du Bani au S.E de l'Anti Atlas se servant des esclaves d'Agammamū.[12] L'alliance des Ahl Sidi Ahmad al-Kuntī, par glissement sensible à la fin de ce siècle du côté des Maghafra Awlād an-Naṣar, matérialise ainsi un jalon sur la voie de la perte du statut guerrier d'endogamie qui devient dans ce cas précis une mesure défensive, n'empêchera pas les nouveaux religieux d'échanger les femmes avec les subdivisions Iznagan les plus proches, telles que les Tajakant, Imḥsarn, Id-u-kaln, Maḥājib[13], etc. Il semble donc clair

10. Etant une subdivision principale des Iznagan (Ṣanhāja), la confédération Imssufan (Massufa) est composée dès le siècle impérial des Murābiṭīn d'un certain nombre de branches ramifiées. De par leur évolution, ces branches autonomes dérivent un mouvement graduel où le terme *mashdūf* par exemple, fournit pour l'étudier les traits caractéristiques d'un cycle entier [*al Ḥulal al-Muwashshiya*, 1979, 17]. La mobilité géographique entre branches Imssufan et autres est indiquée par *Tārīkh as-Sūdān* qui précise l'interpénétration entre ramifications Iznagan des différentes autres confédérations [*T. OS* , 25]. Ce faisant, on élude explicitement les données généalogiques qui rattachent les Mashdūf aux Massuma et aux Tajakant bien connus pour leur identité Massufite en la personne d'Abū Bakr et son frère Muḥammad b. Muḥammad b. ᶜAlī b. Yaltas b. Amassam, point de rencontre de ces ramifications [Mukhtār wald Ḥamidun, *Encyclopédie*, V,1 ; *id*, *Géographie*, 27 et suiv, 38 *sq. id*, *Politique*, 174] ; H.T. Norris, *The Tuaregs, Their Islamic Legacy and its Diffusion in The Sahel*, Warminster, 1975, 1975,41-44.

11. in A.G.P. Martin, *à la Frontière du Maroc. Les Oasis Sahariennes (Gourara, Touat, Tidikelt)*, Alger, 1908,410 p, cité in P. Marty, *Les Kounta de l'Est*, (texte arabe, 28-9).

12. Odette Du Puigaudeau, *La Piste Maroc-Sénégal*, Paris, 1954, 223 ; Bernard Rosenberger, "Tamdult, Cité minière et caravanière présaharienne. IX-XIVè siècles", *Hespéris-Tamuda*, IX, 1970, 111.

13. Sur toutes ces entités, voir *Ar Risālat Al Ghallāwiyya*, reproduite par ash-Shaykḥ Sīdiya Bāba b. ash-Shaykḥ Sīdiya al-Kabīr in *Tārīkh Imāratay Ida-u-Iᶜīsh Wa Mashdūf*, traduite en anglais par H.T. Norris, in *Saharan Myth and Saga*, Oxford, Clarendon Press, 1972, XV, 210 p.

chef spirituel du Bilād at-Takrūr.[8] La détermination même de l'objet de cette mobilisation semble, si l'on croit cette démarche, aller de soi. La vie confrérique avait réuni progressivement non pas la totalité mais une bonne partie des conditions de légitimation du pouvoir Askya sur toute la région de l'axe Nigār-Turit au bilād at-Takrūr. Transférée au niveau d'une telle société, cette approche ne peut s'exprimer que dans le postulat de l'indépendance des tribus par rapport aux modes de contrôle du pouvoir Askya. L'utilité du religieux ne nous intéresse donc que dans la mesure où elle isole les Ahl sidi Aḥmad al-Kuntī en tant que gestionnaires du sacré. L'étendue de leur fonction, un siècle au moins avant la victoire des Maghāfra.[9] Dawī Ḥassān sur le fond ethnique Iznagan (Sanhajien), dévoile les conséquences engendrées par la cohabitation de plusieurs ethnies dans un même espace politique. D'ailleurs, étant des réalités extrêmement dynamiques, les ethnies entre les deux rives tentent,

---

chronique nommée *Tārīkh Walāta* quelques renseignements qui complètent *Al Ḥaswa al Baysāniya Fi al-Ansāb al- Ḥassāniya,* dont l'auteur est Sāliḥ b.ᶜAbd al-Wahhāb an-Nāṣirī.

8. La perception de bilād at-Takrūr varie d'une période à l'autre. Si l'on se réfère au XIXè siècle bien différent du siècle d'al-Bakrī, ash-Shaykh b. Hamanna al Gallawrī identifie bilād at-Takrūr avec "l'Adrār At-Tmar, Tagant, Al-Gabla, As-Sāḥil, Al-Ḥawḍ jusqu'au bilād as- Sūdān" in *Waraqāt fī Tajwīd al-Quar'ān*, Institut Mauritanien de la Recherche Scientifique, Nouakchott, n° 347,9. Pour une meilleure illustration de la question voir ᶜUmar An Najār, "Takrūr, The History of "Name", *The journal of African History*, X, n°6, 365-374.

9. Udayy Wuld Ḥassan qui est l'ancêtre éponyme de l'actuelle tribu des Udaya répartie entre les plaines atlantiques et le sahara occidental, est dit être le père de Maghfar ancêtre des Mghafra. Mais ce justificatif n'empêche nullement le terme Mghafra de constituer dans ses attributions sociologiques, un adjectif ethnique recouvrant les rapports de vassalité imposés par les vainqueurs Ḥassān au fond Iznagan. Même dans le cas où Maghafra est un ancêtre éponyme, la poussée des conditions imposées par ceux qui le revendiquent comme tel, se trouve à l'origine du concept *ghafr*, *Aghfīr*, *Aghaffār* désignant la protection et les garanties moyennant des redevances en nature. Ce sont les droits de protection qui servent ainsi de point de départ pour désigner les liens d'appartenance des vainqueurs où les Maghafra logent le sentiment de leur identité ethnique. Les caractéristiques ethniques actuelles des Maghafra sont attribuées dans le seul but d'indiquer l'origine des traits sociaux comportementaux. Voir Mustapha Naïmi, "Azwafit", "Aghaffūr", "Aghfīr", in *Maᶜlamat al-Maghrib* (Encyclopédie du Maroc, Association des Auteurs Marocains pour la Publication, Imprimerie de Salé, 1989, 364-367,537. Sur le thème de la protection, *cf.* ᶜAbd al-Aḥad Sebti, "Insécurité et figures de la protection au XIXè siècle", *La société Civile au Maroc*, Signes du Présent, Rabat, 1992, 47-70.

grand rayon, le parcours de nomadisation permet de détecter les comportements sociaux et politiques face à tout monopole étatique centralisé. Se poser des questions donc, sur les effets des stratégies des Askyas et des Sa^c^adiens sur les différentes tribus, c'est en somme se demander quelles peuvent bien être les limites de l'action conjuguée du système d'alliance intertribal.

A sa mort entre 916/1510 et 938/1532[4], al-Maghīlī passe pour être le symbole des liens construits entre la cour des Askyas[5] et la voie mystique *Mashīshiya*.[6] Il mobilise, si l'on croit les sources Kunta du début du XIXè siècle, Sidi ^c^Umar b. Sidi Aḥmad al-Bakkāy b. Sidi Aḥmad al-Kuntī[7] comme principal prédicateur et

4. Contrairement à l'indication d'Aḥmad Bāba, qui situe cette mort en 909/1503-4 [*Nayl al-Ibtihāj, Archives Marocaines*, Rabat, Section des Manuscrits, 1956, Bibliothèque Générale, 331], *Tārīkh as-Sūdān* assure que juste avant le départ pour le pèlerinage en 916/1510, al Faqih At-Tazahtī rencontre al-Maghīlī, pp. 63-65. Il faut donc accréditer Muḥammad b. al-Mukhtār al-Kuntī qui précise dans sa *Risālat al-Ghallawiyya* la date de 938/1532-1533?

5. A propos de la bibliographie de Muḥammad al-Maghīlī voir Aḥmad Baba, *Nayl al- Ibtihāj*, 330-331 ; Ibn Mariam, *Bustān* Alger, 1908, texte arabe 238, trad Provenzali, Alger, 1910, 288-92 in J. Cuoq, *Recueil des sources Arabes*, 433-5;- John O. Hunwick, *Sharī^c^a In Songhay-The Replies of Al Maghili to the questions of Askia al Hajj Muḥammad*, Oxford University Press, 1985, 18-19 (texte arabe), 73-74 (trad. anglaise).

6. H. T. Norris, attribue à *al-Maghīlī* un rôle prépondérant dans l'introduction de la Qādiriyya in *The Touaregs*, 1975, 62-65. Il diffère en cela de J.O. Hunwick pour qui *al-Maghīlī* serait Shadilite. "Religion and state in the Songhay Empire, 1464-1591", in I.M. Lewis, *Islam In tropical Africa*, London, 1966, 296-317 en particulier 314 ; *id*, *shari^c^a in Songhay*, 18-19 ; *id*, "Songhay, Borno and The Hausa States, 1450-1600", in Ajayi, I.F.A et M. Growder, *History of West Africa*, 2è édition, Londres, Longman, 1985, 323-371 ; J. Cuoq, *Islamisation de l'Afrique de l'Ouest des origines à la fin du XVIe siècle*, Paris, 343 p, Index, notes, cartes, en particulier 212-222 ; Moḥammad Bello, *Infāq al Maysūr fi Tārīkh Bilād at-Takrūr*, étude et annotation Bahija al-Shādilī, Faculté des lettres, Université Mohammed V, Rabat, 1989-90, 325 ; E.M. Sartain, "Jalāl al-Dīn al-Suyūṭi's relations with the people of Takrūr" in *Journal of Semitic Studies*, XVI, 2, 1971, 193-198.

7- On trouve dans *Tārīkh as-Sūdān* une référence à l'étendue du pays des Kunta qui contribuent notablement à introduire la Qādiriyya. Sidi Muḥammad b. Sidi al-Mukhtār nous laisse avant sa mort en 1283/1866 deux sources importantes sur sa propre tribu des Kunta *Kitāb at-Tarā'if wa at-Talā'id fi akhbār ash-shaykhayn al-Wālidatu wa al-Wālid* et *Ar Risālat Al Gallawiyya*. Cet ouvrage porte également le nom de *Tārīkh Kunta* se confondant ainsi avec une autre source du XIXè siècle à laquelle l'auteur Bay wuld Sidi ^c^Umar, attribue le même titre. On trouvera dans la

as-Sūdān.[3] Ainsi se trouve mise en place une problématique qui cadre parfaitement avec la décadence des routes de l'Ouest déjà chronique depuis la seconde moitié du IXè/XVè siècles. Il n'en demeure pas moins cependant qu'un grand nombre d'explications de cette problématique formulées dans des variantes plus verbales que substantielles, réduisent les spécificités régionales et les réalités sociales à des variables endogènes. C'est pourquoi nous allons tenter dans la présente notice de déplacer le champ de la problématique non pas par un glissement de sens, mais par le recouvrement des enjeux transsahariens eux-mêmes. Les données économiques se rattachent facilement au Sahara à des facteurs d'identité et à des tensions exacerbées, mais il ne s'ensuit pas nécessairement que la suppression de l'écueil économique ou l'introduction de stimulants économiques annuleraient les effets des différences politiques provenant de l'identité. Le choix des tribus sahariennes sur le postulat implicite de la relative autonomie spatiale par rapport à toutes les formes centralisées du pouvoir au-delà des deux rives. Schématiquement, tout se passe comme si la dépendance de ces tribus vis-à-vis de la dynamique routière est d'autant plus relative qu'elles se dérobent à mesure que s'accroît le lien économique et politique. Toutefois, assignées doublement par la position intermédiaire entre les deux rives du Sahara et au sein des principaux groupes d'opposition ethnique ou intertribale, les différentes entités offrent chacune un cas de laboratoire. Le mode particulier d'occupation du sol qu'est ici le parcours de nomadisation est inséparable de la stratégie de positionnement propre à chaque entité tribale par rapport aux circuits les plus attrayants. En fait, dans le système de nomadisme à petit ou à

"Studies in the Ta'rikh el Fattâsh (1). Its authors and textual history", *Research Bulletin of the Centre of Arabic Documentation* (Ibadan), V,-1-2, 1969, 55-65 ; M. Ly, "Quelques remarques sur le Ta'rikh el Fattach", *Bull. IFAN*, XXXIV, B, n° 3, 471-493, Zakari Dramani Issifou, *L'Afrique Noire dans les Relations Internationales au XVIè siècle*, Karthala, 1982, 257 en particulier 27 à 32 ; N. N. Levtzion, "A Seventeenth centry chronicle by Ibn al-Muktar, A critical Study of *Ta'rīkh Al-Fattāsh*", *Bull. of the School of the Oriental and African studies*, (34), 1971, pp. 665-674. S'il faut se contenter ici de Maḥmud Ka^cti comme auteur sur la couverture du livre, c'est uniquement par commodité, *Ta'rikh El-Fettach fi Akhbar Al Bouldan oual Djouyouch Oua Akābir An Nās*, ou *Chronique du chercheur pour servir à l'histoire des villes, des Armées et des Principaux Personnages du Tekrur*, texte arabe et trad. française par O. Houdas et M. Delafosse, Paris, A. Maisonneuve, 1964, 361 p, index, 1 carte.

3. ᶜAbd Ar-Raḥmān as-Saᶜdī, *Tārīkh as-Sūdān*, texte arabe édité et trad par O. Houdas avec la collaboration d'Ed. Benoist, Paris, A. Maisonneuve, 1964, 540 p, index alphabétique.

Espace tribal et spécificités sahariennes en 1592

Mustapha Naïmi
I.U.R.S., Rabat

Au moment où Ibn al-Wazzān, dit Léon l'Africain, démontre vers 920/1515 l'importance toujours stratégique des marchés et forces du Wad Nūn et Bānā pour les débouchés antiatlassiques du commerce du Sahara atlantique, l'Askya Muḥammad du royaume de Songhay achève sa cinquième tentative de contrôle de l'axe Niger-Tuwāt. Joindre le contrôle de Tuwāt à celui du Niger à partir de l'Aïr, revient en ce moment à contrôler le commerce de Tadmakka, principale plaque tournante entre le Tuwāt, Wargla et Tunis d'un côté, Gat, Ghadamus et Zawila par al-Fazzān de l'autre.[1] On comprend donc qu'à partir d'une telle stratégie, une controverse peut se déclencher progressivement entre les Askyas et les Sa^{c}diens. Les propos semblent soulever peu d'objections de la part des chercheurs qui réfèrent constamment aux deux célèbres *Tārīkh, al-Fattāsh*[2] et

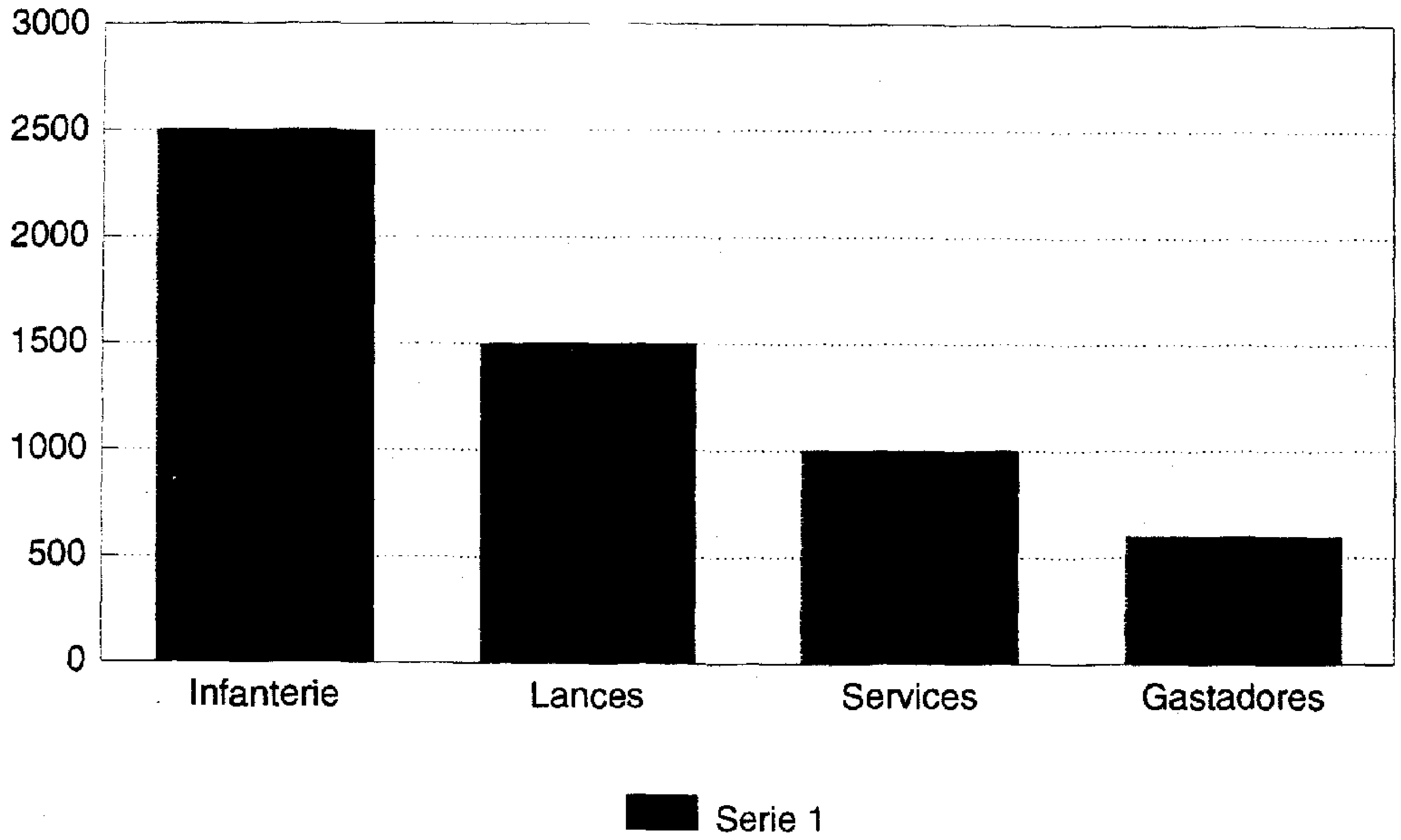
---

1. V.M. Magalhes Godinho, *Mediteraneo Saurino e. As caravanas de oro, geografia economica e social de saara occidentale central* de XI as XVI sicolo, 1956 ; *id*, *L'Economie de l'Empire Portugais aux XVè et XVIè siècles*, 1969 ; R. Mauny, *Tableau Géographique de l'Afrique de l'Ouest au Moyen Age d'après les Sources écrites, la Tradition et l'Archéologie*, Dakar, *IFAN*, 1961, 587p, index, carte, ill. ; D-et.S. Robert et J. Devisse, "Tegdaoust I", *Recherches sur Aoudaghost*, Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1970, 157p, ill., croquis ; J. Devisse, "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce médiéval du XIè au XVIè siècles", in *Revue d'Histoire Economique et Sociale*, 1972, n° 1-3, I, 42-73, II, 357-397 ; *id*, "Commerce et routes du trafic en Afrique Occidentale" in *Histoire Générale De l'Afrique* III. *L'Afrique du VIIe au XIe siècles*, UNESCO/NEA, 1990, XIV, 398-463.

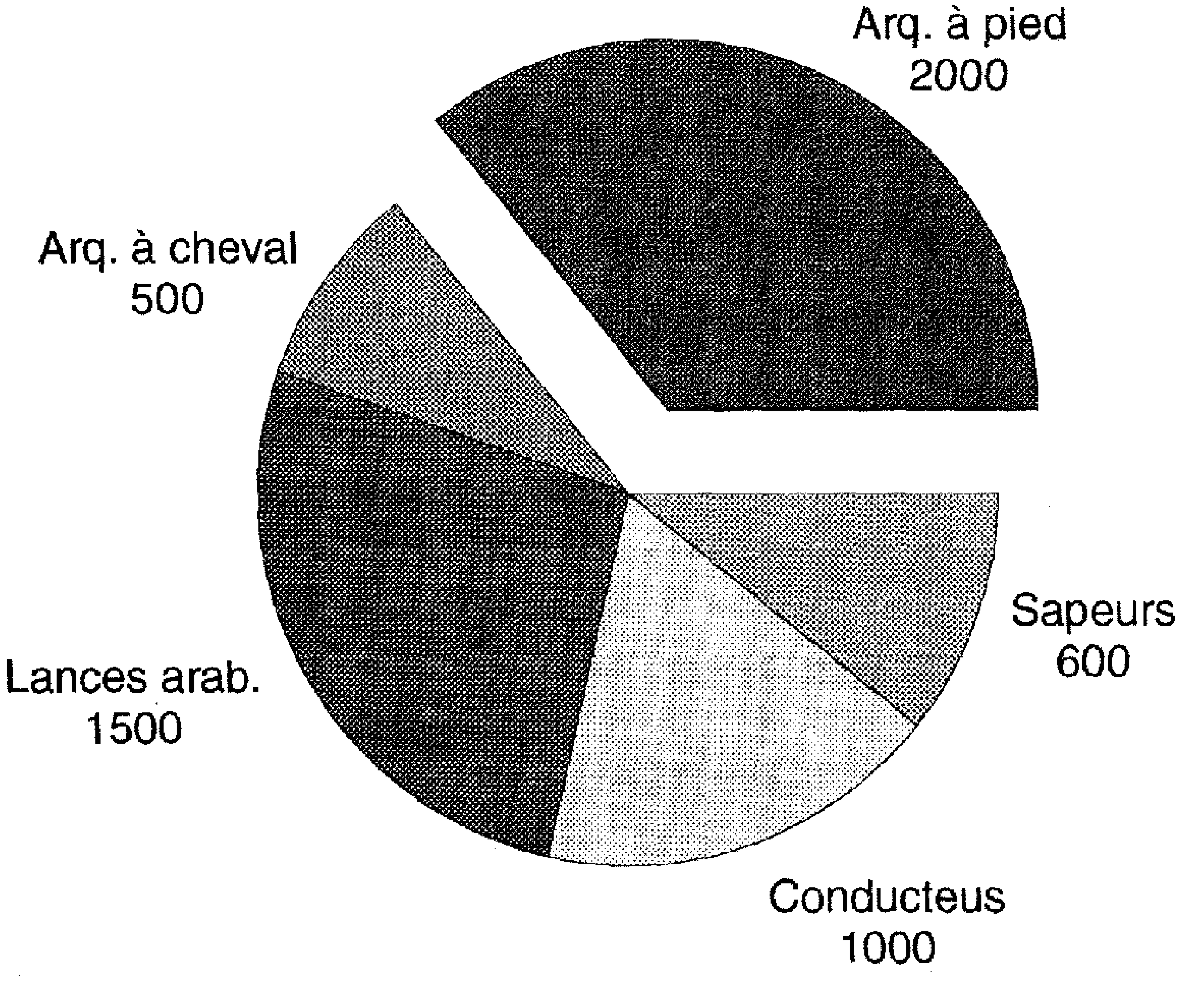
2. Dès sa première traduction par O. Houdas et M. Delafose, *Tārīkḥ al-Fattāsh* soulève bien des doutes concernant la paternité réelle que l'on doit lui attribuer. Le nombre inconnu des personnes qui ont participé à sa rédaction ne fait qu'ajouter aux lacunes qu'imposent les additions ou suppressions de chapitres entiers. J.Brun, "Notes sur le Ta'rikh el Fattâsh" *Anthropos*, IX, 1914, 590-596, J .O. Hunwick,

Graphique 3

Distribution des unités d'après l'annèxe



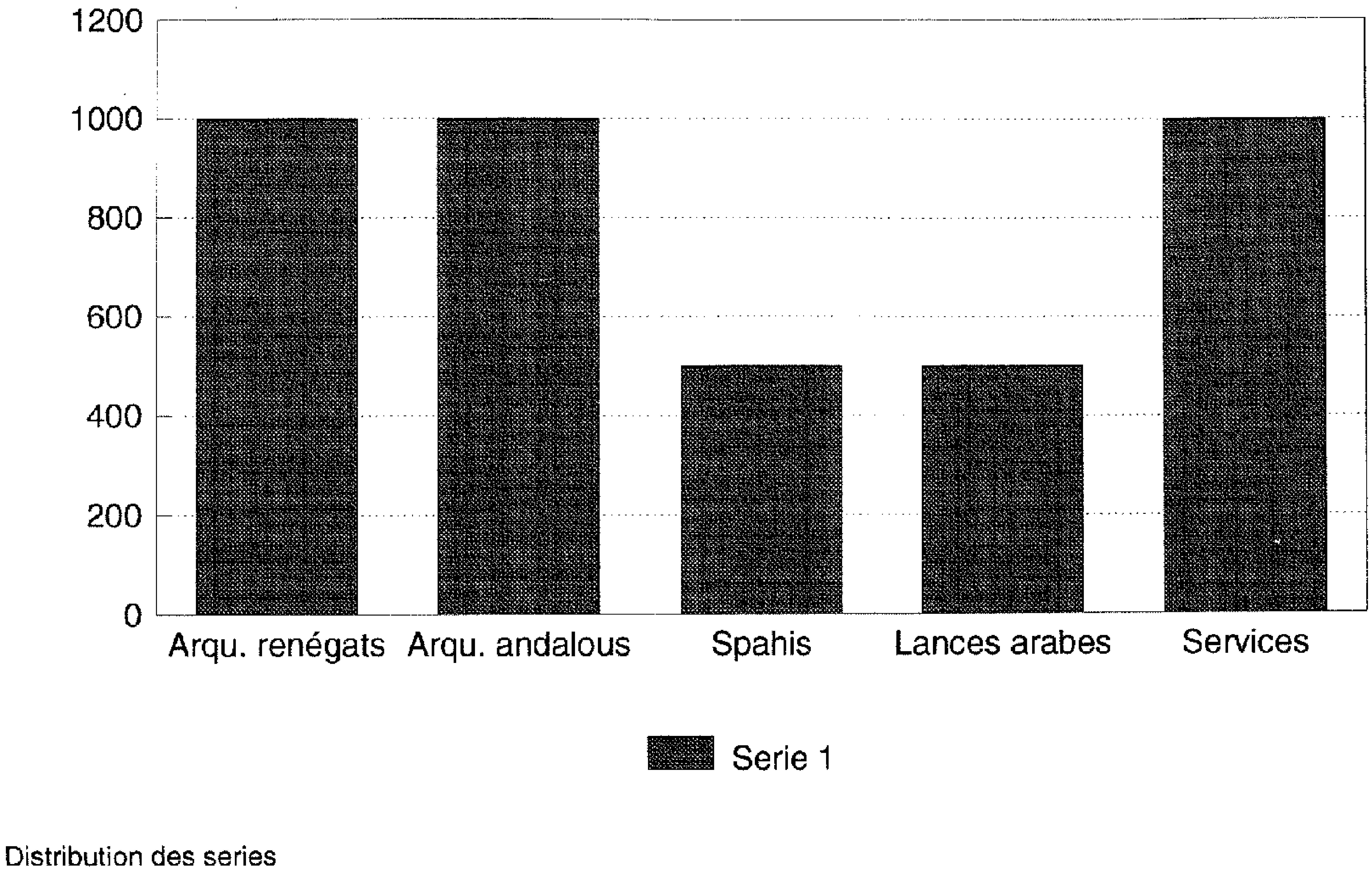
Graphique 2.2
Volume global d'après l'annexe



Distribution des series

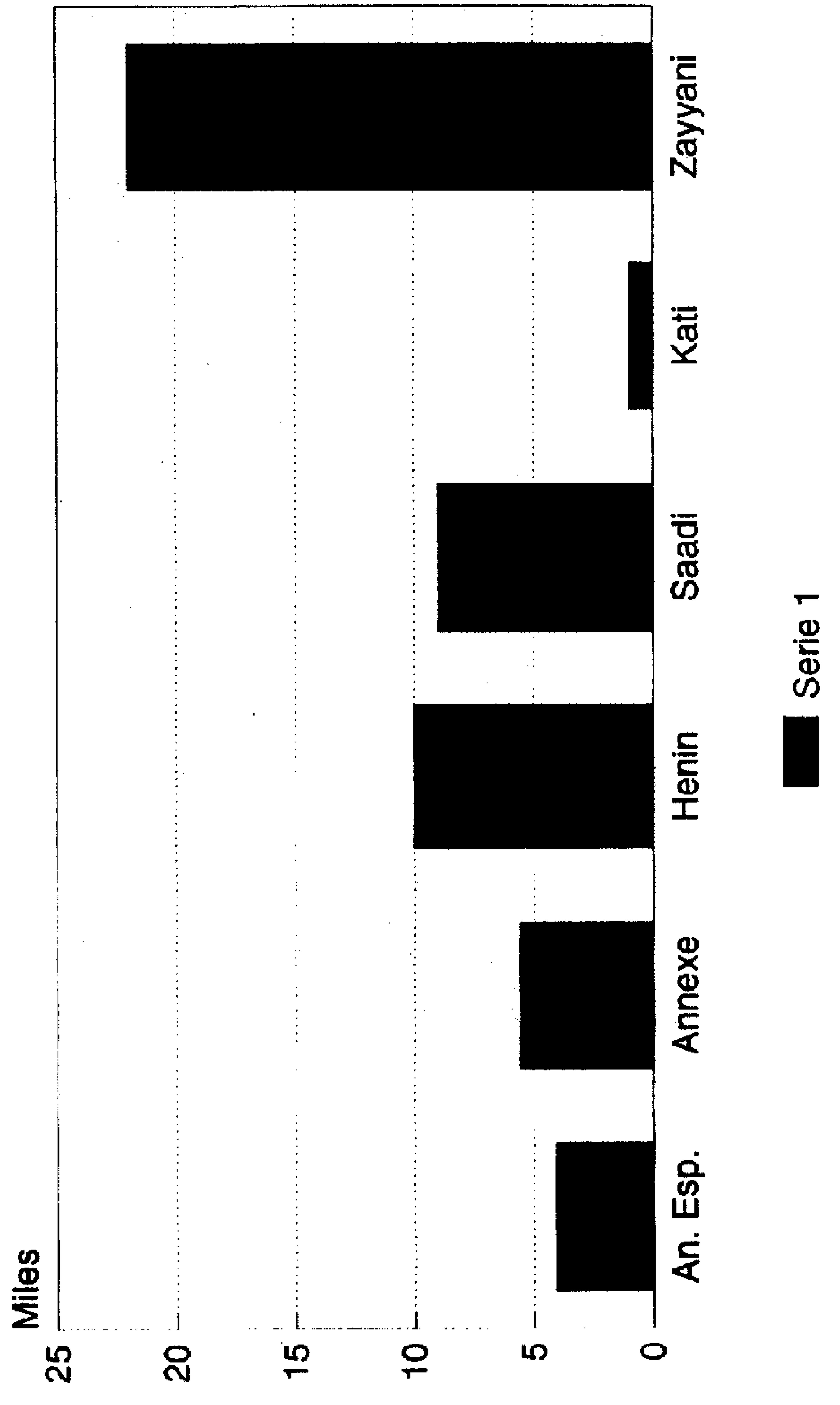
Graphique 2.1

Volume global d'après l'Anonyme Espagnol



soutien littéraire et archéologique. Nos sources, lorsqu'elles ne se taisent pas, ne nous donnent que des textes aux blancs insurmontables. Mais qu'est-ce qu'un texte historique sinon la totalité des silences, des ruptures qui nous obligent souvent à la modestie dont l'un des effets est souvent dans les humanités non la capitulation de l'esprit mais la sagesse de la suspension du jugement".

Graphique 1
Volumes globaux de l'expedition



fut tué à al-Hajjar. enfin le Qa'id Bou-Shiba-al-'Amri et le Qa'îd Bou-Gayta- al-Acmri".[77]

As-Sacdi, nous indique que l'armée fut divisée en deux ailes chacune sous l'ordre d'un lieutenant-général ; une aile droite commandée par le renégat Ba-Ḥasan-Friro et une aile gauche que dirigea l'andalous Qāsim-Waraduwī-al-andalusī. Avec ce collège d'hommes suffisament prévenus dans les choses des armes, Jawdar se mit en route pour la conquête du Songhay et pour la grande histoire.

Deux silences pour en finir. Henin (folio14) de passage nous dit :

"Muley Hamet sucedio en el Reyno de Marruecos a Muley Meluco su hermano ; gozo y Reyno veinte y ocho anos en Paz. La hidalgu (ra)de Portugal que tuvo cautivos le dio mucha reputacion, los alarbes le pagron siempre el tributo, por verse con mucha soldatesca de turcos renegados y andaluzes moriscos con quien gastava mucho dinero, en darles sueldo arma raçion y vestidos, les vestia de brocado grana terciopelo sus armas guarnicidos con mucho oro y plata".[78]

Pourrons-nous dire que Henin nous donne la fidèle description du costume de l'armée de conquête sacdienne? Au bord du Niger, l'*Anonyme,* qui est l'une des sources les plus détaillées sur la question nous dit d'une façon laconique:

"Determino Jaudar de darles batalla otro dia; aquella noche a su gente animandolos a ella; prometioles el saco de Gago y assimismo les dio 24 mil onças suyas, porque fuesen de mejor gana".[79]

La solde de l'armée serait-elle ces 24.000 onces? L'*Anonyme* ne nous le précise pas ; comme en mal d'événement, il ne signale ce geste de Jawdar que pour entrer dans la relation de la bataille dite de Tondi-bi.

"Par essence", dit Paul Veyne, "l'histoire est connaissance par documents"[80] et rien ne fait plus défaut ici, dans l'établissement des questions logistiques de la conquête sacdienne du Songhay qu'un

77. *Id.*

78. *Op. cit.* folio 14.

79. *Op. cit.* p. 461-462.

80. *Comment on é crit l'histoire,* Paris, Seuil, 1978, p. 14.

Il nous est également quasiment impossible d'aborder le problème des génies dans le corps de l'armée. Az-Zayānī donne le chiffre de 2000 pour tous, y compris les artilleurs. Il ne définit pas leur service et ne nous donne d'ailleurs, rien à leur propos. L'*Anonyme*[75], qui les définit comme sapeurs, ne nous donne que le chiffre bien limité de 600 sans autre indication. As-Sa^{c}dī[76] n'est guère plus explicite. Il donne le chiffre de 3000 pour l'armée d'expédition et le double pour les suivants qu'il dit être de toutes sortes : "ouvriers de divers genres, médecins, etc". Bien des questions sont à poser à propos de ce groupe d'hommes. Quelle partie de ce corps a formé le corps des sapeurs qui n'étaient pas moins de 600 ? Quelle part a constitué le corps des intendances qui avait pour fonction la recherche de la nourriture, des costumes et la gestion des fonds de subsistance de l'armée ?

Nous avons vu plus haut que le corps des sapeurs était celui des *Ibudraren* dans l'armée Sa^{c}dienne et que ce corps était surtout constitué de Ida-u Akal de la province de Ḥaḥa et de Ida-Ultit de l'Anti-Atlas ; quelle était leur proportion dans ce groupe et quelle fut leur fonction exacte dans l'armée ? Dans ce groupe, il y avait aussi un service de santé, as-Sa^{c}dī nous le note et nous pouvons constater la présence de ce corps dans les armées sa^{c}diennes déjà, vers 1576. Az-Zayānī nous parle de spécialistes sans nous spécifier qui ils sont et ce que peut être leur spécialité ; faudra t-il les inclure parmi ces astronomes, les hommes de sciences, tels que les mathématiciens, les les chimistes qui étaient devenus nécessaires pour les armées de la fin du XVIè siècle ? As-Sa^{c}dī reste l'unique historien à nous donner la composition de l'état-major de l'armée sa^{c}dienne. Voici ce qu'il nous en dit :

> "Il [le pacha Djawdar] avait avec lui une dizaine de généraux, le Qa'id Musṭafā-al-Turk, le Qa'id Musṭafa ben-^{c}Asr, le Qa'id Mustafa- al-Harusi-al-Andalusī, le Qa'id Aḥmad-ben al-Ḥaddād-al- ^{c}Amrī, chef de la gendarmerie, le Qa'id Aḥmad ben-'Atiyya, le Qa'id ^{c}Ammâr-al-Fatā le renégat, le Qa'id Aḥmad bo-Yussuf le renégat, et le Qa'id 'Ali-bo-Mostafa le renégat, ce dernier qui fut le premier chef marocain investi du commandement de la ville de Kâgho, périt en même temps que le Pasha Mahmūd-ben-Zergūn, lorsque celui-ci

75. *Id.*
76. *Op. cit.* p. 217.

Az-Zayānī[73] mentionne l'artillerie sans nous donner une seule indication quantitative à son sujet. Une guerre, pourtant, se mène tant par ses hommes dans leur nombre que par ses instruments dans leur qualité et dans leur rapport quantitatif au sein d'une même armée ; ce rapport quantitatif est en général un déterminant non négligeable dans la définition de la stratégie militaire. Selon qu'une troupe combatte avec des lances, des arquebuses ou des canons à calibres distincts, elle observe une stratégie ou une autre. Ce qui change dans l'histoire des guerres c'est bien plus les choses et leurs rapports que la nature des hommes. La différence entre les grecs et les hommes d'Hitler est limitée à quelques accents culturels ; la différence entre la guerre du Péloponèse et le revers militaire qui a poussé les russes à Berlin et les américains à Nagasaki et Hiroshima est réellement considérable : elle est technologique. Rendre compte d'une guerre en histoire militaire, c'est aussi voir les moyens techniques en jeu, découvrir leurs proportions, celles sur lesquelles se fonde la force défensive de la troupe et celles qui font sa force de frappe. Les historiens de la conquête marocaine du Songhay n'ont pas cherché à nous ressortir ces points ; nous les soulevons même si nous n'avons pas toujours les moyens de les résoudre.

L'*Anonyme*[74] signale les canons dans les choses de la guerre, sans parler du corps des artilleurs. Quel était leur chiffre exact dans l'armée de Jawdar? Quelle était leur place dans le rapport général des moyens mobilisés pour la conquête du Songhay ? Il est difficile d'avancer autre chose que des conjectures.

Un autre corps ignoré des historiens est celui des marins. Un chantier marin se trouvait à Bādis près de Torrés De Alcala dans le Rif. Un autre était installé à Salé, celà vers 1599-50. La flotte de guerre marocaine s'élevait vers 1578 à 40 unités, chiffre comparable à celui d'Alger.

Depuis la trêve de 5 ans conclue entre la Sublime Porte et la Hongrie, un accroissement du chômage de marins et soldats s'est opéré dans l'empire turc au bénéfice du Maroc. Mille turcs, en majorité des marins ou capitaines de galères sont passés au service des Chérifs durant la première trêve. Quel était le poids de cette force navale dans l'armée de Jawdar? Quelle était sa dotation en hommes et en moyens ? Tout est à faire à ce sujet.

73. *Op. cit.* p. 49.
74. *Op. cit.* p. 467.

3. Les hommes et les choses : l'ordre

Quelle était l'ordre exact de la répartition des hommes et des choses ? L'absence d'études qualificatives sur ce point important a conduit les historiens qui ont traité de Jawdar à nous laisser des informations désespérément approximatives.

Az-Zayānī[70], qu'aucun ne met à contribution, malgré son importance pour l'histoire des Sa^c^diens, donne à la troupe de Jawdar un chiffre total de 22.000 qu'il distribue ainsi : 20.000 fantassins répartis en 20 corps de 1000 soldats dirigés chacun par un chef désigné par le sultan, et 2000 spécialistes, marins et artilleurs. L'insuffisance des données d'az-Zayānī est notoire. D'abord, le chiffre de 22.000 qu'il nous donne est bien supérieur au chiffre global des sources anglaises[71] pour les armées sa^c^diennes d'alors ; ces sources permettent, pour le moins de pondérer la leçon d'az-Zayānī. Remarquons aussi, qu'après la victoire marocaine sur le Portugal de Don Sébastien en 1578, les menaces turques et hispaniques ont diminué et le nombre des casernes a en conséquence baissé ; ensuite distribué le corps d'armée de Jawdar seulement en corps de fantassins ne répond pas à l'organisation militaire du Maroc d'alors.

Aucune source ne nous permet d'ailleurs de suivre az-Zayānī.

L'*Anonyme* nous fait mieux avancer. Suivant son Annexe[72], nous pouvons distribuer les hommes et les choses dans l'ordre du graphique 4.

La structure que donne notre graphique est celle d'une force exclusivement terrestre fondée en grande partie sur l'infanterie. Sur le chiffre global que nous donne l'Annexe, 4.000 soit 71,42%, étaient des hommes armés. Ce chiffre global est divisé en séries distinctes : 2.000 soit 35,71%, sont donnés comme des "escopeteros" à pieds ; 500 soit 8,93% étaient des fantassins montés ; 1.500 soit 26,79%, sont des lanciers "arabes". Cela nous donne une proportion de 2500 arquebusiers, soit 44,64%, pour 1500 lances, soit 26,79%.

Cette disproportion nous montre que l'armée sa^c^dienne avait sa force essentiellement fondée sur la force de frappe des armes à feu.

---

70. Az- Zayānī, p. 49.

71. *Cf.* note 15.

72. *Op. cit.* p. 467. Notons que al-Yifrānī (1889, p. 195 et *sq*) donne un autre ordre à l'armée sa^c^dienne qu'il divise en 6 corps. Cette division en 6 corps, est également soulignée par l'*Anonyme espagnol* (p. 462).

que l'hypothèse soit fondée et prouvée. Tout ce qui porte le nom de Jawdar dans le Sahara n'est pas forcément son œuvre. Quelle était la géographie des puits d'alors? Y avait-il recoupement entre leur distribution et le chemin de Jawdar dans le désert ? Quel était le niveau de la nappe phréatique du Sahara que traversa Jawdar ? En 1910, les puits In-Milash et In-Guiba avaient une profondeur de 60 m pour un diamètre de moins de 2 m. Seule une étude de l'évolution de l'enfoncement de la nappe aquifère en fonction de l'évolution de la désertification nous donnera des termes de comparaison. Ces éléments nous manquent. Il nous manque aussi une carte des isohiètes de l'année, un tableau même schématique des températures, une carte paléobotanique pouvant nous renseigner sur la végétation. Quelle source nous dira où étaient les pâturages d'élevage et d'engraissement avant la traversée du désert. M. Devisse[67] nous dit, avec raison, qu'une lecture attentive de al-Idrīsī, d'Ibn Khaldūn, d'Ibn Baṭṭūṭa et de Léon l'Africain nous montrerait le grand rôle de la vallée moyenne du Dr^{c}a dans ce domaine ; mais après cette vallée, qu'y a t-il ? Spruytte, dans le même article que nous avons cité nous donne une solution pour l'absence de pâture:

> "La nourriture des hommes, et éventuellement celle des chevaux en cas d'absence de pâture, peut être transportée sur les animaux utilisés en bêtes de somme puisque leur chargement respectif n'atteint que 60 kg. et que l'on peut disposer d'une vingtaine de kilos sur chacun d'eux, ce complément de chargement permettant en outre d'égaliser les chargements entre chevaux montés et chevaux de transport".[68]

Jawdar a-t-il appliqué ces méthodes utilitaires qui peuvent être remarquées de nos jours encore dans les Azalaï[69] ? On le voit, avec le problème de l'eau se pose celui de l'alimentation de tous les animaux. Nous le posons ici avec le silence comme seule réponse.

---

67. *Op. cit.* p.130.

68. *Op. cit.* p. 130.

69. Sur l'Azalaï Cf. *Encyclopédie Berbère*, Paris Edisud, T. VIII, article A 337, p. 1204-1205 ; Félix Poussibet, "Note sur Tâoudanni,"*BIFAN*,T. 14. sér. B, n° 3, 1978; Sidi Mohammed Ould Youbba, "L'Azalaï, activité essentielle des Berabich, *Revue Sankoré*, n°. 1 et 2, pp. 39-56 et 16-25, Tombouctou, Janv-Juillet 1985. La simple lecture de ces diverses études nous montre qu'une troupe, comme n'importe quelle caravane, peut traverser le Sahara en prenant les dispositions ordinaires des traversées.

sur celui du contenant. Le problème qui se pose à ce niveau est d'ordre quantitatif et logistique. Combien y avait-il en eau transportable, par quel nombre de chameaux, chevaux et mulets ?

Les résultats expérimentaux qu'obtinrent Sophie Deplanche et J.Spruytte[65] ont permis de voir les possibilités réelles des déplacements d'un cavalier ou d'une troupe à cheval en région désertique. Pour mener à bien leur expérience qui a permis l'étude d'une technique de transport signalée déjà par Strabon (*Géographie*, XVII-3-7) à propos des Pharousins Jean Spruytte et Sophie Deplanche ont suspendu transversalement une outre d'eau sur le ventre d'un équidé. Cette outre de 20 litres d'eau ne faisant pas une charge maximale pour un équidé peut être complétée par des outres latérales de même capacité ou par une outre posée en équilibre sur le dos de l'animal. Pour réaliser l'expérience, il a été utilisé trois outres de chèvre provenant du Tassili-n-Ajjer contenant respectivement, 14,15 litres et 17 litres Il a été remarqué qu'un cheval peut porter une outre transversale sous le ventre, au pas, au trot et au galop sans aucun inconvénient. En excluant le trot et le galop non nécessaires à l'équitation utilitaire, il été constaté que le franchissement des dénivellations ne posait aucun problème. Pour une troupe à cheval, le chiffre minimum requis est de 5 litres d'eau par jour et par homme, et 15 litres par cheval, soit 20 litres d'eau pour un homme et un cheval en une étape de 24 heures. En attachant une outre de 20 litres sur le ventre d'un cheval et en ayant deux bêtes de somme portant chacune trois outres, un cavalier disposera au départ de 140 litres. Avec une consommation de 3 litres par jour, il pourait avoir une autonomie de marche de trois jours, ce qui représentera une distance de 90 à 100 km que notre chevalier pourrait parcourir en région désertique sans point d'eau. Il devient donc matériellment possible à une troupe de parcourir sans risque des itinéraires comportant au minimum un point d'eau tous les 100 km. A cette conclusion est arrivée Spruytte.

En effet, M. Y. De Boisboissel avance l'idée du forage de puits en terrain favorable comme dans le Sbka d'Agarektem.[66] Cette hypothèse est séduisante surtout lorsque de nos jours encore des puits portent le nom de Jawdar ; mais la séduction n'est pas suffisante pour

65. Le paragraphe qui suit est un résumé de l'étude faite par Jean Spruytte dans son article: *"le transport des outres d'eau sur chevaux en région désertique"*. Etude matérielle d'une technique antique, in *ROMM* 45, 1987-3. Cette étude permet de prendre avec un sens plus critique les évaluations avancées par Y. de Boisboissel (1950).

66. *Op. cit.* p. 129.

Le simple fait de tenter de prendre une mesure exacte des moyens logistique de l'armée de Jawdar nous montre avec quelle désinvolture, l'histoire a toujours traité ce point délicat. Que nous donnent exactement les sources ? L'unique source qui nous donne des éléments sans nous définir les mises à la disposition de Jawdar est l'*Anonyme*. Il cite au hasard d'un paragraphe : biscuits, blé, avoine, dattes en pâte, eau.[61] Ces denrées ne sont pas, chiffrées et n'ont guère retenu l'attention des historiens à l'exception des dattes et de l'eau.

2.3.1. Les dattes

Y. De Boisboissel, de l'Académie des Sciences Coloniales, nous dit dans sa communication faite au Xè Congrès des Sciences Historisques à Rome[62], qu'au lieu des *Deglet-Nur*, ce furent les dattes dites *Rhers*, d'une espèce plus commune, qui furent choisies. Ces dattes nous dit-il, pressées dans des *Mezueds* (outres en peau) "prennent la consistance d'une sorte de pâte riche en sucre appelée "pain des caravaniers".[63] Le *Deglet-Nur* n'est pas moins riche en sucre et, moins traitable. Y. De Boisboissel, en fait, ne nous donne pas toutes les raisons de ce choix et, n'avance aucune référence. Nous pourrons néanmoins nous référer au Colonel Portillo Togorès[64] pour le nier ; car le fait d'effectuer leur approvisionnement dans la région du Drᶜa n'est pas une raison suffisante pour choisir les meilleures contre les pires. Quel était le coût des dattes dans la région du Drᶜa au cours de l'année 1590 ? Quel était le niveau de l'offre et de la demande pour chaque nature de dattes au moment de l'approvisionnement ? Et si le sultan n'était pas appelé à acheter sur ses domaines, quelle était la valeur quantitative de chacune au moment de l'approvisionnement ? Les sources ne nous disent rien à ce niveau et ne nous permettent d'avancer aucune hypothèse.

2.3.2. L'eau

Nous ne sommes guère plus édifiés au niveau de l'eau. Que ce soit des barils ou des outres en peau, peu importe encore les historiens qui se sont plus penchés sur le problème du contenu que

61. *Op. cit.* p. 459.
62. *Op. cit.*
63. *Op. cit.* p. 128.
64. *Op. cit.* 1971

pics, outils pour construire et démolir des murs de torchis"[58] faisant partie des éléments logistiques.

2.2.2. Les armes blanches

Les armes blanches étaient essentiellement formées de sabres et de lances de 5 m ; les sources ne sont également pas explicites à leur propos. L'unique chiffre qui nous est donné sur leur quantité s'élève à 1500.[59]

2.3. L'alimentation

Sans aucun doute, s'agissant de ce point logistique, bien des choses sont à éclairer qui nous permettraient d'aller au delà du fantasme d'une armée héroïque traversant le désert sans aucune perte et de l'idée pas moins tenace de ce corps d'hommes alourdi par ses propres moyens et, mourant de faim et de soif dans les solitudes du Sahara, avant de livrer une bataille heureuse avec une poignée d'hommes.[60]

---

57. *Op. cit.* p. 467.

58. *Op. cit.* p. 459.

59. *Cf.* az-Zayānī, 1977, p. 50 : "Ils (les hommes de Jawdar) se mirent en route en muharram 999 (octobre- novembre 1590). Ils passèrent par le col des Glâwâ et le Drᶜa, entrèrent dans le désert et les solitudes qu'ils traversèrent en cent étapes sans perdre une bribe de chameau ni un homme". Az-Zayānī est soutenu par le Secrétaire d'al-Manṣūr qui dit dans la lettre adressée aux chérifs en date du 2 juin 1591: "Aucun des obstacles de la route n'avait affaibli leur coeur ou diminué leur nombre ou leur force". Il faut certainement faire la part de l'anecdotique et de l'apologétique supposée dans une telle affirmation pour voir jusqu'où ce dit des historiens saᶜdiens est fiable, historiquement ; ils sont pourtant soutenus par as-Saᶜdī (p. 218).

60. De Castries, *Op. cit.* p. 449 : "*Quand l'armée arriva sur le Niger, elle avait perdu prés de la moitié de son effectif par la soif, la faim, la fatigue, l'insolation*". Nous sommes ici devant une histoire-fiction qui avance des éléments sans aucun soutien littéraire ou archélogique. Cette affirmation non prouvée est pourtant suivie par bon nombre d'historiographes contemporains. Emilio García Gomez la reprend à la page 106 de son "Españoles en el sudān", *Revue de l'Occident*, 1935 ; "*el ejercito se habria reducido a la mitad de sus hombres*" ; Y. de Boisboissel, de l'Académie des Sciences Coloniales écrit : "L'*armée marocaine arriva au Niger fourbue par cet incroyable effort, ayant perdu 50% de son effectif*". *Cf. Une expédition militaire transsaharienne au VIè siècle du Maroc au Niger. La colonne Djouder (1591)*, Dakar 1950, p. 130. Boisboissel reprend de Castries et le poursuit jusque dans sa façon simple à lui de ne rien prouver à ce niveau.

"L'expédition était abondamment pourvue de munition ; aucune armée n'était aussi nombreuse et aussi forte par son convoi, par son artillerie redoutable, par son intrépidité et son endurance".[52]

Dans la même lettre, il parle du tonnerre des canons, du feu des armes. Cette référence du Sultan à sa force de feu se remarque aussi dans sa lettre au *qāḍī* de Tombouctou Abū Ḥafṣ ᶜUmar, en date de Shawwāl 998/1589-1590, où il parle de ses soldats "dont les armes à feu rappellent le grondement assourdissant (de la fin du monde)".[53]

A aucun moment, le secrétaire au style un peu trop fleuri ne nous donne des précisions sur ces armes. *Les tārīkh* soudanais ne sont guère meilleurs ; ils ne font mention des armes à feu que d'une manière fort évasive. L'*Anonyme* qui a la force de nous donner des éléments chiffrés nous dit qu'il y avait 6 pierriers et quelques petits canons.[54]

Les pierriers saᶜdiens appelés "Maymūna" tiraient des boulets d'une circonférence de cinq palmes et demi, soit 1,37 m donc d'un calibre de 420 mm. Aucune indication quantitative ne nous est donnée sur les petits canons qui tiraient des boulets de 13 livres soit, un calibre de 117 mm. Le poids de chacun tourne au tour de 60 kg ; deux font la charge d'un chameau nous précise l'*Anonyme*.[55] Si nous suivons la leçon du Colonel J. Portillo Togores[56], nous définirons les escopettes comme de mèche, ayant une vitesse de feu limitée et une force de frappe ne dépassant pas les 50 m. Avec ces éléments donc, il faut ajouter avec l'*Anonyme*[57] :

Poudre	300 quintaux
Plomb	300 quintaux
Pulvérin	10 quintaux

En plus de ces éléments que nous donne l'annexe, il faut noter "Morions, fer, étoupe, poix et résine, goudron, cordes de lin, bêches,

52. "Lettre d'Al-Manṣūr aux chérifs, aux jurisconsultes et à tous les notables de Fez", *de Castries*, 1923, p. 485.

53. *Cf.* Raṣa'il saᶜdiya, (éd). ᶜAbd. Allāh Gannūn, 1964.

54. *Op. cit.* p. 467.

55. *id.*

56. "La expedicion militar del Bacha Yaudar a través del Sahara" in *Revista de Historia militar*, XV, 31 1971, pp. 41-47 ; XVIII, 37, pp. 69-92.

Le nombre des escopettes (escopetas) est beaucoup plus réduit. Propre à la garde royale saᶜdienne, nous n'en trouvons que 70 distribuées à la garde chrétienne de Jawdar. Avec cette arme tirant des balles à plus gros calibre, comme le note Guy De Mendoça, chaque soldat était doté de 50 balles et deux livres de poudre ainsi que le note Dziubinski.[47]

Avant la Bataille des Trois Rois où les Saᶜdiens prirent au Portugal quelques 36 pièces de canons frappés dans les ateliers de Hambourg, le Maroc fabriquait déjà des canons.[48]

Après la découverte de la mine de cuivre de Demsira (Haut Atlas) en 1539, Marmol[49] nous dit qu'un Morisque madrilain installé à Marrakech fondit la première couleuvrine des Saᶜdiens de 16 pieds de longueur et un certain nombre de petits canons. Après la prise de Fès en 1550, nous dit Dziubinski, le sultan Ech-Cheikh inaugura dans cette ville un atelier de fabrique de canons après y avoir créé au printemps 1549 une poudrerie. Devaient suivre d'autres fonderies à Marrakech et à Tarudānt ; en 1558, l'installation poudrière de Marrakech produisit 16 quintaux de poudre par mois. L'armée était équipée de canons de campagne, de siège et de forteresse "dans tous les calibres alors connus".[50]

Dans toutes les occasions qui lui ont été offertes, al-Manṣūr a fait cas de son armement moderne. Aux ᶜulamā' qui doutaient de la fiabilité de son entreprise, il dit :

> "Les gouverneurs qui nous ont précédé auraient éprouvé de grandes difficultés, s'ils avaient voulu éxécuter l'entreprise que nous méditons, car leurs armées ne comprenaient que des cavaliers armés de lances et des archers ; ils ne connaissent ni la poudre, ni les armes à feu au bruit terrifiant".[51]

Dans sa lettre aux chérifs, jurisconsultes et à tous les notables de Fès dans laquelle il annonce sa victoire sur les armées Songhay, il dit par la plume de son secrétaire :

47. Dziubinski, 1972, p. 67

48. *id.* p. 71 et *sq.*

49. Marmol, *op. cit.* T.II p. 27.

50. Dziubinski, 1972, pp. 71-72.

51. Al-Yifrani, *op. cit.* pp. 161-162. L'historien des Saᶜdiens a pris sur lui le soin de corriger la fausse idée d'al-Manṣūr qui avance ici que c'est avec ses armées que commença l'usage des armes à feu.

En principe, les informations que nous laissent az-Zayānī et l'*Anonyme* nous donnent la même leçon ; al-Manṣūr a fait préparer des barques pour la Boucle du Niger. Aucune estimation quantitative ne nous est donnée ; mais la leçon des sources espagnoles et marocaines nous permet d'examiner avec un esprit plus critique la relation d'as-Saᶜdī[45] qui nous dit que Ibn Zarqūn fut obligé d'arracher les portes de Tombouctou pour en faire des barques afin de poursuivre l'Askia Isḥāq II, retiré à l'autre bout de Gao.

2.2. Les armements

On s'est longtemps contenté de faire état de la nature moderne des armements de l'armée de Jawdar sans se soucier de préciser leur genre exact et leurs espèces. Les relations de la conquête du Soudan, toutes plus approximatives les unes que les autres nous disent, que les armes utilisées alors furent de deux sortes : les armes à feu et les armes blanches.

2.2.1. Les armes à feu

Un examen des sources nous montre deux genres d'armes à feu : des armes à feu légères portées par la cavalerie et l'infanterie et des armes à feu lourdes, propres à l'artillerie.

Les armes à feu légères sont essentiellement constituées par des arquebuses et des escopettes. *L'Anonyme* nous donne le chiffre de 2500 escopettes distribuées entre 2000 soldats à pieds et 500 à cheval.[46] Aucun élément descriptif ne nous est donné sur les arquebuses, ce "genre de fusil trés répandu au XVIè siècle".

---

45. "Mahmūd décida... de marcher contre Askia-Isḥāq. Il s'occupa tout d'abord de se procurer des barques, car le directeur du port, Mondzo-al-Fa'-ould-Zarka, les avait toutes emmenées lors de sa fuite du côté de Binka, lorsque Askia-Ishāq avait mandé aux habitants de Tombouctou d'évacuer cette ville. On coupa donc les grands arbres qui se trouvaient au centre de la cité, on les transforma en planches, puis on arracha tous les grands vantaux des portes des maisons et, en assemblant le tout, on construisit deux barques. La première de ces barques fut lancée dans le fleuve le vendredi 3 du mois sacré de dhū 'al-qiᶜda de cette année (23 août 1591) ; la seconde fut lancée un vendredi également, le 17 du même mois (6 septembre)", pp. 226-227. Que deviennent donc les productions navales du Drᶜa signalées par l'*Anonyme* (p. 164) et az-Zayānī (p. 49)?

46. Annexe, p. 267 du texte.

Pourrons-nous dire que cette information du *Fattāsh* est un indicatif certain sur la nature des chevaux qui composaient le second moyen de transport de l'armée saᶜdienne ? Nous ne pourrons nous y fier entièrement. A en croire Ibn Saᶜīd et Ibn Khaldūn, comparativement aux chevaux sud-sahariens, ceux qui viennent d'Afrique du Nord sont plus grands et plus résistants ; mais cela est assez insuffisant pour régler cette question qui reste sombre à cause de l'avarice des sources.

2.1.3. Les mulets

C'est az-Zayānī[41] qui fait mention des mulets et des barques. Dans son chapitre sur la conquête du Soudan où, cela se voit, il n'a pas toujours le souci des chiffres, il ne donne aucune indication éclairante sur les mulets qu'il ne note que de passage. Aucune autre source ne semble s'intéresser à ce moyen de transport.

2.1.4. Les barques

Outre les mulets, az-Zayānī fait donc mention d'un atelier naval où des techniciens travaillèrent à la fabrication de poutres, planches et ferrures pour le montage de felouques, galiotes, rames et voiles. Il nous dit qu'après sa victoire sur l'Askia Songhay et l'engagement de ses pourparlers avec le vaincu pour l'établissement de la paix, "Djouder entreprit de monter les frégates et les galiotes et de s'en servir. Lorsqu'elles furent en état, il les fit voguer sur le Nil".[42]

L'*Anonyme* nous dit que, sur le chemin de Gao, " les soldats de Djouder construisirent des barques avec des outres et d'autres objets".[43] D'où viennent les outres et quels sont ces autres objets ? Aucune précision ne nous est donnée mais, on est informé un paragraphe plus loin, à propos de l'expédition de "*Mahamut*", que "le Roi a également ordonné de fabriquer dans le Drᶜa des barques dont les pièces porteront des points de repère, pour pouvoir être assemblées ensuite les unes avec les autres. Il fera transporter ces pièces sur des chameaux à travers le Sahara ; il veut faire naviguer ces barques sur le fleuve et découvrir de nouvelles terres".[44]

41. *Op. cit.* p. 49.
42. *id.*
43. *Op. cit.* 261 du texte.
44. *Op. cit.* p. 264 du texte.

que sur sa route, l'armée de Jawdar fut obligée de prendre un certain nombre de chameaux de Abdallah-ben-Chain-Mahmoudi, à l'est d'Arawān, sans nous dire le chiffre exact de la prise ni sa cause. Ce silence ne nous permet pas de donner un chiffre estimatif de la capacité du train de guerre en chameaux.

Pour l'acquisition de ces chameaux estimés à 8000, Az-Zayanī nous dit que le sultan exigea que chaque tribu apporte un certain nombre sans nous dire le chiffre exigé ; il continue sa notice en précisant qu'il fut dit que "quiconque amènerait un chameau en mauvais état serait puni".[39]

2.1.2. Les chevaux

Les sources ne sont guère plus disertes à propos des chevaux. Le nombre que nous donne *l'Anonyme* s'élève à 1000. Ce sont des chevaux de bât, mais aucune indication ne nous est donnée sur leur capacité de charge. L'unique cas qui est fait des chevaux est à propos de ceux venus au Soudan avec le Qā'id Manṣūr ; Ka^{c}tī, qui en fait relation nous dit ceci :

> "C'est en l'année 1003/ 1594-5 1595 que Qā'id Manṣūr ben Bekk arriva de Marrakech avec une forte armée comprenant trois mille combattants et mille chevaux, ainsi que le dit Bâba Gūro ben al-Ḥādj Muḥammad dans le *Jawāhir al-ḥisān*. J'ai entendu le très docte Abū-Isḥāq Ibrāhīm ben Aḥmad Baghayogho (Dieu lui fasse miséricorde) faire lire à un étudiant le poème d'Ibn Durayd ; lorsque le lecteur fut arrivé à ces mots "il observa les chevaux, etc", [le maître] se mit à énumérer les diverses variétés de chevaux et les qualités des plus vigoureuses et arriva ainsi à parler des chevaux sur lesquels étaient montés les cavaliers du Qā'id Manṣūr en question lorsqu'arriva cette armée dont nous venons de parler ; il dit alors que la plupart des chevaux du Qā'id Manṣūr étaient gris, les chevaux gris qui se trouvaient dans sa cavalerie formant les deux tiers de celle-ci ou même davantage : "Je suppose, ajouta-t-il, qu'il les avait choisis ainsi pour traverser ces immenses espaces, parce que ce sont les chevaux les plus vigoureux, les plus résistants et ceux qui supportent le mieux la soif".[40]

---

39. Az-Zayānī, 1977, p. 49.
40. *Op. cit.* p. 318-319.

autre source ne s'est souciée du quantitatif pour nous permettre de discuter ou de confirmer cette donnée solitaire. La traversée du désert en général se fait par convois, mais comme l'a remarqué J. Devisse, les sources arabes qui en font cas, se sont toujours contentées "de décrire les produits qui traversaient le désert, essentiellement du nord au sud, sans beaucoup se soucier d'en évaluer les quantités".[35]

Ce défaut du quantitatif est également remarquable dans les sources les plus récentes. La littérature contemporaine s'est plus intéressée au taux d'échange du commerce transsaharien qu'au volume des caravanes. Les données que nous avons sont fort limitées. J.L. Miège[36] donne, pour les années 1862-1873 le chiffre maximum de 300 ; H. Lhote[37] cite pour la même époque un volume de 100 dans la région de *l'Ahaggar*. Ces chiffres indicatifs sont caractéristiques de l'époque de la décadence du commerce trans saharien. Comparativement à ces chiffres fort maigres, le volume donné à l'armée de Jawdar est considérable.

Si nous considérons le chiffre minimum de 100 kg, généralement donné comme volume de la charge transportable par chameau, le plafond du fret disponible au niveau de cet élément de la logistique peut être estimé à 800 tonnes au minimum.

Le chiffre de 8000 que nous donne *l'Anonyme* n'est pas resté stagnant jusqu'à la fin de la traversée du Sahara ; as-Sa^cdī[38] nous dit

---

35. "Approximatives, quantitatives, qualitatives: valeurs variables de l'étude des traversées sahariennes", in *Relaciones de la peninsula iberica*, Madrid, 1988, p. 173. *Id.* "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce médiéval du XI au XVI, siècle", *Revue d'Histoire Economique et Sociale*, L Volume, Année 1972, n°1 et 3. Dans cette étude, M. Devisse nous souligne toutes les limites de notre ignorance sur la question des traversées.

36. "La Libye et le commerce transsaharien au XIXe siècle" , in *Revue de l'Occident Musulman et de Méditerranée, n°*. 19, . 1975, p. 139.

37. in "Le cycle caravanier des Touaregs de l'Ahaggar et la saline d'Amador. Leurs rapports avec les centres commerciaux du Soudan", B. *IFAN*, T.XXXI, sér. B., n° 4, 1969, p. 1024.

38. "L'armée ne passa pas par la ville d'Arawān, mais elle passa à l'Est de cette localité. Sur sa route, elle rencontra les chameaux de Abdallah-ben-Chaïn-El-Mahmoudi ; Djouder prit de ces chameaux la quantité qui lui était nécessaire, puis Abdallah partit aussitôt pour le Maroc et se rendît à Marrakech auprès de Maulay Ahmed à qui il se plaignit de l'iniquité dont il avait été ainsi victime", pp. 218-219. Il faut ici remarquer que lorsque nos sources ne taisent pas les chiffres comme dans ce cas, elles les grossissent comme c'est souvent chez az-Zayānī. Il serait intéressant d'étudier l'historiographie arabe dans son traitement des données chiffrées.

premières unités tribales ne se situe pas en 1593 avec l'expédition du qā'id bu-Ikhtiār mais, en 1591, dans le corps d'armée même de Jawdar.[33] Ces unités tribales sont des arabes Maᶜqil de Mauritanie et des bèrbères *Ida - ou - Akal* de la province de *Ḥaḥa* et *Ida Ultit* de l'Anti-Atlas.

Cet examen des hommes de Jawdar, fondé sur des sources aux blancs considérables, nous permet de voir que l'armée que le Sultan forma pour la conquête du Sūdān était composée dans sa partie active d'européens à majorité péninsulaire pour ce qui est des armements à feu, et, d'arabes Maᶜqil de Mauritanie, pour ce qui est des lances. Les berbères n'y étaient que comme suivants.

2. Les choses

Les sources ne nous ménagent guère mieux au niveau des choses de la guerre. Leur silence, malgré les éléments qu'ils nous proposent, est en réalité exaspérant. *Les tārīkh* ne détaillent ni la nature exacte des armements, ni celle de l'alimentation, des costumes, du salaire des différents corps. Les rares éléments que nous donnent les sources sur les choses de la guerre mises à la disposition de Jawdar se composent de moyens de transport, d'armement et d'alimentation.

2.1. Les moyens de transport

Les uniques moyens que nous donnent les sources sont les chameaux, les chevaux, les mulets et les barques.

2.1.1. Les chameaux

Az-Zayānī s'est contenté de citer les chameaux sans nous donner aucun élément de quantification. Ce défaut du *Turjuman* est comblé par l'*Anonyme*[34] ; il nous donne le chiffre de 8000. Aucune

---

33. Michel Abitbol, dans son ouvrage *Tombouctou et les Arma*, 1979, dit à la page 71 que les tribus Guish du Sous, des Ḥaḥa, des éléments Maᶜqil et Djusham n'afflueront qu'à partir de la fin de 1593. Ils seront déversés en Afrique Subsaharienne à cause des troubles qu'ils provoquèrent alors. Abitbol ignore ici "les lances du pays" dont il est question à la page 459 du texte de *l'Anonyme espagnol*, en n'appuyant son argumentation que sur ces migrations dirigées qui entrent bien dans la politique du sultan saᶜdien.

34. *Op. cit.*, p. 467.

En plus des "lances des gens du pays" qui nous le voyons ne sont autres que des Ma^{c}qil de Mauritanie, du moins pour la plupart, notre *Anonyme* cite 1000 hommes de service dans le corps du texte. Il les définit comme conducteurs de chameaux dans son index où il les additionne : 600 sapeurs.[29] Ce chiffre, plus considérable que le volume donné aux Ma^{c}qil, est également indéterminé pour ce qui est de ses éléments.

As-Sa^{c}dī[30] n'est pas moins laconique pour ce qui est de leur définition. Il donne le chiffre de 3000 comme volume global de l'armée de Jawdar et signale le double du chiffre indiqué comme suivants de toute sorte, sans nous dire pour autant qui ils sont.

Comme cela peut se voir dans des notes dispersées chez Marmol, A. De Gavy De Mendoça ou dans *La chronique de Santa Cruz*, ces "gens de services" sont appelés *Ibudraren* (sing. *abudrar*) c'est à dire, montagnards. A. Dziubinski nous dit qu'en temps de guerre, chaque région administrative avait le devoir d'en envoyer à ses frais "pour transporter les canons, élever des retranchements en terre et d'autres bagages dans l'armée".[31] Ils étaient donc la force de traction, divisée pour ce but en compagnie : Dziubinski[32] nous dit qu'ils étaient de préférence employés pour ces services surtout, le groupement berbère *Ida- ou- Akal* de la province de *Ḥaḥa*, et *Ida-Ultit* de l'Anti-Atlas. On peut y trouver ceux des montagnes de Taza et du Tafilelt. Au Maroc, nous les trouvons surtout liés à l'artillerie de campagne. Ils étaient fortement présents au siège de la place portugaise de Mazagan, où les portugais dans leurs sources les ont dénommés *Gastadores*.

Nos sources ne nomment ni les berbères *ilalen* du *leff Iguezelen* de l'Anti-Atlas ni les détachements algériens de kabyles Zwawa ni les noirs du Dr^{c}a (Ḥarāṭin) ou du Sénégal (Uolof). Tous, pourtant, étaient utilisés dans l'armée d'al-Manṣūr.

Ces indications, aussi importantes qu'elles soient, ne nous apportent pas toute la lumière requise sur la composition arabo-berbère de l'armée de Jawdar ; elles sont fragmentaires, et nos connaissances actuelles ne nous permettent pas d'aller au delà. Condamné à les prendre dans leur nature lacunaire, nous y fondons un jugement qui a toutes les chances d'être partial. L'arrivée des

29. *Op. cit.* p. 459.

30. *Op. cit.* p. 217.

31. A. Dziubinski, 1972, p. 72.

32. *id.*

italiens ou aux grecs n'est qu'une possibilité hypothétique que permettent les captures faites par les marocains après la bataille des Trois Rois en 1578 et , l'usage du castillan parmi les troupes de Jawdar comme langue de commandement et de communication, comme le montre de nos jours le volume des mots d'emprunt castillans dans le parler de Tombouctou.[25]

1.2.2. Les arabo-berbères

Les arabo-berbères ont un volume de 3.100 soit 55,36% du total que nous donne l'annexe. Ils constituent surtout le train de guerre. Malgré les données relativement abondantes sur les Saᶜdiens, nous sommes insuffisamment renseignés sur les éléments arabo-berbères qui composaient le corps expéditionnaire de Jawdar Pasha. Les sources les plus détaillées sur ce point restent l'*Anonyme espagnol* et le *Tārīkh al-Fattāsh*. Le premier n'en fait mention que par les termes assez vagues de "lances du pays", le second ici, nous confond avec son silence. Le volume que donne d'eux l'*Anonyme,* est de 500 dans le corps du texte[26] et, 1500 dans l'annexe.[27] Quelle que soit la proportion de leur présence dans le corps d'armée, leur définition ethnique ne leur donne pas un volume proportionnel à celui des andalous et des renégats. Ce sont les arabes Maᶜqil (Reḥamna, Udaya, Ulād Dlīm...) qui composent ce corps, nous dit Andrzej Dziubinski.[28] Ils sont emmenés de Mauritanie par Muḥammed ash-Shaykh qui les établit dans le nord et le centre du Maroc. Ils étaient munis de cottes de mailles, de casques, de boucliers ronds taillés dans du cuir blanc d'antilope oryx, de sabres et de lances longues de 5 m dont le bois, nous dit le chercheur polonais, venait d'Europe.

---

ne cite pas, offre 93 éléments et les îles et archipels donnent la grande part du reste, 242 proviendront de la Sicile, de Sardaigne, de la Corse, des Baléares et des Canaries, de Madère et des Açores. Les territoires continentaux offrent moins ; ainsi, des Castilles, de l'Aragon et de l'Estremadure. Ce qui est remarqué pour l'Espagne s'applique aussi au Portugal et l'Italie mais, il faut le dire, ce dernier pays est le moins représenté parmi les renégats qui ont fini à Tombouctou. Une étude de leur onomastique nous les montre surtout du Portugal (pour une faible part) et de l'Espagne.

25. *Cf.* Kaᶜū 1981, p. 290, note 2.
26. *Op. cit.* p. 259
27. *Op. cit.* p. 267.
28. Andrzej Dziubinski, 1972, p.66.

écossais, anglais, irlandais, flamands, bourguignons, français, navarrais, aragonais, catalans, majorquins, sardes, corses, siciliens, calabrais, napolitains, romains, toscans, génois, savoyards, lombards, vénitiens, esclavons albanais, bosniaques, grecs, crétois, chipriotes, syriens, égyptiens, et même des abyssins du prêtre Jean et des indiens des Indes du Portugal, du Brésil et de Nouvelle-Espagne. Sans chercher à définir la valeur proportionnelle de chaque échantillon ici présenté, nous voyons se dégager l'extrême diversité, de ce qui est subsumé sous le signifiant *"renégat"*. Par cette extrême diversité, nous voyons aussi que la carte des recrutements ne coïncide pas avec la carte politique des Saᶜdiens. En cela, al-Manṣūr n'innove d'ailleurs pas ; 20% de l'armée française d'alors étaient composés de suisses et d'allemands, 7% de l'infanterie et 26% de la cavalerie espagnole en 1613 étaient wallons ; à ce fort pourcentage il faut ajouter les italiens, les français, les allemands, les britanniques. Avant cela, les Tudors utilisèrent entre 1544 et 1551 une cavalerie albanaise et une infanterie espagnole contre les écossais. Ces corps étrangers des armées médiévales formaient généralement une élite du pouvoir militaire ainsi que cela peut se voir d'une façon claire dans la composition de l'armée des Habsbourgs. Le seigneur de Fourquevaux, dans ses *Instructions sur le faict de la guerre* (1548) trouve qu'ils occupaient les premiers postes parce que les rois et leurs généraux avaient une ferme confiance en eux (f.6). Cette disproportion se voit aussi dans l'armée saᶜdienne ; elle nous donne 17,85%, soit 1.000 éléments sur le volume global de l'expédition que dirigea Jawdar Pasha.

Tous ces éléments sont produits par l'histoire extraordinaire des galères turques ou par le passage volontaire en terre d'Islam pour se faire de l'argent rapide sur des galiotes de mer ou sous des drapeaux militaires de terre et de mer ; nous perdons leur différence par leur unique désignation.

Cette impossible définition ne se pose pour ce qui est du corps d'armée de Jawdar qu'avec le problème de leur volume exact. Avec la même proportion de différence, l'*Anonyme espagnol* et le *Tārīkh al-Fattāsh* nous donnent les mêmes chiffres : 1000 pour *l'Anonyme*, 500 pour le *Tārīkh*. Aucune table de juridiction ne nous permet d'infirmer ces chiffres pourtant incompatibles. Nous ne pourrons non plus pas dire avec certitude la proportion exacte des éléments péninsulaires ibériques compris dans ces chiffres. Donner une proportion plus grande aux péninsulaires ibériques[24] par rapport aux

24. *Cf.* Bartolomé et Lucile Bennassar, 1989, p. 150 et *sq.* constatent "le gros effectif" des Ibériques et Italiens ; sur un total de 1550 renégats identifiés, ils ont dénombré 954 Ibériques et Italiens soit 61,5%. Le Portugal, que Diego de Haedo

1.2.1. Les péninsulaires

Un examen des éléments péninsulaires qui composent le corps d'armée de Jawdar, nous permet de les diviser en deux groupes de confession différente : les éléments de la Péninsule Ibérique de confession musulmane et les autres, de la Péninsule Ibérique comme d'ailleurs, de confession chrétienne, appellés renégats dans nos sources après leur passage en terre d'Islam.[20] Ces éléments forment un chiffre global de 2.500 soit 44,64% du total que nous donne l'annexe de l'*Anonyme*.

1.2.1.1. Les péninsulaires musulmans

Ils sont généralement désignés par nos sources comme "Andalous". Les sources juives, arabes comme latines, font cas d'eux dans le Sahara dès les débuts de l'offensive chrétienne contre al-Andalus qui allait finir en 1492 par la prise de Grenade. Nous ne savons pas exactement combien ils furent dans le corps d'armée de Jawdar. Le texte de *l'Anonyme*, comme son index, nous donne le chiffre de 1000[21] ce qui forme les 17,85% du volume global des péninsulaires. Le *Tārīkh al-Fattāsh*[22] donne, par contre, un total de 500, ce qui est loin d'avoir notre crédit. Mais aucune autre source ne nous donne des éléments de comparaison nous permettant d'infirmer ces données ; nous sommes donc condamnés à les adopter comme chiffres indicatifs du volume des andalous dans le corps expéditionnaire de Jawdar.

1.2.1.2. Les péninsulaires renégats.

Il n'est guère aisé de situer géographiquement l'ensemble d'hommes désigné sous ce terme. Pour Alger, Diego Haedano[23] nous dit qu'on trouve des renégats moscovites, valaques, bulgares, polonais, hongrois, tchèques, allemands, danois, norvégiens,

20. Nous avons préféré le terme de *péninsulaire* pour éviter l'idée bien reçue de considérer les Andalous comme des arabes lorsqu'ils sont de la Péninsule Ibérique comme les castillans. *Cf.* à propos Ignacios Olagüe.

21. p. 459 du texte et 467 de l'annexe (nous n'avons travaillé qu'avec l'édition de Castries).

22. *Op. cit.* p.263.

23. *Cf.* Bartolomé et Lucile Bennassar, 1989, p. 147. Indiquons que le texte est bien relatif aux renégats d'Alger mais, à la lecture de Bennassar, nous voyons bien que ceux du Maroc ont le même caractère composite ; il n'y a qu'à voir la provenance des Caïds de l'armée d'al -Manṣūr pour se rendre à cette évidence.

Ce chiffre est suivi de près par J. de Henin[18], qui nous donne, lui une totalité de 10.000. Il nous dit, dans sa *Descripccion de Marueccos* qu'al-Manṣūr envoya avec Jawdar "diez mil escopeteros" (folio 14) sans nous préciser pour autant ses sources. Henin, qui écrivit sa description du Maroc en 1613, est beaucoup plus proche des faits et des sources ; il fut agent de la cour de Mawlāy Zaydān.

Encore plus proche de l'expédition est l'*Anonyme*, qui nous donne dans le corps du texte un total de 4.000 et un autre de 5.600 dans son annexe.

Rien ne nous permet de discuter ces chiffres aux différences considérables.

1.2. Les séries

Seuls l'*Anonyme* et son Annexe[19] nous donnent une distribution détaillée en série de ces données globales. Dans le premier graphique nous donnons la distribution des séries du texte, dans un second ceux de l'annexe qui, nous le voyons, est d'un auteur différent (voir Graphiques 2 et 3 en annexe).

Quelle que soit la contradiction entre le corps du texte et son annexe, les chiffres que nous avance l'*Anonyme Espagnol* nous semblent beaucoup plus proches des volumes postérieurs que al-Manṣūr allait continuer à expédier au Sūdān jusqu'à sa mort, en 1603. Les éléments ethniques de ce coprs d'armée se divisent comme cela se voit, en péninsulaires et en arabo-bérbères.

---

du Pashalik. Il prit donc, par ses attributs une part fort active à la vie sociale et politique du Pashalik où nous le verrons plus stable que les Pashas. Contemporain donc des faits qu'il relate, son œuvre tire toute sa valeur du vécu (mais ce caractère est limité à son temps). Ecrivant entre 1620 et 1650, son texte est séparé de la vie de Jawdar par un bon quart de siècle au moins. Cela pourtant ne diminue en rien sa valeur pour ce qui est des témoignages des contemporains de Jawdar.

18. *Cf Descripcion del reino de marruecos*, mss n° 17.645, Bibliothèque Nationale Madrid. Ce manuscrit du Flamand Henin qui n'est toujours pas mis au service des études sur la conquête saᶜdienne du Songhay est d'une importance capitale. Son auteur, Jorge de Henin, est un flamand qui était au service de Mawlāy Zaydān ; il eut donc accès aux sources même de la cour des Saᶜdiens et donne plus d'une lumière sur l'époque confuse de la succession d'al-Manṣūr.

19. *Cf.* De Castries, 1923, où le texte en castillan est donné à la page 467 et la traduction à la page 478.

Le même chiffre est donné par as-Sa^cdī dans la même composition mais pour l'expédition postérieure de Ammār al- Fatā.

As-Sa^cdī donne, par contre, un chiffre distinct pour l'armée ; il nous dit qu'elle est faite de 3.000 hommes avec un nombre double de suivants[17], ce qui fait un chiffre global de 9.000.

Zakari Dramani-Issifou. Composé par plus d'une plume, le *Ka^cti* l'est également de plus d'une source. Ainsi, ce que ce texte nous donne sur la bataille de Tondi-bi est pour une part extrait du *durar* jugé de nos jours perdu. En fait, du *durar al-ḥisān fī akhbār ba^cḍ mulūk as-sūdān* probablement perdu nous n'avons que les citations conservées par le *Ka^ctī*. Son auteur, Baba Guro b. al-Ḥāj Muḥammad b. al-Ḥāj b. Amīn, vit encore en 103/1595, d'après la dernière citation que nous avons de lui dans le *Ka^ctī*. Il serait donc contemporain d'Aḥmad Bāba et de son oncle *Abū Ḥafṣ ^cUmar* qui prirent une part directe contre l'invasion sa^cdienne du Songhay des Askias. Les citations conservées dans le *Ka^ctī* peuvent se grouper en trois périodes : sur le règne du Shi, sur la dynastie des Askia et sur la conquête sa^cdienne du Songhay. Les séries de dates avancées avec une certaine précision dans la relation des faits nous mènent à croire qu'il devait être organisé de façon chronologique, par année et par mois comme il est de tradition dans l'historiographie orientale des VIIIè-XVIè siècles. La dernière partie de cet ouvrage chronologique porte donc sur le Pashalik. Il donne le nombre des fusilliers de Jawdar, note l'installation des troupes sa^cdiennes à Tombouctou, la construction de la Casbah et l'arrivée du Caïd b. Bekk de Marrakech en 1003/1595. Le Ka^ctī est dans sa forme actuelle contemporain du *tārīkh as-Sūdān*. L'histoire de la conquête marocaine du Songhay n'apparaît qu'en marge, comme un élément de la chronique de la dynastie des Askia. Cette histoire apparaît au 14è chapitre consacré à Isḥāq II, se poursuit dans les chapitres XV et XVI qui portent sur les Askias Mohamed Gao et Nūh. Le *Fattāsh* se ferme comme par une chute ; c'est brusquement que tout se conclut, nous butons presque sur la mort d'al-Manṣūr et de Zerqūn. La trame du livre semble vraiment s'arrêter à l'arrestation des ^culamās. Le témoignage de Yūsuf Ka^ctī et la citation de Bāba Guro sont différents morceaux qui ne sont pas joints par un unique fil. Nous le voyons, Jawdar apparaît, là aussi comme dans les sources du Sahara septentrionnal quand sa vie regardât de plus près celle des Askias. Là où une relation directe ou indirecte n'est pas installée entre les Askias et Jawdar, nous perdons le second. Le Jawdar des Sa^cdiens n'a pas eu son historien comme le Jawdar des Faṭimides.

17. *T.S.* p. 217. Nous pouvons dire sans exagération aucune que as-Sa^cdī fut pour le Pashalik ce qu'était al-Fishtālī pour le Makhzen saadien. Né en 1556, 35 ans donc aprés la bataille de Tondi-bi (1591), il sera intimement lié à la vie politique du Pachalik. Disciple d'Aḥmad Bāba, il sera *'imām* de la mosquée de Djenné et notaire de cette ville. *Khaṭīb,* nous le verrons aussi devenir *'imām* de la mosquée universitaire de Sankoré en récompense des services rendus comme *Khaṭīb*

as-Sūdān[15], donne d'après Mawlay Zaydān le chiffre global de 23.000 hommes envoyés par al-Manṣūr de 1590 à 1603, année de sa mort. Il nous semble que le chiffre que az-Zayānī avance, est plutôt relatif au volume global des expéditions de corps d'armée au Sudan comme cela est clairement dit par Aḥmad Bāba pour le temps de al-Manṣūr ; il y a donc confusion.

Une autre source de Tombouctou, le *Tārīkh al-Fattāsh*[16] nous offre des chiffres aux proportions beaucoup plus réduites. Il donne comme volume global, 1.000 hommes qui font la somme des 500 spahis renégats, aile droite de l'armée et, des 500 autres de l'aile gauche, constituée par des Andalous.

---

lutte au côté du Songhay contre cette invasion maghrébine de la frange subsaharienne. Malheureusement, plus d'un historien s'est penché sur l'aspect plutôt romantique de la vie d'Aḥmad Bāba, luttant, au nom du Droit, contre la présence marocaine à Tombouctou ; *Cf.* pour cet aspect : Sekene Mody Cissoko,, "L'intelligentsia de Tombouctou aux XVe et XVIe siècles", *Bulletin de l'Ifan,* t.XXXI, sér. B. n° 4, 1969, pp. 927-952 ; *id.* Un grand humaniste mandingue à Tombouctou au XVIe siècle, Mohammed Bagayogo, in *Afrique-Histoire*, n°.5, 1982 ; Ibrahima Baba Kake, "Un grand érudit de la Négritie au XVIè siècle: Ahmed Baba-Le Tombouctien", *Présence Africaine*, n° 60, 4è trim. 1966 ; *id.*, *Djouder, la fin de l'empire Songhay, NEA*, Paris, 1975 ; différents de ces articles apologétiques sont les travaux de Charbonneau (1948), M.A. Zouber (1977), Cuoq (1978) pour les sources françaises ; Bovill et J. Hunwick pour les sources anglaises. Nous citerons leurs travaux à leur place.

15. *T.S.* p. 291. Il faut d'ailleurs remarquer que sous le règne d'Aḥmad al-Mansūr, les effectifs de l'armée saᶜdienne selon les sources anglaises s'élevaient à 30.000 hommes au maximum, dont 9.500 soldats (his ordinary guard) casernés. *Cf.* à propos SIHM, Angleterre, T.II, document LXXXIII, pp. 224-225 ; Dzivbinski, 1972, p.69. L'ensemble des expéditions militaires saᶜdiennes jusqu'à Mawlāy Zaydan est indiqué dans le tableau que nous avons donné dans le texte de notre conférence *les Morisques en Afrique Subsaharienne (XVI-XVIIè siècles): essai d'évaluation quantitative* (Université de Grenade, 21 Mai 1990 ; V. *Symposium International d'Etudes Morisques*, Zaghouan et Tunis, Décembre 1991). A l'examen de ce tableau, nous voyons que sur le chiffre total de 23.470 que nous donne Mawlāy Zaydān, les sources ne nous donnent qu'un total traitable qui se chiffre à 8.980 ; sur ce chiffre, 14.490 sont indéfinis mais la répartition que nous donnent les sources historiques nous permettent au moins de voir qu'il est impossible de faire crédit à az-Zayānī à ce niveau.

16. *Tārīkh al-Fattāsh*, 1981, p. 263. Cet ouvrage que nous appelerons commodément le *Kaᶜti*, fait problème quant à la définition de ses auteurs et de sa composition depuis les travaux de Levtzion, J. Hunwick, Madina Ly Tall et

A partir de Lektawa qui est à 47 km. de Zagora en aval de Tamgrut, il n'y avait plus rien à ajouter sur les choses et les hommes de la conquête, nous pouvons donc les estimer dans la mesure où nos sources nous le permettent. Nous reviendrons avec plus de détails sur ces points.

1. Les hommes

1.1. Les chiffres globaux

Nos sources ne s'accordrent pas sur le volume global de la première expédition saᶜdienne au Soudan. Les chiffres qu'elles nous donnent oscillent entre 1.000 et 22.000. Entre ces deux extrêmes, une moyenne de 5.000 nous est donnée par l'*anonyme* et son annexe. L'écart de nos sources est donné dans le graphique 1 (annexe).

Az-Zayānī nous donne ici le chiffre global de 22.000 qu'il divise en 20 corps d'armée de 1000 par chef, suivie de 2.000 "spécialistes, marins et artilleurs".[11] Ces chiffres que nous donne az-Zayānī font en fait les 1/3 du chiffre total des armées Saᶜdiennes que Marmol[12] estime à 63.500 hommes et Diego De Torres[13] à 60.000. Le chiffre d'az-Zayānī est d'ailleurs mis en cause par les sources historiques de Tombouctou (il est bien possible). Abū-al-ᶜabbās Ahmad Bāba dans la *kifīyat*[14] que cite le *Tārīkh*

---

11. Az-Zayānī, 1977, p. 49.

12. Luis de Marmol y Carvajal : t.I, Paris 1667, p. 484.

13. Diego de Torres : *Relation de l'origine et succession des chérifs*, Paris, 1636, p. 226.

14. *Cf.* sur cette œuvre que cite As-Saᶜdī sous le diminutif de DZIL, Dr. Mahmud A. Zouber, *Kifâyat al-muhtâj li maᶜrifat man laysa fī l-* dībâj(*document suffisant pour connaître les personnages qui ne sont pas mentionnés dans le Dībâj*) Revue *Sankoré* publiée par le Centre de documentation et de Recherches Historiques Ahmad Baba (CEDRAB) de Tombouctou, pp. 42-45. Nous avons là une des principales sources de as-Saᶜdī et même nécessaire à la connaissance des principaux personnages du Sudān à la veille de la conquête. Reconnaissons que jusque-là, Aḥmad Bāba n'est pas suffisamment mis à contribution par les historiens du Sahara méridional ; et pourtant ainsi que l'a souligné Dramani Issifou (*L'Afrique noire dans les relations internationales au XVIè Siècle*, Kharthala, 1982, pp.40-42) à propos du *miᶜrāj aṣ-ṣuᶜūd* de l'érudit de Tombouctou, l'œuvre de notre auteur nous enseigne sur l'état du Moyen Niger au XVIè et XVIIè siècles. La *kifāyat* en particulier nous donne une somme de personnages qui ont participé directement à l'installation de l'autorité marocaine à Tombouctou ou à la

Selon az-Zayānī, c'est en muḥarram de l'année 999/30 Oct.-28 nov. 1590 que l'armée se mit en route.[5] Cette date n'est pas corroborée par al-Yifrānī[6] qui nous donne, 16 de dhul-ḥijja de la même année sans préciser l'axe que prit l'armée. Cette dernière information nous est donnée par az-Zayāni ; il fait passer les troupes par le col des Glawa et la vallée du Drᶜa. Cet axe est bien connu du XVIè siècle ; il est légèrement à l'Est du col des Glawa où passe la route actuelle de Marrakech - Ouarzazate.

L'information que nous donne az-Zayānī s'étale sur une petite échelle mais nous permet de suivre avec précision le chemin emprunté par les troupes de la conquête jusqu'à la porte du désert. A partir du Tansfit, il fait franchir à la troupe le Haut-Atlas par le col de Tizi-n-Glawa, puis par le Tifernin, la dépression de Ouarzazate et enfin la vallée du Drᶜa.

A partir de cette vallée, il ne donne d'autre halte à l'armée que Tombouctou, ce qui est la reprise d'une erreur commise par al-Yifrānī.[7]

Une notice de la relation anonyme[8] publiée par Jiménez de la Espada en 1877, fait passer cette troupe par le pays de Ktawa, chez les Bnū Ṣabīh. Cette assertion, confirmée par le secrétaire de la plume d'al-Manṣūr est poursuivie par l'*Anonyme* ; il nous dit que l'armée devait y completer son approvisionnement en dattes et en eau.[9]

La même source nous dit qu'après avoir terminé de prendre les choses nécessaires dans la région du Drᶜa, la troupe passa par la province de *"Quitehoa, ultima del reyno de Marruecos"* et commença à pénétrer dans le Sahara.[10]

---

5. *id.* p. 50.

6. Al-Yifrānī, 1889, p. 164. Cette différence de 14 jours signifiera t-elle le temps passé au Tansift ? Alors la date avancée par al-Yifrānī sera relative à la sortie de Marrakech pour le Tansift. Mais à la lecture du texte de Al-Yifrānī, l'armée sortit avec ses moyens déjà prêts, contrairement à az-Zayānī et à l'*anonyme espagnol* qui coïncident ici. Il n'y a pas que le jour qui fasse problème entre nos deux sources, les années aussi ne coincident pas. Az-Zayānī donne 999 (30 oct. 1590-18 Oct. 1591), al-Yifrānī avance 998 (30 Oct. 1590-18 Oct. 1590), ce qui est manifestement plus proche du calendrier des mouvements de Jawdar.

7. al-Yifrānī, 1889, p. 164.

8. *Cf.* note 1.

9. p. 459 du texte et 469 de la traduction de H. de Castries, 1923.

10. *id.*

suffisament générale au goût du spécialiste en histoire militaire, est celle qui gouvernera dans son ensemble notre travail. Nous aborderons donc la mobilisation humaine, puis matérielle et, seulement ensuite, nous toucherons l'ordre de ces deux aspects qui ont toujours été les premiers moyens de toutes guerres et les seuls objets d'étude de tout polémologue, lorsqu'il est question d'affrontement de deux partis.

Après s'être affairé, dès novembre 1588, à rassembler les hommes et les choses nécessaires à la conquête de l'empire songhay d'Ishāk II, le sultan Abū al-ᶜAbbās Mawlāy Aḥmad al-Mansūr ordonna, ainsi que nous le dit az-Zayānī[2], le rassemblement de toute cette armée au bord du Tansift[3], à proximité du pont bâti au XIIè s. sous les règnes des califes almoḥades Abū Ya'kūb Yūsuf b. ᶜAbd al-Mu'min et de son fils al-Manṣūr.

Az- Zayānī nous dit qu'al-Manṣūr prit sur lui-même la charge de désigner les chefs de corps des différentes troupes et la nomination de son affranchi Jawdar à la tête de tous. Cet historien des Saᶜdiens prend soin, par ailleurs, de note que le sultan accrût la force de son affranchi en l'adjoignant :

> "plusieurs grands personnages de sa cour instruits par l'expérience et formés dans les affaires sur lesquels il pouvait compter pour le conseiller".[4]

---

2. Az-Zayānī, 1977, reproduction photographique du manuscrit précédé de la traduction, pp 7-107, de la revue. Cette étude a été l'objet d'un tirage à part en 200 exemplaires. Notons qu'az-Zayānī n'est guère mis à contribution par les historiens du Pashalik qui passent outre son texte pour se référer à al-Qādirī, contemporain de notre siècle. Fonctionnaire de la cour ᶜAlawite comme une grande part de nos historiens officiels, l'historien berbère ainsi que nous le signale R. Le Tourneau (al-Zayyani, *Historien des Sa'diens*, 1962, pp. 631-637) est de première importance pour l'Histoire des Saᶜdiens pour la simple raison qu'il avait un accés direct aux sources royales ; alors que chez al-Yifrānī, la conquête du Sūdan ne fait que 4 chapitres qui résument al-Fishtālī, az-Zayānī réserve sur les dix pages consacrées à al-Manṣūr, 6 pour la conquête du Sūdān qui ne font que reprendre d'une façon fidèle et servile le secrétaire principal d'al-Manṣūr. Sur az-Zayānī et son importance pour l'histoire des Saᶜdiens, voir aussi, Lévi-Provençal : *Les historiens des chorfas*, Paris, 1922, pp. 172-176.

3. Plaine de Marrakech où se réunissent les troupes avant les expéditions ; nous voyons donc, qu'à ce niveau, l'usage que fait al-Mansūr de l'espace dans le cadre organisationnel de ses troupes respecte une tradition qui remonterait au moins jusqu'aux Almohades.

4. Az-Zayānī, 1977, pp. 49.

La conquête sa^c^dienne du Songhay
Les questions logistiques *

Ismaël Diadie Haïdara
CEDRAB, Tombouctou

"On aimerait avoir un journal de marche du pacha Djouder"[1]

Jawdar Pasha ne nous a pas laissé un journal de marche qui permettrait sans hésitation de légiférer sur les questions logistiques de la conquête sa^c^dienne du Songhay ; les historiens contemporains de l'établissement sa^c^dien au Soudan font encore l'objet de discussions et d'approximation toujours contradictoires avec des moyens littéraires et archéologiques limités, voire même imaginaires. Les historiens de ces dernières années se sont donc plus intéressés à justifier ou à condamner cet événement historique qu'à nous donner une analyse positive des faits. Mais dans l'écriture de l'histoire, nul n'est moins indiqué à légiférer que l'historien lui même ; et l'histoire de l'établissement sa^c^dien au Soudan est toute faite de nos jours de légiférations aux fonctions pragmatiques. Disons le, les jugements de valeurs cachent imparfaitement nos ignorances des faits.

L'esprit de cette étude recèle une tentative de dépasser les jugements de valeurs pour prendre, dans leurs mesures, les limites de nos connaissances sur les questions logistiques de la conquête sa^c^dienne du Songhay. Par question logistique, nous entendons les moyens humains et matériels de la conquête ; cette définition,

---

*. Le présent travail a été l'objet d'un cours donné à l'Université Complutense de Madrid (Aguadulce, 1991). Nous en avons aussi donné une première version dans notre biographie de Jawdar Pasha qui est présentement sous presse, sa version française à Rabat (Maroc) et espagnole à Alméria (Espagne).

1. Le Comte Henri de Castries, "La conquête du Soudan par El-Mansour (1591)", *Hespéris*, 1923.

On constate seulement que le métal s'est concentré à Marrakech, à Sijilmāsa et Lektawa. La localité de Lektawa est située dans le coude du Dar^{c}a près de Tamgrout, berceau des Sa^{c}diens, à mis-chemin entre le district des M'ḥamid au Sud et l'actuel Zagora au Nord. Le centre de Lektawa était un véritable carrefour où convergeaient les grandes voies de communication intérieures et la grande piste atteignant Tombouctou par Teghaza.

Grâce aux mesures d'ordre et de sécurité prises par al-Manṣūr, Lektawa connut une ère de prospérité qu'elle devait rarement retrouver par la suite. Elle fournit au Makhzen, concurremment avec Sijilmassa une redevance de 150.000 dinars. L'histoire monétaire de cette période nous apprend que durant tout le règne de Zaydān, la localité de Lektawa et Sijlmāsa étaient restées sa^{c}dites, frappant des dinārs de bon aloi. Tant qu'elle contrôlait ces deux ports sahariens, la dynastie pouvait alimenter son trésor, lever des troupes et contenir ses adversaires. L'enjeu était donc de taille. En perdant ces deux cités caravanières, les Sa^{c}diens s'excluaient d'eux-mêmes et définitivement de la scène politique.

Au terme de ce survol très rapide du monnayage sa^{c}dien, nous pouvons faire les constatations suivantes. D'une part, l'or monnayé ne remplissait pas pleinement son statut d'instrument monétaire. Il était plutôt considéré comme une marchandise au même titre que les autres métaux exportés par le Maroc. D'autre part, le métal jaune qui s'était déversé sur le Maroc après la conquête du Soudan n'a pas profité aux sa^{c}diens. Il était entièrement exporté et, en difinitive, il n'a fait que renforcer la dépendance de l'économie sa^{c}dienne à l'égard de l'Europe.

placés que quiconque pour apprécier l'importance économique que représentait le commerce entre le Sud marocain et le Soudan. Taroudānt, Aqqa et Māssa étaient des marchés opulents où s'échangeaient les produits marocains et ceux en provenance du monde noir.

Sans doute, le désir de capter le métal à sa source avait-il effleuré les premiers Saᶜdiens, mais ni Muḥammad ash-Shaykh et encore moins son successeur al-Ghālib n'y avaient songé sérieusement, absorbés qu'ils étaient par les problèmes de politique intérieure. Al-Manṣūr, au contraire, en fera la grande idée de son règne.

Al Yifrānī écrit à ce propos : "à la suite de la conquête des principautés du Soudan, le Sultan marocain reçut tant de poudre d'or que les envieux en étaient troublés et les observateurs fort stupéfaits ; aussi al-Manṣūr ne paya-t-il ses fonctionnaires qu'en métal pur et en dinārs de bon poids. Il y avait à la porte de son palais 1400 marteaux qui frappaient chaque jour des pièces d'or et il y avait en outre une quantité du précieux métal qui servait à la confection des boucles et autres bijoux. Ce fut cette surabondance d'or qui fit donner au Sultan le surnom de ad-Dahabī".[4]

Cet or attirait une foule de négociants européens au Maroc, du moins jusqu'à l'arrivée des richesses du Nouveau Monde. Au début de leur commerce avec le Maroc, les Anglais se procuraient à bon compte de l'or en poudre en échange de marchandises. Cependant, le fait d'inonder le marché marocain de leurs produits fit que leurs clients, des Juifs principalement, exigèrent de régler leur achats non plus en poudre et en lingots, mais en nature et en dinārs. Faute de cet or que leur procurait la vente avantageuse de leurs draps, ils se rabattirent sur les pièces d'or marocaines qui étaient exportées en quantités massives vers Londres où elles étaient transformées en monnaie anglaise et ce, malgré les édits sultaniens interdisant toute vente d'or aux étrangers.

Si l'on ne connaît qu'approximativement la production d'or annuelle du Soudan - 9 tonnes dont 5 à 6 sont exportés -[5] on connaît moins bien la répartition de cet or dans les différents états du Maghreb dont les émissions monétaires dépassaient de loin les quantités de métal exportés au Maroc.

4. Al-Yifrānī, *Nuzhat al-ḥādī*

5. Ces chiffres, fixés par Mauruy, sont à réviser en hausse.

Mais une telle opération de prestige ne doit pas cependant nous donner le change. L'or n'est pas toujours un symbole de richesse. Il peut cacher bien des misères. Au fait de sa gloire, Baghdād, la capitale ᶜabbasside des *Mille et une nuits*, n'a jamais fait autant d'étalage d'or et brillé de tout son éclat que lorsque son économie était à la dérive. Car en fait, pour revenir au règne d'al-Manṣūr, la frappe de ce nouveau dinār, qui allait se perpétuer jusqu'à la fin de la dynastie, s'était accompagnée en 995 H d'une nouvelle réforme monétaire où l'once d'argent avait perdu près de 40% de sa valeur passant ainsi de 14,7 g à 9,40 alors que le change entre l'or et l'argent était fixé désormais dans une proportion de 1 à 12. L'auteur de *Nashr al-Mathānī* écrit à ce propos : "Sa proclamation (celle d' al-Manṣūr) eut lieu sans mécontentement et sans opposition légale. Il exerça le Califat et grâce à lui, le pays fut florissant. Devant lui, les résistances se brisèrent. Il demeura à Marrakech.

Le *mithqāl* valait 4 ūqiyas ; et un *dīnār* était composé de 8 dirhams. C'est à ce moment qu'on transforma la monnaie à cause de l'accroissement des opérations commerciales. Le *mithqāl* ancien valait 5 *ūqiyas* ; il avait donc augmenté d'un quart. Il fut ensuite remplacé par le mithqāl nouveau qui fut frappé avec le sceau de Mawlāy Aḥmad et qui valait davantage, 6 *ūqiyas*, à cause de son poids supérieur au *mithqāl* ancien, quant au dirham courant, il valait 12 dirhams.

Tous ces changements se produisirent à Fès le dimanche 12 shaᶜbān de l'année 995H./1587. Peu auparavant, le mithqāl ancien valait quatre ūqiyas et demi et le *mithqāl* nouveau 5 *ūqiyas*. Quant au dirham, il valait 10 dirhams ; mais ces valeurs ne durèrent que peu de temps. Elles changèrent, comme on vient de le mentionner, et restèrent les mêmes jusqu'à la mort d'Aḥmad al-Manṣūr.[3]

Un autre indice significatif est la chronologie de frappe que nous avons évoquée tout à l'heure. En effet, à l'exception de Marrakech qui a frappé sans discontinuité, on peut remarquer à partir de 995H. un net ralentissement de l'émission monétaire. Plusieurs ateliers avaient à cette date cessé leur frappe. L'Etat saᶜdien manquait de numéraire. Ses dépenses étaient énormes. Il devait débourser annuellement plus d'un million de dinārs pour payer la solde d'une armée régulière forte de 10.000 hommes, soit l'équivalent de 4,7 tonnes d'or monnayé.

Le Maroc ne produisait pas d'or. Celui-ci venait du *Bilād as-Sūdān*. Les Saᶜdiens, qui sont originaires du Darᶜa, étaient mieux

3. *Nashr al-Mathānī*, trad., pp. 379-380.

Au Droit

بسم الله الرحمن الرحيم عن أمر
عبد الله المجاهد في سبيله أمير
المومنين أبي العباس

Au Revers

احمد المنصور بالله ابن أمير
المومنين ابي عبد الله محمد
الشيخ الشريف الحسني أيده الله

- 3 cercles: linéaire, perlé et linéaire.

- légende circulaire.

ضرب بمدينة فاس عام

ستة وثمانين بعد تسعمائة

Au Droit

بسم الله الرحمن الرحيم عبد
الله الإمام أبو العباس احمد
المنصور بالله أمير
المؤمنين

- carré à 2 traits linéaires

- Légende segmentée

Au Revers

ابن الإمام ابي عبد الله
محمد الشيخ المهدي ابن
الإمام القائم بأمر الله
الشريف الحسني

- carré à 2 traits linéaires

- Légende segmentée

إنما يريد الله / ليذهب / عنكم
الرجس / أهل البيت

Lieu de frappe /
année /

ضرب بحضرة
حاطها الله

Dieu ne veut / qu'éloigner l'abomination
de vous tous / membres de la sainte famille /
(Coran, XXXIII, 33)

- 3 cercles : linéaire, de grénetis et linéaire	- Id
- légende circulaire	- Id
ضـــرب بمـديـنـة مـراكش عـــام	احد وثمانـــين وتسعمـائـــة

Description du dinār d'ᶜAbd al-Mālik (984-986 H. / 1576-1578)

Au Droit	Marrakech	Au Revers
بسم الله الرحمن الرحيم عن		أبـي مـروان عـبـد المـلـك بـن
أمر عبد الله المعتصم بالله	984H	محمد الشريف الحسني أيده
أمير المومنين		الله ونصره مراكش 984
-2 cercles: linéaire et de grènetis		- Id.

Le règne d'Aḥmed al-Manṣūr (986-1012 H./ 1578-1603) au lendemain de la bataille de Wād al-Makhāzin, en 986 H./1578, devait marquer l'affirmation politique de l'Etat saᶜdien. A la faveur de la victoire sur les portugais, il a pu disposer d'un butin considérable. En cette même année (986 H. /1578) il procéda à Fès à l'émission de nouveaux dinārs de même poids et de même style que ceux de ses prédécesseurs. Seules les formules avaient changé.

Trois ans plus tard, c'était au tour de Marrakech, Sijilmassa et Al-Muḥammadiyya (Taroudant) de frapper monnaie, suivies bien plus tard de Darᶜa et de Lektāwa, la première en 996 H. et la dernière en 1002 H. Cette chronologie est signifiante à plus d'un titre. Nous y reviendrons plus bas.

En 993 H., al-Manṣūr introduit un nouveau type de dinar bien plus lourd que le premier, de 4,68 g ou 24 carats, poids avec ses fractions 1/2 et 1/4. Cette unité monétaire ressemble curieusement au fameux dinar almohade aussi bien sur le plan typologique que métrologique.

Mais à l'inverse de celui-ci, qui célébrait l'Imamat du Mahdī, le dinar d'al-Manṣūr affirmait l'ascendance chérifienne des Saᶜdiens.

Description du dinār d'al-Ghālib (964-981 H./1556-1574)

Au Droit	Fès	Au Revers
بسم الله الرحمن الرحيم		أبو محمد عبد الله بن
عن أمر عبد الله الغالب	975H	أمير المومنين أبو عبد الله
بالله أمير المؤمنين		محمد الشريف الحسني

- carré à 3 traits linéaires et perlés. -Id.

- légende segmentée légende segmentée

عمل / بمدينة / فاس / عام خمسا / وسبعين / بعد / تسعمائة

On remarquera que cet accroissement de la masse monétaire s'est accompagné d'un renchérissement des produits de base et d'une hausse du métal jaune qui est passé de 8 à 10,5.

Sous le règne d'al-Ghālib, souligne une chronique de Fès, le dinar avait cours pour 28 dirhams ou 2 4/5 ūqīya tandis que celui du règne précédent qui valait 16 dirhams était passé à 1/10 ūqīya soit 21 dirhams.

Les successeurs d'al-Ghālib n'ont pas introduit de changement notable dans la monnaie. D'ailleurs, leurs règnes étaient fort courts.

Description du dinār d'al-Mutawakkil (981-984 H./ 1574-1576)

Au Droit	Marrakech	Au Revers
بسم الله الرحمن الرحيم		ابو عبد الله محمد بن
عن أمر عبد الله المتوكل	981H	أمير المؤمنين ابو محمد
على الله أمير المومنين		عبد الله الشريف الحسني

inauguré sa première frappe en 963 H., mais le document monétaire dont nous disposons est d'une lecture douteuse. Voici le descriptif d'un dinar de ce souverain, frappé à Fès en 962 H.

Au Droit	Fès	Au Revers
عن أمر مولانا	962 H	الشيخ
محمد أمير	(écrit en chiffre de Fès)	الشريف
المسلمين		الحسني

- carré à 3 traits linéaires perlés. - carré à 3 traits linéaires et perlés

- Légende segmentée - Id

ضرب هذا / الدينار / بفاس عام / س ص س - Id

Comment s'effectue le change entre l'or et l'argent sous le règne de la première dynastie sa^{c}dienne ? Il faut préciser à cet égard que le dinar de Muḥammad ash-Shaykh, étalonné sur le poids du dirham légal, pèse 2,931 g ou 50 2/5 de grains d'orge. Quoi de plus normal pour une dynastie chérifienne, qui d'emblée s'est inquiétée de restaurer le système métrologique musulman tel qu'il fut établi par l'Omeyyade ^{c}Abd al-Mālik ibn Marwān. En poids d'argent, ce dinar était échangé contre 16 dirhams ou 1 3/5 once *(ūqiya)*. Soit un rapport entre l'or et l'argent de 1 à 8.

Sous le règne suivant, celui d'al-Ghālib, on assiste à un accroissement du stock monétaitre or et argent. Al-Ghālib conserva le dirham et ses sous-multiples tels qu'ils furent instaurés par son père, mais il les fit faire de forme ronde, rompant ainsi définitivement avec le style monétaire de la dynastie précédente. Tout comme il créa un nouveau dinar de 3,90 g. Marrakech et Fès sont les ateliers principaux de la monnaie ; viennent en seconde position ceux du Sous et du Tafilalet.

monnaie après que Marrakech soit tombée entre leurs mains (930 H./ 1524), du fait sans doute de la rivalité qui opposait les deux frères Aḥmad al-Acraj et Muḥammad ash-Shaykh. Aḥmad était proclamé à Marrakech et Muḥammad gouvernait le Sous, avec Taroudant comme capitale. Celle-ci était d'ailleurs baptisée al-Muḥammadiya.

Mais cette rivalité ne nous paraît pas un argument très convaincant. Muḥammad ash-Shaykh n'avait d'ailleurs pas tardé à évincer son frère de Marrakech pour y régner en maître (951 H. /1545) et pourtant il ne battra pas monnaie, alors que le stock monétaire dans tout le Maroc s'était considérablement amenuisé jusqu'à devenir inexistant ; alors que Muḥammad ash-Shaykh ne manquait pas de numéraires si l'on en croit un texte portugais daté d'avril 1541 (948 H.). "Ces Chérifs (les Sacdiens) grâce à l'or qu'ils reçoivent de Tombouctou ont pu en 27 ans devenir très forts".[1]

Mais ce texte est trop laconique pour être crédible à nos yeux. Il nous faut le mettre en parallèle avec un autre texte, écrit huit ans plus tard, au lendemain de la prise de Fès en 955 H. / 1548. Il s'agit d'un rapport de Gibraltar, daté le 14 mars 1549, et adressé à Maximilien et à Marie d'Autriche. L'auteur de ce rapport écrit : "Lorsque Muḥammad ash-Shaykh fit son entrée à Fès, il fit battre monnaie et interdit l'exportation de l'or en pays chrétiens".[2]

Muḥammad ash-Shaykh inaugura en effet la frappe d'argent à Fès en 955 H./ 1548. Ce monnayage est représenté par des dirhams carrés de même style que ceux de la dynastie précédente mais d'un poids supérieur, celui du demi dirham légal (de 25 1/5 de grains d'orge soit 1,47 g.). A ce dirham il adjoignit le demi dirham, le quart de dirham et le huitième de dirham. Nous n'avons trouvé nulle trace de ce dernier, mais il y a tout lieu de croire qu'il s'agit d'une unité de compte dite *dirham sharīfī* identifié par plusieurs auteurs qui ont écrit sur la monnaie. Ce monnayage d'argent est issu exclusivement des ateliers de Fès et de Meknès dont les émissions s'étalent de 955 H. à la fin du règne de Muḥammad ash-Shaykh (951-964 H./1556-1574). Des ateliers du Sud, nous n'avons nulle trace de frappe. C'est du moins ce qui ressort à ce jour de notre catalogue des monnaies sacdiennes.

Quant au monnayage d'or, il est plus tardif. Le premier dinar de Muḥammad ash-Shaykh est frappé à Fès en 962 H. Marrakech aurait

1. *S.I.H.M.*, Portugal, III, 1ère série, doc. C, pp. 361-362.
2. *S.I.H.M.*, Espagne, I, 1ère série, pp. 188-191.

Regards sur le monnayage Sa^{c}dien

Mohammed Laallaoui
Bank-al Maghrib, Rabat

La monnaie devait jouer sous les Sa^{c}diens un rôle important aussi bien dans le dénouement des opérations commerciales avec l'étranger que dans le commerce inter-régional. Mais les historiens ne semblent pas avoir accordé à cette question tout l'intérêt qu'elle mérite. Les raisons en sont multiples, notamment le caractère disparate et fragmentaire de la documentation et aussi la complexité du problème des monnaies.

L'organisation monétaire sa^{c}dienne est en effet d'une approche très difficile. Fondée sur une métrologie musulmane qui s'est notablement modifiée à travers les âges, elle a également hérité des systèmes mis en place par les dynasties précédentes et dont la pratique s'est perpétuée dans les comptes des monnaies d'or, d'argent ou de cuivre et dans le vocabulaire monétaire. Si bien que les mêmes unités désignent des valeurs très différentes, selon qu'il s'agisse du système ancien ou nouveau ; selon qu'il s'agisse du registre métrologique du Sous ou de celui de Fès.

D'autre part, circulaient au Maroc, en même temps que les monnaies sa^{c}diennes, des pièces anciennes, sans parler des pièces espagnoles d'argent, notamment le "real de ocho" qui, à cette époque fut introduit au Maroc.

Bref, à une organisation monétaire déjà fort complexe, devaient se superposer des valeurs et des pratiques anciennes qui prêtaient à confusion supplémentaire. Autant donc de raisons qui nous ont incité à limiter notre propos à une présentation du monnayage sa^{c}dien, de l'avènement de la dynastie chérifienne à la conquête du Soudan, pour rester dans le cadre de ce colloque.

Ce qui frappe surtout en étudiant l'histoire monétaire des sa^{c}diens, c'est que les Chérifs ne se sont pas préoccupés de frapper

Bibliographie

Abitbol, M., *Tombouctou et les Armas.* Paris, Maisonneuve 1979.

Ajayi, J. F. A. et Crowder, M., *History of West Africa.* vol. I, 2ème édit., London, 1979.

Dramani-Issifou, Z, *L'Afrique Noire dans les relations internationales au XVIème siècle - Analyse de la crise entre le Maroc et le Songhai ,* Paris, Karthala, CRA, 1982.

Hamani, D. M., "Au carrefour du Soudan et de la berbérie, le Sultanat touareg de l'Ayar", *Etudes Nigériennes,* n° 55, 1985.

Hunwick, J., "A little-known diplomatic episode in the history of Kebbi (c. 1594)", *Jounal of the historical Societ of Nigeria* 1971, 5, 4, pp. 575-581.

Hunwick, J., "Songhay,Borno and Hausaland in the Sixteenth century", in Ajayi, J. F. A. and Croweder, M., *History of West Africa,* Vol. I. 2nd édit., London, 1979.

Kati, M., *Tarikh El Fettach* , trad.O. Houdas et M. Delafosse, Paris, A. Maisonneuve, 1964.

L'Africain, Léon, *Description de l'Afrique,* Nouvelle Edition traduit de l'anglais par E. Epaulard, Paris, A. Maisonneuve, 1956, 2 tomes.

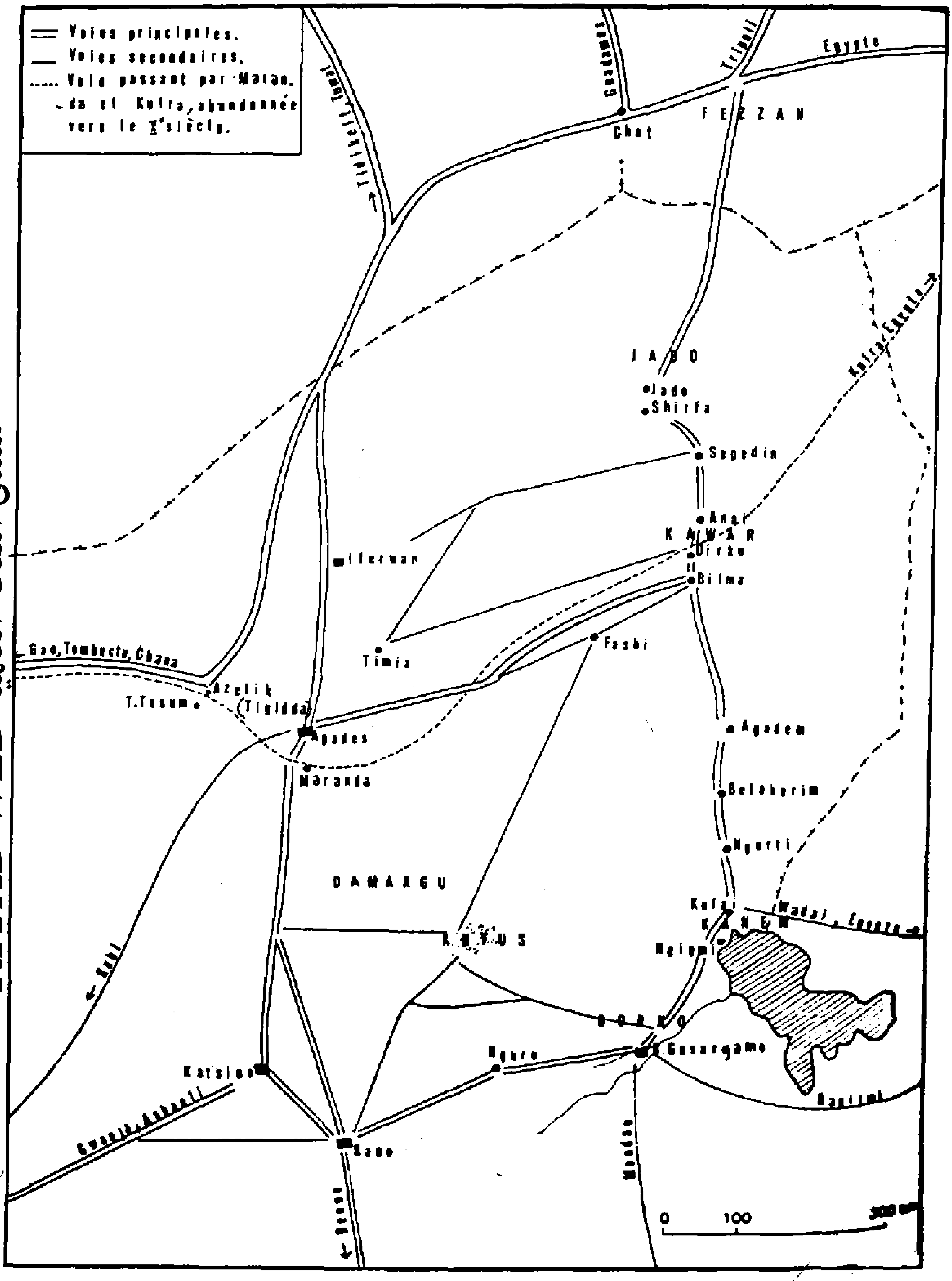
Langue, D. et Berthoud, S., L'intérieur de l'Afrique d'après Giovanni Lorenzo Anania (XVIème siècle), *Journal of word History , 1972*, 14, 2, pp. 299-351.

Mahdi, A., *The Hausa factor in West African Histroy* A. B. U. Press O. U. Zaria, Ibadan, 1978.

Martin, A. G. P., *Quatre siècles d'histoire marocaine.* Paris, E.Leroux, 1923.

Sa'adi A.es, *Tarikh es Soudan,* trad. O. Houdas, Paris, A. Maisonneuve, 1964.

Grandes voies caravanières du Soudan Central avant le XVIIè Siècles



persuadés évidemment qu'une allégeance au souverain Saᶜdien resterait un acte sans lendemain mais qui devrait cependant rehausser localement le prestige des dynasties régnantes.

N'oublions pas en effet que ces deux Etats avaient connu, au cours des XVème et XVIème siècles, une forte poussée de l'islamisation, et ils pouvaient être à cette époque considérés comme de véritables Etats islamiques dans lesquels la descendance du prophète restait auréolée d'un prestige indiscutable.

Les considérations développées ci-dessus ne nous apprennent évidemment pas si les Etats hausa avaient oui ou non fait ou voulu faire allégeance au souverain marocain à travers son représentant à Tombouctou. Aucune source ne nous renseigne sur ce point, mais nous supposons que la chose était possible, pour les raisons invoquées plus haut. Quant aux objectifs que visait le souverain marocain, nous disons que le contrôle des trafics au Soudan Occidental, du Hausa et de Borno, s'il avait été réalisé par al-Manṣūr, aurait permis d'asphyxier le commerce des zones d'occupation ottomane; mais réaliser le détournement d'un trafic exclusivement vers le Touat au détriment de Ghadames et du Fezzan était une autre paire de manches!

Mais le Kabi n'était pas tout le Hausa ; ses intérêts n'étaient pas ceux de Kano, de Katsina, Zanfara ou Zazzu. Kano et Katsina avaient un intérêt certain à commercer avec leurs voisins, et nous savons qu'il existait des relations commerciales qui, pour le Yawuri, empruntaient le fleuve Niger pour aboutir à Tombouctou, sans compter les liens avec le Dendi, liens inévitables, même si les sources restent muettes à ce sujet.

L'itinéraire suivi par les troupes d'Askia Muḥammad pour aller à Agadès, passant par le Dendi et le pays hausa, montre que cette route devait être régulièrement pratiquée, y compris donc par les commerçants; un passage du *Tārīkh as-Sūdān* nous confirme également que les pélerins empruntaient cette route ; en effet, après l'avènement d'Askia Mūsā, ᶜAlī Folen, le célèbre conseiller d'Askia Muḥammad, partit pour Kano. "De là, il avait l'intention de se rendre en pélerinage à la Mecque et de s'établir près de la noble ville de Médine, mais le destin ne lui permit pas de réaliser son dessein et il mourut à Kano".[15]

L'invasion de l'Empire Songhay et la rupture qui s'ensuivit entre zone occupée et zone de résistance, ont sans doute eu des conséquences fâcheuses sur les relations de cette région avec le monde hausa ; plus tard, la poussée des Touareg et le recul des sédentaires dans une bonne partie du Songhay marocain interrompurent ou reduisirent considérablement les échanges. Mais à l'époque qui nous intéresse, les liens restaient encore solides, et il n'est pas exagéré de penser que certains Etats hausa avaient des velléités d'allégeance au sultan marocain; ses qualités de *sharīf* et d'*Amīr al-Mu'minīn* déjà reconnues par Idris Alawoma de Bornou devaient faciliter cette démarche, démarche d'autant plus aisée que, comme l'écrivait Maikorema Zakari à propos de la *bayᶜa* de Mai Idrīs à Mawlāy al-Manṣūr, "il lui était indifférent que le Calife du monde musulman fut le saᶜdien ou l'ottoman".[16] Si le Kabi était, par la force des choses, et à cause de ses liens spéciaux avec le Songhay et ses ambitions régionales, impliqué dans les affrontements, les autres Etats hausa, Kano et Katsina en particulier, ne pouvaient se sentir concernés au point de prendre position en faveur du Songhay. Mieux, on peut même penser que, à cause de leurs démélés avec le Kabi, leur intérêt immédiat était de prendre le parti du Maroc,

15. *Tārīkh as-Sūdān, op. cit*, p. 138.

16. Z. Maikorema, *Les raisons d'une ambassade bornouane au Maroc en 1583, une réinterprétation*, Publications de l'Institut des Etudes Africaines, Rabat, 1991, p. 19

Le Kanta coupa la route du Hausa à l'ambition songhay. Mieux, il étendit son action vers le nord et exigea du sultan d'Agadès le tribut payé au Songhay depuis le début du siècle. C'est cette ambition que voulut freiner le Mai du Bornou qui vint avec les armées de l'Ayar attaquer Surame la capitale du Kabi. Kanta esquiva le combat, et Surame, encerclé par le Mai, resta inexpugnable. Quand l'armée bornouane reprit le chemin de sa capitale, le Kanta la poursuivit et lui infligea une série de défaites humiliantes. C'est au retour de cette poursuite qu'il fut tué d'une flèche empoisonnée le 9 du mois de Ramadam 968, 25 Mai 1501, d'aprés le *Tārīkh as-Sūdān*.

Le pays resta invaincu tout au long du XVIème siècle. Avec l'affaiblissement du Songhay, il avait profité pour étendre son influence sur la vallée du Niger proche, opération d'autant plus facile que le Kabi représentait lui-même une certaine symbiose ethnique entre Songhay et Hausa malgré la prédominance linguistique de ce dernier élément.

C'est donc tout naturellement que le Kabi, après 1591, pris le parti du Songhay vaincu, trouvant là l'occasion d'inverser les rôles et de jouer au "grand-frère". Ce soutien dénote pourtant un certain courage car le *Tārīkh as-Sūdān* nous rapporte que, "Après avoir préparé ses troupes, le pacha Maḥmūd se mit à la poursuite de Askia Nūḥ et le rejoignit à l'extrémité du pays Dendi. L'action s'engagea et les gens du pays de Kanta entendirent le bruit de la fusillade pendant une journée entière".[12] Et ce fut à proximité du Kabi, soutien et potentiel refuge, que Nūḥ s'installa, dans la ville de Korau. Les Sorkawa, pêcheurs professionnels qui avaient peut-être déjà l'habitude d'aller plus au Sud se confectionner les très grandes embarcations appelées *abara*, ont dû être mis à contribution pour faciliter le transport des résistants, et apparemment, ils servaient également de conducteurs. Ce fut donc tout naturellement qu'Askia Nūḥ envoya au Kanta la tête du pacha Maḥmūd après sa mort au cours d'un affrontement, tête que le sultan du Kabi "fit mettre au bout d'une flèche qu'on planta sur le marché de Lika[13] où elle resta pendant longtemps".[14] Geste de reconnaissance ou reconnaissance de suzeraineté, peu importe! A partir de cette époque d'ailleurs et jusqu'au début du XIXème siècle, le Kabi représenta, pour tout le Dendi, la super-puissance dont il fallait se concilier les bonnes grâces.

12. *Tārikh as-Sūdān*, *op cit.*, 237.

13. L'une des 3 capitales du Kabi

14. *T.S*, *op .cit*, p. 269.

2. Songhay et Hausa au XVIème siècle

Songai et Hausa étaient voisins depuis des temps immémoriaux, au point que le mot *hausa* signifie en langue songay "Est" et aussi "rive gauche".[10] Sonni Ali, le fondateur de l'Empire est, dit-on né d'une mère hausa de Faru (Zanfara ?). C'est lui qui engloba le Kabi dans l'ensemble songhay et y installa un représentant qui dépendait du gouverneur du Dendi. Les autres régions hausa ne semblent pas avoir eu des rapports de dépendance avec Gao, en tout cas aucune source ni aucun indice ne vient corroborer les informations de Léon l'Africain qui fait de tous les royaumes hausa des conquêtes songhay. Aucune source songhay ni hausa, ni tierce, ne vient confirmer ces dires, et les informations portant sur la position géographique des différents Etats montrent que Léon l'Africain n'a jamais visité Kasar Hausa.

Par contre il est évident que le Songhay a eu sur le Hausa en général, et le Kabi et le Yawuri (proche du fleuve Niger) en particulier, une certaine influence culturelle, économique et religieuse, influence qu'il est d'ailleurs difficile de démêler de celle du Mali, car les hausa appelaient *Malle* tous les pays de l'Ouest : Songhay, Mali ? Tekrur, Ghana etc.

Askia Muḥammad (1493-1528) semble pourtant avoir eu une véritable politique orientale. Son expédition contre Agadez en 1515 a été menée avec les armées du Dendi et du Kabi et elle se fit à travers la région hausa de l'Adar. Mais dès le retour de cette expédition le contingent du Kabi, mécontent de ne pas avoir eu sa part de butin se révolta. La révolte, dirigée par Muḥammadu Kanta dit Kotal, aboutit à plusieurs défaites de la partie songhay. De retour au Kabi Kanta se déclara *sarki*, et proclama l'indépendance du Kabu. Toutes les tentatives songhay pour reprendre pied au Kabi échouèrent, la dernière étant, d'après le *Tarīkh as-Sūdān*, celle de l'Askia Muḥammad Benkan : et "le combat s'engagea entre eux à Ouantarmasa. Kanta infligea une honteuse défaite à son adversaire qui s'enfuit avec toute son armée.... Ensuite le prince arriva à Kagho et depuis cette époque, aucun des askias ne fit d'expédition contre Kanta".[11]

---

10. Ceci dans le Dendi, pays d'origine des Songay (en aval de Gao). Ailleurs, le terme désigne seulement la rive gauche du fleuve.

11. as-Saᶜdī, A., *Ta'rīkh as-Sūdān*, trad. O. Houdas, Paris, A. Maisonneuve 1964, pp. 146-147.

proches, *de même que nos ancêtres l'ont attribué à leurs ancêtres, en toutes circonstances*".[7]

Ce fut également le Sultan al-Baqri (auteur de la deuxième attestation) qui informa le Sultan marocain Mawlāy Sulaymān du mouvement de réforme déclenché au début du XIXème siècle par Usman dan Fodio ; ce dernier, ainsi qu'al-Baqri lui-même reçurent du souverain marocain des lettres reproduites dans *Infāq al maysūr* du Sultan Muḥammad Bello de Sokoto.[8]

Il n'était donc pas difficile, pour les marocains, d'évaluer le rôle que pouvait jouer Kasar Hausa comme allié dans une stratégie anti-ottomane. L'alliance nouée avec le Bornou à travers l'allégeance du Sultan Idris Alaoma (1583) n'était en effet pas suffissante tant que les marchandises hausa pouvaient continuer à alimenter le commerce des territoires sous contrôle ottoman, en particulier le Fazzan, Tripoli, Ghadames et l'Egypte.

Il faut en outre souligner que la situation géographique du monde hausa entre Songhay et Bornou rendait nécessaire son inclusion dans l'alliance pour faire de cette dernière un bloc d'un seul tenant, de l'Atlantique au lac Tchad. Cet objectif semblait d'ailleurs déjà atteint aux yeux d'al-Fishtālī qui écrit, qu'après 1591 l'Empire d'Al-Manṣūr s'étendait de "l'Océan Atlantique, aux confins méridionaux du Maghreb, jusqu'au pays de Kano, limitrophe du Bornou".[9] Etait-ce par excès d'optimisme ou parce que les pays hausa étaient considérés comme politiquement dépendants du Songhay ou du Bornou, ou des deux à la fois, et qu'ils devaient nécessairement suivre le sort de leur suzerain ?

C'est alors donc que le Kabi, cet éternel troublion, vint mettre en échec les objectifs marocains après avoir, au cours du même siècle, fait échec aux ambitions occidentales de Bornou et aux visées orientales du Songhay. Nous allons donc, en quelques mots, exposer les relations entre Songhay et Hausa, en insistant sur la position du Kabi.

7. (Souligné par nous) A. G. P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine*, Paris, E. Leroux, 1923, pp. 44-45.

8. voir à ce sujet, Hamani, D.M., "le Sultana touareg de l'Ayar", *Etudes Nigériennes*, n° 55, pp. 350-352.

9. Al-Fishātalī, cité par Abitbol, *op. cit.*, p. 77.

Des savants originaires de Tigidda et de Bornou s'installèrent également dans les cités hausa, y enseignèrent et parfois y firent souche. Cette affluence aura pour conséquence l'apparition, à partir du XVIIème siècle, de plusieurs écrivains arabophones hausa dont certaines œuvres sont parvenues jusqu'à nous.

Ainsi, au moment où la dynastie saᶜdienne entreprenait son grand dessein historique, le monde hausa était donc largement connu sur l'échiquier international. Grâce à la création du sultanat d'Ayar et à l'ouverture de routes directes passant par Agadès, l'essentiel des produits hausa atteignit le Maghreb sans intermédiaire. Les caravanes atteignaient directement le Touat, Ghat et de Ghat poursuivaient leur chemin sur Ghadams ou Aujila et l'Egypte. A part l'or et les esclaves, il semble presque certain que les pays hausa occupaient une part importante dans le commerce transsaharien et comme "le commerce soudanais constituait... la source principale de richesses des provinces du Touat, du Mzab, du Souf du Djerid et particulièrement de la ville de Ghadames"[5], avec des bénéfices se situant entre 200 à 500% selon les produits, aucun souverain maghrébin ne pouvait l'ignorer, car le commerce du Soudan avec le Maghreb "was an indispensable element in the economic life of North Africa.[6]

Parmi les éléments qui ont pu favoriser la connaissance du monde hausa au Maghreb il y a le pélerinage, notamment la grande caravane maghrébine que les soudanais empruntaient ; nous avons malheureusement peu de renseignements sur cette caravane. Il faut signaler également le rôle d'intermédiaire joué par les populations berbères sahariennes en relations étroites avec les touareg du Sahel et en particulier avec les sultans d'Agadez.

A. G. P. Martin rapporte la traduction de deux lettres trouvées à la Zaouia des Oulad Sidi El Bekri à Tamentit. L'un des Shaykh de cette famille avait, dit-il, (au XVIème siècle?) exercé à Agadez les fonctions de cadi de la ville. Ces deux lettres datent du début du XIXème siècle, mais la première, qui est une "attestation", nous apprend que le sultan d'Agadez "le prince des croyants, protecteur de la religion Mohammed Guenna (Ghuma)... attribue un rang honorable à Sidi Moḥammed Ben Cheikh El-Bekri, à ses cousins et à ses

---

5. M. Abitbol, *op.cit.* p. 210.

6. B. G. Martin," Kanew, Bornu and the Fazzan ; notes on the political history of a trade route" *J. A. H.* (1969), pp. 15-27.

Il n'y avait pas que Kano car, comme terminus des voies caravanières, Katsina jouait un rôle encore plus important ; mais Kano avait cet avantage incomparable d'être d'abord un centre producteur dont la fortune reposait sur ses propres efforts, assurant à sa prospérité une remarquable stabilité.

Ce bien-être fut la cause de l'accélération du processus d'islamisation du pays hausa car il attira de nombreux savants. le plus connu de ces savants fut Muḥammad b. cAbd al-Karīm al-Maghīlī qui vint de Touat en Ayar et installa à Tigidda un centre d'enseignement qui forma plusieurs futurs érudits. De là il se rendit dans le Hausa, à Katsina, où il présida à l'édification de la célèbre mosquée de vendredi (appelée Gobarau) et à Kano. C'était l'époque du Fameux *Sarki* Muḥammadu Rumfa (1463-1499) qui renforça l'islam et innova beaucoup en matière de gouvernement, dans un sens où la pompe l'emportait d'ailleurs sur la simplicité islamique. Du passage de ce savant à Kano nous conservons une correspondance adressée au Sarki et datée de 879 H (1474/5) et un traité de gouvernement traduit en 1932 par T.H Baldwin sous le titre *The Obligations of Princes* .[4]

Beaucoup d'autres savants célèbres vinrent au Hausa au cours de ces deux siècles :

- Aḥmed b. cUmar, un ascendant d'Aḥmad Bāba qui visita la Mecque en 890 (1485) puis vint enseigner à Kano et peut-être à Katsina ;

- cAbd ar-Rahmān Suqqayn, savant marocain et élève de l'historien Ibn Ghāzī qui vint d'Egypte et enseigna à Kano entre 1504 et 1518-12 ;

-Makhlūf al Balbalī, jurisconsulte et géographe qui étudia au Maroc et enseigna à Kano et Katsina avant de retourner au Maroc après un séjour à Tombouctou ; il mourut à Marrakech en 940 (1533-1534) ;

- Muḥammad at-Tazakhtī, qui séjourna à la Mecque puis "revint ensuite au Soudan et se fixa à (Katsina dont le sultan le traita avec égards et lui confia les fonctions de qāḍī. Il mourut aux environs de l'année 936 (1529-1530).

---

4. Baldwin, T. H., *The Obligations of Princes*, Beirut, 1932. (trad. de *al-Tacrīf fī ma yajib calā al-Mulūk* de Muḥammad b. cAbd al-Karīm al-Maghīlī.

ampleur après le transfert de la capitale à Agadès, dans la deuxième moitié du XVème siècle. Les Hausa, ceux de Kano et de Katsina surtout, mirent ainsi pour la première fois en contact la Méditerranée, d'un côté la Golfe de Guinée et celui du Biafra de l'autre, à travers le Sahara, au moment où les Portugais réalisaient la même opération par la voie atlantique.

Au début du XVème siècle, une nouvelle puissance apparut parmi les Hausa : le Kabi, jusque-là partie du Songhay, se détacha de ce dernier et proclama son indépendance. Il étendit rapidement son emprise sur l'occident hausa et sur certaines régions non hausa à l'Ouest et au Sud. Muḥammadu Kanta, son premier souverain, créa ainsi une nouvelle zone de stabilité qui favorisa les relations d'échange.

Les XVème et XVIème siècles furent pour le Hausa une période de progrès politique, économique et intellectuel qui vit grandir les villes, s'accroître les richesses, se multiplier les échanges et affluer les étrangers. Au contraire de Bornou ou des empires du Soudan Occidental, la puissance du monde hausa était essentiellement économique, et autre signe particulier, cette richesse s'appuyait sur la production intérieure ; les produits d'exportation les plus importants n'étaient ni l'or ni les esclaves, mais les textiles, produits de cuir, harnachements de chevaux, cuvette, condiments, *senna* ; plumes d'autruche etc., auxquels il faut ajouter les céréales destinés au monde nomade et les produits réexportés comme le sel, le natron, la kola, l'ivoire, les chevaux. En effet, le deuxième atout du monde hausa, après ses productions internes, furent ses caravanes qui sillonaient tout le Soudan Central dont elles transportèrent les articles jusqu'aux abords de la forêt.

Giovanni Anania disait de Kano au XVIème siècle qu'elle "est une des trois villes de l'Afrique, les autres étant Fès et le Caire, dont les Maures disent qu'il n'y a chose au monde que l'on n'y trouve... C'est une cité plus grande que ne fut Ninive (selon ce qu'affirment les marchands qui y vont maintenant d'Alger), et il s'y fait un grand trafic de meliguette, d'ivoire et d'or". Et plus loin, il ajoute : "cette cité est la plus civilisée de ces pays et là-bas on y vit en grande pompe. Beaucoup de gentils hommes blancs y vivent, qui s'y rendirent du Caire il y a déjà beaucoup d'années. Ils ont un train de vie tel que plusieurs d'entre eux possèdent leurs chevaux dans leurs propres écuries et se servent de nombreux esclaves comme des seigneurs".[3]

3. Langue, D et Berthoud, S, "L'intérieur de l'Afrique Occidentale d'après Giovanni Lorenzo Anania (XVIème siècle) in *Unesco* : *Cahiers d'Histoire Mondiale*, La Baconnère Neuchatel, vol. XIV-2, 1972, pp. 299-351.

Cet ensemble est resté, tout au long de son histoire et jusqu'au début du XIXème siècle, divisé en une multitude de royaumes et principautés fortement unis par la culture et l'économie mais politiquement divisés.

Les premiers royaumes hausa furent constitués avant l'apparition de l'Islam en Afrique, autour de capitales murées appelées *Birni* (pluriel *Birane*). Le phénomène de *Birni* affecta l'ensemble du monde hausa, ce qui explique le nombre particulièrement élevé de centres urbains historiques dans la région. L'organisation de l'économie et l'ouverture de voies d'échanges fut la préoccupation de la plupart des dynasties hausa. L'islam pénètra très tôt dans la région, à partir du Nord et le L'Est, mais ne prit aucune ampleur avant le XIVème siècle.

Au cours du XVème siècle, se produisit dans le monde hausa une véritable accélèration historique :

- Le pays s'ouvrit largement sur l'extérieur. Sous le règne du *Sarki* (roi) ᶜAbdullāhi Barja de Kano (1438 - 1452), les commerçants hausa atteignirent la zone de confluence du Niger et de la Benué et établirent des contacts avec les pays situés en direction du golfe de Biafra. A la même époque, les caravanes de Katsina atteignirent le Gwanja (Ghana actuel) et mirent en place la route caravanière qui reliait Bornou au Gwanja.

La Chronique de Kano signale que ᶜAbdullāhi Barja était lui-même propiétaire de chameaux au trafic des marchandises.[2]

A partir de cette époque un flot d'immigrants venus de l'Ouest (Mali, Songhay), de l'est (Borno, du Nord (berbères, arabes) et du Sud (Nupe, Yoruba) constitué de marchands, hommes de culture, artisans, transporteurs touareg, se déversa dans le *Hausa.*

Au cours de ce même XVème siècle, apparut en Ayar un nouveau *sultanat.* Cette création était en partie liée au désir des touareg de la région de prendre part au commerce transsaharien jusque-là monopolisé par les Tubu du Bornou à l'Est et les touareg de Tigidda à l'Ouest.

Or le pays hausa était lui-même, dans ce commerce, tributaire des routes du Songhay, de Tigidda et de Borno. La création du sultanat d'Ayar lui donna ainsi une voie directe d'accès au marché nord africain. Les échanges dans cette direction prirent une grande

2. *Tārīkh ᶜarab hādhihi al-bilād al-musammāt kānō* : Histoire de Kano depuis les origines.

"comme les gens de Kano et de Katsina, ainsi que ceux qui sont autour d'eux, qui voulaient faire allégeance à nous, de façon à prendre leur place dans le victorieux parti d'Allah, les repoussant et leur interdisant la route qui mène au succès".

Le souverain lui lançait donc un avertissement avant de le punir, conformément à ce que prescrivaient la Sunna et le Coran. Le Kanta Dāwūd est sommé d'entrer dans la communauté islamique car, dit la missive, pour les musulmans l'obéissance à l'Imām est une obligation, que Dieu lui impose ainsi qu'aux Etats du Soudan. Il lui intima l'ordre.

- d'arrêter les rebelles songhay qui se trouvaient sur son territoire et de les livrer à ses soldats,

- d'interdire aux rebelles le territoire du Kabi où ils se refugiaient souvent et de cesser de les aider,

- de remettre au sultan du Maroc tous les bateaux qu'il avait coutume de fournir annuellemnt à l'Askia.[1]

Enfin, le choix était donné au Kanta soit de faire allégeance et d'obéir aux injonctions qui lui étaient faites, ce qui lui aurait valu non seulement la tranquilité de ses Etats mais aussi l'aide des armées du Sultan contre les ennemis du Kabi, soit de continuer ses actes hostiles ce qui devait lui valoir la mort et la déstruction de son pays par des armées qui partiraient du Maroc et de Tiguraren et de Touat.

1. Evolution des pays Hausa aux XVème siècle

Le pays Hausa (Kasar Hausa) occupe aujourd'hui un vaste espace situé entre le fleuve Niger et le lac Tchad, entre les anciens Etats du Songhay et de Bornou. Aujourd'hui, quelques 50 millions de personnes parlent le Hausa, principalement au Nigéria et au Niger où il occupe le premier rang.

1. Il s'agit sans doute des grands bateaux appelés *Kanta* dans le *Tārīkh al Fattāsh.* Le Kabi étant plus humide que le Songhay, les constructeurs de bateaux y trouvent les grands arbres qui permettent de confectionner des barques beaucoup plus grandes que celles qui sont fabriquées dans la zone sahélienne sèche. On remarque aujourd'hui encore cette différence entre les bateaux de la région de Niamey et ceux des Sorkawa qui remontent le fleuve venant du Kabi. C'est au sujet de ces bateaux que les Goïma-koï (chef des ouvriers) du Songhay disait : "quatre cent *kanta* suffiront à transporter toute la maison de l'Askia, ses bagages, ses femmes, ses articles d'échange et ses richesses en trois jours". *Tārīkh al Fattāsh.*, trad. O. Houdas et M. Delafosse Paris, A. Maisonneuve, 1964, p. 270.

Le Hausa entre le Maroc et le Songhay à la fin du XVIè s.

Djibo Hamani
Université de Niamey

Probablement en l'année 1594, le Sultan Mulāy al-Manṣūr ad-Dahbī expédia au Kanta (souverain) Dāwūd (1589-1613) une correspondance qui resta probablement unique dans les annales des relations entre le Maroc et le monde hausa. Avant d'en donner le contenu résumé, rappelons les faits qui l'ont précédée et motivée : le 12 Mars 1591, à Tondibi, une armée marocaine équipée d'armes à feu avait, après une dure traversée du sahara, écrasé l'armée songhay de l'Askia Isḥāq II et provoqué l'effondrement total de l'Empire. Après une série de nouvelles défaites, les Songhay, dirigés par un nouvel Askia, Nūh (1591 - 1599), se replièrent en aval de Gao, dans le Dendi, et menèrent une guerre populaire et de guerilla qui réussit à bloquer l'avancée marocaine. L'armée d'occupation fut harcelée avec succès et finalement fut obligée d'évacuer ses garnisons, n'occupant plus du Dendi que sa partie nord, entre Kukiya et Gao.

Ces difficultés, d'autant plus inattendues que la victoire contre la grande armée songhay a été facile, étaient rendues encore plus insupportables aux marocains par l'intervention d'un pays tiers, le Kabi, Etat hausa voisin du Songhay, devenu un soutien actif et peut-être déterminant de la résistance. C'est au souverain de cet Etat, devenu du même coup obstacle à la réalisation d'un dessein qui dépassait le Songhay, que le Sultan al-Manṣūr adressa la correspondance en question. Que disait la missive rédigée par le Secrétaire en chef du prince, Abū Fāris ᶜAbd al-ᶜAzāz al Fishtālī ?

Le souverain Saᶜdien, après avoir rappelé au Kanta Dāwūd les raisons de son intervention au Songhay, lui reprochait son aide à la résistance anti-marocaine à laquelle il fournissait asile, protection, aide, notamment en cavelerie. Il lui reprochait également de faire obstacle à ceux qui, venant des royaumes situés au-delà du Kabi,

troupeaux, ce qui indiquerait qu'il s'agissait d'élevage et non de cadeaux destinés à la consommation.

Toutes les personnes que nous connaissons, de la seconde moitié du XVIè siècle et qui sont devenues propriétaires de troupeaux de bétail, appartenaient aux strates les plus hautes de la société Songhay. Les choses étaient différentes, s'il s'agissait des fils du Mori Haougaro. Le Mori Haougaro lui-même avait été un des plus proches collaborateurs de l'Askia Muḥammad. Ses nombreux fils, par contre, n'ont fait aucune carrière, ils ont vécu dans leur village, dans le cadre de la grande famille. L'incident, décrit par la chronique, parle d'un conflit des conceptions juridiques, connues et soutenues par l'élite au pouvoir, avec la coutume qui dominait parmi les strates politiques libres, mais inférieures. Des conflits naissaient quand ces deux modèles et points de vue s'affrontaient. Les structures des grandes familles, non seulement n'ont pas été détruites, mais, comme nous le savons, la majorité de la population libre et dépendante du Songhay vivait dans les villages, au milieu des grandes familles, et il était de même parmi les nomades et éleveurs.[10] La propriété commune l'emportait sur la propriété individuelle, qui n'était qu'en train de se former. Nous pouvons donc considérer que les dons de troupeaux de bétail, que les souverains du Songhay attribuaient aux personnalités de l'Etat au XVIè siècle étaient le résultat des influences extérieures, d'adaptation au Songhay des éléments de droit islamique et formaient des germes de transformations économiques et sociales qui ne s'étaient pas encore développés en un système généralement admis.

10. M. Malowist, "The Social and Economic Stability of the Western Soudan" in *The Middle Ages, Past and Present* 1966 ; A.G. Hopkins, "The Western Soudan in The Middle Ages". "Underdevelopment in the Empires of the Western Soudan", *Past and Present* 1967. M. Tymowski, "The Early State and after in the precolonial West Soudan. Problems of the Stability of Political Organizations and Obstacles to their Development", in *Early State Dynamics*, ed. by H. Claessen et autres, Leiden, 1987, p. 54 - 69.

attribué". Ensuite, l'Askia s'est tourné vers les autres et leur a donné aussi dix esclaves et cent vaches en disant : "Ceci vous appartient, à vous personnellement".

C'est ainsi que le souverain s'est déclaré du côté des partisans de la propriété individuelle. Cependant, il était intéressé à calmer et à satisfaire l'autre partie et, par un généreux présent, à fermer la bouche des partisans de la propriété collective des grandes familles.

La chronique décrit une situation où la notion de la propriété individuelle du bétail ne venait que d'apparaître. La portée et les possibilités du développement de cette propriété étaient limitées par les coutumes liées au fonctionnement des grandes familles d'agriculteurs et d'éleveurs. Pour s'opposer aux gens qui évoquaient ces coutumes, l'autorité d'un souverain était nécessaire. L'Askia lui-même devait toutefois tenir compte de la situation - c'est pourquoi les adversaires de la propriété privée avaient été richement récompensés. En plus, l'Askia évoque une autorité supérieure à celle de l'Etat, en évoquant Dieu. Le souverain lui-même et les descendants du Mori Haougaro étaient musulmans. C'est pourquoi les frères qui contestaient la propriété individuelle ne pouvaient réfuter les argments religieux. Ces arguments étaient un outil qui permettaient aux souverains d'introduire des changements dans le fonctionnement de la société. La décision de l'Askia Muḥammad témoigne du rôle important de l'autorité de l'Etat dans l'introduction d'un type nouveau de propriété.

Cette décision a-t-elle été fructueuse ? Le souverain a-t-il réussi à élargir la portée de la propriété individuelle des troupeaux de bétail, en dehors de cet exemple concret ?

Quelques années plus tard, en 1519, le don au chérif Es-Sekli comportait cent chameaux avec les esclaves qui s'en occupaient.[8] Les successseurs de l'Askia Mohammed faisaient aussi des cadeaux de bétail et de moutons. L'Askia Dāwūd a donné 40 vaches à Maḥmoud Kati, le même souverain a donné cent vaches au muézin de la mosquée de Gao, ainsi qu'un troupeau de moutons et de chèvres a Alfa, sœur du Kadi (Qāḍī) Hindi. L'héritage du guerrier Mūsæ Sagansaro comportait des troupeaux de bœufs et de moutons.[9] Nous n'avons aucune connaissance d'un conflit quelconque quant au caractère de la propriété liée au transfert et à la possession de ces troupeaux. Dans la plupart des cas, on remettait les esclaves avec les

8. *Tārīkh el-Fettāch..*, p. 30.
9. *Ibid.*, p. 191, 199, 200 - 201.

Le petit-fils anonyme de Mahmoud Kati il est probable que ce fut Ibn al-Mukhtār, a complété cette chronique et écrit sa dernière version, connaissant ces faits non seulement du texte qui lui est revenu de son grand-père, mais aussi des relations orales provenant des descendants de la famille du Mori Haougaro. Au XVIIè siècle, l'importance qu'on portait aux décisions d'antan, prises par l'Askia Muḥammad, revêtait un caractère nettement historique. Après la défaite du Songhay en 1591, ces décisions ont cessé d'être valables du point de vue juridique. Je ne crois donc pas que l'auteur de cette chronique, qui vivait au XVIIè siècle, ait été intéressé à déformer la vérité.

Conformément au texte de la chronique, en 913, année hégire (13 mai 1507 - 1 mai 1508), trois déscendants du Mori Haougaro se sont présentés devant l'Askia Muḥammed. C'étaient notamment les Mori Eṣ-Ṣadiq, Djeiba et Muḥammad. Au cours du règne de la dynastie précédente sonni (ou sunnij), en tant que musulmans orthodoxes, ils avaient été persécutés, enchaînés et déportés sur l'île d'une rivière. Ils se sont donc plaints de leurs persécutions et souffrance. A titre de compensation, l'Askia Muḥammad leur a donné cent vaches et dix esclaves. Satisfaits, les descendants du Mori Haougaro se sont rendus dans leur village d'origine. En route, ils rencontrèrent leurs frères : "Nous devons, dirent ces derniers, . . . avoir notre part de ce présent à titre d'associés et nous allons le partager entre nous par fractions égales". Les trois bénéficiaires ayant refusé, un conflit aigu en est résulté.

Le cadeau fait par l'Askia Muḥammad aux trois frères, ne revêtait pas pour tous un caractère équivalent. Un des partis représentait le point de vue de la propriété individuelle, l'autre évoquait le droit commun à la propriété collective d'une grande famille. Les frères brouillés se sont rendus chez l'Askia, afin qu'il rende un jugement. Le conflit avait donc un caractère essentiel, n'était pas une simple querelle concernant un bien, mais touchait un problème aussi important que le type de propriéré. La chronique décrit en détail cette histoire, ce qui témoigne de l'importance qu'on portait au jugement prononcé par l'Askia Muḥammad pendant tout le XVIè siècle quand le processus de la formation d'une nouvelle structure sociale influencée par le droit islamique se développait. D'après *Tārīkh el-Fettāch* l'Askia dit : "Quand j'ai fait ce cadeau, je n'avais pas en vue toute la descendance du Mori Haougaro et je ne songeais qu'aux trois d'entre vous qui étaient alors présents. Ce que je leur ai donné est la part que Dieu leur avait dévolue d'avance, cela leur appartient donc en toute propriété, puisque c'est Dieu qui le leur a

dons de telles propriétés.[3] Nous savons aussi qu'au Songhay la forme islamique de donation dite *ouakf* (ou *waqf*) était connue.[4] Les dons faits par les souverains de la dynastie Askia ne concernaient pas seulement de la terre et des esclaves-cultivateurs. Vu l'importance que jouait l'élevage[5], on doit relever que les souverains offraient, aux dignitaires d'Etat et aux ᶜulama', des troupeaux de bétail, de chameaux et de moutons. Le caractère de ces dons différait des autres cadeaux en biens mobilies : en or, costumes, chevaux, armes. La possession d'animaux d'élevage permettait de développer et d'exploiter l'économie locale.

La chronique *Tārīkh el-Fettāch* décrit largement un cadeau fait par l'Askia Muḥammad aux fils de l'uléma Mori Haougaro.[6] Le passage en question de cette chronique paraît digne de foi. Maḥmoud Kati, le premier auteur de cette chronique connaissait le Mori Haougaro lui-même, ainsi que ses fils. Au moment où l'Askia a fait ce don, Kati était au courant des problèmes de la cour et de l'Etat.[7] Il représentait le milieu des ᶜulamā' qui s'intéressaient vivement à l'octroi de dons par les souverains. Il a donc scrupuleusement cité les décisions importantes sur ce point de vue.

---

3. Premières mentions à ce sujet : J. Rouch, *Contribution à l'histoire des Songhays*, Dakar, 1953, p. 204 - 205 ; D. Clledrogge, *Zapadnyi Sudan v XV-XIX v./ Soudan Occidental au XV-XIX s. /*, Moskva, 1960 ; M. Malowist, "Wielkie panstwa..," p. 382 - 383, 422. Travail sur ce problème - M. Tymowski, "Les domaines des princes du Songhay. Comparaison avec la grande propriété foncière en Europe au début de l'époque féodale, "*Annales ESC*, 1970, n° 6, p. 1637 - 1658. "Le rôle des domaines fonciers au Songhay soulignait aussi L. Kubbel, *Songhaiskaia..*, p. 144 - 152, 254 - 268 et dernièrement Lasone Kaba, *Le pouvoir..* . Voir aussi A.G. Hopkins, *An Econmic History of West Africa*, London, 1973 et R. Austen, *African Economic History. Internal Development and External Dependency*, London, 1987.

4. J. Hunwick, "Religion and State.". .

5. R. Mauny, "Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age", Dakam 1961, p. 275 - 293 ; T. Lewicki, *West African food in the Middlle Ages according to the Arabic sources*, Cambridge, 1974.

6. *Tārīkh el-Fettāch ou Chronique du chercheur, par Mahmoud Kati ben El Hadj Motaouakkel et l'un de ses petits fils*, texe arabe, trad. française de O. Houdas, M. Delafosse, Paris, 1913 / reed. 1964 /, p. 137 - 138.

7. *Tārīkh el-Fettāch..*, p. 25, 125 - 126 / Connaissance avec Mori Haougaro /, p. 24, 105, 205, 271 / Connaissance des problèmes de l'Etat /.

Dispute au sujet du caractère de la propriété au Songhay au XVIè siècle

Michal Tymowski
Université de Paris IV

L'histoire sociale du Soudan occidental attire, au cours de ces dernières années, l'attention des historiens. En partant des recherches sur l'histoire économique et politique, on a défini le problème de la stratification sociale des populations du Soudan occidental. Ces recherches ont englobé surtout le XVIè siècle, quand au Songhay la société ouest-africaine avait atteint le sommet de son développement de l'époque précoloniale.[1] Parmi les problèmes discutés, il y a ceux des contacts du Songhay avec l'Afrique du Nord et de réception au Songhay des modèles juridiques et politiques islamiques.[2]

Dans la littérature historique, on a déjà mentionné qu'au Songhay au XVIème siècle, il existait des propriétés foncières appartenant aux souverains et on a noté quelques cas individuels de

---

1. M. Malowist, *Wielkie panstwa Sudanu Zachodniego w póznym sredniowieczu / Grands Etats du Soudan Occidental du bas Moyen Age /*, Warszawa, 1964 ; Diagne Pathe, *Pouvoir politique traditionnel en Afrique Occidentale*, Paris, 1967 ; L. Kubbeil, *Songhaiskaia dierjava / L'Empire du Songhay /*, Moscou, 1974 ; M. Tymowski, "La ville et la campagne au Soudan Occidental du XIVè au XVIè siècle", *Acta Poloniae Historica*, t. 29, 1974, p. 51 - 79 ; Cl. Meillassoux, (ed.), *L'esclavage en Afrique précoloniale*, Paris, 1975 ; même auteur, *Anthropologie de l'esclavage*, Paris, 1986 ; Lasine Kaba, "Le Pouvoir politique, l'essor économique et l'inégalité sociale au Songhay" / 1464 - 1591 /, *Bulletin IFAN*, sér. B, t. 45, 1983, nos 1 - 2, p. 1 - 23.

2. J. Hunwick, "Religion and state in the Songhay Empire 1464 - 1591", in : J. M. Lewis (ed.), *Islam in Tropical Africa*, London, 1964, p. 296 - 315; V. Monteil, *Islam noir*, Paris, 1964.

tendance des Askya à la thésaurisation.[53] Il suffira de ne pas oublier la conscience aiguë, dans le *Tārīkh al Fāttāsh* de la précaire situation du groupe privilégié dans une situation de croissante inégalité, au-delà de tout ce qui était connu: "Nous demandons à Dieu, le Très Haut, son appui contre les révoltes de notre époque".[54]

Le groupe des ᶜulamā' réussit à forger, certainement, une nouvelle légitimité pour la dynastie de Muḥammad Turé, leur protégé et leur protecteur en même temps. Déjà, à La Mècque, Askya Moḥammad dut choisir symboliquement entre la royauté (dont il n'était pas le premier usurpateur de l'histoire) et le califat : "Mais, tu es venu à nous en qualité de roi, et l'on ne peut réunir à la fois les deux titres de roi, et de calife.- Comment faire alors, seigneur ? lui demanda l'Askya. -Il n'y a qu'un seul moyen, lui répondit Mawlāy al-ᶜAbbās, c'est que tu sortes de ta condition actuelle".[55] Ce fut une rupture nette, assumée par les protagonistes, les nouveaux dirigeants du Songhay, qui reçurent ainsi le bonnet vert et le turban blanc, en plus du sabre, dans leur nouvelle condition califale. Mais ces symboles furent valides, légitimes, seulement pour cette élite restreinte, qui trouvait leurs appuis les plus notoires dans leurs liens avec le *Dār al Islām*, mais pas dans les plus larges couches des sociétés du Soudan occidental.

On l'a écrit souvent, l'état songhay était sapé de l'intérieur par ses propres tenants, à la veille de l'équipée marocaine dirigée par les Djūdar, Maḥmūd, Manṣūr et autres. C'était vrai, sur le plan sociologique, mais cela l'était aussi sur le plan des idées. Avec Sonni Baro disparaissait le dernier roi-dieu, un modèle de société et de concevoir la vie, hiérarchique, violent aussi, mais plus intégrateur que le régime apparemment plus égalitaire des califes qui se voulaient seulement d'humbles serviteurs de Dieu. La farouche inégalité institutionnelle du roi-dieu était, donc, moins oppressante que la fraternité prônée par la nouvelle oligarchie urbaine du Songhay. Mais cette contradiction, comme tant de fois on l'a vu, n'est peut être qu'apparente : merveilles du discours aux mains de certains pouvoirs.

---

53. Les travaux de Cissoko, Tymowski et Kaba sont coïncidents sur ce point.

54. *TF*, p. 23

55. *TF*, p. 16. En renonçant à la royauté classique, Askya Muḥammad devient symboliquement un chef *(naaba)* dépourvu de la maîtrise sur la force *(panga)*, comme analyse M. Izard, pour le domaine mossi, "De quelques paramètres de la souveraineté" in L. De Heusch, *Chefs*, *op. cit.*, pp. 72 - 73.

56. F. Iniesta, "Origen...", *art. cit.*, p. 40.

aux gens de la mosquée de Djenné toujours à travers un griot, intermédiaire obligé d'un dieu distant. Dawūd crachait sur les manches de ses serviteurs, car le crachat du roi était une force qui aurait pu être manipulée ; le même souverain chevauchait en appuyant ses mains sur les têtes de deux hommes qui se tenaient toujours à ses côtés. Le Balama Ṣadiq, frère révolté contre Muḥammad Bānī en 1587, était toujours salué par les gens de Tombouctou (des Wakoré ou Soninké) par le vieux titre impérial du Ghana : Tunkara.[50]

Face à cette puissante tradition, enracinée même dans les grandes villes, les Askya ont cherché refuge dans une obéissance stricte aux conseils des *ᶜulamā'* et dans une aide unique aux grands marchands des quartiers privilégiés de type Sankoré, à Tombouctou. En faisant ce mouvement, il leur a été possible de se couper temporairement de l'ensemble des peuples soumis à l'état songhay, grâce à l'aide du puissant groupe islamisant basé au long du Fleuve : les esclaves[51], massivement exportés au XVIème siècle (Mauny les chiffrait en 20.000 par an), étaient échangés contre des chevaux, qui étaient la base du pouvoir militaire soudanais, mais une base purement technique, non sociale. Les louanges aux Askya, qui se répètent souvent dans les *Tārīkhs*, font presque toujours référence aux dons faits aux ᶜulama ou les privilèges accordés aux lettrés: le but le plus notoire des Kaᶜtī et Saᶜdī c'est de légitimer le pouvoir Askya, mais cette légitimation ne semble pas avoir dépassé les cercles marchands et religieux musulmans, sans possibilité de s'élargir en raison de la politique d'extorsion pratiquée par cette élite contre l'ensemble des populations.[52]

Nous ne rentrerons pas dans la bien connue histoire des tribus serviles et la volonté d'Askya Muḥammad d'asservir toute la population païenne, donc la majorité absolue. Ce n'est pas ici, non plus, l'endroit pour traiter du sens sociologique du conflit entre Askya Dāwūd et son esclave-contremaître Misakulallāh, qui était devenu plus riche que son royal propriétaire, sans rappeler l'importance du don dans un pouvoir soudanais, malgré la forte

50. *TS*, pp. 196-204, bien que M. Tymowski pense que l'adhésion au Balama était limitée au parti commerçant de la ville de Tombouctou: "L'économie..." *art. cit.*, p. 16

51. S.M. Cissoko voit une forte croissance de l'esclavage pendant la période Askya, mais ne considère pas qu'il s'agisse d'une société esclavagiste : *Tombouctou et l'empire songhay*, NEA, Dakar 1975, p. 170.

52. M. Tymowski précise que la prospérité était circonscrite à un réduit noyau de bénéficiaires "L'économie...", art.cit., p. 12

3. Askya. L'échec de la nouvelle légitimité

Tout l'ouvrage des Kaᶜtī est un effort tantalique pour doter les Askya d'une légitimité musulmane : dons d'esclaves, de plantations de villages et même de régions entières offertes pieusement par Askya Muḥammad ou Dawūd. Mais cette dynastie devait lutter incessamment contre la double influence négative de certains de ses rois -trop portés sur le péché- et la mauvaise volonté des Songhay qui ne paraissaient pas trop enclins à remercier Dieu du bienfait du pouvoir islamique : "C'est ainsi que la ruine du pouvoir des Askya fut due en partie aux gens du Songhay".[45] Tandis que Isḥāq I faisait profession de bon musulman à Djenné[46], et Dawūd créait des bibliothèques et offrait des copies de livres aux *ᶜulama'*[47] ou faisait de l'aumône aux pauvres de Tombouctou en dédiant 30 esclaves à entretenir un Jardin des Pauvres[48], les privilèges disparaissaient brutalement au-delà de l'enceinte des villes marchandes islamisées. Et c'était, justement, cet au-delà, ce monde rural qui avait été la base de la puissance impériale.

Askya Dawūd le savait bien, quand il gardait sans conviction quelques aspects formels du vieux protocole de la cour des Sonni : "Je ne suis pas fou, répondit le prince en riant, j'ai toute ma raison, mais je commande à des fous, à des impies, à des orgueilleux et c'est pour cela que je fais le fou moi-même et feins d'être possédé du démon afin de les effrayer et de les empêcher ainsi de faire du tort aux musulmans".[49] Cette cassure entre les Askya et la majorité sociale était parfaitement consciente, et elle était beaucoup plus intense et profonde que la rupture antérieure et qui avait donné naissance à la royauté divine, puisque les rois-dieux avaient été réincorporés dans le tissu hiérarchique et idéologique dès que les troubles fondateurs s'étaient estompés.

Et pourtant, malgré la suppression de nombre de privilèges courtisans par un Askya Muḥammad déjà assuré au pouvoir, il y avait toujours contradiction entre les comportements musulmans des rois et certaines de leurs habitudes, toujours dépendantes d'une tradition royale qui n'était plus la leur. Askya Mūsā détrône son père vieillissant, car la cécité est impossible chez un roi divin. Isḥāq I parle

45. *TF*, p. 143.
46. *TF*, p. 166
47. *TF*, p. 177
48. *TF*, p. 211
49. *TF*, pp. 209-210

l'échelle cosmique. Roi né symboliquement de sa propre force, en rupture avec la plupart des interdits alimentaires ou familiaux, le roi-dieu n'était aucunement *un primus inter pares*, mais la distance absolue par rapport à l'ensemble social.[40] Roi né socialement d'une rupture souvent traumatique avec le passé des clans et des gérontocrates, le roi-dieu devient la synthèse du nouvel ordre fortement hiérarchique, mais aussi profondément intégré, holiste.

"Le roi n'est pas un parent", dit le bien connu proverbe mandingue. Il ne l'est pas, parce qu'il est en dehors des circuits courants de la sociabilité, parce qu'il recèle tous les dangers et parce que chez lui habitent les puissances humaines et cosmiques. Mais il ne peut plus tout se permettre, car sa puissance acceptée, intégrée, est devenue symboliquement noire, paternelle (Ma), protectrice[41] : vainqueur de la vieille société, le roi-dieu est vaincu par celle-ci du moment où il est encadré dans l'imaginaire totalisant des populations soudanaises (probablement d'origine néolithique saharienne).

C'est l'aspect magicien de Sundjata[42] qui ouvre la *mansaya*, l'autorité par excellence, aux Keita, le clan royal qui devra se responsabiliser du nouvel ordre du monde à Kurokanfoga, où tous les groupes deviennent complémentaires. C'est l'aspect de "maître des eaux" qui fait de Sonni Ali le *Dali*, le "dieu" ou "le très haut"[43], parmi les bateliers Sorko et les guerriers Songhay, qui jugent le roi une véritable divinité mais aussi un authentique homme du fleuve. Peu importe que Sundjata ait pactisé avec les affaiblis pouvoirs islamisés de Kumbi ou que ses descendants, tel Kanku Mūsā, soient devenus des musulmans fervents (encore un nouveau atout magique, de puissance), peu importe que les Dia et Sonni se soient islamisés ou que le Dali en personne ait pu être un bon connaisseur des lois coraniques ("il parlât comme quelqu'un de très versé dans les choses de la religion"[44]) : ces rois, eux, ne refusèrent jamais leur divinité, ainsi perçue par leurs peuples, et cette attitude se doublait d'un certain maintien de l'ordre social.

---

40. voir " Introduction" de L. De Heusch in, *Chefs*, *op.cit.*, pp. 18 et 30.

41. Sh. Bagayogo "Lieux et théorie du pouvoir dans le monde mandé: passé et présent", *Cahiers des Sciences Humaines ORSTOM* , vol. 25, no 4, 1989, p. 453.

42. D. T., *niane*, *Soundjata*, *op. cit.*, pp. 133-142; "Recherches sur l'empire du Mali au Moyen Age", *Présence Africaine*, Paris, 1975, pp. 60-63.

43. *TF*, p. 84.

44. *TF*, p. 82.

vivant d'un problématique équilibre social et naturel, ne pouvait s'afaiblir et la cécité constatée du Kaya Maghan -d'après Bakrī- aurait suffi pour le faire tuer : il faut se demander si la déposition du vieux Askya Muḥammad -devenu aveugle- par son fils Askya Mūsā[35], ne fut pas encore un comportement punissable dans des termes musulmans mais qui pouvait se prévaloir de la tradition royale du Songhay.

L'enterrement du roi a été aussi un élément caractéristique de cette royauté qui s'estompait avec les Sonni. Les Kaya Maghan étaient enterrées avec leurs épouses et serviteurs, et les endroits où ils étaient inhumés restaient inerdits ou secrets.[36] Sumaoro Kanté, blessé mortellement par Sundjata, s'envola et disparut ; Sundjata Keita -peut être tué par son entourage- se noya dans le Fleuve et son tombeau reste sans un site reconnaissable[37], et c'est le même cas pour Ali Ber, noyé en traversant un affluent du Niger et "aussitôt que ses soldats furent assurés de sa mort, ils l'enterrèrent sur place, et personne n'a su depuis en quel endroit se trouvait son tombeau", nous dit Kaᶜtī.[38] Un tombeau royal de ce genre ne pouvait être placé à vue de tout le monde, dans un cimetière public ou dans l'enceinte d'une mosquée, comme ce fut fait par les Askya pendant tout le XVIème siècle. Si la plupart de ces éléments venaient à se perdre, sans un changement des comportements majoritaires soudanais, la légitimité royale devait en sortir indéfectiblement diminuée : le sachant depuis le début, les Askya essayèrent de se faire investir de la légitimité islamique[39], absente de l'histoire soudanaise du pouvoir jusqu'à ce jour, où Sonni Baro se replia definitivement sur le Dendi.

Mais la mort du pouvoir Sonni, cause et effet d'un changement dans le rapport de forces au sein de l'état songhay, fut aussi la mort de la vieille hiérarchie sur laquelle la dynastie de Gao s'était construite. Le roi-dieu n'était pas l'expression de l'égalité sociale, mais le point le plus élevé de l'échelle humaine, fortement inégalitaire, à l'image des différences dans la puissance, perceptible à

35. Sur la cécité de Basi, cf. A.O. Bakrī, *Description, op. cit.*, pp. 174-175 et sur celle d'Askia Muḥammad, *TF*, p. 155.

36. A.O. Bakrī, *Description, op. cit.*, pp. 175 et 177.

37.- D. T. Niane, "Soundjata ou l'épopée mandingue", *Présence Africaine*, Paris, 1960.

38. *TF*, p. 99

39. J.O Hunwick, "Religion and State..." art. cit., E. Saad, *Social History of Timbuktu*, Cambridge UP, 1983.

être décisive pour l'hégémonie, mais antérieure, et encore moins leurs traits divins.[30]

Hampaté Bâ avait analysé le besoin soudanais d'une médiation entre l'humain et l'au-delà, entre l'individu et la nature, et c'est dans ce cadre où la monarchie guerrière vient se placer : roi par la violence, sa durée à la tête de la société ne peut s'établir qu'en modérant cette violence et en acceptant de devenir un véritable carrefour, de forces, naturelles et sociales.[31] Le roi rouge, guerrier et destructeur, touché par la puissance inhumaine, devient bientôt - tel que l'a signalé De Heusch- un roi assagi, noir et responsable du bonheur et de l'équilibre de la société. Le roi soudanais, toujours dangereux, trône en tant que force socialisée, et le protocole auquel il est soumis n'est pas simplement une adroite manœuvre de l'aristocratie qui essaye de le rehausser en l'isolant -c'est l'avis de Meillassoux[32]- mais la synthèse de la pression sociale et de la force que lui-même symbolise. Même islamisés -parfois profondément- les rois qui avaient sauvegardé ce protocole acceptaient le rôle qui leur était dévolu par la population, profondément païenne. Pour ce genre de roi, il ne fallait même pas de bonnes oeuvres -comme le pensaient par contre les auteurs des *Tārīkhs*- mais simplement c'était suffisant d'être présent, puisque "un prince est assez rehaussé par l'éclat de son pouvoir et de son autorité pour n'avoir pas besoin d'aucune autre parure"[33], tel que le pensaient les gens du Kaniaga.

Un autre trait habituel dans les monarchies soudanaises classiques, c'était la redistribution - toujours inégale et d'après la hiérarchie sociale, mais constante et souvent accompagnée par la destruction systématique- des biens thésaurisés : les Askya, par contre, ne redistribuaient qu'à des couches très précises et leur ostentation arrivait rarement à la destruction des richesses thésaurisées, comme c'était le cas avec les fagots de bois qu'on brûlait tous les jours à la cour de Kumbi.[34] Le roi-dieu, symbôle

30. Le travail de D. Jonckers sur les Minyanka prouverait l'antériorité de la royauté par rapport à l'état: "La sacralisation du pouvoir chez les Minyanka du Mali" in L. de Heusch (ed), *Chefs*, *op. cit.*, pp. 145-164.

31. L. De heusch, *Le roi ivre ou l'origine de l'état,* Gallimard, Paris 1972, traite longuement le processus de socialisation du roi rouge, aspect qui a été repris récemment par A. Anselin, "La Rouge et la Noire. Le paradigme du pouvoir", *Carbet* 8, Fort de France 1989

32. *TF*, p. 72

33. *TF*, p. 72.

34. *TF*, p. 77

Mais, quelles étaient les bases sociales, historiques, des Sonni? Certainement le pouvoir guerrier, renforcé par le contrôle méridional des pistes transahariennes. On ignore, au-delà des légendes fondationnelles à propos de la victoire des étrangers sur le poisson du Fleuve, comment s'établit la monarchie, sans doute bien avant le XIème siècle, où les rois se font inhumer sous des pierres tombales musulmanes, taillées souvent à Alméria (al Andalus).[26] Le texte de Bakrī, vers 1068 B.C., signale alors l'existance d'une ville marchande à Gao et, de l'autre rive du Niger, une ville royale[27] qu'on peut imaginer païenne même si les rois se sont déjà convertis à l'Islam par l'action des commerçants Ibadites, comme le pensait Lewicki.[28] Quoi qu'il en soit, cette monarchie était solidement installée, même pendant la période où elle devint tributaire du Mali des Sakura et Kanku Mūsā, et elle garda toujours sa puissance militaire et économique. Elle nous apparaît comme étant fortement enracinée, avec des liens puissants avec le sud ancestral, du côté de Kukya et le Dendi.[29]

Il n'est pas nécessaire de reprendre Bakrī, Idrīsī, Baṭṭūta ou cUmar pour rappeler les aspects les plus saillants dans le protocole des cours du Ghana, du Sosso, du Mali, ceux qui surprenaient particulièrement les musulmans qu'ils étaient. On nous dit, une seule fois, que la puissance au Wagadu était due à l'abondance en fer dont disposaient les soninké, et on peut penser raisonnablement que l'alliance contre les Sosso put réussir grâce au soutien en chevaux, venus du désert par Méma et Kumbi vers les Maninka de Sundjata. L'alliance avec les marchands du nord pouvait, donc, à l'occasion

---

26. A.O. Bakrī parlait en 1068 du Kanda ou roi de Gao comme musulman: *Description de l'Afrique septentrionale,* traduit par M.G. Slane, 1857-1858, rééd. Paris, Maisonneuve, 1965, p. 183. R. Pageard date les siècles des maliks de Gao entre 1100 et 1265 : "Contribution critique à la chronologie historique de l'Ouest africain", *Journal de la Société des Africanistes,* T. 32, 1, 1962.

27. A.O. Bakrī, *Description op. cit.*, p. 183.

28. T. Lewicki, "Traits d'histoire du commerce transsaharien. Marchands et missionnaires Ibadites au Soudan occidental et central, VIII-XII siècles", *Etnografia Polska,* T. 8, 1964.

29. J. Rouch, Contribution à l'histoire du Songhay *ifan Mémoire,* 23, Dakar 1953; B. Hama, Histoire des Songhay, *Présence Africaine*, Paris, 1968 ; L. Kaba, "Les archers, les mousquetaires et les moustiques : l'invasion marocaine du Soudan et la résistence songhay (1591-1612)", *B. IFAN,* T. 42, B, 1, 1980, pp. 1-36

envers les ᶜulamā` parmi un peuple qui devenait la proie des razzias intérieures et passible d'esclavage du fait de garder la religion traditionnelle.

Si Askya Muḥammad avait ramené la situation vers la bonne voie, ce ne fut pas la voie de tous, puisque "par la protection divine nous avons été comblés des biens et des faveurs, après avoir été dans la gêne et le malheur"[22], et cela ne fut ainsi pour les petits gens ni pour les paysans, taillables et corvéables depuis que l'Askya se sentit rassuré au pouvoir. Parmi les groupes dirigeants, les nobles songhay perdirent aussi progressivement ceux qui étaient leurs privilèges, même dans le protocole de la cour, juste avant leur disparition savamment préparée par le roi : "... " il voulait alors se concilier l'affection de son entourage. Mais quand sa puissance fut affermie et que les affaires publiques eurent pris leur cours normal, ces privilèges ne furent plus maintenus".[23] En fait, la crise dynastique du Songhay avait des bases économiques et idéologiques, car c'étaient deux façons de puissance et de concevoir le monde.

2. Sonni Baro. La mort du dernier roi-dieu

On sait très peu de lui, sauf les courts passages qui lui sont dédiés dans les *tārīkhs*, où le jeune roi enterre son père et s'engage dans le combat.[24] On le voit aussi en campagne militaire aux côtés de son père, Sonni Ali, ou élu par ses troupes après la mort de celui-ci, dans le texte des Kaᶜti. On ignore, même, si la durée de son règne fut de quelques mois ou de deux ans, en pleine guerre factionnelle devant les troupes d'Askya Muḥammad et Amar Komdiago. On soupçonne, néammoins, que ses appuis se trouvaient hors les grandes villes Gao et Tombouctou, ports caravaniers avec des liens solides au désert et au nord du continent. Nous savons, par contre, que la plupart de nobles songhay avec des postes officiels du temps de Sonni Ali sont restés du côté du jeune prince jusqu'à leur défaite finale, peut être parce qu'ils avaient compris que la nouvelle armée cosmopolite de l'empire allait les laisser en marge[25] : les débris de cette aristocratie furent anéantis dans une expédition organisée par l'Askya dans le seul but de se débarasser d'eux.

22. *TF*, p. 10

23. *TF*, pp. 14-15

24. *TS*, pp. 116-117; *TF*, pp. 100-106

25. *TF*, pp. 103-104. Les Za-Bir-Benda ou aristocratie militaire survivante à la bataille d'Anfao entre Baro et Askya Muhammad furent envoyés au massacre en 1505, au Borgou : *TS*, p. 125.

L'action conquérante du dernier Sonni, avec la levée d'une armée beaucoup plus imposante que par le passé, donna le cadre pour le développement ultérieur de cette orientation.[16]

Néanmoins, cela ne fut inévitable qu'après le renversement des Sonni, beaucoup plus liés à la perception classique de l'aristocratie et la royauté soudanaises, car Ali Ber et Baro étaient encore dans la ligne des rois musulmans qui respectaient les limites imposées à leur divinité incarnée. Nulle inévitabilité dans la défaite, après deux ans de combats, du Sonni Baro, replié en roi classique à la région méridionale du Dendi, mais affrontement de la puissante oligarchie urbaine -marchande et musulmane- et des troupes de métier à l'aristocratie et ses troupes songhay.[17] Les textes de Sa^{c}dī et des Ka^{c}ti -d'une partialité notoire- n'arrivent pas à faire le silence sur la popularité des Sonni : "Ce scélérat -je veux parler du chi Ali- était un prince obéi et respecté"[18] ou " dès que l'armée... fut arrivée à Bankei, elle proclama Baro à la place de son pére".[19] Mais le parti marchand et un secteur de l'armée impériale formée sous Ali Ber, avait à son avantage le contrôle caravanier et, donc, la chevalerie, que Goody avait définie comme essentielle pour l'aristocratie guerrière de la savane.

Notre difficulté pour l'analyse -en plus du faible nombre de documents- vient du fait de n'avoir que des auteurs d'un des groupes en conflit, et cela oblige à une lecture presque d'exégèse. Askya Muḥammad nous est toujours décrit vertueux, aux antipodes de son prédécesseur, et pourtant : "Nous avons été le témoin occulaire de la répugnance qu'éprouvèrent les gens de l'époque à croire à la qualité véritable de ce sultan, alors que tous les ulémas étaient d'accord pour dire qu'il était l'un des plus distingués".[20] Les bénéficiaires de la nouvelle dynastie, étaient ainsi les couches urbaines des lettrés et des marchands, ainsi que l'armée de métier, bientôt monopolisée par la famille royale des Askya devenue une véritable classe de pouvoir[21] après l'anéantissement de ce qui restait de la noblesse songhay. Mais il aurait été difficile de croire à la popularité de rois pieux et généreux

16. *TS*, pp. 26 et 82

17. *TS*, p. 117 ; *TF*, pp. 100-102

18. *TF*, p. 94

19. *TF*, p. 100

20. *TF*, p. 24

21. L. Kaba "Les chroniqueurs musulmans et Sonni Ali ou un aperçu de l'Islam au XVIè siècle", *B. IFAN*, T. 40, 1, 1978, pp. 49-65

L'entretien de l'Askya Muḥammad avec le jurisconsulte al-Maghīlī,[9] l'héritage des 24 tribus dites serviles, auquel le *Tārīkh al Fattāsh* dédie de longues pages,[10] ce ne sont que des données saillantes d'un mouvement d'ensemble beaucoup plus vaste : la volonté des groupes citadins haut placés et la nouvelle dynastie de tirer un plus grand profit économique des populations de l'empire.[11] Sans avoir à hésiter sur la sincérité islamique du fondateur des Askya ou de certains de ses successeurs, le recours à la loi coranique en tant que nouvelle source de légitimité sera le changement qui permettra une caution théorique aux nouveaux contenus du pouvoir songhay.[12] Même le rigoriste al-Maghīlī devra nuancer le droit de l'Askya à mettre en esclavage les peuples païens -la majorité- qui habitaient depuis Sonni Ali sous l'état de Gao.

Le contexte dans lequel s'effectua le passage des Sonni aux Askya ne fut pas marqué exclusivement par l'augmentation des effectifs militaires[13] et les charges de l'état, mais surtout par une demande accrue d'esclaves du côté marocain (plantations sucrières) et particulièrement du côté turc (armée), juste au moment où l'or soudanais perdait de son importance pour une Europe qui le négociait déjà aux côtes ouest-africaines et qu'on exploitait à grande échelle les mines d'argent allemandes.[14] Pour le XVème et XVIème siècles, Godinho a signalé les nouvelles routes de l'or vers l'Egypte et les côtes sénégambiennes ou guinéennes, avec une croissance qualitative du rôle joué par les esclaves dans les exportations soudanaises - Songhay et Bornou principalement - vers le nord du Sahara.[15]

---

9. E.H. Ravane Mbaye, "Un aperçu de l'Islam ou réponses d'Al-Maghili aux questions posées par l'empreur Askia Mohammed", *B. Ifant.* 34, B, 2, 1972.

10. *TF*, pp. 19-22.

11. M. Tymowski "L'économie..." *op. cit.*, pp. 15-17.

12. P. Mbow "Intellectuels et pouvoirs politiques dans le monde musulman: exemples mamluk et songhaï (XIV-XVI s.), "*Annales de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Université Cheikh Anta Diop*, pp. 107-124.

13. Néammoins, al.sa^{c}dī signale la formation d'une armée professionelle, *TS* pp. 26 et 118.

14. J. Devisse "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée (XI-XVi)", *Revue d'Histoire économique et sociale,* vol. 50, 3, 1972 ; Z. Dramani-Issifou, *L'Afrique Noire dans les relations internationales au XVIè siècle,* Paris, Karthala, 1982.

15. V.M. Godinho, *O Mediterraneo saariano e as caravanas de ouro. Geografia economica e social do Saara ocidental e central do XV ao XVI secolo,* Sao Paulo, 1965.

est sacrée[4] : employer ce terme pour le Pharaonat ou d'autres monarchies africaines n'a aucune pertinence, car la personne de Louis XIV était aussi sacrée mais pas divine. Et un roi-dieu a un autre rôle social. De ce point de vue, les Kaya Maghan, les Mansa ou les Sonni étaient des divinités régnantes, mais les Askya ont été une rupture symbolique, donc sociale[5]. Si on continue à laisser l'étude des facteurs idéologiques aux écoles symbolistes et à cantonner l'histoire dans des descriptions événémentielles, on aura une compréhension boîteuse des plus importants changements dans la vie des sociétés.

1. Les données de la crise songhay

Les travaux de Bathily ou Lanciné Kaba, parmi d'autres, ont souligné la dimension sociale des changements dynastiques au Songhay, depuis la mort de Sonni Ali Ber, en 1492.[6] Les auteurs des *Tārīkhs* parlent des famines fréquentes, souvent jugées conséquence d'actes moralement punissables sous un angle d'orthodoxie musulmane. Mais il ne faut pas un grand effort des chercheurs pour établir un rapport étroit entre la politique des Askya -visant à faire de la plupart de la population des sujets taillables et corvéables- et les graves pénuries alimentaires[7] des régions alourdies par des impôts en nature démésurés, des populations déplacées pour bâtir des villes comme Kourmina, des villages entiers donnés en cadeaux à des ulama ou des sharif pour leur exploitation à gré. Ce sont des faits constants qui empèchent de croire aux catastrophes naturelles, sauf si une dynastie peut être considérée telle.[8]

---

4. H. Frankfort, *Kings and Goods,* Londres, 1948, place le Pharaonat dans le cadre des monarchies divines africaines, refuse des degrès vers la divinisation et considère simplement sacrées les royautés de la Mésopotamie ancienne.

5. J.O. Hunwick, "Religion and State in the Songhay Empire 1464-1591" in I.M. LEWIS (ed) *Islam in Tropical Africa* ,OUP, Londres, 1966.

6. A. Bathily, *Traits fondamentaux de l'état au Soudan occidental et central au Moyen Age, VIII à XVI siècles,* Khartum UP, 1977; L. Kaba "Le pouvoir politique, l'éssor économique et l'inégalité sociale au Songhay (1464-1591)" *B. IFAN*, T. 45, 1-2, 1983, pp. 1-23; *F.Iniesta* "Origen i formacio dels estats del Sudan occidental, segles VII a XVI", L'Ave., *Revista catalana d'historia* , Barcelona 1983, pp. 28-41.

7. M. Tymowski modère cette estimation et place la chute économique au XVIIè siècle : "L'économie et la société dans le bassin du moyen Niger. Fin du XVIè à XVIIIè siècles", *Africana Bulletin* 18, Varsovie, 1973, pp. 9-64.

8. M. Tymowski, "Les domaines des princes du songhay (Soudan occidental) : comparaison avec la grande propriété foncière en Europe au début de l'époque féodale", *Annales E.S.C.,* 25, 6, 1970, pp. 1637-1658.

Uu aspect de la crise Songhay au XVIè siècle : Les Askya et la fin de la royauté divine
(Relire le *Tārīkh al Fattāsh*)

Ferran Iniesta Vernet
Centre des Etudes Africaines - Barcelone

Ces pages ne sont qu'un court schéma, avec quelques remarques dans un domaine -la royauté divine, mal dénommée sacrée- qui mériterait une plus large et profonde attention, du fait de son poids dans l'histoire africaine au sud du Sahara.[1] Dans le cas à traiter aujourd'hui - le Songhay à la veille de la conquête marocaine -, nos données proviennent des textes en langue arabe, écrits toujours par des musulmans[2], et de quelques bribes de descriptions ethnographiques très éloignées dans le temps et l'espace de la période et la région sur laquelle nous portons à présent. Mais malgré ces limites, on peut obtenir des données en négatif sur le régime social que les Askya s'étaient employés à dissoudre avec une indéniable efficacité : le *Tārikh al Fattāsh* offre, particulièrement, des renseignements inestimables.

Contre l'avis de De Heusch, qui considère la sacralité des monarchies africaines comme un degré supérieur à celui de la magie et inférieur à celui d'une divinisation qu'il juge inexistante en Afrique noire[3], nous suivrons les traces de Frankfort pour qui toute royauté

1. Cl. Tardit (ed) "Princes et serviteurs du royaume", *Sociétés Africaines* 7, Société d'Ethnographie, Paris, 1987 ; A. Adler, *La mort est le masque du roi. La royauté sacrée des Moundang du Tchad,* Paris, Payot, 1982; L. De Heusch, *écrits sur la royauté sacrée,* Bruxelle, Ed. de l'Université, 1987.

2. Pour notre texte, on a empolyé : M. ka^{c}ti, *Tārīkh al Fettāsh* (dorénavant *TF*) traduit par O. Houdas et M. Delafosse, Paris, 1912-1913, rééd. Maisonneuve, Paris 1964 ; al.sa^{c}dī, *Tārīkh as-Sūdān* (Dorénavant *TS*) traduit par O.Houdas, Paris, 1913-1914, rééd. Maisonneuve, Paris 1964.

3. L. De Heusch (éd), "Chefs et rois sacrée", *Systèmes de pensée en Afrique noire* 10, 1987 (publié en 1990) ; voir particulièrement son "Introduction", pp. 7-34.

Soh, Sire Abbas, *Chronique du Fouta sénégalais* (trad. Delafosse et Gadun, Paris, 1913.

Terrasse, H, *Histoire du Maroc* (Vol II), Casablanca, 1950.

Triminghan, J.S., *A history of Islam in West Africa*, London, 1962.

Willis, J-R, The Western Sudan from Moroccan invasion (1591) to the death of Muktar al Kunti In Ajayi et Crowder, *History of West Africa*, London, 1971.

Al Zayāni, *Le Maroc de 1631 à 1812*, Paris, 1886.

Bibliographie sommaire

Richard Gray, *The Cambridge History of Africa*, vol 4 (1600- 1790).

Abun - Nasr, J-M, *A history of the Maghili,* Cambridge, 1975.

Barbot, J, *A description of the coasts of North and South Guinea*, vol. V of *Churchill's voyages and travels*, London, 1732.

Basset, R, *Recherches historiques sur les Maures : Mission au Sénégal*, Paris, 2 vol., 1909.

Bthily A, *Les portes de l'or*, l'Harmattan, 1988.

Boulegue, J, *La Sénégambie du milieu du XVè au début du XVIIè siècle*, Thèse de 3è cycle, Paris, 1968.

Bovill, E.W, *The golden trade,* London, 1968, 2ème édition.

Castries, Comte Henry de-, *Les sources inédites de l'histoire du Maroc,* Paris, 1905-36. 18 vol.

Cour, *L'établissement des dynasties des Cherifs au Maroc*, Paris, 1904.

Curtin, P.D, "Jihad in West Africa-Early phases and interrelations in Mauritanian and Senegal", *J.A.H*, 1972, 12, 11-24.

Jackson J.G, *An account of the empire of Morocco,* London, 1814.

Kane, O, " Essai de chronologie des satigi du XVIIIe siècle", *Bull de l'IFAN*, 1970-32 p755-765.

" Les Maures et le Fuuta-Tooro", *Cahiers d'Etudes Africains*, 1974.

Le Fuuta-Tooro des satigi aux almaami, Thèse de Doctorat d'Etat, 3 vol., Dakar, 1986.

Laroui, A, *L'histoire du Maghreb,* Paris 1970.

Marty, P, *L'émirat des Trarza*, Paris, 1919.

Montagne, R, *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc,* Paris, 1930.

Puigaudeau, O, La route de l'Ouest : Maroc - Mauritanie, Paris, Ed. J. Susse, 1945, 2ème éd. 1962.

Ritchie, C.I.A., "Deux textes sur le Sénégal" (1673-1677), *Bull. de l'IFAN* 1968, 30, 289-353.

Glossaire

Satigi : Titre que portent les rois peuls de la dynastie deeniyanke du Fuuta-Toore que les Ḥassān appellent Oulād Tenkella.

Dammel : Titre porté par les rois du Kajoor, de la lignée de Amari Ngoné Sobel.

Teen : Titre porté par les rois du Bawol de la lignée de Amari Ngoné Sobel.

Barak (ou brak) : Titre porté par les rois du Maalo (appelé Shamama par les Ḥassān).

Tunka : Titre porté par les rois soninke du Gajaaga de la lignée des Baccili.

Gaedy (Gaydy) : Déformation de Caïd.

Kamalinku : Titre porté par l'héritier présomptif des satigi.

Becco : Titre porté par un prince du Waalo.

Lawba : Ce sont des boiseliers, artisans du bois, formant une caste dans la société peule. Ils sont à la fois chasseurs d'éléphants et commerçants.

Fergo : mot peul signifiant *l'émigration* souvent définitive qui aboutit à la création d'un nouvel établissement. Ici, il s'agit d'un campement de réfugiés politiques, non loin des frontières du Fuuta qui attendent la première occasion pour reconquérir le pouvoir.

Macalle : unité de poids soninké pour la pesée de l'or équivalent à 6 grammes. En peul, on dit *minkelde* qui vaut 4 grammes. L'un et l'autre termes dérivent de l'arabe *Mithqāl*, ou gros d'or. Des transformations de ce genre sont très fréquentes quand on passe d'une langue à une autre.

La défaite des marabouts dans la guerre de Shur-Bubba, les a conduits à orienter leurs activités en direction des royaumes du Nord de la Sénégambie (Fuuta-Tooro, Waalo, Jolof, Kajoor) ou Nacer-ed-Din a réussi à renverser les régimes légitimes traditionnels et à instaurer à leur place pendant quatre à cinq ans (1673-1677) un pouvoir de type islamique. C'est avec le concours des émirs du Trarza et du Brakna que les rois légitimes ont pu reconquérir leur pouvoir.

La défaite des Zawāya a été suivie par une persécution de courte durée contre les marabouts en particuliers au Waalo et au Kajoor. Dès lors, les rois traditionnels tout musulmans qu'ils soient, considèrent les marabouts comme une menace permanente pour le pouvoir et ne manquent aucune occasion pour réprimer les mouvements maraboutiques. Leurs appréhensions étaient fondées, car les marabouts au Fuuta-Tooro ont profité de la crise généralisée du régime deeniyanke pour renverser les satigi en 1776 et instaurer un régime de type théocratique, basé sur les principes islamiques.

Curieusement, les invasions marocaines ont laissé des traces durables dans la population. En effet, il existe dans la société toucouleur du Fuuta-Tooro, un groupe social appelé *Safalbe taagankoobe*. Ces groupes sont d'origine maure, berbère ou arabe. Ils ont été assimilés ethniquement, linguistiquement et culturellement par la société peule où ils ont été intégrés. Mais ils conservent le souvenir de leur ascendance marocaine *(Horman)* et *Lamtūna* (taaga).

fort où nous avons appelé Siratique Sambaguelague".[64] Les Arabes du Galam dont il est question, sont probablement les Oulad en-Nasir ou les Oulād Sidi Maḥmoud. La troupe des Hormans qui opérait dans le Kaarta était sans doute le résidu d'une ancienne expédition qui a fini par travailler pour son propre compte. Elle semble différente de celle d'El Bech et de celle de Cy Mouhamet b. Abdala signalée plus haut. Toujours est-il que c'est grâce à cet appui négocié par les Français que Samba Gelaajo-Jeegi a pu reconquérir le trône du Fuuta sur Konko.

Conclusion

A partir de 1741, les sources mentionnent de moins en moins les Marocains. Les Ḥassan du Bilād Shinguitti reviennent au premier plan dans les relations avec le Fuuta.

En dehors de leurs relations normales, plus ou moins pacifiques, le Maroc et les pays riverains du Sénégal ont été également confrontés à des problèmes de même type. Comme le Maroc, les pays riverains du Fleuve Sénégal ont vu l'émergence de mouvements maraboutiques pendant les périodes de crise et d'affaiblissement de l'Etat. Ces mouvements maraboutiques, dirigés par les Zawāya, tentent de se substituer au pouvoir légal traditionnel ou d'imposer un code de conduite aux souverains dont la politique est jugée peu conforme à l'éthique islamique. Ces mouvements expriment le mécontentement populaire et essayent de le canaliser vers la conquête du pouvoir.

Ainsi, après la mort de Moulāy Aḥmad al-Manṣūr, les Berbères de l'Atlas et les Arabes nomades ont contesté le pouvoir des Saadiens et constituent des zones de dissidence à l'égard du Makhzen.

Moulay al-Rachīd, le vrai fondateur de la dynastie ᶜalaouite a eu beaucoup de peine à réprimer le mouvement de Dalā'iyya entre 1660 et 1668 qui a été un des principaux obstacles à sa politique de réunification du Maroc qui s'était désintégré à la suite de l'anarchie qui a suivi la mort de Moulāy Aḥmad al-Manṣūr.

C'est ce qui a poussé Moulay al-Rachid et son frère Moulāy Ismāᶜīl (1672-1727) à soutenir les émirs du Trarza et du Brakna dans leur lutte sans merci contre le mouvement zawaya Tashomsha, dirigé par Nacer-ed-Dīn qui tentait de moraliser la vie des guerriers ḥassān.

---

64. C6-11 du 15 février 1738. Extrait d'une lettre du Conseil de Galam au C.S.D.

trouvent dans le Bundu, par l'attachement indéfectible des Soninke à la cause de Konko et par la haine inexpiable qu'ils vouent à Samba Gelaajo-Jeegi et à sa famille. Saint-Adon, chargé de négocier l'intervention des Hormans contre Konko, écrit avec amertume: "Tous mes soins étaient inutiles. J'ai écrit au camp des Hormans d'avancer".[58] Saint-Adon est paralysé surtout parce que le camp des Hormans tant attendu du Maroc, n'est finalement pas venu, au point qu'il ne guère faire intervenir les Marocains contre Konko "qu'à la basse saison prochaine c'est-à-dire entre décembre 1737 et juin 1738.[59] De son côté, le Conseil Supérieur de Direction tente de fomenter une coalition entre Marocains et Brakna contre Konko. Il semble avoir persuadé "la Nation Ebracna[60] qui peut avoir 3 à 4.000 combattants dans le même temps attaquer les Foules à cause de plusieurs griefs qu'ils ont contre Conco. Le chef de la Nation nous fait assurer qu'ils étaient prêts à se porter du côté que nous souhaiterions. Les Maures nous serviront utilement parce qu'en même temps ils serviront leur ressentiment. Nous les ferons joindre aux Ormans.[61] Au même moment, le Conseil Supérieur de Direction veut négocier l'assassinat de Konko avec un chef de fraction des Maures "parti bleu" qui doit se réfugier au fort de Saint-Joseph en novembre 1737.[62]

C'est finalement au début de l'année 1738 que la Compagnie renonça aux services d'un nouveau camp de Marocains dont l'arrivée était annoncée depuis plus d'un an. "Nous sommes plus portés, dit le Conseil Supérieur de Direction, à engager une petite troupe déterminée qu'à entreprendre une guerre ouverte". La Compagnie parvient à monter une coalition formée de Brakna qui sont contactés à l'escale de Donnay[63] "et d'une troupe d'Ormans qui était du côté de Bambarana et quelques tribus arabes du côté de Galam. Et à la fin nous sommes parvenus à rassembler les uns et les autres auprès du

---

58. C^6-11 du 25 mars 1737. Lettre du C.S.D., f. 7 et 10 et C^6-11 du 22 juillet 1737. Lettre de Saint-Adon.

59. C^6-11 du 2 août 1737. Lettre du C.S.D., f. 5 V°.

60. Ici le terme de "Nation" désigne la Confédération des tribus du Brakna : guerriers, marabouts, znaga et haratines réunis. Elle est dirigée par Oulad Abd Allah qui sont des guerriers. D'une façon générale, le terme de "Nation" peut être synonyme de peuple.

61. C^6-11 du 2 août 1737. Lettre du C.S.D., f.5 V°.

62. C^6-11 du 14 août 1737. Lettre du C.S.D aux Directeurs, f.2.

63. C^6-11 du 28 mai 1738, fol. 2.

Marocains ou Hormans. Finalement, les Marocains se retrouvent à leur tour divisés en deux camps hostiles "dont l'un est celuy d'El Bech qui correspond directement à Maroc ; et l'autre celui de Cy Mouhamet b. Abdala qui est un camp marron".[54] Le camp de Cy Mouhamet b. Abdala est un camp dissident. Il est établi au Fuuta et a d'excellents rapports avec Konko. Il a déjà battu en 1736 El Bech qui a trouvé refuge chez les Oulād ^{c}Abdāllah, c'est-à-dire au Brakna. "Il y est comme dans une prison d'où il ne peut sortir par le petit nombre de soldats qui lui reste et par un embarras de 30 quintaux d'or dont son premier écrivain m'a assuré qu'il était chargé".[55]

Ces "30 quintaux d'or" sont le fruit de trois années de pillages et d'exactions. Le séjour prolongé (trois ans) de ce camp loyaliste dans la région explique le peu de soldats qu'il en reste, la majeure partie ayant péri dans les guerres et par les maladies. Il est possible aussi que le camp dissident ou "marron", ne soit arrivé que plus récemment. N'étant pas lié au sultan du Maroc, il vise à confisquer tout cet or à son profit. El Bech ne peut attendre son salut que de l'arrivée d'un nouveau camp loyaliste du Maroc.

L'arrivée de ce nouveau camp d'environ 2.000 hommes est d'autant plus probable que les troubles ont pris fin au Maroc avec "la mort de Moulé Abdala et l'élévation au trône de Moulé Ally".[56] Dans l'état actuel des choses, la seule personne capable de servir la vengeance de la Compagnie contre Konko est Cy Mouhamet b. Abdala avec qui la Compagnie n'a pas de rapports commerciaux, et qui se trouve être l'ami particulier de Konko. "Personne, ici, dit Saint-Adon, n'est capable de négocier le départ des Guaydis du pays des Foules... où Conco le tint à gros frais".[57]

Au demeurant Cy Mouhamet B. Abdala n'a qu'un ennemi qu'il ne quitte des yeux, c'est El Bech. Les projets de Saint-Adon semblent compromis par le renforcement de l'alliance entre Konko, les Hormans et les Soninke(Baccili et marabouts réunis), par l'assassinat de quelques Hormans par les réfugiés du Fuuta qui se

---

54. C6-11 du 1er mars 1737. Lettre de Saint Adon au Conseil Supérieur de Direction, f. 4, R° paragraphe 3.

55. Cette indication que je trouve exagérée et celle qui concerne le rachat des Soninke en 1734 donnent une idée de l'importance des quantités d'or que les Marocains tirent de la région et expliquent les éxpéditions annuelles organisées à partir du Maroc.

56. C^{6}-11 du 1er mars 1737, f. 5 V°.

57. C^{6}-11 du 1er mars 1737, f.5 V°.

en tuant un grand nombre, et leur arrachant leurs enfants par dessus le marché.[50]

Thomas Pellow prétend qu'au cours de leur première expédition sur le fleuve Sénégal, les Marocains y trouvèrent un bateau français de 80 tonnes, avec un équipage de 12 hommes qu'ils arraisonnèrent et tirèrent sur la berge. Notons que ni le *Journal Historique* ni la *Suite du Jounal Historique*, couvrant la période du 1er septembre 1729 au 31 août 1731 ne mentionnent cet incident. Cela nous incite à la prudence à propos des affirmations de Thomas Pellow, d'autant que les Marocains prenaient comme esclaves tout à la fois, hommes, femmes, et ne se contentaient pas seulement des enfants.

Nous avons peu de renseignements sur les Maures entre 1731 et 1736. C'est à peine si en 1734, on signale que "le royaume des Foules est presque abandonné" à cause des fréquentes incursions des Maures.[51] En janvier 1736, on mentionne que "les *Darmancaux* renouvellent leurs chicanes contre la Compagnie" et qu'une guerre a éclaté entre le Waalo et le Brakna.[52]

Mais dès la mort de Bumusa en 1733, l'entrée en scène de Konko Bumusa marque un tournant dans les relations entre les Maures et le Fuuta. Les Maures participent aux luttes intestines qui opposent les clans rivaux pour la conquête du pouvoir. Ils sont même divisés entre les clans. La volonté de la Compagnie de se venger de Konko la conduit à impliquer davantage les Maures dans les luttes dynastiques du Fuuta. Le Conseil Supérieur de Direction a décidé de faire attaquer Konko par les Marocains : "Nous avons donné ordre au Directeur du Département de s'aboucher avec le chef des Ormans, le porter à chasser Konko du pays des Foules à guerre ouverte".[53] Dans la lutte pour le pouvoir que se livrent Konko Bumusa et Samba Gelaajo-Jeegi, les Marocains ou Hormans peuvent s'allier avec les différents concurrents selon leurs intérêts du moment. La lutte est imminente entre les deux clans rivaux. Celui de Konko est soutenu traditionnellement par les Soninke, tandis que Samba s'appuie sur les gens du Bundu. Chacun des clans cherche à s'attirer le soutien des

50. Adventures of Thomas Pellow of Penryn - London, Fisher Uniwin, 1890, ch. VIII, p. 195-196.

51. C6-11 du 8 octobre 1734. Mémoire sur la Concession du Sénégal, p. 13.

52. C6-11 du 27 janvier 1736. Lettre du Conseil Supérieur de Direction, art. 5 et 6.

53. C6-11 du 26 décembre 1736. Lettre du Conseil Supérieur de Direction f. 4.

Malgré l'insécurité générale liée à la présence des Marocains, le Commandant de Saint-Louis envoie Grosbert négocier avec Amar Agjeyyel successeur de Ali Chandora à la tête du Trarza en 1727, "pour l'engager s'il est possible à tomber sur le païs de Brak qui n'a pour lui que ses valets, car les grands ne sont pas contents de cette guerre qui ruine tous les pauvres".[49] Il s'agit vraisemblablement d'un conflit qui a éclaté entre la Compagnie et le Barak à propos du refus de celle-ci de payer des coutumes ou de sa tentative de les réduire. Au risque d'aggraver la situation déjà peu reluisante, la Compagnie tente d'armer le Trarza contre le Waalo. Au mois de janvier 1731, la situation se dégrade sérieusement, lorsque le *Dammel* Maissa Teinde Wedj livre à Amar Agjeyyel des Maures `āl-Khalīfa réfugiés dans son pays. Il se forme alors une coalition composée de Maures `al-Khalīfa, du *Satigi* du Fuuta et des Marocains "pour mettre Guiomaye Maxureja Maxureja Mbenda Basin Suur, parent du Damel, sur le trône du Cayor". Cette coalition demande au *barak* l'autorisation de traverser son territoire pour s'attaquer au Kajoor. "Il y a toute apparence, poursuit l'auteur de la *Suite du Journal Historique*, que "Brak s'y opposera de toutes ses forces, n'estant pas de son intérêt de laisser mettre aux Maures les pieds chez Luy. Il est vray que le païs seroit perdu, si les Maures estoient en Cayor et le commerce de la Compagnie semble oublier les griefs qu'elle formulait tantôt contre le *barak* et semble se préoccuper d'éviter le pire et d'encourager donc le *barak* à résister".

C'est Thomas Pellow qui donne le plus de détails sur les expéditions que le sultan du Maroc organisait annuellement en direction de Shinguitti et du fleuve Sénégal. Thomas Pellow participe à celle de 1730 qui, forte de 12.000 chameaux au départ, finit par comprendre 30.000 à son arrivée à Shinguitti. C'était une expédition mi-militaire, mi-commerciale. Le sultan était représenté à Shinguitti par un gouverneur qui rassemblait le produit des pillages et du tribut levé pendant le séjour d'une caravane en côte de Guinée. A l'arrivée de la nouvelle caravane, l'ancienne se retirait avec son butin laissant la place aux nouveaux venus.Thomas Pellow raconte comment les Marocains firent trois expéditions de suite sur la vallée du Sénégal sans rencontrer la moindre résistance.

Les populations avaient de la sorte à choisir entre obtempérer aux exigences exorbitantes du tyran ou endurer les durs pillages de l'armée, dépouillant les pauvres nègres de tout ce qu'ils possèdaient

49. S.J.H. , in V. Martins et Ch. Becker, 1977, p. 255, 9 novembre 1730.

importants que les avantages. La rançon payée par les Soninké en 1724 prive la Compagnie et ses employés d'une quantité importante d'or. En outre, les navires de la Compagnie sont fréquemment agressés par les Marocains. Ainsi, le 14 juillet 1725, les doubles chaloupes *l'Intrépide* et le *Prompte* ont été attaquées à *Jaarangel*. Les navires ne doivent leur salut qu'à l'intervention de Samba Gelaajo Jeegi qui, devenu *satigi* grâce aux Hormans, essaie de défendre ses intérêts auprès de Saint-Louis.[44] C'est la raison pour laquelle la Compagnie fait miroiter à Samba l'idée de l'élévation d'un fort dans le Fuuta. Ce fort serait pour son royaume ce que celui de Saint-Joseph est pour le Gajaaga. "Samba serait charmé d'avoir un asile pour se réfugier lorsqu'il serait repoussé par les Maures Marocains".[45]

Plumet conteste l'utilité de l'édification d'un fort dans le Fuuta qui "n'empêcherait pas que les Marocains ne fissent le même ravage dans le pays qu'ils font actuellement... Le fort de Saint-Joseph, dans la province de Galam n'a pas empêché que les Marocains n'ayent mis tout le pays en contribution et qu'ils n'ayent fait des *Saracollets* ce qu'ils ont voulu".[46]

L'année 1726 est marquée par une chaude alerte. A la fin juin, les Hormans sont encore dans le Fuuta à l'affût des barques qui doivent monter au Gajaaga. La Compagnie est prévenue par Samba Gelaajo Jeegi qui, décidément joue la carte des Français.

L'alarme est d'autant plus sérieuse que dans le Gajaaga, on répand le bruit que les Hormans ont envahi le Waalo et le Kajoor et qu'ils s'apprêtent à s'attaquer à Saint-Louis. Levens menacé lui-même par les Hormans dans le Gajaaga craint de ne pouvoir recevoir des secours de Saint-Louis.[47] Nous disposons de peu de renseignements entre 1727 et 1731. Mais le 3 mars 1731, "Les Ormans sont tombés dans le pays de Galam et ont pris quantité de Nègres captifs et brûlé les villages, ce qui va causer une grande disettes de vivres dans ce paîs".[48]

---

44. C^6-9 du 7 avril 1726. Mémoire de Demien sur l'élévation d'un fort dans le pays de Foule, Rivière du Sénégal, f. 2. R°.

46. C^6 du 26 janvier 1726. Lettre de Plumet au Directeur f. 10 V°. Les archives sont apparemment mal classées. Ce texte devrait plutôt figurer dans le carton 9.

47. C^6-10 du 7 juillet 1726. Lettre de Plumet, f. 6 v° et 7.

48. C^6-10 du 7 mars 1731. Lettre de Lebègue au Commandant du Sénégal, fol. 2.

l'intelligence qu'ils avaient avec le général du Roi du Maroc qu'ils avaient attiré le 6 juin 1724, celle avec Samba Guelague, prétendant à la couronne des Foulles".[40]

Le début de l'année 1725 est marqué par une généralisation de la guerre dans la basse vallée du Sénégal, ce qui inquiète beaucoup Du Bellay, en raison des difficultés de ravitaillement qu'éprouve Saint-Louis. Il s'agit de la poursuite de la guerre que continuent de se livrer le Brakna et le Trarza alliés aux Waalo. Ali Chandora dans ce conflit est soutenu par les Hollandais. Par ailleurs, les frères ennemis, le *Dammel* du Kajoor et le *Teeñ* du Bawol, sont en conflit ouvert, "sollicités qu'ils sont" par les marabouts des pays qui ont l'oreille entière des princes qui les regardent en partie comme des prophètes et des prédestinés en ce monde".[41]

Il est difficile de saisir la portée de cette remarque d'autant que l'on a tendance à croire que depuis la fin de la guerre de *Shur Bubbah*, les marabouts sont en perte de vitesse dans le pays *wolof*. Les marabouts interviennent dans l'éclatement des conflits, en raison peut-être de leur place comme secrétaires des princes, conseillers en matière de religion et comme fabricants de gris-gris à l'éfficacité desquels on croit fermement.

La présence des Marocains dans le Fuuta et l'expédition annuelle qu'ils font sur le Gajaaga rendent précaire le commerce dans le "Département du Sénégal". Tous les ans, ils viennent" rançonner les Sarracolets, descendent sur le fleuve, ravagent tous les endroits où ils passent...".[42] Ils perturbent la traite des esclaves et le commerce de l'or, par les razzias qu'ils opèrent et les tributs qu'ils lèvent sur les populations du Gajaaga, du Fuuta et du Jolof. Les rois, après leur passage, sont démunis de tout, au point de n'avoir rien à offrir aux François de Saint-Louis. Aussi Saint-Robert envisage-t-il "de semparer des mines d'or du Galam par une armée de Blancs pour faire pièce à l'invasion annuelle des Marocains. C'est le plus grand service que la Compagnie puisse rendre à tous les Maures et les Nègres que de chasser les Marocains qui sont leurs plus grands ennemis".[43] En fait, c'est à elle même qu'elle rend un insigne service si elle parvient à éliminer les Marocains de la région. Car les inconvénients des dévastations marocaines sont pour elle plus

40. C^6-9 du 10 juillet 1725. Compte rendu de Levens sur ce qui se passe au Galam depuis le 4 août 1724.

41. C^6-9 du 21 janvier 1725, lettre de Du Bellay, f. 5 R° paragraphe 1.

42. C^6-9 du 18 juin 1725. Rapport de Saint-Robert, f. 76 R°.

43. C^6-9 du 18 juin 1725, f. 76.

même pas laissé un grain mil".[37] Il semble, à travers ce témoignage, que les Maures de la région sont aussi alliés des Marocains. Samba Gelaajo-Jeegi qui cherche des alliés pour conquérir le trône des *Satigi*, se met au service du caïd et sert d'intermédiaire entre lui et le commandant du fort.

Ce dernier refusa catégoriquement d'obtempérer aux demandes du caïd qui, fort de son succès sur les Soninké, pense pouvoir imposer un tribut au fort de Saint-Joseph. A la suite des négociations qui ont duré près d'une semaine, le commandant du fort permit au caïd de traverser le fleuve pour faire un pillage au Bundu et au Bambuk, sous la conduite de Samba Gelaajo-Jeegi, du 13 au 15 juin 1724. Selon Charpentier, ils furent repoussés avec pertes "car ils s'en revinrent avec un nombre infime de bestiaux qu'ils avaient pillé, n'ayant pu faire davantage cette fois, remettant la partie à la basse saison prochaine".[38] Cette attitude de Samba contribua à lui aliéner les Soninké pour de bon. Même ses partisans qui vivaient autour du fort en furent chassés par le commandant de cette place. Le bilan de la campagne des Hormans dans le gajaaga est lourd : 1.300 prisonniers de condition libre qui furent rachetés pour 13.000 *macallé* d'or, à raison de 10 *macallé* par personne, ce qui fait "19.500 gros d'or à 11/2 gros le macalle". En attendant que la rançon fût payée, le caïd retint en otage le grand marabout de *Gunjuru* et celui de *Gongalle* (*Tamboumaria* et *Jaabe*) et quelques notables du "bas païs " dont Sileymaan Jaara et Bukary de Lanel. C'est une quantité relativement très importante d'or (environ 78 kg) que les Soninké, en particulier les marabouts, ont dû débourser pour racheter la liberté des leurs. On conçoit aisément pourquoi les sultans du Maroc continuent à envoyer périodiquement des troupes dans ces régions.

Comme si les malheurs consécutifs à la campagne de juin 1724 ne suffisaient pas, déjà en octobre de la même année, Levens signale que "Gaedy commence à envoyer de petits détachements et son armée dans ce pays pour disposer les Roys à lui payer une coutume".[39] Levens semble se réjouir de la perspective d'une bonne traite de captifs, car cette menace poussera "les Nègres à se défaire de leurs captifs." Les populations du Gajaaga ne sont pas dupes de la collusion entre Français, Marocains et Fulbe de Samba Gallajo-Jeegi. Les rois et les grands du Gajaaga sont mal disposés contre les agents de la Compagnie" sur ce qu'ils avaient ruiné le royaume par

37. C^6-8 du 20 juin 1724, f. 3, R° paragraphe 1.

38. *Ibid.*, f.5 V°, paragraphe 3.

39. C^6-8 du 22 octobre 1724. Copie de la lettre de Levens à Du Bellay, f. 1.

L'inquiétude est grande chez les agents de la Compagnie à Saint-Louis comme à Saint-Joseph. En effet, Charpentier, en octobre 1722, écrit pour annoncer que les Hormans ne sont plus qu'à 30 lieues du fort et qu'"ils ont déjà fait payer contribution aux Maures d'Ahéré, ils en veulent à ce pays, le croyant plus riche qu'il n'est ; on les appréhende déjà, on tremble à leur nom ; il est certain qu'ils viendront dès que les eaux leur livreront le passage".[34]

La panique s'empare des populations de Gajaaga. En effet, les projets des Marocains se précisent en 1724, l'année 1723 étant apparemment marquée par une pause dans les hostilités. Il se peut que le contigent venu avec Ali Chandora soit déjà décimé et que l'on attende un autre camp. Dès mars 1724, Charpentier reçoit à Saint-Joseph un envoyé du caïd des troupes marocaines qui réclame un tribut. C'est parce que cette demande a été rejetée que les Marocains s'attaquent sans succès au fort de Saint-Joseph. Après cet échec, ils partent piller le Bambuk d'où ils sont repoussés avec pertes.[35] Le Gajaaga qui n'avait pas les moyens de défense du fort de Saint-Joseph, fut une proie facile pour les Hormans qui, pour la circonstance se sont allié avec les Fulbe du Fergo de Samba Gelaajo-Jeegi. Selon Pierre Charpentier, Caedye (le caïd), après avoir essuyé le refus du chef du fort de payer la coutume, a "envoyé des sergents dans presque tous les villages de Galam pour demander coutumes que quelques-uns lui ont donné, d'autres l'ont refusé même avec mépris, de quoy ils auront tout le temps de se repentir". Allié avec Samba Gelaajo-Jeegi ennemi traditionnel des Soninké, le caïd rançonna les 4 et 5 juin 1724 tout le district de Kaignoux à Dramanet et "ravagea entièrement", "*Congniour Gongalle*, *Diacandape Tamboucany*, *Ambidery*, *Gagny* et *Macayancaré* et tous les autres villages circonvoisins".[36]

Tous les villages furent mis en coupe réglée entre le 6 et 7 juin 1724. Ce fut pour la région un véritable désastre, car "tout fut pillé, hommes, femmes et enfants, libres et captifs, pris et liés, chevaux, bœufs, moutons, cabricques, pagnes et lait, généralement fut ramassé par neuf ou dix milles arabes qui sont à la suite de l'armée, qui n'ont

34. C6-7 du 12 octobre 1722. Lettre de Charpentier à Saint-Robert datée de Galam, f. 13.

35. C6-8 du 25 mai 1724. Lettre de Julien Du Bellay, f.9, art. 23).

36. C6-8 du 20 juin 1724. Relation du projet de Gaedy, chef des Hormans ou Saltins de faire payer la coutume au fort de Saint-Joseph en Galam comme aux Nègres du pays par Pierre Charpentier, F.1, R° V° f.2 et 3 R°, paragraphe 1.

champ de bataille beaucoup de morts en plus des "tentes, des bagages, des chevaux et armes dont Ali Chandora a fait part du butin à Brac et Bequio".[29]

Parmi les prisonniers, il y avait trois princes Brakna qui furent échangés contre deux des femmes du Brak captives du petit groupe des Hormans rentrés au Fuuta. Cette défaite du Brakna devant Ali Chandora met fin à la dépendance du Trarza vis-à-vis du Brakna et consacre aussi l'alliance traditionnelle Trarza-Waalo. Cette guerre va se poursuivre, car les Oulād ᶜAbdallāh n'ont jamais admis l'indépendance du Trarza. Cette guerre où les pillages et les raids étaient fréquents, dura jusqu'en juin-juillet 1723. Du Bellay entre dans le conflit aux côtés d'Ali Chandora puisqu'il donna au bateau *le Brave* la mission "d'arrêter par surprise les nommés Omar Ayba et Eli Ahmed chefs Maures Ebraquena qu'Ali Chandora demande".[30]

La guerre entre Trarza et Brakna semble tourner au profit du premier.

Malgré la déposition de Bumusa et le retour de Bubakar Sire en mai 1722 du fait des Hormans, le pays n'a pas retrouvé la paix. Du Bellay note que les "bœufs sont rares en Rivière, parce que le pays des Foules est presque abandonné par les Hormans qui y font continuellement contribuer".[31] Ils destituent ou placent sur le trône qui bon leur semble parmi les prétendants, "car les Hormans les déposent presque tous les ans".[32] En effet, Samba Sire est porté au pouvoir en août 1724, puis destitué au profit de Bumusa en octobre 1724. Samba Gelaajo-Jeegi renverse ce dernier grâce à l'aide des Hormans à la fin de la même année ou au début de l'année suivante.

Toujours est-il qu'à la fin de 1724 "les Marocains ou Saltins sont dans le pays des foules", qu'ils peuvent insulter et prendre les traitants en rivière comme ils l'ont fait en 1718.[33]

Une fois le Fuuta mis en coupe réglée, les Hormans se déplacent vers l'Est et menacent le Gajaaga.

---

29. C^6-7 du 16 juillet 1722, f.2, V° chap.2
30. C^6-7 du 1er juillet 1723. Lettre de Du Bellay à le Cordier f. 1 art. 2 et p.5.
31. C^6-7 du 18 décembre 1723 fol. 15 R°, chap. 4.
32. C^6-8 du 18 décembre 1724, f. 11, art. 24.
33. C^6-8 du 18 décembre 1724. Lettre de Du Bellay 120è et dernière pièce, f.5, R° chap.2.

semblent pas avoir convaincu le Chérif qui avait pris l'habitude d'envoyer dans cette région pour se procurer de l'or et des esclaves et pour rappeler aux princes Ḥassān la souveraineté chérifienne sur leurs émirats. Nous apprenons par la même occasion que les Hormans, ceux-là même qui avaient placé au pouvoir Bubakar Sire, ont été défaits "par deux fois" par les Bambara chez qui ils étaient partis faire des pillages en 1719. Cette double défaite de l'armée du Maroc et les effectifs volontairement exagérés qu'alignerait la coalition du Waalo, du Kajoor et du Bawol n'impressionnent pas davantage le Chérif. En effet, malgré les assurances données à Mokhtar Gaku par le Chérif qu'Ali Chandora n'aurait pas de troupes, ce dernier revient avec un contingent de 500 soldats au plus, ce qui suffit pour détrôner Bubakar Sire et mettre Bumusa à sa place. Mais par rapport au nombre avancé, la mission de Mokhtar Gaku a été un succès.[26] Au demeurant, ces interventions répétées des Marocains au Fuuta n'empêchent pas les Maures du "bilad Shinguitti" de faire des pillages dans le pays, au point de provoquer le dépeuplement de certaines régions, et l'émigration des Lawbe en particulier.[27]

Le retour de Ali Chandora est marqué par la recrudescence des pillages. En effet, Charpentier, de retour à Saint-Louis le 27 janvier 1722 après quarante jours d'absence, annonce que les Hormans "ont entièrement pillé" le Fuuta.

Le 13 février 1722, on apprend l'invasion du Waalo par "les Hormans au nombre de 200 à 250 avec environ autant d'Arabes du pays de Foute". Les Hormans et Oulād ᶜAbdallah alliés se sont "rendus maîtres de Panier Foule", c'est-à-dire de la région du lac de Guiers.[28]

La présence des Marocains aux côtés de Ali Chandora et son frère as-Sharqi dans le Waalo et dans le Fuuta inquiète les Français et suscite une coalition entre les Brakna et un groupe d'Hormans dissidents dirigés contre le chef du Trarza. A cette coalition forte de 1.300 hommes (1.200 Brakna et 100 Hormans), Ali Chandora réussit à opposer une force composée de ses propres troupes renforcées par des contingents fournis par le *barak* et *becco Malikury*. Grâce à l'appui de ces derniers, la coalition Brakna-Hormans fut défaite : les Hormans exterminés et les Brakna contraints à la fuite laissent sur le

26. C^6-6 du 24 mai 1721. Lettre de Saint-Robert, F. 13, art. 74.

27. C^6-6 du 28 mars 1721, f.20, V°, chap.3.

28. C^6-7 du 3 mai 1722. Duplicata n° 2 d'une lettre de Julien Du Bellay, F.2 et 3.

Au moment même où ces Marocains écument le Fuuta et le Gajaaga, Ali Chandora est repoussé par les Oulād Dellim jusqu'à la latitude de Portendik.[20] En même temps, il entre en conflit avec les Brakna dont il tient à rejeter la tutelle. Tout cela le pousse à faire le voyage du Maroc en 1720, pour demander le secours du sultan contre ses ennemis Oulad Dellim et Brakna. De la sorte, il renoue avec une tradition déjà établie par son père Hadi.[21] Dans la controverse qui suivit le départ de Brüe, on apprend que ce dernier avait fait conclure par Bothavant un traité d'alliance avec Ali Chandora" pour engager ce chef maure à faire venir une armée du Maroc dans le pays d'Oual" (Waalo), probablement pour régler un contentieux qu'il avait avec le Barak. Brüe a fait courir le bruit de l'arrivée d'une nouvelle armée de Marocains.[22]

Le retour d'Ali Chandora est annoncé pour le mois de novembre 1721; il est attendu avec une armée forte de 9.000 hommes sous le commandement d'un caïd *(gaédy)* qui reçut la consigne de ne retourner au Maroc qu'avec l'accord d'Ali Chandora.[23] En même temps un agent de la Compagnie à Saint-Joseph écrit à Saint-Robert "qu'il venait d'apprendre qu'il y avait dans le Nord du pays de Fout 15.000 Marocains. Cette nouvelle était confirmée par d'autres sources.[24] L'annonce de la prochaine arrivée d'Ali Chandora provoque la panique parmi les populations maures et nègres riveraines du fleuve. Le commandant du fort Saint-Joseph s'approvisionne en vivres et en mil, tandis qu'il vend des armes et de la poudre au *Satigi* Bubakar Sire. Ce dernier est d'autant plus inquiet qu'il avait envoyé au Maroc, sur les conseils de Saint-Robert, Mokhtār Gaku (son fils aîné) pour dissuader le chérif de prêter main-forte à Ali Chandora. Même si les projets immédiats de ce dernier sont de chasser les Oulad Dellim du Trarza et de détrôner le barak en titre pour replacer sur le trône *Caakafara*, il est certain que le Fuuta ne serait pas épargné, car *Satigi* Bubakar Sire sait "que les Marocains ne pouvaient venir chez Brac, sans passer dans son royaume, qu'ils n'avaient déjà que trop pillé et désolé, et les connaissent pour gens qui pillent également l'ami comme l'ennemi".[25] Tous les arguments invoqués par Mokhtār Gaku ne

20. C^6-5 du 3 octobre 1719. Lettre de Brüe, fol.5.
21-.C^6-6 du 4 mai 1920. Lettre de Brüe, f.3, R°, chap.2.
22. C^6-6 du 28 mars 1721. Lettre de Saint-Robert, f.12.
23. *Ibid.*, fol., 1, R°.
24. C^6-6 du 28 mars 1721, fol.12.
25. C^6-6 du 28 mars 1721, f.15, R°, chap.3.

marocaine dans le Gidimakha.[13] Ces Marocains menaçaient donc le Gajaaga et les positions des Français à Saint-Joseph obligeant de la sorte Violaine à se mettre sur ses gardes, bien que par l'intermédiaire de "Chek Mehemed Labe, des Maures d'Ahéré", ils souhaitassent vivre en bonne intelligence avec lui.[14]

A partir du Hayre, l'armée marocaine a submergé les pays voisins. Ils ont, pour reprendre les termes d'A. Brüe, mis tout le royaume de Foute à contribution ; ils ont étendu jusqu'au Galam et au pays des Bambarana, mais ils ont extrêmement traversé le commerce de la rivière.[15] Ces Marocains ou Hormans projettent de s'attaquer à Saint-Joseph à leur retour du Bambara".[16]

A propos du nombre des Marocains qui opèrent dans les pays riverains du fleuve et plus particulièrement dans le Fuuta, une controverse est intervenue entre Brüe et son succcesseur Saint-Robert. Ce dernier estime que les Marocains commandés par un Gaédy, "n'ont jamais été que 5.000". Mais c'est tout de même suffisant pour mettre le Fuuta à feu et à sang". Il conteste les accusations de Brüe contre Bubakar et note que la convention passée entre Brüe et le Satigi est inapplicable ; en effet, il était impossible au Satigi de livrer "cent Maures du Maroc" à la Compagnie. "Siratique qui a toujours été esclave des Maures, qui s'est trop tard repenti de les avoir appelés à son secours puisque après l'avoir mis sur le trône, ils l'ont pillé et tout son pays, où ils ont été à discrétion jusqu'à leur départ".[17]

Bubakar Sire se refuse à attaquer les Marocains qui, malgré leur affaiblissement, sont encore en état de se battre, parce que "son païs qui n'étant déjà que très désolé serait bientôt mis à feu et à sang, et lui même dépossédé de son royaume".[18] La présence des Maures provoque un grand mécontentement des Fuutankoobe.[19]

---

13. C^6- 5 du 3 octobre 1719. Lettre de Brüe à MM. Merin, fol. 3.

14. C^6-5 du 23 octobre 1719. Instruction de A. Brüe à Dominique Violaine, Commandant de Galam, fol. 1v°.

15. C^6-6 du 6 avril 1720. Lettre de Brüe à Mascon au Bissau, fol. 1, paragraphe 2.

16. C^6-6 du 1er août 1720 : Lettre de Violaine, fol. 2, art. 6.

17. C^6-6 du 14 novembre 1720. Observation sur l'Addition en supplément au mémoire remis par M. Brüe à M. Saint-Robert, Directeur Commandant Général au Sénégal, f. 10, art. 24.

18. C^6-6 du 14 novembre, 1720 f. 10, art. 26.

19. *Ibid.* f.10, art. 27.

3. Les interventions marocaines

Si, à la fin du XVIIème siècle, la tutelle des Ḥassān sur le Fuuta se substitue à la domination des Zawāya Tashomsha, les interventions marocaines éclipsent l'action des Maures du "bilād esh-Shinguītti", pendant la première moitié du XVIIIème siècle. Mais l'action conjuguée des uns et des autres achève de ruiner le pays économiquement et de le bouleverser politiquement. Nous allons tenter de suivre l'influence des Maures sur le Fuuta à travers le XVIIIème siècle.

Comme nous l'avons vu, ce sont les émirs Ḥassān qui ont aidé Siré Sawa Laamu à reconquérir son royaume sur les Tashomsha. Dès lors, il n'y a pas eu véritablement de réaction anti-maure, ou même anti-maraboutique comme cela s'est passé au Waalo.[11] Les relations entre le Fuuta et les Maures semblent avoir pris un nouveau tournant. Les Oulad ᶜAbd Allāh sont devenus des protecteurs du Satigi. A en croire *Labat*, les Maures sont partout dans le royaume et exploitent la dévotion du Satigi Siré pour s'emparer du pouvoir. La présence des Maures dans le pays expliquerait l'opposition ouverte de Samba Booy à son "père" Sire Sawa Laamu, donc sa destitution comme *Kamalimku* et son exil dans le Gajaaga. La première mesure de Samba Booyi, lorsqu'il accède au pouvoir en 1702, c'est de chasser les Maures du royaume, comme l'a fait avant lui le *Barak* du Waalo. Sa mort en 1707 est attribuée, dit-on, aux sortilèges ou au poison des Maures.

C'est à partir de 1716 que les Marocains, après s'être imposés aux Ḥassān du bilād Shinguitti, interviennent directement dans les affaires des royaumes riverains du Sénégal : Waalo, Fuuta, Gajaaga et Hayre. Sous le règne de Siré Sawa Laamu, Bubakar Sire, son fils, avait été envoyé au Maroc et avait séjourné longtemps auprès du chérif. Dans la lutte qui l'opposa à Gelaajo jeegi, il n'hésita pas à faire appel au sultan du Maroc pour reconquérir le trône. A cet effet, il y envoya son "fils" et *Kamalimku* Mokhtar Gaku en 1716. Dès 1718, 12.000 Marocains commandés par *Gaédy* (un caïd sans doute) sont dans la région puisque A. Brüe accuse Bubakar Sire avant le renversement de Galaajo Jeegi, de les avoir poussés à piller "le chaland le Parfait et deux grands canots venant du Galam du 10 au 25 juillet 1718.[12] En effet, dès 1719, on signale la présence d'une armée

---

11. Chambonneau, 1968, Carson I. Ritchie, p. 352.

12. C^6-5 du 31 juillet 1719. Projet de compte entre le Roy siratique et la Compagnie Royale du Sénégal.

d'allégeance, et retourna avec une armée forte de 5 à 12.000 hommes, avec laquelle il conquit son indépendance sur le Brakna et chassa Bubakar Siré du trône du Fuuta pour le punir des démarches qu'il avait faites sur les conseils de Saint-Robert auprès du sultan pour contrecarrer ses projets. Il en profita aussi pour s'imposer aux Oulād Dellim qui étaient devenus menaçants. Il noua des relations d'amitié avec le fils du sultan Ḥommad el-Amīn. "Le sultan lui donna officiellement le commandement du Sud mauritanien et, pour consacrer cette investiture, remarquant que les Maures portaient une culotte de guinée noire, lui conféra le droit de porter seul, une culotte de cotonnade blanche".[6]

En 1730, Thomas Pellow participa à une expédition mi-commerciale, mi-militaire conduite par le successeur de Mulāy Ismāᶜīl. Cette expédition prenant Shinguitti comme point de ralliement, entreprit à trois reprises des raids sur le Fleuve.[7] Vers 1757 - 1759, le petit-fils d'Ali Chandora, El Mokhtār ᶜAbd Allah ᶜould ᶜAmar ould Ali se rendit également au Maroc et fit acte d'allégeance au Sultan Mulay ᶜAbd Allāh b. Mulāy Ismāᶜīl.[8] Les relations entre les Ḥassān et le Makhzen étaient si fréquentes que le quartier er-Riad de Meknès était réservé aux députations Banī Maᶜqil : O. Dellim, Berbuch Ahel Maghāfra, Mṭa, Jerrāra, etc.

L'intervention des marocains répondait également aux demandes d'aide des princes noirs de la Sénégambie. On se souvient des démarches de l'imposteur *Laba* auprès du Chérif au XVIème siècle et de la contre-offensive du Satigi en titre, qui obligea l'imposteur à s'échapper pour demander refuge et aide à Philippe II, roi d'Espagne et du Portugal.[9] On sait aussi que Bubakar Siré a demandé et obtenu l'aide du Maroc en 1716, ce qui lui a permis de renverser Gelaajo-Jeegi en 1718. En 1721, Bubakar envoie à nouveau Mokhtar Gaku auprès du chérif pour le dissuader de donner des troupes à Ali Chandora. Mal lui en prit, puisqu'il fut la première victime d'Ali Chandora après que ce dernier eut rétabli son autorité sur les Oulād Dellim et conquis son indépendance sur les Brakna. Il avait écrit à son frère, Chergui, pour annoncer son arrivée en novembre 1721, à la tête d'une armée de 9.000 hommes sous le commandement d'un caïd.[10]

---

6. P. Marty, 1919, p. 69.
7. Adventure of Thomas Pellow 1890.
8. R. Basset, 1909, p. 30.
9. A. Teixeira da Mota, 1969, p. 830.
10. C6-6. Lettre du 28 Août 1721, duplicata du 7 janvier 1722, f. 1 r°.

Sénégambie. Esclaves, gomme, chevaux, or, argent, sel et mil constituent l'essentiel de ce trafic. Mais à partir de la fin du XVIème siècle et les succès de Jouder Pacha à Tondibi, les Marocains ont pris l'habitude de venir directement se servir dans le bilād es-Sūdān. En fait, le succès de Jouder Pacha n'est pas le couronnement de près d'un demi siècle d'efforts entrepris dès 1543 - 44 par le sultan Mohammed Ech Cheikh, et poursuivi par Mulāy Aḥmad Al-Manṣūur en 1584.

Comme le note P. Amilhat "les sultans marocains pratiquèrent une politique saharienne active, leurs mehella sillonnèrent le désert, apportant, par leur seul passage une aide appréciable aux Arabes que le Makhzen a toujours employés et, en retour, protégés. Les interventions du Makhzen se succédèrent à partir de 1650".[1] Elles se poursuivent jusqu'au milieu du XVIIIème siècle, soit directement, soit par Emirs Ḥassān interposés au point de participer à la déstabilisation totale de la sous-région.

En 1665, Mulāy er-Rachīd, après s'être rendu maître du Maroc oriental, envoya une expédition jusqu'à Aratān, Wadān et Tichitt.[2] C'est surtout Mulāy Ismā^cīl qui eut une politique saharienne véritablement suivie, surtout en direction de Tombouctou et du bilād Shinguitti. Il entreprit en 1672 une expédition sur Tombouctou. Il profita de cette occasion pour investir Hennoum chef des Oulad Mbarek, émir de Bakhunu.[3] La même année il envoya à la demande de Hadi investi émir du Trarza, des troupes au Trarza pour voler au secours de Ḥassān en lutte contre les Zawāya.[4] En 1679, au cours d'une tournée qui le conduisit dans le bilād Shinguitti, il épousa la fille de l'Emir du Brakna, Mohammed el-Heyba. A cette occasion, les émirs Ḥassān lui renouvellent leur allégeance. En 1680, tandis qu'il organisait un raid sur Teghaza, il envoya son fils Aḥmed avec des troupes pour soutenir les Ḥassān du Tagant en guerre contre les Noirs et les Edou Aïch.

Ali Chandora ould Hadi, en difficulté avec les Oulād Dellim (qui l'ont chassé jusqu'à la hauteur de Portendic[5] et désireux de s'émanciper des Brakna et faire pièce à l'action des Français, se rendit à Meknès auprès du sultan, en compagnie du célèbre qāḍi-poète ^cAbd Allāh Moḥammed ould ^cAbd Allah Maham el-Qāḍi. Il fit acte

1. Lt. P. Amilhat, "Petite Chronique des Ida ou Aich", *Rev. Et. Islamique*, 1937, I p. 63.

2. O. Puigaudeau, 1962 V, p.27.

3. Le Chatelier 1899, p. 59 ; Col. Medat., 1915 et Lt. Amilhat 1937, p. 63 et *sq*. Cités par O. Puigaudeau, p. 28.

4. P. Marty, *Rev. Musulman*, 1919, n° 36 pp. 69-70.

5. $C^{6}5$ du 3 Octobre, 1719, fol.5. NB. : Les Archives auxquelles nous renvoyons sont les Archives Nationales (Rue des Frances Bourgeois, Paris 2è), en particulier, à la série C^{6} (Colonies - Sénégal Ancien).

2- Les relations entre le Makhzen et le Bilād Shinguitti ;

3- Les interventions marocaines dans les pays riverains du Sénégal et leurs conséquences.

1. Les Etats riverains du Fleuve Sénégal au début des Temps Modernes

Vers le milieu du XVème siècle, l'Empire du Mali traverse une crise grave. A sa périphérie se forment de nouvelles puissances à vocation hégémonique. Au même moment où Sonni Ali Ber fonde l'Empire Songhay, le royaume du Jolof tente d'unifier la Séné-Gambie, tandis que Tengella fonde dans le Sahel le royaume Jaalaalo du Kingi. L'apogée de l'Empire Songhay sous Askia Muḥammad est contemporaine de l'émergence de l'Empire Deeniyanké, fondé par Koli, fils de Tengella, sur les ruines du royaume Jaalaalo du Kingi. Cet Empire s'étend du Funta-Jallon au Bas-Sénégal et du Tagant à la vallée du Ferlo. Cet Empire durera de 1462 à 1776.

L'émergence de l'Empire Deeniyanké a eu, entre autres conséquences, la désintégration de l'Empire du Jolof, vers le milieu du XVIè siècle. Sur ses ruines, se forment les royaumes Wolof du Waalo, du Kajoor, du Bawol, tandis que le royaume du Jolof reste confiné au cœur du Ferlo, à l'écart des principaux courants commerciaux.

Entre l'Empire Deeniyanké et le Maroc, les émirats Ḥassān, constitués sur la base de confédérations tribales, se forment et amorcent une expansion en direction des royaumes noirs de la vallée du Sénégal, dont l'espace était plus étendu sur la rive droite que sur la rive gauche. Ces émirats (Trarza, Brakna, Tagant), sous la direction des lignées ḥassān (Oulād Aḥmad Damam, Oulād ᶜAbdallāh, etc), pour asseoir leur autorité dans la région et progresser en direction du Sud ne se sont pas privés de faire appel à l'aide militaire des sultans du Maroc en leur prêtant allégeance tout en s'ingéniant à limiter au maximum l'autorité directe du Chérif sur leurs émirats. La volonté des sultans de concrétiser dans les faits leur suzeraineté les amènent à intervenir fréquemment et directement dans la sous-région.

2. Relations entre le Makhzen et le "Bilād Shinguitti"

Les Maures Trarza et Brakna sont principalement les relais du trafic commercial entre le Maghreb et les royaumes nègres de la

Les relations entre le Maroc et les Etats riverains du Fleuve Sénégal de la fin du XVème au milieu du XVIIIème siècle

Oumar Kane
Université Anta Diop - Dakar

Introduction

Les relations entre le Maroc et les Etats riverains du Fleuve Sénégal sont anciennes, intenses, suivies et multiformes. Cette région occidentale du Soudan est l'une des plus anciennement et des plus profondément islamisées de l'ensemble de l'Afrique sub-saharienne. Son islamisation s'est faite principalement à partir du Maroc, à la suite des relations commerciales intenses qui se sont tissées avec le Maghreb. Le Maroc et les pays riverains du Sénégal ont fait partie de l'aire de rayonnement du mouvement almoravide. Tous les événements qui se produisent dans le Nord du continent se répercutent dans les bassins fluviaux du Soudan occidental, en particulier dans ceux du Sénégal et du Niger où aboutissent les principales routes caravanières qui traversent le Sahara. Le Maroc, le Bilād Shinguitti (Mauritanie) et les Etats riverains du fleuve Sénégal (Waalo, Jalof, Fuuta-Tooro, Gajaaga et Kajoor) constituent un monde solidaire dans leur évolution politique, économique, sociale et culturelle. L'émergence des Emirats Ḥassān se fait aux dépens des pays riverains du Sénégal, au moment même où la monarchie Chérifienne, tout en leur accordant son appui, tente de les contrôler et d'étendre son aire d'influence aux bassins fluviaux d'où viennent l'or et les esclaves. Les ingérences de plus en plus directes du Maroc dans cette région aboutissent à la déstabilisation d'une région particulièrement éprouvée par la traite négrière, et au rétrécissement de leur espace politique.

Dans ce qui va suivre, nous étudierons tour à tour :

1- Les Etats riverains du Fleuve Sénégal au début des temps modernes ;

véritable guerre aux Portugais, et qu'ils devinrent après ces dates, redoutables et menaçants.[46] Jean III avait d'ailleurs imputé la défaite de la garnison d'Agadir à l'abondance de l'or dans les trésors de Muḥammad ash-Shaykh, ce qui lui a permis d'avoir des quantités énormes de munitions et un nombre impressionnant de Turcs et de renégats.[47]

46. Sur la puissance militaire des premiers sa^c^diens, *cf.* A. Dziubinski, "L'armée et la flotte de guerre marocaines à l'époque des sultans de la dynastie saadienne", *Hespéris-Tamuda*, vol. XII, 1972, pp. 61 et *sq*. Boucharb, A., *Doukkala*.

47. *Sources Inédites*, III, pp. 357 - 362.

tentatives de pénétration en direction des régions productrices de l'or n'ont pas abouti. De même, il fut impossible pour les Portugais d'empêcher la renaissance du commerce trans-saharien car les produits nécessaires, comme le sel, le cuivre ou les textiles en laine se trouvaient à l'intérieur du continent.[43] La montée des Sa^c^diens, qui firent de la relance du commmerce transsaharien une priorité, le développement du commerce avec les européens à Tafetna et Tarkoukou d'abord, et à Agadir après sa libération ensuite, y contribuèrent aussi.

L'Etat marocain s'est toujours intéressé au commerce transsaharien. Cependant, il s'était contenté, tout au long de l'époque médiévale, des bénéfices tirés des impôts et de certaines opérations faites en son nom par des associés ou des courtiers. La conjoncture créée par le XVIè siècle obligea la dynastie sa^c^dienne à adopter tôt une politique saharienne et soudanaise qui s'est manifestée par une occupation effective des oasis et des pistes menant au Soudan et aux salines.[44] Lorsque celle-ci s'avéra insuffisante, l'Etat a dû intervenir directement au Soudan. Cette orientation politique, prise sciemment par la dynastie sa^c^dienne depuis son avènement, cherchait à faire échouer les visées portugaises au Maroc. Si les Portugais voulaient, comme on l'a vu, bloquer le littoral marocain et éviter toute fuite possible tout en se réservant les productions des plaines atlantiques et le marché de leurs ports pour satisfaire les besoins de la métropole et du commerce guinéen, les *chorfas* de leur côté s'aperçurent tôt de l'incapacité de vaincre les Portugais sans disposer des mêmes moyens militaires mis à leur disposition, c'est-à-dire une armée de métier dotée d'armes à feu. Pour ce faire, il fallait beaucoup d'argent que la seule fiscalité, même augmentée, ne pouvait pas garantir. Aussi ont-ils développé tôt le commerce avec le Soudan et l'Europe et encouragé la culture de la canne à sucre. La lutte pour le commerce de l'or fut serrée à tel point que la victoire dans ce domaine, c'est-à-dire la revanche de la caravane sur la caravelle, selon l'expression de V.M.Godinho,[45] était en fait à l'origine de la victoire militaire des sa^c^diens sur les Portugais à Agadir d'abord, à Safi et Azemmour ensuite. Il est significatif de constater que Muḥammad ash-Shaykh et son frère al-`A^c^raj n'ont jamais imposé, avant 1533 - 1534, une

43. Godinho, V.M., *Os Descobrimentos*, I, 195

44. Mougin, L. "Les premiers sultans sa'dides et le Sahara" *Rev. de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, n° 19, 1975, pp. 169 et *sq*.

45. Godinho, V.M. I, 198 - 199, *L'économie de l'empire portugais aux XVè et XVIè siècles*, Paris, 1969, pp. 222 - 223.

armée devant les murailles de Tanger et la polémique vive et passionnée qui s'ensuivit à propos de la poursuite ou de l'abandon des guerres au Maroc, contribuèrent à détourner après 1437, les responsables portugais de l'expansion au Maroc, pour se consacrer aux découvertes, d'autant plus que "l'Océan des Ténèbres" fut enfin vaincu en 1434.[40] Rappelons que Henri le Navigateur était un partisan farouche et intraitable de la Croisade au Maroc, avant de devenir, après le désastre de Tanger, l'instigateur des découvertes et celui qui en assurait la continuité par sa protection et son financement rendu possible par son richissime ordre militaire, l'Ordre du Christ.

De même, ces découvertes ne manquèrent pas d'influencer la politique portugaise au Maroc. C'est ainsi que l'organisation du commerce à Arguim d'abord, et à Axim et Lamina ensuite (1481), obligea les Portugais, comme nous venons de le mentionner, à accorder une importance capitale aux plaines atlantiques marocaines encore indépendantes. Le Prince Henri fit tout pour grouper les régions situées au sud du Cap Cantin et allant jusqu'à la Guinée, dans un même ensemble géographique indivis. De même, il fit tout pour en éloigner la concurrence espagnole.[41] Citons aussi un autre signe d'interdépendance entre la conquête du Maroc et le mouvement des Grandes Découvertes. Lorsque les Portugais réussirent à constituer l'Empire d'Orient et à bloquer l'entrée du Golfe Persique (par l'occupation d'Ormuz) et de la Mer Rouge (par celle de l'île de Socotra), ils renforcèrent aussi leur contôle sur les régions se trouvant au sud du Sebou (sondage des embouchures du Sebou, Bou-Regreg, Oum Rebia, occupation militaire de Santa Cruz do Cabo Gue (Agadir) en 1505, de Mogador en 1506, Safi en 1508, Azemmour en 1513, Mazagan en 1514 et la Mamora en 1515).[42]

Mais l'exploitation portugaise de ces conquêtes n'a pas tardé à devenir partout déficitaire à cause de la contrebande pratiquée par les autres nations européennes, aidées souvent par des particuliers portugais gênés par le monopole royal, à cause de l'incapacité de contrôler des régions si vastes. Les rapports avec les populations autochtones ne furent pas toujours cordiaux car les documents portugais signalent des guerres autour des comptoirs portugais. Les

---

40. Sur la politique portugaise au Maroc avant 1437, cf. étude de Lopes. D. *in*. *Historia de Portugal*, I, pp. 385 et *sq*. Sur la polémique à propos de cette politique après le désastre de Tanger, *cf. Ibid*, pp 420 et *sq*., et *A Expansão*, I, pp. 137et *sq*.

41. Ricard, R. article cité. p. 98 et *sq*.

42. *Historia de Portugal*, III, 45 et *sq*, Boucharb, A. pp. 205 - 206.

documents portugais qualifiaient de "tissus de Lamina", ainsi que le blé, le cuivre et les chevaux, essentiels pour le commerce de Guinée, imposa à Lisbonne une nouvelle politique dans les plaines atlantiques,[35] politique visant la réalisation de deux buts complémentaires :

1- contrôler ces régions pour se garantir leurs richesses essentielles pour le commerce de la Guinée, et en éloigner la concurrence étrangère, et notamment la concurence espagnole. Aussi l'essor commercial d'Azemmour, d'Agadir et surtout de Safi correspondait-il à la période durant laquelle le commerce de Guinée était florissant.[36]

2- adapter une politique de domination épargnant ces richesses tout en empêchant la résurrection du commerce transsaharien et en bloquant les ports marocains. Pour ce faire, les Portugais n'ont pas hésité à recourir à la force contre les caravanes.[37] du Sous et contre les marchands européens voulant briser le monopole portugais à partir des petits ports de Tafetna et de Tarkoukou[38], ouverts par les Chérifs. Dans ces conditions, les découvertes et la conquête du Maroc furent pour les responsables portugais des actes se complétant mutuellement. Or, aucune étude, à notre connaissance, n'a encore insisté sur l'interdépendance des guerres au Maroc et du mouvement de découvertes le long des côtes africaines.[39] Il est certain que ceux-ci ne furent pas des événements isolés n'ayant aucun rapport entre eux, et qu'au contraire, des liens certains les unissaient et en faisaient des actes interdépendants et d'influences réciproques. Rappelons à ce propos que la conquête de Ceuta en 1415, les dépenses que nécessitaient l'installation d'une garnison de 2000 soldats, l'échec des Portugais d'y satisfaire leur besoin croissant en or, le désastre de leur

35. Voir notre étude en arabe intitulée : *Doukkala wa l-isti^{c}mar al burtughali.* Casablanca, Dar at-Taqafa, 1984, seconde partie.

36. *Ibid*, pp. 281 et *sq*.

37. *Sources Inédites de l'Histoire du Maroc. Première série, Dynastie sa^{c}dienne, Archives et bibliothèques du Portugal.* T. II, 1ère partie, pp. 128 - 129.

38. Ricard, R. (trade), *Les Portugais au Maroc*, Rabat, 1937, 215- 216 ; P. de Cenival, *Chronique de Santa Cruz do Cabo de Gue*, Paris, Geuthner, 1934, pp. 35- 39, *Sources Inédites*, Portugal, II, 1ère partie, p. 128.

39. Seul Ricard, dans son article précité, avait insisté sur l'importance commerciale des plaines atlantiques pour le commerce de Guinée, mais il n'a pas mentionné les répercussions de cette importance sur la politique adoptée dans ces plaines. *Cf.* notre étude déjà citée.

De la Gambie à la Sierra Leone, dans les nombreuses rivières étroites, les Portugais achetaient des esclaves, de l'ivoire et de l'or en dernier lieu.[27]

Dans la Sierra Leone, les Portugais ont trouvé l'or le plus fin de l'Afrique Noire.[28]

Le comptoir de São Jorge da Mina fut fortifié par un château en pierre en 1482 et fournissait 410 kg par an.[29] Plus au sud, se trouvait le comptoir d'Axem construit à la fin du XVè siècle et qui représentait le dernier point pour le trafic de l'or.[30] A Lamina, les produits échangés nous sont consignés par le témoignage de Pacheco Pereira, par les "cartas de quitação" et par le "Regimento da casa da Mina" (daté de 1509) imposant aux administrateurs de communiquer par écrit au représentant commercial du roi le contenu de la cargaison.[31] Les hanbels représentaient la principale marchandise, se vendaient le plus rapidement et garantissaient les meilleurs bénéfices. Suivaient ensuite les haïks, les "aljaravias", les tissus en lin, les produits en laiton et en cuivre. A Axem, le cuivre et le laiton étaient les plus demandés. Les Portugais proposaient aussi des tissus rouges et bleus et surtout des hanbels.[32]

Les Portugais ne se contentaient pas d'importer de l'or, ils s'intéressaient aussi à la traite dans les comptoirs précités et dans les embouchures des fleuves de la Séné-Gambie. Dans la région s'etendant d'Arguim à la Sierra Leone, ils importèrent entre le milieu du XVè siècle et 1505 entre 140 000 et 150 000 personnes. Le comptoir d'Arguim a envoyé en dépit de la modestie de ses activités entre 25000 et 40000 durant la même période.[33]

Nous constatons que l'essentiel des marchandises proposées en Afrique Noire par les Portugais, comme le blé, les chevaux, le cuivre et surtout les tissus en laine provenaient du Maroc. P. Pereira a signalé que les textiles en laine étaient la principale marchandise proposée à Lamina et celle qui se vendait le plus et garantissait les meilleurs profits.[34] L'acquisition au Maroc de ces textiles - que les

---

27. *Ibid*, 181.
28. *Ibid*, 182 - 183.
29. *Ibid*, 186 et *sq*. Pereira, P. p. 113.
30. *Ibid*, 187.
31. *Ibid*, *loc. cit.*
32. *Ibid*, *loc. cit.*
33. *Ibid*, II, 529 - 530.
34. Ricard, R. *article cité*.

rôle confié à Arguim était de déterminer les caravanes se dirigeant au Nord au profit du fort portugais. Pour rendre l'exploitation d'Arguim plus avantageuse, le roi envoya un facteur à Ouadane, en plein désert, mais les résultats limités et les conditions de vie très difficiles mirent fin à cette représentation.[22] Arguim n'a jamais connu des activités commerciales florissantes et ne garantissait, selon les calculs de V.M.Godinho, qu'une vingtaine de kg d'or par an avant 1521. Ce produit était acquis contre du blé, alors que les esclaves étaient échangés contre des chevaux, des textiles et notamment des hanbels, des haïks et des "*Abana*" acquis d'abord dans des villes algériennes comme Oran, et ensuite à Tunis et à Safi, Azemmour et Agadir.[23]

Après 1521, Arguim n'avait plus aucune importance commerciale à cause des conditions climatiques limitant le peuplement dans ses environs, de l'éloignement des zones aurifaires, et de la contrebande portugaise, française, hollandaise et anglaise encouragée par le monopole royal imposant des prix rigides et approvisionnant irrégulièrement le comptoir.[24]

L'embouchure du Sénégal fut surtout une zone de traite faute de poudre d'or à cause de l'éloignement, des difficultés de pénétration vers l'intérieur, difficultés représentées par les nombreuses marmites de géants le long du fleuve Sénégal. Les populations locales, les Toucouleurs et les Wolofs étaient, contrairement aux populations situées plus au Sud, mal fournies en or soudanais. Pour atteindre Djenné et Tombouctou, Jean II avait ordonné la destruction de ces marmites, mais la tentative n'a pas abouti.[25]

Le cours de la Gambie représenta depuis 1456 au moins, un excellent moyen de pénétration jusqu'aux régions avoisinantes du Futa Djalon. Les représentants du roi ont pris l'habitude de fréquenter les foires de Cantor par bâteaux de 50 à 60 tonneaux; le couvert végétal empêchant d'aller plus loin par bateau à voile. L'arrivée des Portugais dans cette région attira les commerçants de régions lointaines, notamment les Mandingues bien pourvus en or. Un document daté de 1574 atteste l'arrivée de navires portugais jusqu'a 720 km de l'embouchure. A Cantor, l'or était échangé contre des ustensiles en laiton, des chevaux, des tissus en coton blanc importés d'Inde et contre la noix de cola importée de la Sierra Leone.[26]

---

22. Odinho, V.M.,I, 162. Pereïra, p. 77.
23. *Ibid*, 162 -163, R. RICARD, *article cité*.
24. Godinho, I, 163.
25. *Ibid*, 167.
26. *Ibid*, 168 -178. Pereïra, P., p. 87.

son frère Dom Fernando, héritier du prince défunt, qui s'opposa à la mise des découvertes sous le contrôle direct de l'Etat; l'opposition fut portée devant le Vatican et dura jusqu'en 1470.[17]

- L'occupation en 1458 de la ville de Ksar es-Séghir qui représentait le début d'une ère dominée par le courant militariste dont le chef de file était le roi Alphonse V, surnommé l'Africain à la suite des nombreuses guerrres et expéditions qu'il avait engagées au Maroc, (occupation de Ksar es-Séghir, attaques de Tanger en 1463 et en 1464, occupation d'Arzila et de Tanger en 1471).[18]

- L'Etat portugais abandonna le monopole de l'exploitation directe des régions découvertes et lui préféra le fermage de 1469 à 1474. Le bénéficiaire s'engageait à découvrir chaque année une certaine distance.[19]

Les découvertes reprirent à partir de 1470 avec une expédition qui permit de reconnaître la moitié de la "Côte de la Malaguette", la totalité de la "Côte-d'ivoire" et d'une partie de la "Côte de l'Or". Pendant l'année suivante, mille autres kms furent découverts à la suite de deux expéditions, ce qui permit d'atteindre l'embouchure du Niger et l'île de Sao Tomé sur l'Equateur. Cette dernière étape fut d'une importance capitale pour la suite des découvertes, car elle permit d'atteindre Lamina, le principal centre d'extraction d'or et de dépasser l'Equateur, ce qui permit aux navigateurs de constater la similitude de la répartition des vents et des courants marins dans les deux hémisphères.[20]

Les Portugais, forts de l'exclusivité des régions découvertes, de leur monopole consacré par les bulles pontificales et par leur suprématie maritime, organisèrent l'exploitation des régions découvertes soit dans des comptoirs fortifiés, soit dans les différentes embouchures de la Séné-Gambie, de la Sierra Leone ou du golfe de Guinée.

Le premier comptoir édifié fut Arguim, dans une île en face du Cap Blanc, qui fut découvert en 1443. Après une courte période d'activité tournée essentiellement vers la chasse à l'homme, on y organisa le commerce de l'or et des esclaves à partir de 1455.[21] Le

17. *Ibid*, 151.

18. *Historia de Portugal*, III, 433 et *sq*. *A Expansão*, I, 148 et *sq*.

19. Chaunu, P., 151, *A Expansão*, I, 358.

20. *Ibid*, 153.

21. Ricard, R., "Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'empire portugais" *in Etudes sur l'Histoire des Portugais au Maroc*. Coimbra, 1954, pp 98 et *sq*. Odinho, V.M., *Os Descobrimentos*, I, 160.

parfait ; la première chasse aux esclaves, voilà le mobile et le moteur économique".[13] Les Portugais consolidèrent juridiquement et diplomatiquement leur découverte grâce à la bulle d'Eugène IV, datée du 19 décembre 1442. En 1444, on découvrit l'embouchure du Sénégal et le Cap Vert. A partir de là, le mouvement piétine puisque la Gambie et l'estuaire de la Casamance ne furent atteints que deux années plus tard. Après cette étape, le mouvement s'arrêta pendant une décennie. "Un piétinement presque complet de 1444 à 1460 jusqu'à la découverte, à 800km plus tard, de la côte du Sierra Leoa (notre Sierra Leone)".[14]

Ces arrêts étaient dûs à la concurrence étrangère et à la nécessité d'organiser cette partie de l'or et des esclaves recherchée et trouvée par l'organisation de comptoirs et de circuits commerciaux, comme on verra. Il faut tenir aussi compte de l'apparition à cette latitude de nouveaux phénomènes géographiques et l'apparition au sud du Cap Vert d'un phénomène limité de mousson.[15] "De 1445 à 1460, la loi de la distance ajoutée semble avoir joué au delà du mur des 3000 km. Quinze ans pour une compréhension empirique du régime des vents et des courants. Quinze ans pour apporter les derniers perfectionnements à l'outil caravelle et à son utilisation dans le contexte, l'alizé franchi, de vents à nouveau alternés".[16]

De même, les Portugais durent aussi arrêter les découvertes en attendant d'organiser le commerce dans les régions atteintes et garantir leur monopole et le faire reconnaître par le Pape et les autres Etats européens. Il est connu que les Espagnols, notamment ceux des Canaries et de l'Andalousie, ne se résignèrent à leur reconnaître l'exclusivité des découvertes que difficilement, et ce, en dépit de l'attitude très positive du Vatican, de Lisbonne et des traités signés avec l'Espagne.

Les Portugais qui purent atteindre la Sierra Leone en 1460, et qui étaient au courant de la proximité de la "Côte de la Malaguette", de la "Côte-d'Ivoire" et de la "Côte de l'Or", interrompirent leur mouvement :

- La mort de l'Infant Henri qui supervisait les découvertes. Ce décès engendrea une concurrence serrée entre le roi Alphonse V et

13. *Ibid, loc. cit.*
14. *Ibid,* 142 et *sq*
15. *Ibid,* 144 et *sq.*
16. *Ibid,* 147.

une connaissance précise des vents et des courants marins. Le fait que ces archipels soient redécouverts dès le XIIIe siècle est significatif et trahit en soi l'avance acquise par les ibériques et la prédisposition des Portugais à affroner "l'Océan des Ténèbres".[9] Ceux-ci ne se contentèrent pas de ces expériences acquises par leurs marins et pêcheurs, l'école de Sagres, dirigée et encadrée par Henri le Navigateur, qui y réunit les plus célèbres savants, marins et cartographes, les investit et les expérimenta dans l'aventure africaine. C'est ainsi que les Portugais purent, grâce à ces expériences et au rôle joué par H. le Navigateur, abandonner le cabotage et adopter la navigation hauturière permettant l'éloignement des côtes où la navigation était difficile, le calcul de la latitude et de la longitude avec précision. Il était alors possible pour les navigateurs de dresser de véritables cartes, de consigner leurs remarques et constatations dans des cahiers de bord.

La victoire sur Boujdor est due en partie à la découverte de la caravelle qui s'adaptait merveilleusement aux nouvelles conditons de navigation, car elle combinait à la fois les techniques de la construction navale dans la Méditerranée et celles de la Mer du Nord. Ce navire avait l'avantage de se baser sur les forces motrices naturelles représentées par les vents et les courants marins, et non les rameurs ; ce qui allégeait énormément les navires et leur permettait des champs d'action plus larges.[10]

Malgré la victoire sur le Cap Boujdor, les débuts des découvertes furent lents. En 1436, Gonçalves Baldaia qui avait, l'année précédente, accompagné EANES dans une nouvelle expédition, découvrit une embouchure qui sera surnommée Rio do Oro[11], ce qui trahit le désir pressant des Portugais d'atteindre le fameux fleuve des cartes catalano-majorquaines.

Le mouvement de découvertes fut interrompu par l'échec cuisant des Portugais à Tanger en 1437, par la capture de l'Infant Dom Fernando, la mort de Dom Duarte et les problèmes de sa succession.[12] De même, le besoin d'organiser et de consolider les découvertes, imposèrent cet arrêt jusqu'en 1440. L'année suivante, ce fut la découverte du Cap Blanc. Deux éléments nouveaux donnèrent à l'expansion un nouveau souffle : "La première caravelle, voilà l'outil

---

9. Chaunu, P., 122.

10. *Idem*, 273 et *sq*.

11. *Idem*, 140 - 141, *A Expansão...*, I, 310 et *sq*.

12. Cahunu, P., 141.

n'hésitaient pas à confisquer bâteaux et marchandises et à arrêter les personnes se trouvant à bord dont certaines furent jetées à la mer ou réduites en esclavage.[6]

- De même, l'Etat Portugais gardait jalousement les informations concernant les régions découvertes, les routes y menant et les types de bâteaux utilisés. Il allait jusqu'à faire circuler de fausses nouvelles et tronquer les ouvrages pouvant dévoiler ces secrets.[7]

La découverte des côtes occidentales de l'Afrique, la "Guinée" des sources portugaises, passa par deux phases essentielles. La première fut engagée, supervisée et financée par le prince Henri le Navigateur jusqu'à sa mort en 1460. Au cours de la seconde phase - qui se termine, pour la partie des côtes africaines qui intéresse, par la découverte de Lamina en 1471 - la découverte devint une affaire nationale entre les mains de l'Etat portugais. Le but attendu était la substitution des caravelles portugaises aux caravanes marocaines et le monopole du commerce de l'or et des esclaves.

La première phase s'ouvre avec le dépassement, en 1434, par Gil Eanes, serviteur de Henri le Navigateur, du Cap Boujdor, surpassant par là, la cause des échecs antérieurs.[8] Cette victoire ouvrit la "Guinée", le pays de l'or et des esclaves, devant les caravelles portugaises. La victoire sur le Cap Boujdor ne fut possible que grâce à la navigation hauturière et à l'expérience acquise par les marins et les navigateurs portugais habitués, depuis le XIIIème siècle, à fréqueter la mer du Nord et l'Atlantique pour la pêche ou le commerce. Les portugais s'habituèrent davantage à la navigation dans l'Atlantique et à la répartition des vents et des courants marins depuis la redécouverte de Madère, des Açores et des Canaries. Le contrôle ibérique de ces archipels représente en soi un acquis considérable, car la distance séparant l'île se situant à l'extrême ouest des Açores de celle située le plus à l'est des Canaries est de 2200 km, ce qui représente un champ navigable couvrant une superficie de deux millions de km carrés et impose une navigation hauturière nécessitant

---

6. *Historia de Portugal*. III, p. 547.

7. *Historia da Expansão portuguesa no mundo*, direct. Lisbonne, Atica, 1937 II p. 17, n°1; *Os Descobrimentos portugueses*, Lisbonne, Livros Horizonte, 1975 I. pp. 225 et *sq*.

8. Sur les difficultés de la navigation au niveau de ce cap. *Cf. Cronica de Guiné*. Lisbonne, livraria Civilização. 1933, pp. 49- 50. *Esmeraldo de situ orbis*. Lisbonne, Sociedade de Geografia de Lisboa, 1975, pp. 71 - 72.

support à la monnaie nationale, d'autant plus que cette conquête et cette découverte étaient présentées comme une véritable croisade, et furent encouragées et financées par le Pape.[3]

Le Portugal qui avait tellement besoin d'or, avait, au XVè siècle, les mobiles et les moyens nécessaires à son expansion. Le rôle de l'Etat fut déterminant dans ce domaine, puisqu'il avait lancé le plan des découvertes et réuni les moyens dont il disposait pour sa réalisation. Ce mouvement d'expansion de par son ampleur,le temps qu'il demanda et les guerres qu'il entraîna, nécessitait beaucoup de temps et d'argent que les particuliers ne pouvaient pas garantir et supporter, d'autant plus que l'entreprise n'était guère rentable à ses débuts. Rappelons que le dépassement du Cap Boujdor demanda douze années de tentatives avortées à Henri le Navigateur et l'accabla de dettes.[4]

Les conditions étaient favorables en Ibérie à cette intervention de l'Etat qui hérita des guerres de reconquête, un pouvoir central fort.[5] De même, la haine du "mouro", héritée de ces guerres, et la peur obsessionnelle chez les Espagnols et les Portugais d'une nouvelle invasion musulmane, représentèrent un véritable ciment national et créèrent le mobile nécessaire et permanent à la mobilisation de l'opinion publique, d'autant plus que l'expansion au Maroc et les découvertes furent présentées comme des mouvements de croisade et de prosélytisme complèmentaires, et eurent l'appui inconditionnel du Vatican. Le rôle joué par l'Etat portugais dans le déclanchement des découvertes est attesté par :

- Le financement des grandes découvertes qui, rappelons-le, nécessitait des moyens financiers que, seul, il était alors capable de garantir.

- Dans l'effort qu'il fournit pour imposer aux autres nations, et notamment à l'Espagne, l'exclusivité de la découverte et son monopole. Les Portugais étaient impitoyables avec les marins et les commerçants qui cherchaient à briser le monopole de la "Guinée", et

---

3. Godinho, V.M., "Les grandes découvertes", article cité.

WITTE C.M., Charles-Martial de, "les bulles pontificales et l'expansion portugaise. *Revue d'histoire ecclésiastique*. Louvain, XLVIII (1953), XLIX (1954), LI (1956), LIII (1958).

4. LOPES D., "Os Portugueses em Marrocos" in. *Historia de Portugal*, direction de D. PIRES, Barcelos, 1931, III, p. 381.

5. CHAUNU P., *L'expansion européenne du XIIIè au XVè siècle*. Paris, P.U.F. Nle Clio, n° 26, 1969, pp. 102 - 103.

La présence européenne sur la côte ouest africaine et la politique soudanaise de la dynastie saᶜdienne

Ahmed Boucharb
Faculté des lettres - Aïn-Choq, Casablanca

Il est certain que la découverte de la "Guinée" fut une conséquence directe du manque de main d'oeuvre et surtout de la soif de l'or au Portugal et de l'incapacité de celui-ci de se procurer la poudre d'or nécessaire à la consolidation de sa monnaie au Maroc, son marché d'approvisionnement traditionnel, où il venait d'occuper, dès 1415, Ceuta. Aussi fut-il, dès 1383, contraint de cesser la frappe de pièces en or, et ne put la reprendre que cinquante ans plus tard.[1] Les monnaies en or disparurent alors de la circulation, et celles qui circulaient dans le pays étaient étrangères. C'est ainsi que le Portugal connut une inflation grave durant les premières décennies du XVè siècle, comme l'indique le tableau suivant:

- en 1409, une once ancienne valait 50 nouvelles
- en 1417, une once ancienne valait 250 nouvelles
- en 1435, une once ancienne valait 700 nouvelles[2]

Cette inflation engendra une crise économique et sociale et menaça les intérêts de l'Etat, des commerçants et des personnes à revenus fixes, comme la noblesse et le clergé. Aussi, toutes les classes sociales au Portugal étaient-elles favorables à la conquête du Maroc d'abord et à la découverte ensuite, et ce afin de trouver un

---

1. Godinho, V.M., "Les grandes découvertes". *Bullettin des Etudes Portugaises.* XVIe, 1952, p. 35. *Os Decobrimentos e a economia mundial.* Lisbonne, Arcadia, 1965, Ip. 127 et *sq.*

2. *Idem, loc. cit.*

grands spécialistes internationaux qui participent à cette rencontre, et de faire connaître à ces derniers les réalisations du Maroc dans le domaine de la recherche en vue de mettre en place des actions d'échange et des projets de coopération.

Le sujet de ce colloque international suscite à l'extérieur du Maroc un intérêt qui dépasse les seuls milieux universitaires. Une des preuves de cet intérêt est la présence, parmi les observateurs scientifiques à ce colloque, de M. Antonio LLAGUNO, Maire d'al-Mansoura, ville natale de Jouder Pasha en Espagne.

Ahmed TOUFIQ
Directeur de l'I.E.A.

Présentation

L'Institut des Etudes Africaines (Université Mohammed V) a organisé à Marrakech, (Hôtel Tropicana), du 23 au 25 octobre 1992, un colloque international sur le thème : **Le Maroc et l'Afrique aux Débuts des Temps Modernes : Saᶜadiens et Songhay.** Cette rencontre qui a bénéficié du concours de l'ISESCO, de la Fondation Konrad Adenauer et de l'Agence Marocaine de Coopération Internationale, a réuni une trentaine d'universitaires marocains et une vingtaine de spécialistes venus d'Afrique, d'Europe et d'Amérique.

Par cette manifestation culturelle, l'Institut des Etudes Africaines, qui a pour vocation de sauvegarder le Patrimoine Commun au Maroc et à l'Afrique subsaharienne et de promouvoir, par la recherche universitaire, les relations culturelles entre les deux aires se trouvant au Nord et au Sud du Sahara, a visé trois objectifs principaux:

1) Commémorer le quatrième centenaire du séjour du savant malien Ahmed BABA à Marrakech. Une oeuvre de ce docte sur *la prééminence de la science* est publiée par l'I.E.A. à cette occasion.

2) Assurer la présence marocaine au débat qui s'est déroulé jusqu'à présent en l'absence de la partie marocaine. Ce débat porte sur la conjoncture régionale et internationale qui a amené le sultan Aḥmad al-Manṣūr as-Saᶜdi à intervenir dans la boucle du fleuve Niger. Il pose, par là, le problème méthodologique des sources et de la diversité possible ou légitime dans leur interprétation. En effet, tout approfondissement de cette question de recherche serait une contribution à écarter les préjugés dans les lectures tendancieuses d'un événement historique comme l'intervention saᶜadienne au Soudan. De tels préjugés trouvent parfois leurs échos même dans les enseignements destinés aux jeunes générations. Conscient de l'importance de ce débat, l'Institut des Etudes Africaines a projeté de publier une étude sur Jouder Pasha, le lieutenant d'al-Manṣūr as-Saᶜdi. Cette étude bien documentée est due au professeur Ismaël Diadié Haïdara, chercheur malien résidant en Espagne.

3) Le troisième objectif de ce colloque est de donner aux africanistes marocains l'opportunité du contact immédiat avec de



Photo souvenir des participants au Colloque

Articles en langue arabe :

TABLE DES MATIERES
TABLE OF CONTENTS

Ont participé à l'organisation du Colloque et à l'édition des Actes

Fatima HARRAK *(Coordination scientifique)*
El Houssaïn EL MOUJAHID

Secrétariat :

Souad ANEGAY
Hafida BELMEQADDEM
Adiba BENKHADRA
Saïda KHALI
Ouali OUCHEKIR
Abdallah LAISSI

Travail éditorial :

Aïcha TAIM
Amina SELMANE
Fatima EL MOUJAHID
Aïcha NAIT BENMOUS
Saïda BELMOQADDAM

Avec l'aimable concours des professeurs :

Mohammed ADIOUANE
Abdelouahed AKMIR
Abderrahim JAMARI
Jilali SAIB

Titre de l'ouvrage

Le Maroc et l'Afrique Subsaharienne aux Débuts des Temps Modernes : Les Sa^{c}diens et l'Empire Songhay

Editeur : Institut des Etudes Africaines, Université Mohammed V. Rabat, Maroc
Série : Colloques et Séminaires, n° 2

P.A.O. : Laboratoire Informatique de l'I.E.A (Responsable : Taïm Aïcha)
Tirage : Imprimerie an-Najah al-Jadida - Casablanca
Première édition : 1995
Dépôt légal : 521 / 1995
I.S.B.N. : 9981 - 37 - 007
Couverture : Monnaie Sa^{c}dienne (Collection Bank al-Maghrib)

Université Mohammed V - Souissi
Publications de l'Institut des Etudes Africaines - Rabat
Série : Colloques et Séminaires n° 2

LE MAROC ET L'AFRIQUE SUBSAHARIENNE

AUX DEBUTS DES TEMPS MODERNES

Les Sa'diens et l'Empire Songhay

Morocco and Subsaharan Africa
at The Dawn of Modern Times
The Sa^c^dis and The Songhay Empire

Actes du Colloque International organisé
par l'Institut des Etudes Africaines
Marrakech, 23 - 25 Octobre 1992

Université Mohammed V - Souissi
Publications de l'Institut des Etudes Africaines - Rabat
Série : Colloques et Séminaires n° 2

LE MAROC ET L'AFRIQUE SUBSAHARIENNE
AUX DEBUTS DES TEMPS MODERNES

UNIVERSITE MOHAMMED V
INSTITUT DES ETUDES AFRICAINES

جامعة محمد الخامس
معهد الدراسات الإفريقية



المغرب وافريقيا في بدايات العصر الحديث

LE MAROC ET L'AFRIQUE
AUX DEBUTS DES TEMPS MODERNES

ندوة دولية
مراكش 23-25 أكتوبر 1992

COLLOQUE INTERNATIONAL
MARRAKECH, 23-25 OCTOBRE 1992